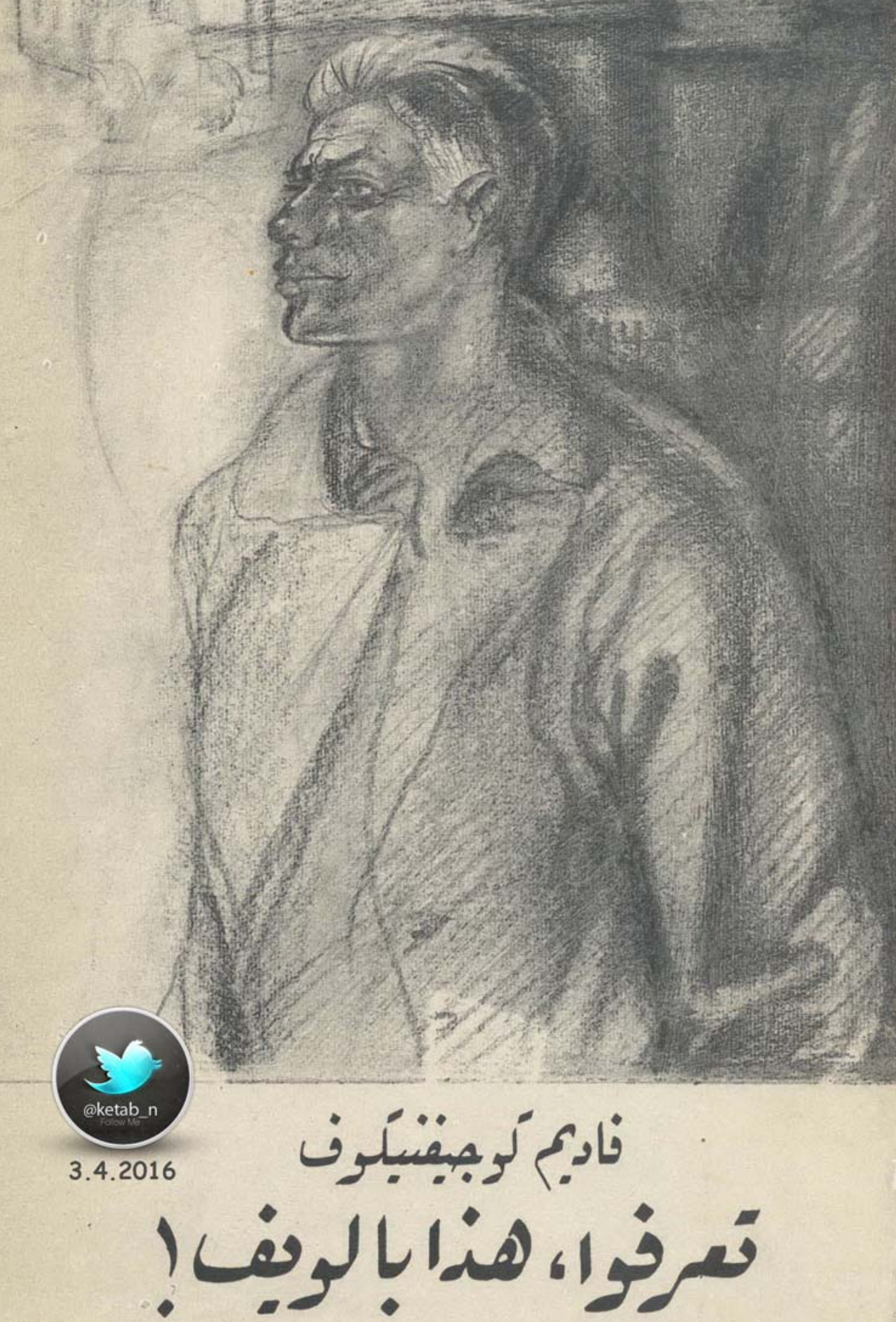

فاديم كوجيفنيكوف
تعرفوا، هذا بالويف!

فاديم كوجيفنيكوف

تعرفوا، هذا بالوييف!





دار «رادوغا»
فرع طشقند ١٩٨٤

ترجمة محمد عبد الجليل الطيار
مراجعة برهان الخطيب
رسوم كيفاي اديسون

Составитель А. КАРЛИН

В. КОЖЕВНИКОВ

ЗНАКОМЬТЕСЬ — БАЛУЕВ!

Рассказы и повесть

На арабском языке

К $\frac{4702010200-513}{031(01)-84}$ 249—84

طبع في الاتحاد السوفييتي

المشاركة في العصر

وصف صحفي أجنبي زار الاتحاد السوفييتي لأول مرة المواطنين السوفييت بانهم «شعب مدمن على المطالعة». وبغية الاقتناع بصواب هذا التعريف لا يلزم البحث بالمرة عن معطيات احصائية بعدد كتب المؤلفين الوطنيين والأجانب الصادرة سنوياً في الاتحاد السوفييتي، وتعداد المكتبات العامة فيه، وما شاكل. بل يكفي الطواف بشارع أي مدينة سوفييتية لمشاهدة كيف يقرأ العامل راكباً الحافلة في طريقه الى المصنع، وكيف تتطلع والدة شابة الى كتاب وهي تهز عربة طفلها، وكيف تنحني هامات المتقاعدين المكللة بالبياض الجليل الى صفحات كتاب مفتوح على مصطبة في حديقة المدينة. هذا وحده يكفي لفهم مدى الشغف بالكتاب وتبجيله في البلاد السوفييتية. وليس من الصدف أن تكون حرفة الكاتب في الاتحاد السوفييتي من أكثر المهن احتراماً ومكانة ومسئولية. يعرف الكتاب المفضلون بسيماهم، وتشتهر أسماؤهم، وبهم يفخر لأن جهدهم الذي يصنع الغذاء الروحي للناس يحمل الخير الى الألوف المؤلفة منهم.

من اساتذة الكلمة هؤلاء واحد يعرفه تماماً كل قارىء سوفييتي، ألا وهو فاديم كوجيفنيكوف مؤلف العديد من المجاميع القصصية والروايات البالغة عداً عشرة تقريباً. كما هو محرر في المجلة الأدبية الاجتماعية لعموم الاتحاد السوفييتي «زناميا» وشخصية اجتماعية بارزة في البلاد.

يقال وبحق ان الكتب تعكس سيرة مؤلفها. وهذا يصدق تماماً على كتب كوجيفنيكوف. ولكن مؤلفاته تتسم أيضاً بانها

تعكس «سيرة» سائر البلاد وسائر الشعب السوفييتي في المنعطفات الحادة من تاريخه. وهذا ليس صدفة بالمرة. ذلك لأن الفنان ان كان حقيقياً، والفنان الكبير، ليس بوسعه مهما كانت ميوله وأولاعه عدم الالتفات الى حياة شعبه، لا سيما ان كانت هذه الحياة مصحوبة بأحداث ضخام مثل الثورة الاجتماعية، التي كانت بداية لنقل كل نمط الحياة المستمر على مدى قرون الى أساس اجتماعي جديد من حيث المبدأ، وكذلك الحرب الوطنية العظمى ضد الغزاة الهتلريين ١٩٤١-١٩٤٥ التي أودت بأرواح عشرين مليون نسمة من نفوس أبناء الوطن، وذادت ابانها شعوب الاتحاد السوفييتي حاملة السلاح عن شرفها وحريتها واستقلالها. أما فترة ما بعد الحرب ذات العسر البالغ لتعمير الاقتصاد الوطني، والتي تطلبت منتهى التوتر لكافة قوى الشعب، نتيجة مسح مئات المدن وعشرات الألوف من القرى الريفية عن وجه الأرض بمعنى الكلمة الحرفي جراء العدوان الفاشي... فمن البديهي أن تنعكس كل هذه الأحداث التاريخية وكذا انجازات الشعب الخلاقة العظمى بسطوع في الأدب السوفييتي، وضمنا ابداع كوجيفنيكوف.

بهذا الترابط للابداع مع تاريخ الشعب تتعين خواص البحث الفني للكاتب. وهنا بالذات يكمن المفتاح لادراك التفرد في طراز كتبه جميعاً. ولقد اكد كوجيفنيكوف هذا مراراً، لا بممارسته الفنية وحدها، وانما أفصح عنه نصاً أيضاً في شتى المقابلات والخطب العامة. ان التاريخ هو حصيلة مأثرة العمل العظمى المتواصلة بلا انقطاع للشعب أجمع.

تمتد جذور هذه النظرة في سيرة الكاتب نفسه. فهو شاهد عيان ومشارك في الأحداث العظام لتاريخ بلادنا في القرن العشرين.

ولد فاديم كوجيفنيكوف عام ١٩٠٩ في مدينة صغيرة سيبيرية نائية اسمها نريم، كانت الحكومة القيصرية تنفي اليها خصوم النظام من السياسيين. وكان والداه من الثوريين المنفيين الى هنا، أنصار مؤسس الدولة السوفييتية لينين العظيم. وقد شاهد كاتب المستقبل وهو صبي وصول الأحداث الثورية الى سيبيريا وما تبع ذلك من أحداث مرتبطة باقامة وتوطيد النظام الشعبي.

رست هذه الانطباعات التي رسختها بعدئذ معارف تاريخية جادة أساساً لرواية ضخمة في تاريخ الثورة عنوانها «مطلع الفجر». يصور هذا الكتاب الثورة أيام عمل بطولية عادية. اما في الكتب المرتبطة بطرح موضوعة: الحرب الوطنية العظمى (مثل رواية «الترس والسيف» عن مأثرة رجل مخابرات سوفييتي في وكر الفاشيين الهتلريين. وقصة «الوحدة العسكرية الخاصة») ما شارك كوجيفنيكوف فيها من أول الى آخر يوم من أيامها، فانه يكتب أيضاً عن الجهد الحربي الخاص للشعب كله. ويقول: «ان الحرب هي كذلك عمل ولكنه عمل أعسر مما في الحياة المدنية». ويعتبر الكاتب عمل ما بعد الحرب المكرس لتعمير الاقتصاد الوطني تتمة للمأثرة الحربية للبلاد بأسرها والشعب كله (رواية «في شمس الظهيرة»)...

وها هي مثلا قصة «تعرفوا، هذا بالويف!» المنشورة ضمن هذه المجموعة. عم تدور؟ عن انشاء خط ضخم من أنابيب نقل الغاز؟ أجل انها كذلك. ولكن هذه العملية الانشائية بحد ذاتها مجرد ذريعة للتحدث بياناً عن الانسان المعاصر في سعيه الى المستقبل الأفضل، وعن توهجه الابداعي وحماسه في العمل، وبطولة أيام العمل العادية وهي البطولة المتولدة عن ضرورة العمل من أجل القضية العامة على نحو أفضل فأفضل وأحياناً ربما حتى التضحية بالنفس من أجل هذه المنفعة العامة، على مذهب أحد أبطال هذه القصة، وهو العامل الشاب فيكتور زايتسيف.

ربما ينظر القارىء البعيد عن حياة بلادنا ببعض التحفظ الى هذا المشهد من «بطولة أيام العمل العادية» ويقرر ان المؤلف في حالة زايتسيف هذا قد جنح الى المبالغة. لكن مثل هذا القارىء سيجانب الصواب ههنا، لأن تاريخ المجتمع السوفييتي حافل بكثرة كاثرة من الشواهد على حرص الانسان السوفييتي على خير المجتمع، ما هو في خاتمة المطاف خيرك أنت ومنفعتك الخاصة، وكذا ما يعتق روح الانسان من ربقة العبودية، ويكشف عن أفضل ما في نفسه. واليكم ما قاله عن ذلكُ كوجيفنيكوف نفسه في واحد من أحاديثه: «... بوسعنا التأكيد دون تردد بان البطولة بالنسبة

الى المواطنين السوفييت أمر عادي مألوف! وليس في هذا القول من أثر للمبالغة. وما وصفته في قصتي حق واقع. حين وصلت الى موضع العمل الانشائي المنشود لم أبحث عن مضامين استثنائية أو طبائع خارقة للعادة، ولكن الحياة نفسها عرضت علي مأثرة عمل فذة لشاب من البناة. فقد زحف مجرداً من أي عدة تكييف عبر أنبوب مغروز تحت التراب يبلغ طوله بضع عشرات من الامتار، وتلك بسالة استثنائية. فقد أمكن لهذه التجربة أن تكلفه حياته، بينما انسجم هذا المشهد مع التصميم الفني الذي كنت قد رسمته للقصة. فهو يعبر عن سجية الانسان البطولية بشكل ساطع ويندغم في سياق هذه القصة. والأمر الرئيسي: انه حقيقة من واقع الحياة».

أفليس مأثرة من المآثر اليومية تصرف بافل بالويف، البطل الرئيسي في هذه القصة؟ وهو انسان تجاوز مرحلة الشباب وجرب أنواع الاصابات ابان الحرب، انه يعيش أعواماً بطولها في معزل عن أسرته وذويه محروماً من العيش الطبيعي المنتظم، على كاهليه مسئولية عظمى، وهو مشغول ليل نهار بأمر وحيد: الاهتمام بمصالح العمل الانشائي الذي انيط به، وكذا مصائر وأوضاع مرؤوسيه. أفلم يكن بوسعه وهو المهندس ورئيس مشروع البناء أن ينظر الى جميع هؤلاء العمال الذين يشتغلون برئاسته من أمثال زايتسيف ومرتشنكو وبزوغلوف وسواهم، باعتبارهم أناساً دونه مكانة في سلم الخدمة، نظرة متعالية؟ يؤكد كوجيفنيكوف بكل بناء قصته: كلا لم يكن بوسعه. ومرة أخرى ليس في هذا مقدار ذرة خردل من المبالغة لأن خيرة رؤساء فرق العمل في الاتحاد السوفييتي هم هكذا في واقع الحال. وليس صدفة قول بالويف انه يتلقى التحصيل طيلة عمره في علم «عبادة الانسان» أي علم الايمان اليقيني بامكانات الانسان غير المحدودة، وبخير ما فيه، علم احترام شخصية الغير. (أحد شخوص القصة يقول: «من اخلاق شعبنا احترام الآخرين»).

لدى مطالعة قصة «تعرفوا، هذا بالويف!» يلاحظ القارىء كثرة استرجاع بالويف في ذاكرته مشاهد من حياته ابان الحرب، أعوام التجارب والمحن التي ألمت بكافة أبناء الشعب. وهذا

أيضاً ليس صدفة، ولا هوى من أهواء المؤلف. ان الناس من شاكلة بالويف في الحياة الواقعية يقيسون أمورهم وشئون من حولهم بذلك المعيار للمسئولية الشخصية الذي وضع من قبلهم وجرب وفحص ابان أعوام الحرب الصارمة. ان بالويف يقدر كلا من انجازات العمل، للأسرة المشتغلة برئاسته، وقيمة هؤلاء الناس أنفسهم بالذات، وفق المعايير المستمدة من جبهة القتال، حين كان الفرد على استعداد للجود حتى بأنفس وأغلى ما لديه، حياته، في سبيل حرية الوطن...

«المعركة أو العمل كلاهما قضية جماعية» ذلك ما يؤكده بطل احدى قصص كوجيفنيكوف قاصداً بذلك ان الغاية السامية تولد أيضاً ائتلافاً خاصاً بين الناس في سعيهم نحو الجماعية والتعاضد والتآزر وروح التفاني والايثار. وتعزز كتب كوجيفنيكوف من هذه الناحية التقليد الرفيع في الأدب السوفييتي الذي يبين ان ظروف البناء الاجتماعي تثري عالم الانسان الروحي. وبالويف الذي نما هو نفسه مع مرور الزمن (تعرض القصة مفصلا بالتتابع تاريخ تكوين شخصيته من فتى قروي أمي وساذج الى رئيس مشروع انشائي ضخم) يدرك بكل كيانه هذه الخاصية للزمن الجديد، ويجتهد من جانبه بكل قواه لحفز ودعم نمو الانسان الروحي. وهذا مفهوم، فان انساناً، مثل بالويف، عارفا الثمن الغالي للحياة البشرية، من كرس نفسه لتحقيق المثل العليا السامية، وهي ليست مثلا ما، تجريدية للنفس المطمئنة، وانما هي تلك المثل التي برهن بنفسه، سافكاً دمه في المعركة ضد أشرس عدو، على قابليتها للحياة مثل هذا الانسان أهل لا لمجرد قيادة مشروع انتاجي وانما أيضاً مشاركة الناس عيشهم وفهم مشاغلهم وحاجاتهم وادارتهم انطلاقاً من المعرفة العميقة لطبيعتهم عموماً وخليقة كل فرد منهم على حدة. ذلك ما يدفع بالويف الى الاعتقاد كما يذكر المؤلف بان «مكانة المشرف القيادي تتكون لا من منصبه وحده، بل من كل ما يجعل من الانسان انساناً بحق».

ويجدر الرجوع كرة أخرى الى ذلك الموضع حيث يكشف كوجيفنيكوف عن أصل مشهد مأثرة العامل في قصته «تعرفوا، هذا بالويف» اذ يقول الكاتب: «ان الحياة نفسها قد عرضت علي مأثرة

عمل فذة لعامل شاب من البناة... حين وصلت الى موضع العمل الانشائي...» هذه العبارة ذات دلالة كبيرة بدرجة ما. وهي جديرة بالالتفات لان الملاحظات المماثلة لها على الأقل غير نادرة في مؤلفاته من قبيل «جمعت المادة» و «قابلته...» و «تحدث الي قائلا...» فكل مرة من هذه المرات يكون الكاتب شاهد عيان، بل وأحياناً مشاركاً مباشراً في الأحداث الموصوفة. وسعياً الى لمس نبض الزمن والتحسس بروح العصر والالتقاط في الوقت المناسب لسمات الجديد فيه يتوجه كوجيفنيكوف بنظره دوما نحو قلب الأحداث التي تشغل باله وتقلقه مهما كانت ظروف الحياة التي تجلت فيها سواء قمرة سائق الجرارة القاطرة التي تذلل قاطعة مسافات شاسعة من ثلوج منطقة الدائرة القطبية، أو ورشة مصنع أو ساحة بناء هائلة أو ميدان معركة حربية... من هنا يتسم ابداعه بالميل الشديد نحو النشر الصحفي والمقدمات التوضيحية وسرد الحقيقة التسجيلي المندغم في النسيج الفني للأدب القصصي. يولد هذا الميل كمالا خاصاً في عرض الحياة بكتب كوجيفنيكوف ويضفي على أدبه لوناً خاصاً من الصدق والموضوعية. ولقد برز هذا التفرد في «البصمة» الكتابية عند كوجيفنيكوف منذ أعوام الثلاثينات حين قرر وهو آنذاك مراسل متنقل لشتى الجرائد والمجلات، تسجيل كل مشاهداته أثناء رحلاته العديدة في أنحاء وربوع البلاد بأقاصيصه الأولى. وكانت الحقائق في هذه الأقاصيص طرية كما في الجرائد، من «الحرارة» جعلت العديدين يعتبرون هذه الأقاصيص مقالات تسجيلية.

ينبغي القول ان الروح الجديدة الثورية قد عمت أثناء تلك الأعوام، القصية عنا حالياً، في العشرينات والثلاثينات، اذ انتقلت روسيا الزراعية الى درب التصنيع، سائر البلاد بحيث لم يكن من الممكن أحياناً ابلاغ هذه الروح الجديدة والتعبير عنها الا بتلك الشهادة الجرائدية الوثائقية اذ ان التأمل الفني الكامل لهذه الأحداث أو تلك يتطلب «ابتعاداً زمنياً» معيناً.

وفي تلك الأعوام بالذات اقترح مكسيم غوركي على أدباء الاتحاد السوفييتي وضع عمل جماعي في مجلدات عديدة هو «تاريخ المصانع والمعامل» من شأنه تسجيل عملية تجدد البلاد والحركة

الحثيثة للعمل الخلاق. وبغية تحقيق هذه الفكرة الضخمة شكلت جماعة الأدباء «المحاورين» و «الأدباء المسجلين» ظهر من بينهم فيما بعد غير قليل من الكتاب السوفييت المعروفين. بينما أخذت فرق من الأدباء ذوي الخبرة الكبيرة تطوف ربوع البلاد سجلت تلك الروح الجديدة ذات القابلية الحيوية الراسخة... كانت هذه الفرق مدرسة لاستيعاب المادة الاجتماعية الجديدة ومدرسة لتعميق النظرة الجديدة الى الانسان والتاريخ والمشاكل السلوكية والاخلاقية، وكان كوجيفنيكوف الشاب تلميذاً مجتهداً جداً من هذه المدرسة. ان مبادىء غوركي بصدد استيعاب المادة الحياتية «الساخنة» والجديدة جداً قد تسربت الى عرق ودم ابداع كوجيفنيكوف، وعينت تفرده اللاحق. ويقول كوجيفنيكوف متذكراً: «بدأت دربي الأدبي في تلك الأعوام غير المنسية وقد وحدت الكتاب الذين كانوا قد حازوا الشهرة وأقراني وأترابي غاية عظمى وحقبة بطولية لا تنسى، جهدنا لتسجيلها في كتبنا. لقد انتقلنا من الحياة الى المهارة الفنية. نحو هذا الدرب بالذات وجه مكسيم غوركي أدبنا بحنان وحكمة».

ويميز الشعور بالجديد والتفاؤل التاريخي وعي أبطال وشخوص كوجيفنيكوف. فهذا مثلا بطل أقصوصة «المدخنة الأربعون للأسطى تشيبيريف» في اضمامة هذه المجموعة، انه أسطى غريب الأطوار قليلا، ماهر في رصف الآجر، وهو شخص جمعت خليقته كأنما الرئيسي مما لاحظه الكاتب في الحياة المحيطة به: «ان تسلني، يا تشيبيريف هل لديك رغبة في أن تنجز للناس ماهو غير ممكن؟ فاني أجيب دوما – أجل أرغب، وأصبح رأساً قابلا لأن تشعل مني عود كبريت». حتى النقيب جفرونكوف الكئيب بطل «آذار – نيسان» احدى أشهر أقاصيص كوجيفنيكوف عن فترة الحرب وهو الذي شوهته الحرب، وقضى الأعداء على أفراد أسرته. يحافظ على الروح الوضيئة والكريمة. لأن غايات وضيئة وكريمة تحركه. أما أبطال الأقصوصة «السلمية» المعنونة: «رحلة عادية» الذين كادوا يضحون بعافيتهم وأرواحهم في سبيل... في سبيل ماذا؟ في سبيل أكياس السمنت! ما كان عليهم ايصالها في هذه الرحلة الجوية «العادية» جدا، القطبية، عبر الصحراء الثلجية، الى

موضع ساحة البناء الجديدة. لكن الأمر ليس مقصوراً بالطبع على أكياس السمنت هذه وحدها! وانما هو قبل كل شيء ما تحدث عنه الأسطى تشيبيريف، الرغبة «في فعل ماهو غير ممكن من أجل الناس». القاعدة السلوكية الخلقية لتصرف الانسان السوفييتي، ما تلقى معالجة فنية عميقة في ابداع كوجيفنيكوف.

كل من تشيبيريف، بالويف، وأبطال «الرحلة العادية» انما هم أناس يتحلون برباطة الجأش. انهم رابطو الجأش في جميع ظواهرهم الحياتية: في الحب والصداقة وفيما يجذب المؤلف أكثر من أي شيء سواه، ألا وهو العمل لخير المجتمع. هذه هي السمة الاساسية الموجهة لتركيبة جميع أبطال وشخوص كوجيفنيكوف الذين يستهوون القارىء. لقد ظهر لدى كوجيفنيكوف في بداية دربه الابداعي في الثلاثينات ميل الى الناس المتولعين بعملهم، والعائشين حياة ابداعية كاملة بغض النظر عما اذا كانوا عاملين في مجال الفن أو رؤساء عسكريين أو مهندسين أو عمالا عاديين. وخلال تلك الأعوام بالذات ترسخت في بلادنا نظرة جديدة الى العمل، تراه لا عبئاً وألزاماً ثقيل الوطأة حكم به على المرء لئلا يموت جوعاً هو وذووه، بل قضية شرف وبسالة وبطولة مادام لخير الناس والبلاد، وفرحة وسعادة ومجد. ويؤكد هذا الكاتب قائلا: «ان انسان العمل في بلادنا هو شخصية اجتماعية، وفي موقفه ازاء العمل يتجلى الموقف ازاء مصائر البشرية...».

ليس مصادفة بالمرة اذ يبدأ كوجيفنيكوف حديثه عن بالويف يجد من الضروري أن يخبر بأن «بالويف كان من ذلك الجيل للكومسومولبين الذين أصبحوا بناة في حومة الهجمة التصنيعية الأولى...» (المقصود بها أعوام الثلاثينات - ملاحظة كاتب المقدمة) تتبلور شخصيته في تلك الأعوام آن ترسخ الموقف الجديد ازاء العمل والنظرة الجديدة اليه باعتباره تحقيق رسالة الانسان السامية على الأرض. هذه النظرة التي استوعبها بالويف، منذ باكورة شبابه، يتولى بطل كوجيفنيكوف ابلاغها الى العمال الشبان، ساعياً الى تربيتهم بابداع أناساً رابطي الجأش نشطاء اجتماعياً. والا فما حاجة العامل زايتسيف لولوج أنبوب ما، لو أنه فكر فقط في مصلحته وحدها؟ لا حاجة مطلقاً! بل على العكس فان

مجازفة الموت من شخص كهذا انما هي على النقيض من غايات وجوده، اما بالنسبة لشخص مثل زايتسيف، شغله الشاغل خير الناس والبلوغ العاجل للغاية العامة المنشودة، فذلك يبدو طبيعياً تماماً، ومنسجماً معه.

هذا هو الموقف الاجتماعي لدى زايتسيف وبالويف وجميع الناس من أشباههم، بل والمؤلف نفسه كذلك. وهو الموقف المتولد عن مجمل وجماع عقيدة الكاتب وتصوراته الشخصية بصدد مغزى الحياة وسعادة الشخص الفرد. وتتضمن قصة «تعرفوا، هذا بالويف» تعليقات مباشرة من المؤلف على هذه التأملات، وهذه واحدة من تلك الحالات غير الكثيرة هنا، حين يتولى الكاتب نفسه زمام الكلام متصديا لاجراء الحوار المباشر مع قارئه المعاصر، فهو يقول: «أجل ان الأناس الذين يمتلكون القدرة على منح ذواتهم كليا، تركيز عظيم ملهم الى ذلك السحر الأخاذ المتجلي في العمل انما هم أناس سعداء. وهذا الاحساس بالانقطاع عن كل شيء، الانغمار الكلي في الهدف لعله الالهام الحق الذي ارتقى اليه بنفس القدر كل من بوشكين وغوته وشكسبيرو... ملايين المواطنين من أصحاب المهن العادية المتواضعة...». وحتى لو رأى أحد ما في هذا القول حدة مقصودة قابلة للجدل، فليس في وسعه على أي حال انكار الاعتراف للمؤلف بقوة اليقين والثبات، بهما يحقق عمليا مذهبه الفني القويم في ادراك العالم المحيط به.

في هذا الكتاب المكتظ بشتى الأخلاق والمصائر البشرية على تنوع انماطها وفق قوانين التفاؤل الاجتماعي، وكذا كل من لا يعرف تخمة الروح، ولا يتوق الى كسل حياة الموقد الدافىء والمضجع الوثير والحذاء المنزلي المطرز والزخرف والترف والسأم المألوف في عيشة خمول. ويتحدث كوجيفنيكوف عن أولئك الذين يخلقون عالماً تجسدت فيه أحلام الناس على مدى القرون بالخير والعدل والسعادة. المهرة الصناع الحاذقون الذين يبدعونه لا وفق قوانين الحكمة والحسبان الاقتصادي المدرك حسب، وانما أيضاً وفق قوانين الجمال. يبدع الناس عالماً جديداً، فهل من المستغرب ان يكون كوجيفنيكوف محباً لهؤلاء الناس شغوفاً بهم يسعى الى ابلاغ ذلك الى القراء؟ ومن هنا، من هذه المحبة،

تنبثق لدى الكاتب عباراته النافذة عن الانسان الشغيل الكادح الانسان الخالق، التي يختم بها احدى قصصه: «لقد تلألأ في بلادنا كالنجوم في قبة السماء أناس طيبون على طول درب تاريخها الطويل الشاق. انهم يضيئون لنا الدرب في كافة ظروف الحياة – حسنها وسيئها – وفي كل حالات الطقس والانواء، يشرقون بلا مغيب وينشرون الضياء بلا انتهاء».

اليكسندر كارلين.



اقاصيص

المدخنة الاربعون

للاسطى تشيبيريف

كنا راحلين عبر الممر الجبلي الملتوي الملفوف بالعتمة والمقدود وسط الصخور. وكانت صغار الحصباء التي تقاذفها عجلات السيارة تضرب هيكلها، وتنقر في أسفله. وكانت قبة السماء الخفيضة معلقة حولنا على مقربة، كأنها تكاد تمسنا. وسيارتنا تسير على الحافة الحجرية للجادة المطوقة للهوة كالحاشية. وهنا سلسلة جبال تكسوها أشجار الغابات بحنان دافيء وكثافة شعثاء، مقطوعة بانحدار حاد. والصفائح اليابسة المكبوسة من الصخور تتدلى معوجة على جدران الجرف الحادة.

وكان رفيق طريقي في السفر المهندس تشلوستيف جالساً بجوار السائق طارحاً يده بوضع غير مريح على ظهر المقعد، يدير بدواعي اللياقة والاحتشام وحسن الأدب نحوي وجهه الطيب وان كان لا يخلو من مسحة تهكم.

تعارفنا أنا وتشلوستيف منذ كنا نستقل عربة القطار. وحين عرف اني صحفي أعرب عن الارتياح وتطوع لنقلي معه في سيارته وقال تشلوستيف لي ببشاشة وهو يتحامل على نفسه من خلف المقعد:

– سوف أعرفك هناك على أحد قدامى المقيمين في هذا المكان. هو شيخ لكنه جلمود، ولسوف يحدثك. انه شريب بالطبع ولكنه طيب اللسان. وما أكثر ما يعرف من أحداث التاريخ البارزة منذ عهد بطرس الأكبر. سوف تتعلق به.

وعلى حين غرة أمسك بكتف السائق وهتف صارخاً:

– قف! – وخاطبني مقترحاً: – هيا بنا.

ونزلت من السيارة.

كانت اقسام مباني مصنع تبدو في الأسفل صغيرة الحجم ومبعثرة وسط فسحة المنخفض، بين الجبال. والنهر يرتمي بين النبات لامعاً كالابرة على بساط أخضر وقد تجمعت حول النهر بيوت منسقة كأنها نماذج مصغرة على منضدة.

كنت أعرف أن قعر هذا المنخفض من صنع يد الطبيعة، في مكان يزخر بخامات النحاس ذات القيمة النفيسة. كان النحاس المركز الكثيف يحمى من هذه الخامات في مراجل المصنع. وعرفت ان احتياطيات هذه الخامات كافية لاكساء طريق يوصل موسكو بالشرق الأقصى السوفييتي. وعرفت كذلك انه لم تكن هنا قبل خمسة أعوام سوى حفر التنقيب - حفر غير عميقة ملأى بالماء والطمى بعد أن تركها الباحثون الجادون عن الذهب فهذا والنحاس جاران متصاقبان. فيما ارتفع مصنع جديد حالياً شاهقاً في هذا الرحب بين الجبال بارادة الأقوياء البسلاء من أولي العزم.

ولكني ذهلت حين بدا لي مدى صغر الحجم الذي تبدو عليه تلك المنشآت من هذا الارتفاع. وصرخت متعجباً:

- أنظر... المدخنة. أنظر اليها، هل تراها؟ انها أشبه ما تكون بمبسم السيجارة. - ثم رافعاً اصبعي نحو عيني أضفت: - انها ليست أكبر من خنصري.

وتطلع تشلوستيف نحوي بامعان واقترب الى السيارة وجلس مرة أخرى الى جانب السائق، ولكنه التزم الصمت هذه المرة، وظل طوال الطريق يتطلع بصمت خلال الزجاج ما صد الريح الضاربة.

عقب مضي بضعة أيام تعرفت على تاريخ هذا المصنع، الذي ارسيت تصاميمه بنحو غير مقبول للقواعد. فقد زحفت الى البلدة الغازات السامة المنفصلة لدى صهر النحاس من المداخن القصيرة المدحدحة. فهلك كل أخضر حول الموضع من أول غاز فتاك فاح بالشواظ المرير. وأوقف المصنع عن العمل. ولم تكن في التجويف تيارات هوائية، أو مسارات للريح أمكنها تنظيف الغازات السامة.

اقترح المهندس تشلوستيف نسف الصخور عند المعبر الجبلي ورفع مجرى النهر بين الجبال واجتراف التربة من الفج. فتؤدي

الثغرات والشقوق في الجدار الصخري الى تحريك تيارات الهواء.
وشرع هذا المهندس في اجراء الأعمال. فحفر العمال على ضوء الكشافات في الصخر بآلات الضغط الهوائي تجاويف عميقة، حشيت بالديناميت ونسفت. بينما أخليت البلدة. وعقب مرور ثلاثة أشهر أنجزت الأعمال، فاندفعت الرياح القوية من خلال الثغرات والشقوق نحو المنخفض بعد طول انتظار.

ومن جديد أخذ الدخان الأصفر يزحف من المداخن القصيرة الدحداحة. ومرة أخرى عاد الى اسقاط غباره الأصفر المميت على رأس البلدة.

وأخذت التيارات الهوائية ترتفع الى الأعلى. وتعذر تحطيم السفوح الجبلية الثقال.

وأرادوا طرد تشلوستيف من العمل وتحميله المسئولية «عن تبذير الأموال» باحالته الى المحاكمة ولكن المحكمة برأت ساحته. وحين خرج تشلوستيف من قاعة المحكمة لحق به شخص قميىء ذو لحية صهباء شعثاء. وكان جديد الثياب، فسببت له الارتباك، فكان طيلة الوقت ينفضها ويعدلها مبرزاً من جيبه مرآة صغيرة مدورة ينظر فيها وضع رباط عنقه. وعلاوة على ذلك عرج على احدى رجليه. فكان منظره لا يبعث على الثقة ولا يستميل المرء اليه.

سحب الرجل كم تشلوستيف مقرباً اليه وجهه بجفنيه الراعشين متسائلا:

– ولكن ألم تجرب أيها الرفيق دفع الغاز الى الأعلى؟
– وكيف يكون ذلك؟ – تساءل تشلوستيف غير حافل به.
– أقصد في حالة رفع المداخن الى فوق عالياً... – تهافت الرجل ولكنه اتخذ موقف الجد بغتة وأحكم سترته على جسمه، ولسبب ما مرر يده على دروز الاكمام وقال بمهابة: – اسمي تشيبيريف. لعلك سمعت عني؟ ليس لي مقر اقامة دائم و عنوان. ومعروف من الجرائد فحيثما يشيد مبنى جديد لمصنع فاني هناك. هل تعرف كم من المداخن نصبت؟ لو تصورت انك نصبت هذه المداخن واحدة فوق الاخرى اذن لارتفع برج بحيث انك لو قفزت من أعلاه لظللت تهوي ساقطاً يومين ليلا ونهاراً بل ربما ثلاثة

أيام بلياليها. وطريقتي يجري تدريسها في دورات التخصص منسوبة الى لقبي، فهي تدعى طريقة تشيبيريف في تشييد المداخن.

وتأبط ذراع تشلوستيف سائراً معه في الشارع مستحوذاً على اهتمامه وهو يتابع كلامه بلهجة امالة الألف الى واو قائلا:

– شخص آخر فيزعجونه. اذن لطلبوا منه ورجوه بهذا الشكل وذاك و عن طريق الجريدة وعبر المنظمة النقابية وهو كالخنزير لا يلوى عنقاً. أما أنا فسلني: «تشيبيريف هل تريد ان تفعل لأجل الشعب ما هو فوق الطاقة والامكان؟» حتى يكون جوابي دوما: «أجل اريد». وسرعان ما أشتعل رغبة كالنار الملتهبة و أصبح قابلا للاشتعال كعود الثقاب. انني في عملية الانتاج على غير حالي في الطبيعة. انني هناك مهيب ملهم ومتأمل وكأنني أبلغ من العمر مائة عام.

وعندما مرا قرب باب مضاء لمقصف ما لكز تشيبيريف بكتفه تشلوستيف قائلا:

– اسمح لي أن أدعوك الى تناول قدح من البيرة. – واذ لاحظ ان تشلوستيف نهبة للتردد، قال مغضباً: – وأي رفيق أنت! الني أقول: تشيبيريف فهذا يعني انني تشيبيريف. – وأضاف بلهجة لا تخلو من مكر: – قبل هذا كان ينبغي أن تفتح عينيك أوسع حين كان يشتغل عندك وتحت أنفك البلداء المغفلون أما الآن فعليك ان تتعلم ان تميز بين انسان وآخر. و هذا أيضاً أيها الأخ علم كبير.

وحين جلسا الى البيرة تواجه تشيبيريف وتشلوستيف، وقال الأول بابهة وهو يخفي الأوراق في جيبه:

أفهمت الآن أي شخص أمامك؟ لا تظن ان شخصيتك قد أعجبتني. ليس لهذا السبب وافقت على القدوم اليك. ما ان حضرت هناك في المحكمة حتى شعرت رأساً بأنني لا أستطيع. تملكت نفسي فورة من المشاعر، وخشيت ان أوقع نفسي في نزوة طائشة، فأحجمت. وعند الوداع قال:

– اعذرني ليس بوسعي دعوتك للمبيت عندي لان والدتي لا تسمح لي بذلك و الا لكان ذلك مبعث ارتياح لي.

عقب يومين تهاوى تشيبيريف محملا بالسلال والحقائب من

رقائق الخشب المعاكس في عربة قطار الشرق الأقصى السريع حيث انتظره تشلوستيف. وكانت والدة تشيبيريف ترافقه في السفر.

ظهر انها عجوز متفردة السجايا للغاية. سلت من حقيبة اليد حزمة من أوراق النقد، وانتقت بدقة الروبلات لكي تدفع للحمال. وانتظر تشيبيريف طائعاً واقفاً عند الحقائب في المدخل، وكان المسافرون يدعكونه عند المرور بما يحملون من امتعة فيكتفي بالدنفشة واطلاق الزفرات.

حرصت والدة تشيبيريف بعد أن استقرت في مكانها نهائياً واعادت عدها تحققاً من كمال عددها على مراقبة ولدها، الذي أخذ يتصبب عرقاً، و يرتعش لحية، وقد احمر وجهه من التوتر، جاهداً في تصفيف الامتعة على الرفوف.

بعد الترتيب ألقت والدة تشيبيريف نظرة أخرى على كل الامتعة ثم أخذت تتفحص بعناية ودون تكليف تشلوستيف وسألت بصوت أجش وهادىء:

– أهذا أنت الذي سحبت اليك ولدي تشيبيريف؟

وانصاع تشلوستيف لا ارادياً الى جذب هذه العجوز المسيطر محركاً وجهه في اشارة تدل على التململ. لكن أوقفته العجوز قائلة:

– كفى لا تحتدم كالديك المنفوش. شأنك في هذا الأمر صغير. ولعل من الزائد عن الحاجة ما عرضت من المال، فاننا لا يهمنا النقود. ان آل تشيبيريف بوسعهم الحصول حيثما كانوا على الألوف المؤلفة. النقود بالنسبة لنا شيء تافه.

أثناء الطريق الطويل اتيحت لتشلوستيف فرصة الاطلاع على تاريخ اسرة تشيبيريف وهي ذات سلالة من أشهر الصناع المهرة وأعظم الحرفيين.

اشتهر والد تشيبيريف، وهو مكسيم تشيبيريف، في سائر روسيا بمهارته في نصب مداخن المصانع. كان كثير الحركة، ضعيف الصدر، قصير القامة، يربي زلفين على خديه، ويحمل في اصابعه خواتم نحاسية مرصعة بأحجار زائفة رخيصة وفي يده عصا. واما بيته في القرية فقد كان مهملا متداعياً.

كان البناؤون من طائفة راصفي الحجر والطابوق يتناولون أجراً عالياً عن بناء مداخن المصانع استناداً الى صعوبة وخطورة هذا العمل. أشق وأخطر ما فيه بناء فوهة المدخنة والذي يتولى انجازه عادة اثنان أو ثلاثة من المتخصصين. بينما تدفع النقود الى جماعة العمل بكاملها.

وكان اختصاص المقاولين لانفسهم بعدد من هؤلاء الاسطوات الفرديين قضية نافعة وأدعى الى الطمأنينة. ولدى انتقاء أحدهم من المتحلين بالمهارة والجرأة ساعد المقاولون على افساد نفسه بالغرور حين اجتهدوا بكل قواهم في الايحاء له بانه انسان فوق العادة وخارق الامكانية.

ولم يبخل المقاولون بالنقود ولم يقتصدوا في اغداق عبارات الاطراء على مكسيم تشيبيريف. وكانوا يخصون بايجار الغرف المستقلة في فنادق الأسواق مؤكدين ان مثل هذا الاسطى البارع لا يليق به السكن سوية مع أفراد الطائفة جميعاً في غرف مشتركة. وشجع المقاولون تقلباته المزاجية وأسرفوا في ابداء الاعجاب الزائد بغريب أطواره. ولكن بناء المصانع في روسيا آنذاك أي قبل ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى سنة ١٩١٧ كان قليلا. ولهذا كان مكسيم مضطراً الى البقاء عاطلا عن العمل فترات طويلة. واذ كان مكسيم يعاني شظف العيش بسبب البطالة كان يأنف مزاولة بناء الأفران العادية أو الانتقال الى الشغل كبناء بسيط وكان يقول:

– ينبغي أن أحافظ على سمو مكانتي. انني اكسب في خمسة أيام العمل اكثر مما يكسبه سواي خلال عام كامل. ان مكانة اللقب اشبه ماتكون بلافتة الواجهة.

ونظراً لادراك المقاولين نقطة الضعف في نفسية هذا الرجل كفوا عن دفع مبالغ كبيرة له مقابل عمله بل صاروا يدفعون له مثل غيره. و حينما اعترض مكسيم على ذلك كان جوابهم:

– دعك من هذا واعلم أن الناس مقامات فان لم توافق فلسوف ندعو للعمل غفوروف وانه ليرضى قانعاً بالمكانة الفخرية وحدها وياله من اسطى بحق و حقيق!

لم تقع انظار مكسيم مطلقاً على غفوروف ولا انظار غفوروف

على مكسيم ولم يلتقيا يوماً. ولكنهما كانا خصمين متنافسين بتأليب من المقاولين. وكانا ينتظران بصبر سنوح الفرصة المواتية عند بناء مداخن شاهقة، ولكن لا يذهبان الى العمل الا بعد الانتهاء من انشاء الأساس وبناء جزء من المدخنة. وبسبب الخشية من بعضهما البعض كانا يوافقان على تلقي الأجر الزهيد. ولكنهما اشترطا على المقاولين سلفاً الامتناع عن الافضاء بهذا الأمر وافشاء هذا السر الى أي كان. ولدى قبض الحساب عند تلقي القبضة النزرة كان مكسيم يبعثر النقود يمنة و يسرة متظاهراً بأنه أغنى.

ثم عاد مكسيم الى قريته منتظراً استدعاءه لكي يواصل من جديد عمله العسير والخطر و سماع عبارات الثناء و المداهنة والمجازفة بحياته لقاء الصيت الذائع باعتباره الاسطى الحاذق.

واستحياءاً لرجوعه الى مسقط رأسه في القرية فقيراً أفرغ مكسيم في جوفه قنينة فودكا على عجل عند مدخل القرية، من عنق الزجاجة مباشرة، مقطب الجبين، ساعلا متنحنحاً. و بعد أن أثقل رأسه ثملا لم يتوجه الى البيت، بل تسكع متنقلا بين بيوت الجيران، و عمد الى الكذب متبجحاً بضربه جيبه بكفه كأنما حشي بالنقود، وعرض على الانظار خواتمه النحاس بأحجارها الزجاجية، ودق بعصايته على دكة الجلوس مطالباً بلهجة آمرة أن يقدموا له أطايب الطعام.

واذ تملكه الشوق الى زوجته آنوشكا الشابة ذات القد الممشوق و الحاجبين الفخورين الحالكين المرتفعين على صدغين بيضاوين كجناحين عانى من خشية اللقاء المذل معها.

وعندما نقلته آنا، بعد طلبها عربة من أحدهم الى البيت، أشعث أغبر ملطخ بالاوحال عاجزاً واهناً ردد مكسيم، صارخاً وقد تعتعه السكر في قنوط:

— اذهبي عني أيتها الكلبة الجائعة! أتريدين نقوداً؟ خذي! — وقلب لها جيوبه الفارغة. — لقد متعت نفسي بين الحسان، أمطرنني بالقبل والمباهج واللطف والحنان لقاء روبل واحد، — صرخ في صوت مقرف وهو يمطط الكلمات في تنغيم.

رفع رأسه التي أثقلها السكر فاتحاً عينيه العكرتين بالكاد وتطلع بالحاح الثمل الى وجه آنا، وشد قبضته لينزل بها لكمة.

لكنه شاهد في عيني آنا ما جعله يهوي منكباً على وجهه في العربة منخرطاً في النحيب، كما يفعل على ندرة رجل قوي جداً حل به مصاب جلل.

من أين استمدت آنا القوة التي أعانتها على الاحتفاظ بمحبة رجل كهذا؟ ثم ان مكسيم أيضاً أحبها ولم يكن له أطهر وأقدس في نفسه عداها. جمعت آنا الأبية، الشغوفة بالعمل، كل شئون البيت على عاتقها. فراح مكسيم الذي أنعشه غفران آنا يساعدها بحماس في البداية...

ثم بلغ سمعه ان غفوروف قد رفع الى قمة مدخنة بعد انتهائه بضواحي مدينة كييف من بناء مدخنة على مصنع للسكر سماوراً فائراً، وبعد احتساء الشاي هناك، قذفه الى تحت، وهبط بالحبل الى الأرض نحو المتجمهرين المعجبين.

عصر هذا قلب مكسيم وجعله يخف الى مدينة نوفوروسيسك حيث كانت تقام مدخنة عملاقة في مصنع للسمنت. وكان المقاول لا يعرفه أصلا ووافق على قبول مكسيم فقط باجرة المياومة.

وعندما انجز بناء المدخنة نهائياً بقي مكسيم لوحده على ذروتها. وبعد شربه الفودكا جلس على حافة فوهة المدخنة مدلياً ساقيه وأخذ يعزف على الهارمونيكا. وتوقف بعض المارة متطلعين الى القامة الضئيلة من بعيد لرجل ملتصق بالحافة العليا من العمود الاسطواني العملاق. ولم يكن صوت الهارمونيكا مسموعاً من هذا الارتفاع الشاهق.

يبدو ان مكسيم لم يحسب حساباً لما شرب. لمعت في الهواء آلة الهارمونيكا خارة من السماء كالشهاب الثاقب فيما هوى في اثرها مكسيم نفسه.

أنهى أبناء القرية الخبر الى آنا بتفصيل واسهاب، وأرسلوا اليها اهدامه مغسولة وسقط المتاع، عارفين ان القرش الزهيد للارملة يعادل الروبل. ووهبت آنا عمرها كله لولدها الوحيد.

حين بلغ ستيبان سن المراهقة وتوجه الى مكتب التخديم في أعمال البناء طلباً للرزق لم يقبل. فلقد كانت ذكرى والده خارق القانون العريق لطائفة البنائين الرفاقية ما تزال حية طرية.

قرر ستيبان اقتفاء أثر أبيه ولكن احداً من الاسطوات القدامى

لم يشأ اصطحابه الى الشغل. وعندها قالت الام لولدها انها ستكون له ذلك الصحيب في الشغل.

اسطوات بناء الافران هم أصحاب الأيدي الحاذقة من بين أولئك العاملين في رصف الآجر. اذ الأمر الرئيسي في ترتيب المدخنة وتوزيع أعمدتها الاسطوانية وباب الفرن وصمامات التهوية كما في البوق الموسيقي التناسب والتناسق.

فيما تعرف مهارة صانع الفرن من ندبة الدرز الناعمة و الناتئة قليلا جداً.

لقد علمت مصائب الدهر آنا حتى صنعة بناء الفرن. فقد كان مكسيم يترك المكان مخلفا ركام الطابوق وكومة التراب المبلول في الخارج دون أن يكمل مرة واحدة عمله الى منتهاه. فيأتي اصحاب الدار الى آنا زاعقين مطالبين، بانهاء العمل، فتجد انها مضطرة لاتمامه بنفسها.

كان ملحوظاً في شغل آنا التوظيب المتمعن الذي تتميز به النسوة. فكانت الأفران والمواقد التي تبنيها اشبه ما تكون بالمنحدرات الآجرية التي تزين بها المقابر القروية. وتجرأت آنا فعمدت الى التحلية بالافاريز الزخرفية. وبعد التبييض نقشت على الأفران رسوم الديكة، ورسمت بالخط عبارات من قبيل: «قسوة الرجال ازاء النساء تتلف الحساء».

في هذه الأفران لم تشتعل نار بحطب عبثاً، ولم تلتهم قرمة الاحطاب بلا جدوى. فامكن تشبيه شعلة لهيبها بالضيف العزيز الموقر الذي لا يلوك بفم ادرد جذاذة عظم بل يأكل على مهل، بسكينة، ولا يبلغ من الشبع تخمة. تلكم هي الأفران التي رصفتهاآنا.

كان ثقيلا وكريهاً على نفس ستيبان العمل كحرفي ريفي. ولقد كان في ذلك الحين فتى قميئاً متقلب الأطوار مندفعاً و عنيداً بحميا الشباب وبوجه أبقع يملأه النمش.

واستغلالا لاسم ابيه الشهير كأول المتخصصين في بناء المداخن بحث ستيبان عن مقاول، واتفق معه بشأن بناء مدخنة في مصنع البيرة. ووافقت أمه على مشاركته في العمل كصحيب. ولكن لا عهد لأحد برؤية امرأة — أم تعمل راصفة طابوق و في عمل شاق و عسير مثل بناء اعالي مداخن المصانع.

وعندما جاء الى المصنع تشيبيريف وأمه شاهدا عمالا متجمهرين في باحته. وكان رجل لا تكاد تبلغ الارض من هناك أناته متشبثاً هناك معلقاً بذروة المدخنة بواسطة حباله. واستدعى المقاول خشية وصم سمعته اذا اشتغلت عنده في بناء أعلى المداخن امرأة الشخص المدعو جوجلتسا، وهو ذو كتفين مائلتين و يدين طويلتين تمتدان الى ما تحت الركبتين، معروف بانه شخص مستميت لا يتوقف عند حد. وعلى سبيل اللهو كان جوجلتسا هذا يتناول بيده وهو في جلسة القرفصاء قطعة الآجر ويضرب بها بقوة هائلة برأسه الكث الاشعث كاسراً اياها. ثم كان يقف بكامل قامته وينظر الى الناس بعينيه الغائرتين الفاحمتين المرحتين منصتاً بارتياح الى عبارات الاطراء وسمح للفاحصين بمس رأسه و لقد كان بعضهم في شك من انه يخفي في ثنايا طيات شعره قطعة حديدية.

وكان جوجلتسا وهو حافي القدمين يبصق في راحتي كفيه مرطباً اياهما، و يتشبث بيديه بالسقالة مجازفاً، و يمطط جسده تاركاً مؤخرته في وضعية مضحكة مبيناً مدى اقدامه على المخاطرة في تسلقه الى الأعلى. وقد أعجب المقاول هذا جداً فقال:

– ياله من وحش غير هياب! لا يوقفه شيء عند حده كأي سكير. ولكن كلما أمعن جوجلتسا في التسلق بطأت حركته وارتبكت ثقته. وأخيراً توقف وأخذ ينظر الى الأسفل بحذر، وهذا ما قضى عليه فان هاوية الفراغ المصاصة المترجرجة أذهبت في لحظة كل همته. وتشبث وهو خائر القوى من الفزع برزز مرتعشاً ملتصقاً بها وقد اعتراه الذهول ثم أخذ يهر عاويا بحذر واكتئاب.

استجمع قواه شيخ من البنائين وأخذ يتسلق بصعوبة ومعه حبل وحين وصل الى جوجلتسا لف جذعه بالحبل ولكن جوجلتسا لم يستطع فك أصابعه المصكوكة المتصلبة. ولم يكن بقدرة الشيخ اطلاق كفه المطبقة. وعندئذ تسلق عبر كتفي جوجلتسا الى الأعلى وأحكم التشبث بالرزز وأخذ يركل بقدميه أصابع جوجلتسا الشاحبة التي فارقها الدم. وصرخ جوجلتسا من الألم وانفكت أصابعه وسقط معلقاً بالحبل. وأنزلوه الى الأسفل.

جلس على الأرض قابعاً، محملقاً بعينيه المحتقنتين، صاكاً كفيه تحت ابطيه... مبتسماً في غبطة المجاذيب. بينما دنا المقاول

وهو لا يكاد يكتم ابتسامته نحو آنا قائلا وقد أزاح بعصايته قليلا عن جبينه عمرته السوداء:

– ترين اذن انه لا رجال عندنا هنا من ذوي الشعر الفاحم والعيون السود يساعدونك على الصعود.

أدارت آنا نحو المقاول وجهها الأسمر و قد برزت فيه عظمتا الوجنتين. وتطلعت اليه، وهي النحيفة ذات القامة الفارعة، من الأعلى الى الأسفل، بعينيها المفزوعتين البراقتين، ومضت بصمت نحو المدخنة. صرخ المقاول وهو يدلف باثرها:

– لا أدفع مقابل الاصابة بعاهة أو في حالة الوفاة. اني أقول ذلك على رؤوس الملأ و الأشهاد! – قال مخاطباً العمال متوسلا بصوت ضارع: – قولوا لها يا جماعة انني بارد الاعصاب ولن أدفع ولا كوبيكاً واحداً لها حتى لقماشة الدفن.

بلغت آنا المدخنة وأمسكت بالرزز، ولجتها وارتفعت مغمضة العينين.

تجمهر العمال صامتين. وتطلع جوجلتسا الى الأعلى بقلق و حيرة معتمداً على الأرض براحتيه باصابعهما الغليظة المدعوكة. وعلى حين غرة قفز من مكانه. وبعد ان دفع العمال، خطف طرف الحبل و تسلق الى الأعلى متعجلا، كانت قدماه تزلان مرة وأخرى وهو يصرخ:

– لا تخافي يا امرأة فأنا هنا!

و مدت آنا يدها فلم تمس الرزة، ثم حين تلمست بيدها في الهواء أدركت انها بلغت ذروة المدخنة. فانتقلت زحفا الى رقعة البناء، وجلست هناك جاهدة ان تتجنب التطلع نحو الأسفل.

و ارتقى بعدها ستيبان و بعده جوجلتسا ملتقطاً أنفاسه بشكل مسموع، ناضحاً عرقاً.

– يا الهي، – قالت آنا، – ما أعلى هذا الارتفاع!

– وماذا كنت تظنين، – صرخ جوجلتسا، – أنا نفسي كدت لتوى... – و بعد ان تلفظ بالتعبير النابي انتبه الى كونه يتحدث مع امرأة فارتبك.

الانفراد على مثل هذا العلو الشاهق يرهف الاحساس الى اللطف ازاء الشخص الآخر. وتلفتت آنا، التي التقطت انفاسها

بابطاء وعسر خائفة من رفع يدها، فاذا بسرب من الطيور يحلق بعيداً كأنه سحابة حالكة كثيفة. أخذ السرب يقترب حتى امتلأ الهواء بالحفيف من هفهفة الأجنحة. وتلبد سرب الغربان كثيفاً ثقيلا دافئاً فوق المدخنة حاجزاً الضوء، فائحاً برائحة الطيور الخرقاء. وغطت آنا وجهها بكفيها صارخة. فقفز جوجلتسا واخذ يلوح بقبعته فاصطدمت ببعض الطيور الثقيلة ونفر سربها جانباً مصرصراً بالاجنحة.

قال جوجلتسا وهو يلهث:

– لولاي لدحرجتنا هذه الطيور. – ثم أضاف متبجحاً: –لوكان لديها مزيد من العقل لكان بوسعها هنا نقرنا ما شاءت ولمزقتنا ارباً اربا كذئاب في غابة.

واصبح جوجلتسا صحيباً في العمل لتشيبيريف وامه، ثم انتقل للسكنى معهما في تخشيبتهما. عندما يثمل كان ينزوي عن الأنظار، يبيت راقداً في مكان ما من الشارع، و حين يعود في اليوم التالي، يخبر آنا في لهجة يشيع فيها الالتماس وباقتضاب:

– أخي الشقيق الاكبر يعمل بواباً وهو ليس من المدمنين على شرب الخمر. وكنت ضيفاً عنده.

كانت آنا تجيبه متجهمة وبدون مبالاة:

– وما شأني في الأمر. وهل أنا زوجتك؟

أصبح جوجلتسا ساهماً واجماً واخذ يتزلف الى ستيبان فقد صار يدعوه مناديا لا بقوله: يا بني، كالسابق، بل بالاسم الكامل: ستيبان مكسيموفيتش.

وذات مرة حين لم يكن في التخشيبة أحد أخذت آنا وهي تحمل النقود في صرة منديل تحسب لجوجلتسا حصته لقاء المدخنة السادسة التي بنيت من قبلهم مشاركة. فيما جوجلتسا متهلل الوجه، مرتدى بدلة الاعياد ينظر بالسعادة الى وجه آنا المهموم، ويبتسم مداعبة.

ها هي، – قالت آنا وهي تربط بعناية صرة النقود بحبل رقيق، – خذ، نفقة السكرة.

ودفع جوجلتسا الصرة جانباً وقال:

– لا داعي.

- وما معنى هذا؟ - سألت آنا.

- الأمر بسيط جداً لا حاجة الى ذلك. و بالايجاز خذي الكل عندك وكوني ربة البيت، - أوضح جوجلتسا وشد بحزم ساق الحذاء الجديد، رافعاً رأسه، ناظراً بطرفي عينيه نحو آنا.

ولم تصدر عن آنا نأمة. اكتفت برفع يدها الى حنجرتها ومسحت عنقها كأن شيئاً يعوقها. وتلفظت جملتها ببطء، كأنما بترنم:

- طالما لم يتزوج ستيبان بعد، فان هذا لن يحدث.

ثم قالت بعد ذلك بغتة بسرعة:

- أي فرحة لك مني يا زخار؟ ما ان تلامسني حتى أغمض عيني فأرى مكسيم. كل هذا لدي قد برد.

وسأل جوجلتسا بصوت أبح:

- اذن فأنت لا تحبينني؟

- كلا.

- اذن، فالافضل لي أن أذهب؟

- اذهب.

وفي اليوم التالي اختفى جوجلتسا، ولم يره أحد بعد ذلك.

مع مرور الزمن تغيرت سجايا آنا. ظهرت في تصرفاتها فظاظة متعمدة. وأخذت منذ ذلك الوقت ترتدي سترة قطنية رجالية، وتدخن السجائر الرخيصة الحادة. بينما قصت شعرها في تسريحة غير جميلة وتولت بنفسها الاتفاق مع المقاولين، وصارت تساوم بحدة وحماس حول كل كوبيك. أحياناً في حالات السأم و الكآبة كانت آنا تقول لولدها:

- كوليكوف فقاعة ومخلوق دنيىء. اذ ليس بمقدوره حتى نقل الآجر من عربة التحميل ورصفه في أكوام ولكنه معي يتعالى ويستهزىء ويقول: «رغم كل شيء فأنت امرأة اما كونك تتسلقين المداخن فهذا من سعار الهياج. ولوكان عندك زوج لقر قرارك اذن في الحال». لقد هممت ان اشج رأسه بآجرة...

واجهشت آنا دافنة وجهها بين ركبتيها في البكاء. وبدت رقبتها النحيفة البيضاء ذات الوهدة العميقة كالنقرة ضعيفة كما لصبية.

و من جديد عكفت آنا على العمل. وعند انتهائها عن رصف الطابوق قالت باستخفاف لبنائين:

– اسمعوا يا عاطلون ما بالكم و يحكم تعجزون عن انجاز عمل تنهض به امرأة؟ لعل أحدكم يريد أن ينتزع وريقة النقود الحمراء؟ فليصعد من يشاء الى الذروة زحفاً بالرزز. من الشيق لي التفرج عليه.

وأخرجت آنا من جيبها ورقة نقود بعشرة روبلات حمراء اللون وأخذت تهزها في وجوه البنائين المرتبكين. ولكن لم يكن احد بينهم يرغب في تقبل عرضها.

واشتغل تشيبيريف ووالدته خلال الآونة الاخيرة في نواحي الدونباس. وفي دورات تدريب البنائين التي تنظم في ساحات الأعمال الانشائية عرض هو واياها اسلوبهما في العمل. وقامت ام تشيبيريف الأمية، محمرة الوجنتين، بالاحتفان الذي يظهر عادة على وجوه العجائز، سوية مع ابنها بعرض نماذج من طريقتها في رصف الآجر مستخدمين المكعبات. وقد أطلقت على هذه الطريقة فيما بعد تسمية الطريقة التشيبيريفية.

طاف تشبيريف وأمه سائر أرجاء البلاد حتى بدا كأنما لم تعد ثمة زاوية في أرض الوطن لم تطأها أقدامها، لأن المصانع شيدت في كافة الامكنة. فتعود تشيبيريف وأمه على حياة الترحل.

تمددت آنا تشيبيريفا وأخذت حريتها بشكل واسع في عربة القطار واعتسفت بحق ابنها على هواها. وظل وجهها الارجواني المكتنز متعالياً جامد التعبير. وكانت عيناها فقط، باجفانها المتغضنة تلمع قادحة بالشرارات المفعمة بالمكر ونظرات التحدي.

وتحدثت تشيبيريفا بصوتها المتسلط القوي، ذاكرة لتشلوستيف كيف طرزت ذات مرة على قطعة خيش توشية أعجبتها جداً حتى انها نقلتها بعدئذ مع ابنها لجعلها زخرفاً في بناء مدخنة.

وطاف أعضاء اللجنة التي تسلمت مبنى المصنع طويلا حائمين حول هذه المدخنة، مشرئبين بأعناقهم تطلعا الى زخرفها. وقد ساورهم الشك والتساؤل حول لياقة هذه المدخنة الرعناء لمصنع للتعدين. وحين طلبوا الاطلاع على مخططات التصميم قدمت اليهم قطعة الخيش وعليها تطريزة آنا تشيبيريفا.

– ولسوف نبدى فننا عندكم ما شاء لنا الهوى، وسوف نقيم لكم اشبه ما يكون بالمنارة، – قالت آنا مازحة وهي تقهقه بصوتها الجهوري.

و حين خرج تشيبيريف و تشلوستيف الى ممر عربة القطار بغية تدخين السجائر تبادلا أطراف الحوار بصوت خافت هادىء مشوب بالقلق والاهتمام، متحدثين عن خطة المستقبل للعمل المنتظر.

في اليوم التالي ليوم القدوم الى المصنع طلب تشيبيريف جلب حملين من الآجر الى فناء مسكن البنائين. وقد طلب منهم التجمع في الساعة السادسة صباحاً وانتظار مجيئه. جاء تشيبيريف في السابعة. فهب الى لقائه البناؤون الذين أعياهم الانتظار، واستقبلوه مرجبين بتحية جماعية، حتى لقد رفع العديد منهم القبعات تحية واحتراماً. فقد وصلت شهرة تشيبيريف الى هنا بأجمل صورة.

أومأ تشيبيريف برأسه في ايماءة عابرة رداً للتحية، دون النظر الى أحد منهم. وطلب أن يجلب له كرسي و منضدة، وضعها في الظل البارد. وكانت أرض الفناء العارية المطروقة الملفوحة بأشعة الشمس تفوح برائحة اليبوسة، وتغطيها الاتربة. وكان الرحب ساخناً كالموقد. نثر تشيبيريف من كيس مشمع مكعبات خشبية، و لفت انتباه البنائين بايماءة اصبعه، ثم صفف على المنضدة بسرعة الحواة بضع حلقات. وأومأ برأسه الى كوم الآجر وقال بصوت هامس دون احتفال:

– كرروا.

واخذ البناؤون، وهم مستغربون ومأخوذون ازاء تصرفات هذا الرجل، يكررون فعله. تكونت من الطابوق حلقات مرصوفة. وطلب تشيبيريف جلب الشاي وأخرج من جيبه جريدة وأخذ يطالعها غير مبال الى البنائين. وعقب مرور بعض الوقت دنا تشيبيريف دون القاء الجريدة من يده نحو البنائين ورنا بنظرة عاجلة الى الحلقات الآجرية. ثم قوضها بركلة من قدمه مدمدماً بصوت ضجر:

– روضة أطفال بالضبط. أطلب منهم تشييد حلقات مرصوفة فيقيمون بيوت مكعبات صنع صبيان.

و عاد الى كرسيه و انصرف الى مطالعة الجريدة... دون ان يلاحظ أحد ان الجريدة مخروقة بشقوق تابع تشيبيريف بنظره من خلالها عمل البنائين.

ابدى تشيبيريف ما شاء له هواه من الزعل و التعنت، مع هؤلاء الناس باستهانة، عذبهم من الصباح الباكر حتى هبوط العتمة، حاملا اياهم على تكرار الترصيفة نفسها مئات المرات.

وفي اليوم الحادي عشر جمع تشيبيريف فريق العمل في الفناء. وقف هؤلاء الناس أمامه عابسين مقطبين متوقعين منه تصرفاً ما آخر يذلهم. ولكن تشيبيريف رفع قبعته، و أحنى هامته أمام الجميع احتراماً فيما ابتسامة اضاءت وجهه، وقال:

– والآن ارجو الصفح ممن أسأت اليهم. يبدو أنكم جماعة جديرة بالاعتماد، تعمدت التحامل عليكم اختباراً لتحملكم وسجاياكم. أنا انسان تعاوني جماعي عموماً، ومن طبعي المرح و الدعابة. حتى ليس ضرورياً دليلا على التوقير مخاطبتي بالاسم الكامل.

وفي اليوم التالي شرع فريق تشيبيريف في بناء المدخنة العملاقة. عرض تشيبيريف مهارته في رصف الآجر. كان الطابوق يتطاير بخفة من بين يديه. فيما خيل لكل امرىء شاهده ان بوسعه أيضاً رصف الطابوق بمثل هذه البساطة والخفة، فالطابوق يتطاير بهذا الشكل المعجز من راحة الكف الى الموضع اللازم. ولكن التغلب على العناد الأحمق الذي يكاد الطابوق يبديه واكسابه الحركة المرنة المألوفة في حالة الطيران انما هما عمل اعجازي يختص به الاساتذة المهرة.

كانت الحلقة الدائرية من الطابوق بمثابة لوحة مفاتيح في آلة موسيقية بالنسبة لتشيبيريف فهي مطواعة تحت يديه وكان فريق العمال بأسره يتناغم معها.

قال تشيبيريف دون رفع عينيه عن يديه:

– انني يا فتيان أشعر بالتبجيل ازاء الصناع القدامى. كانوا يضيفون الى الجص الكلسي بياض البيض لتأمين المتانة. قطعة الآجر نفسها كانت اكبر حجماً وأثقل وزناً واكثر فخراً بالنار. الطابوقة المصنوعة يدوياً باقية على مر الزمن، اما حالياً فكأنها أحياناً لقمة عصيدة. هذه الطابوقات يمكن تمييزها بيسر بوزنها.

انني لا اهوى الطابوقة بيضاء اللون بل الحمراء، المحمرة ولها الموسيقى والرنين. اما اذ كانت الطابوقة لا تغني فاطرحها جانباً. ان الطابوق الأخرس غير جدير بالثقة والاعتماد. وهل سمعتم يا جماعة شيئاًما عن مصر بهذا الشأن؟ — تساءل تشيبيريف وهو يزيح خصلة شعره عن جبينه، وتابع كلامه. — ان البنائين في مصر القديمة كانوا يرصفونها بالطريقة اليابسة دون جص أو سمنت. هؤلاء هم المهرة السحرة!

وكان تشيبيريف يقف عقب كل نوبة عمل عند القسم الحجري الضخم لقاعدة المدخنة فاحصاً مؤشرات خيط الميزان. وقال بشكل ودود و هو يرفع رأسه الى الأعلى:

— يا لها من مدخنة حسنة. انها تناطح السحاب. سوف يوضع في أعلاها مصباح كهربائي، وليس هذا بالطبع من أجل الجمال. وانما لئلا ترتطم بها طائرة ما محلقة، و يا لها من مدخنة! — واشرأب متطاولا على أصابع قدميه وأخذ يربت براحة كفه مطبطباً على ظهر الاسطوانة الحجرية بمودة واعجاب.

شهقت المدخنة تعلو وتعلو، وكلما زاد ارتفاعها قلت مساحة مقطعها العرضي، كما قل عدد البنائين في أعلاها، واحداً كل يوم. أثناء العمل حمل البناؤون أنفسهم التعود على تفادي النظر الى أسفل حيث هوة الفراغ. كان هؤلاء الأشخاص واقفين على ركبهم في هذه الحلقة الدائرية الصلبة ذات الارتفاع الشاهق، يتطلعون الى مناظر غير مألوفة. كان ممكناً النظر من المدخنة الى السحاب جانبياً. وحين كان ينزل المطر تهطل تياراته من السحب الثقال شاخبة كأنما تدرها حلمات الاثداء. وكانت رائحة الرطوبة تلج الى المدخنة و تفوح السحب بمثل الاقباء والسراديب.

وكان الشعور بالصغار، وبنفس الوقت الاعجاب، يستحوذ على الانسان الذي يرتقي المرتفعات القديمة المسننة وهي أشبه ما تكون ببحر أمواجه تحجرت بغتة أثناء زوبعة.

و لكن صوت تشيبيريف الزاعق عرقل الاحساس بكل هذه المشاعر:

—هيا... هيا... اسرعوا!

وكان يتحرك بحرية على المساحة الدائرية لفوهة المدخنة.

وبهيئته الواثقة الهادئة أعاد الى العمال همتهم المفقودة، ما كانوا يتحلون بها وهم على سطح الأرض.

بلغت المدخنة حدها المطلوب. وقرر تشيبيريف الانتهاء في نوبة عمل واحدة من بناء نهايتها الحجرية ما يطلق عليها تسمية: التاج. وجاءت الى نوبة العمل هذه آنا تشيبيريفا، وقد ارتدت سراويل عمل محشوة بالقطن، وتلفعت بلفائف رقبة كبيرة الحجم كادت تشبه بالاغطية لفت بها عنقها حتى صدرها. وصرخت بصوت جهوري على من كانوا يتهيأون. متحفزين للارتقاء.

اختلى تشلوستيف بتشيبيريف جانباً وسأله :

– أفلا يمكن اقناع الوالدة بالعدول؟

تطلع نحوه تشيبيريف بعناية من تحت الى فوق وقال بصوت حاد شرير:

– حبذا أيها الرفيق لو نقلت أقدامك من هنا والا استبردت. لا تمس اسرتنا، واذا كان انفك أجدع فلا تدسه في ما لا يعنيك.

كان الهواء يندفع تياراً بارداً في تجويف المدخنة الداخلي الذي علقت به السقالات. و ارتقى في عتمة البئر الحجري هما الاثنان تشيبيريف و تشيبيريفا واثنان من البنائين، واللحام الذي كان عليه ان يلحم محور مانعة الصواعق. فاستمر الارتقاء اكثر من ساعة.

ارتقت تشيبيريفا أولا. وسدت بجذعها المكتنز مهواة المدخنة. وكان الجميع يسمعون تنفسها الثقيل. وكثيراً ما توقفت تشيبيريفا وضغطت المعالق بقدميها وفكت أواصر لفافاتها التي تكاد تخنقها.

وحين بلغوا المساحة الدائرية العليا تمايلوا بتأثير دفع الريح العصوف. وكان تشيبيريف وأمه اكثر تشدداً بنحو خاص ازاء الاثنين من البنائين.

– هذه الفتحة المستديرة انها أبدع مكان و انتما... ما هذا الشغل؟ – صرخت آنا.

ودفعت تشيبيريفا البنائين، واعادت بنفسها رص بناءها من جديد. وتنحيا أمام تشيبيريفا مأخوذين بحرارة همتها المندفعة و حماستها الملتهبة.

مالت تشيبيريفا دون خوف فوق الهوة وأخذت تطرق وتحسن

وضع الطابوق في التطويقة ورأسها وكتفاها متأرجحة فوق الفراغ الرهيب.

وظلت الريح عاتية. واشتدت دواماتها صخابة فوق هوة الفتحة الفاغرة. وضربت بقوة عصف الاسطوانة الحجرية، ثم خفت من جديد مستجمعة موجتها التاسعة.

تزاحمت السحب المنفوشة الفائحة بالرطوبة داخنة متجهة الى أسفل مفترشة الأرض. وكان الحبل يئز في البكرة بصرير متلوحاً في دورة واسعة وبقوة كبندول.

بقيت الحلقات الأربع الأخيرة من ذروة المدخنة. وانحنت آنا تشيبيريفا نحو اذن ابنها وصرخت:

– تشيبيريف اطردهم جميعاً والا سافزعهم أنا. ربما تكون هذه آخر مدخنة في عمري، وأريد اكمالها بنفسي بيدي الاثنتين.

وزحف تشيبيريف طائعاً نحو البنائين. وكانا جالسين القرفصاء يستريحان في العلاقة داخل اسطوانة المدخنة.

– ازجي لكم التهاني بالعيد المرتقب! – صرخ تشيبيريف وهو يشد طاقيته الى حد فمه.

ومعتمداً بكلتا يديه على الجدار الداخلي للمدخنة وقف تشيبيريف على ركبتيه وأخذ يرنو الى اللحام الذي ربط نفسه بالحبل الى السقالة وقد انهمك في اللحام بلهيب ساطع فوار لربط الرأس المدبب الى الحزام الحلقي الفولاذي سائلا في مزاح:

– كأنك غراب على غصن. أتخاف أن ينفخك الهواء فتطير؟

استدار اللحام نحوه، و زرر سترته جيداً ثم أخفى رأسه تحت طرف ثوبه كما يخفي الطير رأسه تحت جناحيه، محاولا وبالحاح اشعال سيجارته فترة طويلة. وعندئذ صاح تشيبيريف راجياً:

– يا جماعة كان ينبغي تكريمي، فهذه هي المدخنة الأربعون لي بالتمام و الكمال.

– وكيف تريد أن يجري تكريمك؟ – تساءل أحد البنائين متحيراً وهو يرتعش من البرد.

– صافحوني بالأيدي على الأقل.

ومد البناءان على غير رغبة أيديهما، التي كانتُ مدفأة في الجيوب، وشدا على كفه الممدودة نحوهما.

- هكذا، فليكن التأدب، - قال تشيبيريف ومد يده نحو اللحام، ولكن هذا قال بصوت أجشر مائلا بجانبه :

- فيما بعد سنحتفل بقنينة فودكا، ليس وقت ذلك الآن.

وزم تشيبيريف شفتيه مغضباً، لمجرد أن يقول شيئاً ما قال:

- هيا يا جماعة أسرع وأنشط هيا...

وتابعت آنا تشيبيريفا هذا المشهد بعناية. وزحفت، وهي الضخمة البدينة، نحوهم و تطلعت في وجوههم بامعان، ثم تلفظت كأنها تتسمع الى شيء ما بصوت أجش منبىء بالشر:

- ستيبان، المدخنة تتمايل أتسمع؟

وابيضت وجوه البنائين بغتة من الشحوب، وتجمدوا في نفس أوضاعهم حين طرقت أسماعهم هذه العبارة. كانت المدخنة تتمايل بالفعل. وكان تمايلها و اهتزازها من القوة بحيث سرعان ما استحوذ على الجسم وهن دل على الخور، دافعاً الى القيىء.

ورنا تشيبيريف نحو وجه والدته بطرف عينه وأخذ يدفع البنائين على عجل و في ارتباك نحو الهبوط. وأخذ هذان يزحفان الى الأسفل في عجلة راعشة. وصرخ تشيبيريف على اللحام.

- ما بك ألا تخشى على حياتك، ألا تريد النجاة بجلدك!

ونظر اللحام عبر كتفه و انحنى من جديد ببطء على اللهيب الفوار الأزرق المتشعلل. وصرخت آنا تشيبيريفا في اذن اللحام وهي تميل الى كتفيه : - المدخنة تهتز أ تسمع؟

واكتفى اللحام بتحريك كتفيه مواصلا العمل. وقالت آنا تشيبيريفا:

- ياله من شقي عنيد! - ثم قالت فجأة بعد هنيهة متضاحكة:

- لقد ذهبوا اذن، وغدا المكان حراً فسيحاً. والآن هيا يا ستيبوشكا نكمل بايدينا ذروتها.

وانحنى تشيبيريف وأمه على الحافة وعكفا على رصف الطابوق. و حين بلغت الحلقة الأخيرة اللحام، قالت له تشيبيريفا:

- أبعد قدميك يا همام.

- حالا يا اماه، - قال اللحام ذلك و تراجع بعد أن ربط الأسلاك الكهربائية الموصلة الى القنديل الأحمر المنصوب في أعلى مانعة الصواعق على هيئة نجمة.

فأنار الضوء البرتقالي الدافىء الحلقة الآجرية المستديرة للساحة، ولم تكن الأرض مرئية، فقد اكتنفتها عتمة قاتمة. وقال تشيبيريف وهو يدنو الى اللحام:

– لقد اشتغلنا.

فأجاب اللحام ضاحكاً:

– حصل ذلك.

وسألته الأم:

– وأنت لماذا لم تذهب؟ أفليست المدخنة تهتز أم انك لا تخاف من الموت؟ أ أنت من الخالدين أم ماذا؟

– و ما الذي يخشى منه، – أجاب اللحام بصوت أجش ورأسه في عبه معاوداً محاولته اشعال السيجارة، – لو ان المدخنة لم تهتز فهذا معناه ان حجارتكما المرصوفة غير مرصوصة البنيان، اما اهتزازها حسب حركة دوران الأرض فهذا معناه ان كل شيء على ما يرام. ثم خاطب تشيبيريفا مبتسماً بلطف، معلناً:

– ولكنك يا أماه ماكرة. كان قصدك اذن تخويف الآخرين، لانك كنت تريدين رصف الآجر بيديك وحدك. وأنا أفهم ذلك.

– كيف لا، – قالت آنا، – مثل هذا النصب الآجري الفارع أتترك للآخرين! سيظل قائماً مائة عام ذكرى، ومحط اندهاش، للناس كلهم ثم ليس لي بهذا شأن؟

و بعد جمعهم الأدوات تهيأوا للهبوط. ولكن الوجهين الحانقين لبنائين ظهرا من عنق المدخنة، و أخذا يبرران فعلتهما ويلومان آنا بصوت غاضب و غير واثق وصرخ تشيبيريف بمرح:

– هيا يا جماعة! لا تعطلونا ولا تمنعوا مرور الدخان!

وبعد مرور بضعة أيام أخذ الدخان الأصفر يزحف من المدخنة الضخمة اليابسة الفارعة. ولكن الدخان لم يسقط الى الأسفل. فانه بعد رفعه الى النهر الهوائي القوي حمله بعيداً نحو الجبال.

وتلقى تشيبيريف وأمه برقية دعوة مستعجلة الى منطقة تشييد مصنع جديد في اوزبكستان. وودعهما تشلوستيف. و في محطة القطار عاودت العجوز الصراخ بصوت غاضب، يدل على السطوة، وكانت قلقة على الامتعة، حتى فاتها في غمرة الارتباك الشد على يد تشلوستيف وداعاً.

ثم شاهد تشلوستيف كيف وقف تشيبيريف وأمه عند نافذة عربة القطار وهما يتحدثان عن شيء ما بحيوية و عيونهما لا نحوه، بل نحو المدخنة.

حدثني تشلوستيف عن هذا كله أثناء نوبة العمل الليلية في القمرة الزجاجية لكبير رؤساء فرق العمل.

كانت أفران الصهر المملوءة بنار بيضاء تطلق الى الصفائح المعدنية الممسوحة في الساحة الخطوط البيضاء من الضوء الباهر.

تتحرك الهياكل النحيفة للرافعات في الأعلى على سكة حديد عريضة أحادية الخط. وتبترد ببطء القطع ذات اللون البرتقالي المشرب بالصفرة من النحاس المتدفق في قوالب تفوح منها رائحة حادة تختلط فيها الحرارة بالمرارة.

– وأين هما حالياً؟ – سألت تشلوستيف عقب فترة صمت طويلة.

وقال تشلوستيف على مهل متطلعاً في الضوء الى المقطع المزيت وغير الصقيل للقطعة النحاسية:

– توفيت تشيبيريفا قبل فترة وجيزة. ولست أدري باي سبب. تشيبيريف يبعث الي أحياناً بالرسائل، واذا شئت فهذه آخر رسائله.

قرأت الرسالة.

أصبح تشيبيريف عقب وفاة أمه وحيداً. رحل الى تركمانيا حيث يشيد مصنع كبريت في صحراء قائظة جافة ملفوحة بالشمس ومتعرجة كورقة الصنفرة.

النهار بقيظه يكوي، يجفف، ويعذب. والليل ببرده الأسود يملأ الصحراء.

حين وصل تشيبيريف الى مصنع الكبريت، مسود اللون، نحيلا، تمشى وحيداً في الصحراء، هائماً على وجهه... وجدوه ونقلوه الى المستشفى بحالة بالغة الخطورة. وعقب مرور شهر خرج تشيبيريف من المستشفى، ثم بعد شهرين آخرين حسب استطاع العودة مجدداً الى العمل.

انتهى تشييد المدخنة البالغ طولها خمسة وسبعين متراً. وكان

على تشيبيريف فقط التحقق من متانة رصف آجرها. فارتقى الى ذروة المدخنة لا من داخلها لان السقالات كانت قد رفعت وانما من ظاهرها في قفة معلقة على حبل مربوط الى بكرة.

و حين بلغ تشيبيريف الذروة تفحص الرصف، ولأمرما بدا له ضرورياً كذلك فحص الترصيفة تحت البكرة وأخذ يحركها ويزيحها من مكانها. ولكنه وقد اذل المرض قواه عجز عن التمسك بالبكرة، فانفلتت من يده، وهوت ساقطة الى الأسفل ومعها الحبل، فبقي تشيبيريف لوحده على القمة المسفوعة بوقدة الشمس، وحيداً يواجه قرصها اللاهب القريب الى الأرض.

كان متعذراً نقل تشيبيريف من هذه المدخنة. وكانت اعادة السقالات تتطلب زمناً. وليس بوسع الانسان البقاء طويلا تحت هذه الشمس القتالة بلا غطاء يحميه لسعها. وسرعان ما أدرك تشيبيريف وضعه اليائس. فجلس ماسكاً ركبتيه بيديه، وظل على جلسته هذه بلا حراك.

كان يرتدي دراعة حيكت من صوف غير ناعم بيدي أمه، خلعها ليحمي بها رأسه من الشمس اللافحة. وربما بتأثير لمس هذا النسيج طرأت على فكر تلك القوة الطافحة التي كانت تتحلى بها ارادة والدته، أو شيء ما آخر أوحى الى تشيبيريف بهذا الحل ولكنه نزع على عجل من فوق رأسه دراعته المنشورة وأخذ يفك خيوطها؛ لف الخيط في شليلة مكورة، ثم ربط الى نهاية الخيط ساعته الجيبية وأخذ ينزلها متمهلا الى الأسفل مواصلا ارخاء الخيط من اللفة رويداً رويداً.

لفتت الساعة اللماعة انتباه الناس الذين كانوا تحت، وادراكا منهم لمقصد تشيبيريف ومغزاه نزعوا الساعة من الخيط و ربطوا الى خيط الصوف حبلا رقيقاً، جذبه تشيبيريف بمنتهى الحذر والاحتراس. يمكن القول ههنا دون تردد ان حياة تشيبيريف كانت معلقة على هذه الشعرة المتوترة المرتعشة. فلو انقطع خيط الصوف لحلت عندئذ النهاية. ولكن اليدين الزاخرتين بالغناية والمحبة هما اللتان فتلتا هذا الخيط.

سحب تشيبيريف الى الأعلى نهاية الحبل الرقيق. وبعد أن كرمش هذا الحبل احتضنه في حجره، ودس نهايته في عبه لئلا

تلقيه الريح جانباً. وربطت بالحبل الرقيق نهاية حبل أغلظ، وبنهايته نهاية حبل أغلظ منه، وهكذا. ولم يهبط تشيبيريف الا بعد تكويره خيط الصوف في شليلة ملفوفة بشدة.

وعلى الأرض قال تشيبيريف بايجاز وارتباك من الانفعال، وهو ينفلت من أيدي الناس المغتبطين بنجاته:

– هو من حياكة أمي العزيزة... هذا عملها. وضرب الأرض بقدمه متخطياً الناس المتجمهرين.

ومن تركمانيا رحل تشيبيريف الى موسكو حيث وجهت اليه الدعوة للعمل في المعهد المعماري بوصفه مستشاراً.

وودعني تشلوستيف. ورحلنا مجدداً عبر الطريق الجبلي الاشبه بشرفة. وكانت تلمع على أحد جانبي السيارة الصفائح الحجرية المكبوسة بتقارب، وفيما قبة السماء المعلقة ترى من الجهة الأخرى.

وفي الموضع التذكاري رجوت ايقاف السيارة. كان المصنع مرئياً في الأسفل كأنما تحت ناقوس زجاجي بدا من هنا ضئيلا كالمرة الفائتة. وكانت المدخنة المديدة منتصبة في الهواء كالسابق أشبه ماتكون بمبسم السيجارة. ولكني لم أعد أرفع الى عيني خنصري الآن على سبيل المقارنة. رنوت الى هذه الجبال القديمة الجافة، لعله هناك كذلك موضع تبدو منه وكأنها تجاعيد حجرية يابسة.

تطلعت الى هذه الجبال التي يذروها الزمن والريح و الشمس ذرات وفكرت بأن على ظهر الأرض ثمة شيء اكثر متانة و ارتفاعاً من هذه الجبال القديمة والسلاسل الصخرية المتهدمة البالية.

وصرخ تشلوستيف ماداً رأسه من السيارة:

– اسمع أيها الفتى دع الانسياق في الاحلام الى وقت آخر! يجري حالياً في المحطة تفريغ شحنة من آجر الطفال الحراري فخيل الي انني أسمع صوت طرقه و تقطيعه. أنا أيضاً ذو خيال وتصورات.

بقينا فترة طويلة أخرى نقطع هذا الدرب المقطوع في الحجر.

وأشعل تشلوستيف عود ثقاب، ونظر الى ساعته، لقد كان على عجلة من أمره فعلا.

وسأل تشلوستيف بغتة بصوت مرتفع:

– أجل على فكرة، لماذا لم تزر ذلك الشيخ المحدث؟..

قاطعته قائلا:

– ذلك الذي هو من الجلمود وصاحب العرق الذهبي الشاعري؟ في المرة القادمة.

اقتربنا الى السدة الترابية لخط السكك الحديد، فانزلت عارضة الطريق المقلمة أمام أنفنا مباشرة.

ظللنا واقفين فترة طويلة حتى مر قطار طويل عرباته بلا نهاية تقريباً صاخباً مدوياً بعجلاته، على فواصل السكة.

وكان تشلوستيف عصبياً، أشعل مراراً عيدان الثقاب ليتطلع الى ساعته. كان يبدو متعجلا بالفعل، قلقاً، عازماً الوصول في الوقت المناسب لحضور تفريغ شحنة آجر الطفال الحراري.

سنة ١٩٣٦.

آذار – نيسان

كانت بزة العمل الممزقة المحترقة في مواضع شتى بسبب المبيت قرب الموقد في العراء مهدلة على جسد الكابتن بيوتر فيدوروفتش جفرونكوف. فيما بدا وجهه شبيهاً بوجوه المسنين بسبب لحيته الصهباء الشعثاء والغضون المسودة بالأوساخ العالقة بها.

في شهر آذار قفز بمظلة الهبوط من الطائرة في مهمة خاصة بمؤخرة العدو*. والآن حين أخذ الثلج بالذوبان في كل مكان وانحدرت السواقي مخرخرة أصبح شق طريق العودة خلال الغابة بحذاء منتفخ بالماء على جانب كبير من العسر.

في بداية الأمر سار ليلا فقط، واختبأ نهاراً في الحفر. لكنه الآن أخذ يسير وفي النهار أيضاً خشية فقدان القوة جراء الجوع.

أنجز الكابتن مهمته. وبقى أمامه العثور على جندي اللاسلكي الذي قذف به هنا أيضاً قبل شهرين.

خلال الأيام الأربعة الأخيرة لم يصب الكابتن شيئاً من الطعام تقريباً. فأخذ يرنو، مجرجراً خطاه في الغابة المبلولة، بعيني الجائع الى السيقان البيض لأشجار البتولا، كان يعرف ان لحاءها يمكن نزعه وأغلاؤه في علبة معدنية على النار، وتناوله بدلا من الطعام كعصيدة، مرة الطعم والمذاق تفوح منها رائحة الشجرة والخشب...

---

* يجرى الحديث في السرد عن فترة الحرب الوطنية العظمى (العالمية الثانية) ١٩٤١ – ١٩٤٥. **الناشر.**

أخذ الكابتن، مستغرقا في التفكير، يخاطب نفسه في هذه اللحظات العصيبة، كما لو كان يخاطب رفيق طريق جدير بالاعتماد: «يمكنك التوجه الى الجادة الخارجية في هذا الظرف، سوف يتسنى حينئذ تبديل الحذاء. ولكن الاغارة على وسائط النقل الالمانية المنفردة قد تؤدي عموماً الى الكشف عن موضعك، واذن يكون عويل البطن قد طغى كما يقال على صوت العقل فيك».

بعد تعوده على الانفراد بالنفس مدة مديدة كان بوسع الكابتن محاورتها حتى الكلل، أو كما اعترف لنفسه: حتى يبدأ بترداد حماقات.

بدا للكابتن ان ذلك الشخص الآخر الذي جاذبه أطراف الحديث انما هو فتى سليم التفكير يفهم كل ما ينبغي وهو طيب النفس. وكان الكابتن نادراً ما يقاطعه في كلامه بشكل فظ، ويقطع تسلسل أفكاره، وشخطة الزجر تحدث حين تسمع خشخشة أو تحس ململة أو ترى خشبة تزلج على الثلج، مرمية عرضا في الغابة وقد تيبست.

ولكن رأي الكابتن في شخصه الثاني، هذا الفتى صاحب النفس الكريمة الذي يفهم كل شيء، قد اختلف عن رأي الرفاق الى حد ما. فلقد كان الكابتن يعتبر في الفصيلة شخصاً قليل الجاذبية. وهو كرجل صموت، منكمش على نفسه، لم يستمل الآخرين الى المكاشفة. ولم يكن ليجد العبارات اللطيفة المشجعة التي ينبغي توجيهها الى المستجدين الذين يتوجهون لأول مرة في مهمة قتالية أو دورية استطلاع أو نحوها. ولدى العودة بعد أداء مهمة وانجازها كان الكابتن يتفادى لقاءات الاعجاب متهرباً من المعانقات متمتماً:

– ينبغي علي حلاقة ذقني، فها قد أصبح خدي شائكا كجلد القنفذ، – ثم يدلف على عجل الى مقر رقاده.

ولم يكن يحب التحدث عن مهامه وعمله في مؤخرة الألمان مكتفياً بتقديم التقرير اللازم الى الرئيس المباشر. ولدى أخذ قسطه من الاستجمام عقب انجاز المهمة كان يستلقي على السرير ويظل طريح الفراش حتى حين. وعند حلول موعد تناول الطعام يقبل على المائدة عبوسا بعيون يخالطها النعاس. وكان يقولون عنه انه انسان غير شيق، بل انه ممل ومضجر.

وراجت حينا من الزمن شائعة ردت سلوكه هذا الى قضباء الفاشيين على أفراد اسرته عن بكرة أبيهم في الأيام الأولى من الحرب. ولدى علمه بهذه الأحاديث جاء الكابتن الى الغداء حاملا بيده رسالة. واثناء تناوله الحساء أمسك الرسالة نصب عينيه، وأفاد قائلا: - انها من قرينتي.

وجم الجميع وتبادلوا نظرات الحيرة وأحس العديد منهم بخيبة أمل. لقد كان بودهم الاعتقاد بأن الكابتن بهذه الجفوة لحلول مصاب فادح به.

كان الكابتن يكره الاستماع الى الكمان.

...كانت الغابة جرداء بليلة، بارض رخوة، محفرة، موحلة، يغطيها ثلج هش. ومن المقرف التخبط في هذه الامكنة الموحشة لشخص وحيد أضناه الارهاق.

لكن الكابتن انتقى هذه الامكنة الضارية عن قصد حيث احتمال الالتقاء بالالمان أقل. بينما ازدادت خطى الكابتن ثقة ما نأت الارض.

غير ان الجوع بدأ يتأكل أحشاءه فكان ذلك يلقى على عينيه بين الفينة والاخرى غشاوة، فيتوقف عن السير، ويمسح عينيه، ويرمش أجفانه. وحين يجد ان كل هذا لا يجدي نفعا كان يضرب جبينه بقبضتي كفيه، وهما في القفازين الصوفيين، ويلكم عظمتي وجنتيه بكلتا يديه، تنشيطاً لدوران الدم في العروق.

وحين هبط الكابتن وهدة انحنى على مسيل للماء من الحافة الجليدية للمرتفع، وأخذ يعب منه شاعرا بالغثيان وطعم الماء العذب للثلج الذائب. لكنه واصل الشرب رغم غياب رغبته في ذلك، فلقد كان يشرب لا لشيء سوى لملء معدته الخاوية.

وحل المساء، واستلقت ظلال نحيفة على الثلج المبلول. وغدا الجو بارداً. اكتست مياه الحفر الصغيرة بغشاوة خفيفة من الجمد، أخذ يتكسر تحت وقع أقدامه مخشخشاً، وتجمدت أيضاً الأغصان المبللة، فصرت حين ازاحها بيده. ومهما حاول الكابتن السير بلا ضجيج صاحبت كل خطوة منه خشخشة وصرصرة.

بزغ القمر فاذا الغابة تلمع بالنور وتشعشع، وكانت الدوالي الجليدية، وبرك الماء المتجمدة، تعكس ضوء القمر فتشع بنور بارد.

في مكان ما، بهذا المربع من الغابة، كان ينبغي ان يكون جندي اللاسلكي. ولكن هل في الوسع العثور عليه مباشرة، والمساحة أربعة كيلومترات مربعة؟ ومن المرجح ان جندي اللاسلكي هيأ لنفسه وكرا لا يقل خفاءا عن وجار الوحش. فهو لن يعمد الى التجوال في الغابة والصراخ: «هوه! أيها الرفيق أين أنت هناك؟».

بلغ الكابتن في الغابة أجمة كثيفة ينيرها ضوء ساطع وغدت احذيته بسبب البرد الليلي ثقيلة، متصلبة كأنها من حجر.

استشاط غيظا على جندي اللاسلكي وقد صعب العثور عليه لكنما أمكن ان يزداد حنقه لو انه اكتشفه على الفور.

كبا متعثرا الكابتن بكومة ملمومة من سقيط الاغصان دفينة تحت الثلج المتصلب فانكفأ ساقطا على وجهه الى الارض. وحين نهض بعد لأي معتمداً بيديه على الثلج المتجمد، سمع من وراء ظهره طقطقة الضغط على زناد مسدس ودفع ماسورته. وتردد في سمعه بصوت خافت ايعاز بالالمانية: – هالت! هالت!

ولكن الكابتن تصرف بغرابة، دلك ركبته المصدومة دون الالتفات الى الخلف، وحينما وجه الأمر اليه بالالمانية بنفس ذلك الهمس الخافت لرفع يديه الى الأعلى استدار الكابتن، وقال متضاحكاً:

– اذا كان الشخص ساقطا على الأرض فما الداعي الى هذه الـ «هالت»؟ كان ينبغي الارتماء علي وضربي بالمسدس ملفوفاً بالقبعة وحينئذ يكون صوت الاطلاقة مكتوماً. ثم ان الالماني يصرخ بكلمة «هالت» بأعلى صوته لكي يسمعه زميله القريب فيخف لنجدته عند الحاجة. كم صرف من الوقت على تعليمكم وتدريبكم ولكن ما من جدوى... ونهض الكابتن واقفاً.

همس بكلمة السر نبساً وحين سمع الرد اللازم أومأ برأسه علامة الايجاب ودس في جيبه ، بعد ارجاع سدادة الأمان، مسدسه الازرق من طراز «زاوير».

– ومع ذلك فالمسدس قابع في يدك!

تطلع بغضب الى جندي اللاسلكي، قائلا:

– لعلك ظننت انني ساعول على حكمتك حسب؟ – ثم طلب بفراغ صبر: – هيا أرني مخبأك!

قال جندي اللاسلكي جاثيا على ركبتيه، في هيئة غير طبيعية:
– أما أنا فسوف أتحرك زحفاً.
– ولماذا زحفاً؟ والغابة هادئة!
أوضح جندي اللاسلكي بصوت خافت:
– رجلي جمدها الصقيع، وهي تؤلمني بفظاعة.
تغضن وجه الكابتن عن عدم الرضا، وسار مقتفيا أثر هذا الشخص الزاحف على الأربع ثم سأل بسخرية:
– ماذا؟ هل ركضت حافيا في الغابة شتاءاً؟
– كان التأرجح في الجو وقت الهبوط بالمظلة قوياً جداً ولهذا سقط حذائي اللبادي من رجلي اثناءه...
– عال العال! ما الطف ان احتفظت على الاقل بالبنطلون! – ثم أضاف: – وكيف سيكون بوسعنا الخروج معك من هنا!
جلس جندي اللاسلكي معتمدا بيديه على الثلج، وقال وعيناه تنضحان بالاستياء و التظلم:
– ولكني أيها الرفيق الكابتن لا أزمع الخروج من هنا. يمكن ابقاء المؤونة عندي ومتابعة السير، وعندما تشفى رجلي أغادر المكان وحدي.
– ولسوف تهيأ لك هنا مصحة استشفاء! قد اكتشف الألمان اشارات اللاسلكي. أتفهمين ذلك؟ – وبغتة سأل الكابتن برفق وحنان منحنيا: – اسمعي، ماهو لقبك؟ كانما وجهك لي مألوف.
– ميخائيلوفا.
– يا للمصيبة! – تمتم الكابتن وقد ساوره الارتباك والتبرم.
– ولكن فليكن، سنتدارك الامر بنحو ما. – ثم استفسر بلطف وتأدب: – لعلك في حاجة الى عون؟

لم ترد الفتاة بشيء، وواصلت زحفها مغمورة بالثلج الى ما فوق كتفيها. فحل في نفس الكابتن بدل الامتعاض شعور آخر أقل تحديداً واكثر اقلاقاً. لقد تذكر ميخائيلوفا هذه عندما كانت عندهم في القاعدة ضمن تلامذة الدورة التدريبية. لقد اثارت في نفسه من الأول الشعور بعدم الارتياح بل وحتى اكثر من ذلك السخط. ولم يستطع بأي حال أن يفهم ويهضم وجه الحاجة اليها في القاعدة و سر

وجودها هنا وهي الفتاة، فارعة القوام، الجميلة، بل وفائقة الجمال، برأسها المرتفع اعتدادا وفخرا، وفمها الكبير المرسوم بمنتهى الدقة، حتى ليصعب ادارة العين عنه حينما تفتحه أثناء الحديث.

وكانت لديها عادة غير مستحبة هي النظر في عين الشخص المقابل بشكل مباشر، وهذا غير مريح لا لأن رؤية عينين كهذين لا تطيب للنفس بل على العكس فهما واسعتان، تطفحان بالعناية والطمأنينة، وتقدحان شرراً ذهبيا حول بؤبؤي حدقتيهما. هما طيبتان جداً، ولكن المزعج السيىء هو ان الكابتن لم يكن ليصمد أمام نظراتهما المحدقة. ولم يفت الفتاة ان تلاحظ ذلك.

ثم هذه العادة اللعينة في تصفيف شعرها متناثراً لماعاً متدلياً كأسلاك ذهبية تحت حواف القبعة!

كم من مرة نهرها الكابتن:

– اجمعي شعرك تحت القبعة. لقد آن لك كي تدركي الفرق بين البزة العسكرية وبدلة الحفلات التنكرية.

والحق يقال أن ميخائيلوفا تدربت باجتهاد. وعند بقائها بعد انتهاء الساعة الدراسية كثيراً ما توجهت الى الكابتن بأسئلة على جانب كاف من الالمعية والحصافة. ولكن الكابتن الواثق بان أمثال هذه المعارف ليست لازمة لها ولن تعود عليها بالنفع كان يجيبها باقتضاب وبلهجة حادة جافة، ويرنو متطلعاً طيلة الوقت الى ساعة يده.

ونبه رئيس الدورة الكابتن الى كونه لا يعير ميخائيلوفا الالتفات المطلوب، قائلا له:

– أليست فتاة حسنة؟

وأعلن الكابتن بحماسة غير متوقعة:

– انها حسنة للحياة العائلية. لا تنس أيها الرفيق الرئيس اننا معشر العسكريين لا يجوز ان تكون لدينا عقفات زائدة من المشابك. وربما يحدث وضع يتطلب قضاء المرء على نفسه بنفسه. فهل بوسع هذه الحسناء فعل ذلك؟ انها لسوف تشفق على نفسها! أفتستطيع الجود بحياتها... مثل هذه... – واحتدم الكابتن غيظا.

ولكي يتخلص الكابتن من ميخائيلوفا نقلها الى لفيف عاملات اللاسلكي.

كانت دورات وحدة الانزال واقعة في احدى دور الاستجمام بضواحي موسكو. البناية ذات شرفات عريضة مجنحة، مزججة. والممرات الداخلية مفروشة بالبسط الحمر. وقطع الاثاث فيها مطلية بدهان زاه. فكان هذا الوضع الذي لم يفقد بعد روعة الحياة السلمية يغري في الأماسي بشتى أنواع التسلية واللهو. عزف أحدهم على البيانو، وانطلق آخرون الى المراقصة. ولولا البزة العسكرية لكان ممكنا الاعتقاد بان ما يجري هو أمسية عادية ليلة يوم العطلة في دار استجمام فاخرة بضواحي موسكو.

قرقعت بدويها المدافع المضادة للطائرات، وفتشت أرجاء السماء الاشعة البيض للكاشفات متلمسة الجو بمجاساتها الشبيهة بالخراطيم بحثاً عن الطائرات المغيرة وكان ممكناً عدم الالتفات الى ذلك.

عقب التدريسات والتدريبات كثيراً ما جلست ميخائيلوفا على الأريكة في غرفة الجلوس واضعة ساقاً على ساق، وبين يديها كتاب تطالعه. كانت تقرأ على ضوء مصباح، ضخم المظلة، مثبت على اسطوانة حاملة متينة وعالية مصنوعة من الخشب الأحمر. منظر هذه الفتاة، ذات الوجه الجميل والهادىء، وهيئتها الساكنة، والشعر المنسدل على الظهر، والأصابع الدقيقة البيض لا ينسجم وعمل تخريبي خفي، أو توجيه طعنات بالسكين و قبضته الملفوفة بقفاز مطاطي...

حين كانت ميخائيلوفا تنتبه الى حضور الكابتن تنهض بسرعة وتقف في وضعية الاستعداد هو كما المتبع لدى ظهور الآمر. فيومىء جفرونكوف برأسه في غير احتفال ويمر. كان هذا الشخص القوي، ذو الوجه الأحمر الجاسي المعهود لدى الرياضيين، وان كان لا يخلو من أمارات الارهاق والاسى في الواقع، قاسيا ومتشددا ازاء نفسه أيضاً...

آثر الكابتن التصرفَ لوحده في أداء المهام. وكان له في ذلك حق. فقد تجذر في فؤاد الكابتن ألماً بارداً موت زوجته وطفله، وقد

سحقتهما في بلدة حدودية جنازير الدبابات الالمانية يوم ٢٢ حزيران*.

التزم الكابتن بالصمت حول فاجعته. ولم يشأ أن تعتبر مأساته سبب اندفاعه بلا وجل. ولهذا خدع رفاقه. وكان يحادث نفسه مراوغا بقوله: «لم يكن القتل نصيب زوجتي وولدي. انهما لا يزالان على قيد الحياة. انني لواحد من الآخرين، شأني شأنهم، ويجب علي مثلهم خوض غمار القتال». وركز كل قواه الحيوية على النضال ضد العدو. في هذه الحرب غير قليل عدد أمثال هؤلاء الناس الفخورين والحزانى والاقوياء.

يا شعبي الطيب والمرح والحسن! أي بلاء قد قسى به الاعداء قلبك فجعلوه كأنه مقدود من حجر الصوان!

وها هو الكابتن يخطو خلف جندية اللاسلكي الزاحفة يحمل نفسه على الكف عن التفكير في الأمور التي بوسعها عرقلته عن امعان التفكير في سلوكه وتصرفه. انه جائع واهن مرهق جراء طول السير. وهي تأمل بالطبع في تلقي عونه، لكنها تجهل انه حالياً غير صالح لشيء. هل يسرد لها مفصلا كل شيء؟ كلا، ثم كلا! من الأفضل جعلها تتحمل بشكل ما، ثم سوف يستجمع قواه، ولربما سوف يتسنى...

في منحدر رأسي لوهدة منخفضة كانت المياه الربيعية قد حفرت تجويفاً أشبه ما يكون بالمشكاة، وكانت العروق المتصلبة للأشجار معلقة فوق الرأس، ونحيفة مثل الخيط المبروم أو متشابكة مضفورة شبيهة بحزمة من الأمراس المعدنية الصدئة، فالثغرة مغطاة من الخارج بسقيفة جليدية. كان الضوء يتغلغل الى هنا نهاراً كما لدفيئة زرع. وكان المكان هنا نظيفاً يابساً ومفروشاً بكومة من أغصان أشجار الشوح. ثمة صندوق جهاز اللاسلكي المربع، كيس النوم، خشبتا التزلج مسندتين الى الجدار.

– انها مغارة مريحة، – قال الكابتن ملاحظا. وبعد الطبطبة بكفه على المفرش قال: – اجلسي واخلعي حذاءك.

---

* يوم الهجوم الغادر من قبل المانيا الهتلرية على الاتحاد السوفييتي. **الناشر**

– ماذا؟ – سألت الفتاة باستنكار واستغراب.
– اخلعي حذاءك. ينبغي أن أعرف ما تصلحين له ورجلك بهذه الحالة.
– انك لست بطبيب وثم...
وقال الكابتن:
– اعلمي. فلنتفق بداية على وجوب اقلالك من الكلام.
– آي... مؤلم.
– لا تئني. – قال الكابتن وهو يتحسس قدمها المتورمة، جلدها المزرق الملتصق بلمعة صقيلة.
– لم يعد بوسعي الصبر والتحمل أكثر من هذا.
– كفى. اصبري، – قال الكابتن وهو ينزع لفاف عنقه الصوفي.
– لست بحاجة الى لفافك.
– وهل الجورب القذر أفضل؟
– انه نظيف.
– أتعلمين. لا تصدعي رأسي بما يضجر. أعندك حبل؟
– كلا.
ومد الكابتن يده وقطع قطعة من عرق رقيق من عروق الشجر، وربط به رجلها التي لفها باللفاف، وأوضح قائلا:
– هكذا تكون محكمة الربط.
ثم أخذ خشبتي التزلج الى الخارج، وصنع شيئاً ما بمهارة، مستخدما السكين. وبعد رجوعه أخذ جهاز الارسال، وقال:
– والآن يمكن الرحيل.
– أتنوي سحبي على خشبتي تزلج؟
– فلنفرض انني لا أريد ذلك، ولكن لا معدى عنه.
– فليكن، ما من مخرج آخر عندي.
– هذا هو عين الصواب، – وافق الكابتن. – وعلى فكرة، أليس لديك ما يؤكل؟
– هاهو، – قالت ذلك وهي تخرج من جيبها قطعاً مفتتة من الخبز المجفف.
– انه قليل.

– هذا كل ما بقي عندي. فأنا على مدى بضعة أيام...
– مفهوم، – قال الكابتن وأضاف: – الآخرون يأكلون في البداية الخبز اليابس ويحتفظون بالشكولاتة لليوم الأسود.
– بوسعك ابقاء شكولاتتك لنفسك.
– وليس في نيتي اطعام الغير. – وخرج الكابتن محنياً بتأثير ثقل جهاز الارسال.

بعد مرور ساعة على بدء السير أدرك الكابتن ان أموره سيئة. ورغم ان الفتاة المستلقية على خشبتي التزلج (او بالأحرى على المزلجة المصنوعة منهما) ساعدته مستخدمة يديها في دفع المزلجة، فان قواه قد خارت. ارتجفت رجلاه اما قلبه فقد دق بحيث تعسر عليه التقاط الأنفاس.

«لو قلت لها انني لا أصلح لشيء لتحيرت في أمرها. اما اذا تشجعت نفسي وتابعت فان الأمر سينتهي بخاتمة مرة سيئة».

وتطلع الكابتن الى ساعة يده وقال:
– لا بأس في ارتشاف مشروب ساخن.

وبعد نبشه في الثلج حفرة صنع بالعصا مدخنة وغطى فوهتها بالأغصان الخضراء والثلج، كان المطلوب من الأغصان والثلج سلب الدخان كالمصفاة وعندئذ يصبح غير مرئي من بعد. وبعد جمع الكابتن الأغصان الجافة وضعها في الحفرة ثم أخرج من جيبه كيساً حريرياً فيه خرطوشة ونثر حفنة من البارود الخشن على غصن وأشعله بعود ثقاب.

التهبت الشعلة حارقة الغصن. وبعد وضعه على الموقد علبة صفيح ألقى فيها الكابتن بعض الدوالي الجليدية وقطع الجليد. ثم أخذ الخبز اليابس ولفه في منديل ووضعه فوق الجذمور وأخذ يضربه بمقبض السكين. ونثر الدقاق منها في الماء المغلي وصار يحركه. ثم رفع العلبة عن النار ووضعها على الثلج لتبرد.

سألته الفتاة:
– أهو لذيذ؟
– يكاد يكون شبيها بالقهوة المسماة «عافية»، – ومد يده اليها بالعلبة الحاوية على السائل الساخن ذي اللون البني.
– لا داعي. سأصبر.

– سوف يكون لديك متسع للصبر، أما الآن فلا تصدعي رأسي بشتى أنواع الألاعيب. اشربي.

وحتى حلول المساء تسنى له قتل زاغ كبير السن، واستفهمت الفتاة:

– وهل ستأكل هذا الغراب؟

– ليس هذا بغراب وانما هو زاغ.

وشوى الطير على الموقد وعرض على الفتاة نصف الطير المشوي قائلا:

– أتريدين؟

فصرخت باشمئزاز:

– مستحيل.

وشعر الكابتن بالتردد، ثم تلفظ مستغرقاً في التأمل:

– لعل ذلك سيكون من باب العدل فاني سآكل الطير كله بمفردي.

وعقب التدخين ركبه المرح وسأل:

– والآن كيف حال رجلك؟

وردت الفتاة:

– يخيل الي ان بوسعي المشي قليلا وقطع مسافة ما.

– دعك من هذا.

ظل الكابتن يجر خلفه خشبتي التزلج طيلة الليل. وبدا له ان الفتاة قد أغفت، وعند مطلع الفجر، توقف في وهدة منخفضة.

كانت شجرة صفصاف ضخمة اقتلعتها زوبعة عاصفة مرمية على الارض، بدت تحت عروقها الجبارة وهدة هاوية. غرف الكابتن الثلج من الحفرة وكسر الاغصان وفرش فوقها الرداء المشمع. وسألته الفتاة التي استيقظت من نومها:

– أتريد الرقاد؟

فقال الكابتن:

– ساعة واحدة لا اكثر. والا فلعلي قد أنسى النوم وكيف يقام به.

وبدأت الفتاة تتملص من كيس نومها. وسألها الكابتن متناهضا:

– ما هذه الفعلة؟
دنت الفتاة منه وقالت:
– سارقد بجوارك جنبا لجنب، سيكون هذا أجلب للدفء، ونتخذ الكيس لحافاً.
اعترض الكابتن متذمراً:
– ما هذا الذي تقولينه؟
وقالت الفتاة:
– أتتزحزح قليلا، انك لا تريد أن أرقد على الثلج... هل وضعك في الاضطجاع غير مريح؟
– اجمعي شعرك فانه يلج أنفي مما يدفعني الى العطاس. وعموماً...
– اذا كنت تريد النوم فنم. أما شعري فانه لا يمنعك أن تنام.
– يمنعني، – قال الكابتن ذلك بفتور، ثم أغفى...
واستمر خرير الثلج ووقع القطرات وارتسمت زاحفة على الثلج كالدخان ظلال الغيوم.
وغط الكابتن في نومه وهو يصك قبضة يده الى شفتيه ضاغطاً عليهما، وكان وجهه بادياً عليه التعب والارهاق. انحنت الفتاة ودست يدها برفق واحتراس تحت رأسه.
وسقطت من الغصن المطل فوق الحفرة على وجه النائم قطرات ماء ثقيلة. فاطلقت الفتاة يدها وبسطت راحة كفها كالمظلة لتحمي بها وجه النائم. وحين تجمع في باطن كفها مقدار من الماء نفضته بعيدا بكل حذر.
استيقظ الكابتن من نومته فجلس وأخذ يمسح وجهه براحتيه. وقالت الفتاة:
– هنا شعرات بيضاء. فهل جرى هذا بعد ذلك الحادث؟
– واي حادث؟ – سأل الكابتن معتدلا في جلسته:
– حين اطلقوا عليك الرصاص؟
– لا اتذكر، – قال الكابتن ذلك وهو يتثاءب متمطياً. ولم يشأ نبش الذاكرة بالحادث المذكور.
كان وقوع ذلك الأمر على هذا النحو. في شهر آب –

اغسطس نسف الكابتن مستودعاً ضخماً للاعتدة لدى الألمان، وثأته ضربة موجة الانفجار، فأحرقت شعلة النار وجهه بحيث تغيرت معالمه. ظل مستلقياً في ملابسه الملتهبة المسودة من الاحتراق حتى حمله رجال الاسعاف الالمان على نقالة الى المستشفى سوية مع الجنود الالمان المصابين جراء الانفجار واستمر رقاده ثلاثة أسابيع، متظاهراً بانه من الصم البكم، ثم تحقق الاطباء من عدم فقدانه حاسة السمع. أطلق رجال الغستابو الرصاص على جفرونكوف سوية مع ثلاثة من الجنود الألمان المتهمين بالتمارض. وفي الليل تسلق الكابتن، مثخناً بالجراح، الخندق المحفور وزحف مسافة عشرين كيلومترا الى الموضع المتفق عليه.

وقطعا لحبل هذا الحديث سألها الكابتن:

– أما تزال رجلك تؤلمك؟

أجابت الفتاة مستوفزة:

– لقد قلت انني الآن قادرة على المشي بنفسي.

– كفي عن هذا. اجلسي... عندما يحل الوقت أفرض عليك حتى القفز.

انتعل الكابتن الزلاجة. وعاود جرها على الثلج المتذوب.

وهطل مطر يخالطه الثلج، وصارت رجلاه تتزلقان، و القدمان تنفرجان، وكثيراً ما تهاوى ساقطا في حفر ملأى بذوب الثلج. كان الجو رطباً يلفه غبش الضباب. وفكر الكابتن بأسى: هل سيتاح لهما عبور النهر المغطى الآن على الأرجح بالماء فوق الجليد.

كانت فرس نافقة منطرحة على الدرب. جلس الكابتن قربها القرفصاء وفي يده السكين. وقالت الفتاة متناهضة في جلستها:

– أتعلم انك تفعل كل شيء بمهارة وحذق، أما أنا فحتى النظر الى هذا يبعث في نفسي الاشمئزاز.

وأجاب الكابتن بهدوء:

– كل ما في الأمر ينبغي سد غائلة الجوع.

وشوى شرائح رقيقة من لحم الفرس غارساً اياها على هوائي جهاز الارسال بمثابة سفود. وقالت الفتاة مندهشة:

– لذيذ؟

– وكيف لا!– أجاب الكابتن مبتسماً واضاف: – ان لحم الخيل المشوي ألذ من لحم البقر. ثم نهض قائماً وقال:
– سأذهب لأتفحص المكان فابقي في محلك.
– طيب، – قالت الفتاة موافقة ثم أردفت: – لعل ذلك يبدو لك مضحكاً ولكن من العسير على نفسي الآن البقاء وحيدة. لقد تعودت بشكل ما على ان نكون معاً.
وتمتم الكابتن مدمدماً:
– دعي عنك هذا واتركي الخزعبلات جانباً.
ولكن عبارته هذه كانت موجهة الى نفسه اكثر لانه كان قد اضطرب.
عاد اليها ليلا.
كانت الفتاة جالسة في الزلاجة ماسكة المسدس في يدها. وحين وقعت عيناها على الكابتن ابتسمت ونهضت.
– اجلسي، اجلسي. – رجاها الكابتن بنفس النبرة التي كان يوجهها الى جميع تلامذة الدورات التعليمية التدريبية عند قيامهم حين ظهوره.
ودخن ثم قال ناظراً نحو الفتاة في ارتياب:
– ياله من أمر. لقد أنشأ الألمان غير بعيد من هنا مطاراً.
وسألت الفتاة:
– وماذا في ذلك؟
– لا شيء. لقد أقاموه بفائق المهارة. – ثم سأل بجد: – هل جهاز الارسال لديك صالح للعمل؟
قالت الفتاة مبتهجة:
– أتريد اجراء الاتصال البرقي؟
– بل وجدا جدا. – قال الكابتن.
رفعت ميخائيلوفا القبعة ووضعت سماعتي الجهاز على رأسها، وصكت بهما اذنيها، وعقب بضع دقائق سألت ما الذي ينبغي ابراقه. وجلس الكابتن بجوارها وضرب بقبضته راحة كفه قائلا:
– بايجاز، الأمر على هذا النحو: لقد تشربت الخارطة بالماء فتشوهت وليس بوسعي تحديد القاطع الذي يقع فيه المطار، ساعطي الاحداثيات بواسطة البوصلة. ونظراً لقرب السحاب من

سطح الارض في هذا الموضع ستكون نقاط الاستدلال البصري مخفية. ولهذا سيكون الدليل جهاز الارسال على موجة البث، اذن اخبريني بموجة بثكم هناك...

ونزعت الفتاة السماعتين، وتحولت نحو الكابتن بوجه متلألىء. ولكن الكابتن الذي كان منهمكا في لف سيجارة جديدة لم يرفع عينيه، وقال بصوت أجش:

– ما ينبغي الآن هو أن آخذ جهاز الارسال، وأذهب الى هناك، – ولوح بيده موضحاً بقوله: – لكي أكون قريباً من الهدف، يتعين عليك الوصول بوسائلك الخاصة. ما أن يسود الظلام توجهي نحو النهر. ان الجليد على سطحه رقيق فخذي معك عود خشب، في حالة انهيار الجليد وسقوطك في الماء سوف يساعدك. ثم تزحفين حتى قرية مالينوفكا، تبعد مسافة ثلاثة كيلومترات، هناك سيحسنون استقبالك.

وقالت ميخائيلوفا:

– حسن جدا. ولكنك لن تحصل مني على جهاز الارسال.

وقال الكابتن:

– ماذا. ماذا... دعي عنك هذا.

– انني أتحمل مسئولية جهاز الارسال وسأظل معه.

فقال مدمدما:

– كملحق مجاني! – وتملكه الغضب فصرخ فيها: – هذا أمر عسكري ملزم بالطاعة.

– اعلم ايها الكابتن ان أي أمر من أوامرك سوف ينفذ ويطاع. ولكن لا يحق لك انتزاع جهاز الارسال مني.

واحتدم الكابتن غيظا وصرخ:

– افهمي القضية في نهاية الأمر...

وقالت ميخائيلوفا برباطة جأش وهدوء:

– انني أفهم. هذه المهمة تخصني وحدي. – وتطلعت بسخط في عيني الكابتن، وقالت: ها أنت ذا تحتد وتتولى قضية لا تخصك.

التفت الكابتن بشكل حاد نحو ميخائيلوفا، وهم بالنطق بشيء

ما كثير الاغاظة بالغ الايذاء، ولكنه تمالك نفسه ونطق بجهد قائلا:

- يكفي. حسناً. أنت وشأنك افعلي ما شئت. - ويبدو انه أراد الانتقام على نحو ما مقابل الاساءة، فقال: - لم يكن بوسعك طبعاً التوصل لوحدك الى مثل هذه الفكرة الموفقة، وها نحن الآن...

وقالت ميخائيلوفا ساخرة:

- انني أكن لك بالغ الامتنان على فكرتك الرائعة أيها الكابتن.

وشمر الكابتن كمه عن معصمه متطلعاً الى ساعته.

- ما لك لا تزالين جالسة. ان الوقت لا ينتظر.

وتناولت ميخائيلوفا جهاز الارسال اللاسلكي من حلقتي قبضتيه وخطت بضع خطوات، ثم التفتت الى الخلف نحوه، وقالت مودعة:

- الى اللقاء يا كابتن.

- امضي، امضي، - غمغم الكابتن ومضى متجها نحو النهر.

افترشت الأرض عتمة الضباب. وفاحت في الهواء رائحة رطبة وسمع في كل مكان صوت الماء الذي لايتوقف عن الخرير حتى في الليل. ملاقاة الموت في مثل هذا الطقس أمر مؤلم يحز في النفس عميقاً. وان كان العالم يخلو في الحقيقة من أي طقس يطيب للمرء فيه ملاقاة الموت.

لو أن ميخائيلوفا كانت قد قرأت قبل ثلاثة أشهر مثلا قصة يجتاز بطلاها مثل هذه المغامرة لبدت على الأرجح في عينيها الجميلتين تعابير ورؤى حالمة. ولحلمت وهي التفت تحت اللحاف الناعم ان دورها الى البطولة قد حان، وانها رغم كل شيء ستنقذ لا محالة هذا البطل الباسل الجريىء. ثم انه كان بعدئذ سيحبها، أما هي فلن تعبأ به.

في ذلك المساء، حين أنهت الى أبيها قرارها، لم تكن لتعرف ان هذا العمل يتطلب توتراً في القوى يفوق طاقة البشر وتوفر القدرة على الرقاد في حمأة الوحل ونفاية الأقذار ومعاناة السغب والتجلد أمام التجمد في الصقيع وتحمل شدة الشوق والحنين في

وحشة الوحدة. ولو كان أحد ما قد تحدث اليها شارحاً باسهاب وتفصيل مدى صعوبة ذلك لكانت قد سألت ببساطة:

– ولكن أليس اناس آخرون قادرين على فعل ذلك؟

– واذا كان نصيبك القتل؟

– ليس الجميع ينتهي مصيرهم بالقتل.

ولكانت قد تمهلت قليلا ممعنة في التفكير ثم تضيف قائلة:

– لست ادري كيف سيكون تصرفي وسلوكي ولكنني على أي حال لن أقول أي شيء بهذا الصدد وانتم بي عارفون.

وحين علم الوالد وفهم أطرق برأسه، وقال بصوت مبحوح غير صوته الذي تعرفه:

– سيكون وقع الأمر منذ الآن علي وعلى والدتك ثقيل الوطأة جدا.

وقالت برنة:

– ابي. ابي... ولكن افهم ليس بوسعي البقاء هنا!

ورفع الأب وجهه، فاعتراها الفزع لما بدا عليه من ارهاق العذاب وكبر السن، وقال:

– انني أفهم. وماذا في الأمر، لكان أسوأ وقعاً لو لم تكن عندي مثل هذه البنت.

فصرخت: – بابا... بابا... انك من الطيبة بحيث اني لسبوف انخرط الآن في البكاء.

وأخبرا الأم في الصباح بان البنت سوف تنتسب الى دورات عاملات التلفون في الجيش.

وشحب وجه الوالدة ولكنها ضبطت نفسها واكتفت بالقول في رجاء:

– كوني في منتهى الاحتراس يا بنيتي.

وتعلمت ميخائيلوفا في الدورة باجتهاد، وعراها القلق خلال فترات الفحوص والاختبارات كما في امتحانات المدرسة. وشعرت بالغبطة المفرطة حين نوه الأمر الصادر بحقها لا بمجرد عدد الاشارات المرسلة بل ومستواها الرفيع.

وأثناء انفرادها في الغاب هذه الأيام الموحشة الباردة بكت في البداية وأكلت كل الشكولاتة. ولكنها تابعت بانتظام نوبة

ارسال الاشارات ورغم رغبتها العارمة أحيانا أن تضيف الى نص الارسال شيئاً ما من عندياتها لئلا تحس بهذا الانفراد واليتم فانها لم تفعل ذلك توفيراً للطاقة الكهربائية.

وها هي الآن تستغرب لبساطة الأمر لدى بلوغها المطار. ها هي تزحف على الثلج المبلل مبللة، بقدم متجلدة بالبرد. بينما كان الوالد في السابق يجلس بجنب فراشها حين تصاب بزكام او غيره ويقرأ لها جهراً لئلا ترهق عينيها، وتنهمك الوالدة، ووجهها طافح قلقاً في احماء زجاجة المحرار داخل راحة كفها لكون ابتها تتضايق من وضعه تحت ابطها بارداً. وحين كان جرس الهاتف يرن تتحدث الوالدة أثناء المكالمة بصوت هامس، وتقول في ارتباك: – «انها مريضة». ويدس الوالد في جهاز الهاتف ورقة لئلا يقلق رنين جرسه ابنته. اما الآن فلو لحق الالمان على جناح السرعة في ضبط موقع جهاز الارسال الذي يرسل الاشارات فانهم سوف يقتلون ميخائيلوفا.

انهم سوف يقتلون هذه الصبية الحسنة الحسناء الطيبة، وربما الموهوبة، وستظل طريحة على الثلج المبلل الكريه، مرتدية بدلة عمل ذات فرو، وهم على الأرجح سوف يخلعونها من جسدها. وشعرت بالفظاعة ومتصورة نفسها عارية مرمية في القذر، وسوف تنظر اليها وهي عارية عيون الفاشيين البشعة المقيتة.

وما أشبه هذه الغابة بالاجمة في كراسكوفا، احدى ضواحي الدارات الصيفية خارج موسكو، حيث أمضت الصيف في بيت خشبي ريفي. وكانت هناك مثل هذه الأشجار، وكذلك حين عاشت في مخيم طلائع كانت هناك مثل هذه الأشجار. وكانت شبكة الأرجوحة مشدودة بين مثل هاتين الصفصافتين التوأمين.

وحين حز زميلها ديمكا اسمها على لحاء شجرة بتولا مثل هذه القريبة غضبت عليه ونهرته لافساده الشجرة، أعلنت مقاطعته. وقد جرى خلفها وظل ينظر في اثرها بعينيه الحزينتين والجميلتين. ولكن بعدئذ، حين تصالحا، قال انه يود تقبيلها. أغمضت عينيها وقالت: – «ولكن في غير الشفتين». وكان من الاضطراب بحيث وقعت قبلته على حنكها.

شغفت كثيراً بالفساتين البديعة. وحين كلفوها ذات مرة

بالقاء خطاب في حفل عمدت الى ارتداء أبدع فستان لديها. وسألها الفتية الزملاء:

– لماذا أسرفت في الزينة الى هذا الحد؟

أجابت: – وهل في ذلك من بأس، ولم لا أحرص على أجمل مظهر عند القاء الخطاب؟

وها هي الآن تزحف على الأرض قذرة مبللة تتلفت الى الخلف، وتتسمع لكل نأمة، تجرجر ساقها المتجمدة المتورمة.

«فليقتلونني. وماذا يهم لو قتلوني؟ أليسوا قد قتلوا ديمكا وقتلوا الآخرين من الفتيان الطيبين الرائعين، لسوف يقتلونني أيضاً. فليكن... فهل أنا أسوأ من اولئك؟»

هطل الثلج، تبقبق برك الماء. تكوم الثلج المتوسخ في المنخفضات. وهي تواصل زحفها. وكانت عند الاستراحة تستلقي على الأرض المبلولة واضعة رأسها على يدها المثنية المطوية. بينما أخذ الضباب الرطب يزداد سواداً فالليلة حالكة. ومن مكان ما في السماء سرت قاصفات ضخمة كسفن ماخرة عباب البحار. وراح ملاح السفينة المقدمة منها، مستلقيا في مقعده، وقد أغمض عينيه نصف اغماضة، يتنصت الى الوشوشات والصفير من الاثير، منبعثة في الميغافونات، ولكن لم تكن من بينها اشارات صادرة عن جهاز الارسال. وأخذ الطيارون أيضاً وعامل اشارة اللاسلكي وهم منكمشون في مقاعدهم على أنفسهم يتنصتون مرهفين السمع الى الوشوشات والصفير في الميغافونات بحثا عن تلك الاشارات، ولكن لم تكن لها من أثر.

وبغتة ترددت بخفوت واحتراس اشارات النداء الأولى، واستدارت السفن الهوائية الضخمة سائرة على هدى هذا الصوت الضعيف كالخيط الواهي من خيوط بيت العنكبوت، مغيرة وجهة سيرها تشق عباب السحاب باندفاعها وثقلها متمسكة بهذا الصوت الخافت، ولكن القريب الى النفس، فكأنه صرصرة الصرصار أو هسهسة السنابل الجافة في السهب أو خشخشة ورق الأشجار في الخريف في الغاب، وأضحى هذا الصوت الضعيف دليلا مرشداً لسفن الجو الفولاذية الضخام.

وكان آمر هذه الوحدة الجوية، والطيارون، وعامل اشارة اللاسلكي، وميكانيكى المتن، وكذلك ميخائيلوفا على علم بان القنابل سوف تلقى الى هناك حيث يصدر هذا الصوت الأليف من جهاز اللاسلكي، لان ذلك المكان يضم أيضاً طائرات العدو.

وقفت ميخائيلوفا على ركبتيها في الحفرة وسط حمأة الطين الأسود، وكانت تضغط على المفتاح منحنية فوق جهاز الارسال. وكانت ترتفع فوق رأسها سماء ثقيلة مغمورة بالصمت المطبق، فلا حركة ولا نأمة. نملت الرجل المتجمدة في الطمى الطينى الخفيف، وصعد الألم في العروق الى الرأس سيلا حاراً متدفقاً. وشعرت ميخائيلوفا بالبرداء. رفعت يدها الى شفتيها، فكانت ساخنتين ناشفتين. وفكرت واقعة في أسر الحنين «لقد استبردت، لكن هذا الآن ليس بالأمر الهام». وخيل اليها أحياناً انها تفقد الوعي. وفتحت عينيها وتسمعت بفزع. كانت الاشارات تدق في السماعتين بدقة. اذن فان يدها كانت تضغط على عتلة المفتاح استمرارياً ودون ارادة. وفكرت «يا لها من يد طيعة! حسناً فعلت بالمجيء بنفسي وعدم السماح للكابتن بالقدوم الى هنا. والا أكان ممكناً أن تعمل يده في دق الاشارات لا اراديا؟ كلا. ولو لم آت أنا الى هنا لكنت الآن في مالينوفكا. ولربما كانوا قد دثروني بمعطف فرو قصير... وهناك يوقد الموقد فكل شيء مغاير، اما الآن فلن يكون من بعد من أحد أو شيء... ما أغرب أن اكون مستلقية هنا أفكر بينما في مكان ما موسكو. هناك اناس، وما أكثرهم، لا يعرفون انني هنا. وعلى أي حال فانني شاطرة. لعلي شجاعة؟ يمكن القول بانني لا أخاف... كلا. هذا لانني أشعر بالألم ولهذا لا محل في نفسي للخوف... فليتم الأمر بأسرع ما يمكن! ماذا حل بهم في حقيقة الأمر! أمن المعقول انهم لا يفهمون انه لم يعد في وسعي المزيد من التحمل؟»...

وبعد استسلامها للنشيج استلقت على حافة الحفرة، وبعد الاستدارة الى جنب واصلت دق الاشارات. وأصبحت الآن قبة السماء الضخمة الثقيلة مرئية لها. وها هي قد عمتها الأنوار الكشافة. وأخذت تسمع من بعيد اللهاث الثقيل الصادر عن السفن الجوية، وهمست ميخائيلوفا متبلعة دموعها:

- ايها اللطاف الحسان... وأخيراً جئتم الي ووصلتم في طيرانكم الى مكاني. ما أسوأ حالي هنا. - وفجأة اعتراها الخوف: «ماذا لو انني بدلا من اشارات النداء أبرقت دون وعي بعباراتي الحرى هذه؟ أي الظنون تراودهم بشأني؟»

واعتدلت في جلستها وأخذت تدق الاشارات بشكل موزع ودقيق مكررة الرقم بصوتها لئلا تخطىء الحساب.

أخذ دوي السفن الطائرة يزداد اقتراباً. وانطلقت قرقعة المدافع المضادة للجو.

- أها... لا يعجبهم ذلك.

وتناهضت. لا بأس لقد زال الألم وتلاشى. ودقت بكل قواها على المفتاح وكأنما هي ليست اشارات وانما صرخات مدوية تنادي: «اضربوا... اضربوا» منبعثة من مفتاح جهاز الارسال.

وسقطت القنبلة الأولى تشق الهواء الأسود مدوية وهوت ميخائيلوفا منطرحة على ظهرها من وقع اللطمة الهوائية ولمعت في البرك المائية البقعة ذات اللون البرتقالي المنعكسة عن الشعلة الملتهبة، وزلزلت الأرض. وتدحرج جهاز الارسال منزلقاً الى الماء. وحاولت ميخائيلوفا أن ترفعه. وبدا لها كما لو أن القنابل المدوية بضجيجها انما كانت تسقط عليها مباشرة في حفرتها.

دفنت ميخائيلوفا رأسها بين كتفيها، وتجمعت على نفسها قابعة، مغمضة العينين بشدة. وتسرب ضوء اللهب من خلال الجفون الى العينين. وقذف نفخ الانفجارات الى الحفرة عارضة ملفوفة بالأسلاك الشائكة. وخلال الفترات ما بين انفجارات القنابل انفجر وطقطق شيء ما في الموضع. وفاحت في الضباب المسود رائحة البنزين المحترق ومعها الدخان الخانق.

ثم حلت فترة هدوء وصمتت المدافع المضادة للجو. وفكرت ميخائيلوفا بأسى واكتئاب «سأعود الآن بالطبع الى وحشة الانفراد».

وحاولت النهوض ولكن رجليها... لقد فقدت تماماً الشعور بهما. ماذا حدث! وتذكرت بعدئذ ان مثل هذا يحصل حين تنمل الرجلان. انها مصابة بوثاءة. وهذا كل شيء. واضطجعت واضعة

خدها على الطين المبلل، يا حبذا لو كانت قد سقطت ولو قنبلة واحدة الى هذه الحفرة! اذن لكان كل شيء بسيطاً... ولما كانت قد عرفت ماهو أفظع الأمور.

قالت لنفسها بحزم: «كلا. كان الأمر مع آخرين أسوأ، ورغم ذلك وجدوا مخرجاً من المأزق. لا ينبغي حدوث أي أمر سيىء معي. انني لا أريد ذلك».

وزمجر في مكان ما محرك سيارة. وزحفت أشعة باردة بيضاء متسلقة الشجيرة المسودة، ثم سمع دوي انفجار أضعف من انفجار القنابل وأصوات اطلاقات دانية جداً.

«انهم يبحثون. ما أحسن الاضطجاع. أمن المعقول الحرمان حتى من هذا؟».

أرادت الانقلاب على الظهر ولكن الألم في الساقين ضرب القلب كالتيار الساخن. وصرخت وهي تحاول القيام ثم هوت واقعة.

لمست أصابع باردة قوية معقد تلابيبها. ففتحت عينيها.

— أهذا أنت؟ لقد جئت لتتفقدني؟ — قالت ميخائيلوفا ذلك وأجهشت في البكاء.

مسح الكابتن وجهها براحة كفه، وأغمضت عينيها مرة أخرى لم يكن بوسعها السير، ومد الكابتن يده الى محزم بدلة العمل عند خصرها وانتشلها من الحفرة باحدى يديه. أما يده الأخرى فقد تأرجحت وكأنها مصنوعة من الخرق.

وكان صوت الزلاجة يسمع وهي تصرصر زاحفة في الوحل.

ثم رأت الكابتن. كان جالساً على قرمة شجرة، يعض بأسنانه على أحد طرفي الحزام، ساحباً يده العارية، ومن تحت الحزام يسيل الدم. ورفع طرفه الى ميخائيلوفا وسألها:

— والآن كيف الحال؟

فهمست:

— وأي حال!.

وقال الكابتن من بين أسنانه وهو يصك فكيه بقوة:

– على أي حال فانني لا أنفع لشيء بعد الآن. وقد خارت قواي. جربي الوصول فلقد بقي ثمة القليل.

– و أنت؟

– سأبقى هنا قليلا بغية الارتياح.

أراد الكابتن النهوض ولكنه افترت شفتاه عن ابتسامة استحياء وسقط متهاويا من القرمة الى الأرض.

كان بالغ الثقل. وتعذبت طويلا الى أن جرت جسده الواهي المتداعي ووضعته عن المزلجة. استلقى في ضجعة مزعجة منكباً على وجهه . ولم يعد بوسعها قلبه على ظهره.

ظلت تنتر مقابض المزلجة طويلا لكي تحركها من مكانها وسببت لها كل خطوة ألما لا يطاق ولكنها أمسكت المقابض متشبثة بها بعناد، وظلت تجتهد بعزم في جر المزلجة على الأرض المبللة الموحلة.

لم تفهم أي تعليل للأمور، وكيف يمكن الاستمرار هكذا؟ ولماذا هي واقفة على الأرض، وليست طريحة عليها خائرة القوى؟ اسندت ظهرها الى شجرة، وهي واقفة نصف مغمضة العينين، وخشيت الوقوع لئلا تعجز عندها عن الوقوف كرة أخرى.

ورأت كيف زحف الكابتن على الأرض ووضع صدره ورأسه فوق المزلجة، وقال بصوت خافت وهو يقبض على العارضة بيده السليمة:

– على هذا النحو سيكون الأمر عليك أيسر.

كان يزحف على ركبتيه نصف محمول على المزلجة. وأحيانا كان ينفلت منها لاطماً بوجهه الأرض. وعندها كانت تدس المزلجة تحت صدره، ولم تكن تقوى على الاستدارة لئلا تقع عيناها على وجهه المتحطم المسود.

ثم وقعت وسمعت مجدداً طشطشة الوحل أسفل المزلجة. ثم طرق سمعها صوت تكسر الجليد فاختنقت وشرقت بالماء. وأخذ الماء يغطي من فوقها. وكان يخيل اليها ان كل هذا يمر بها في أضغاث الأحلام.

فتحت عينيها لانها أحست بان نظرة ثاقبة مسلطة عليها. كان

الكابتن جالساً على حافة الفراش نحيل الملامح، مصفر الوجه ، قذر الذقن، ويده معلقة الى صدره بين كسرتين من لوحة خشبية، متطلعاً نحوها.

سألها بصوت ينم عن الطيبة والحنو، غير صوته المعهود:

– هل استيقظت؟

– لم أنم.

– رغم ذلك فهذا أيضاً بمثابة النوم.

رفعت يدها ولاحظت انها عارية فسألت بشكوى:

– هل أنا التي عريت نفسي؟

فقال الكابتن بنبرة غضب:

– بل أنا الذي عريتك. – وأوضح لاعباً أصابعه على يده الجريحة. – اني واياك كأنما قد سبحنا في نهر. ثم اني حسبتك جريحة.

– لا فرق. – قالت ذلك بصوت خافت ونظرت في عين الكابتن، فقال موافقاً:

– بالطبع.

فابتسمت ثم قالت:

– كنت أعلم بانك سترجع الي.

– ولماذا هذا؟ – قال الكابتن متضاحكاً برنة تمازجها السخرية.

– هكذا... كنت أعلم.

– هراء، – قال الكابتن، – لم يكن بوسعك العلم بشيء. لقد كنت دليل التوجيه أثناء القصف الجوي. وكنت عرضة للقصف والقضاء عليك. وفي هذه الحالة الطارئة بحثت عن حزمة من الحشى لكي أواصل اعطاء الاشارة بالنار. وثانياً كانت تفتش بحثاً عنك مدرعة صغيرة بجهاز اللاسلكي الخاص كشفاً عن موقع مرسلتك، وقد مشطت هناك كافة الأمكنة الى ان قذفت عليها رمانة يدوية وثالثاً...

– وماذا ثالثا؟ – سألت ميخائيلوفا برنة.

فقال الكابتن بجدية:

– وثالثا أنت فتاة حسنة. – وهنا أضاف بحدة: – ثم أين سمعت بأن أي واحد منا تصرف على نحو مغاير؟

جلست ميخائيلوفا وهي تستر صدرها بخرقة من الملابس ونظرت بعينين مشعتين في عيني الكابتن وقالت بصوت مرتفع وبتقطيع مخارج الألفاظ:

– أتعلم انني كما يبدو أحبك جدا.

وأدار الكابتن وجهه وكانت اذناه في منتهى الشحوب.

– دعك من هذا.

وقالت ميخائيلوفا بفخر:

– انني لست على هذا النحو وأنا أحبك هكذا...

رفع الكابتن عينيه وقال بحياء، وهو يرنو اليها:

– انه لكثيرا ما تنقصني الجرأة للاعراب عما أفكر فيه وهذا أمر سيىء جداً.

ثم نهض وقال بصرامة من جديد:

– هل سبق لك امتطاء صهوة الخيل؟

– كلا. – قالت ميخائيلوفا.

– والآن جربي ذلك.

– غفريوشا، مقاوم من قوات الأنصار! – هكذا قدم نفسه كعسكري شخص أشعث الشعر، قصير القامة، له عينان ضيقتان مرحتان، أمسك في يده مقودي حصانين ألمانيين نحيلين، مبتوري الذنب، من النوع المسمى عندهم غيونتر. وعندما لاحظ نظرة ميخائيلوفا الى وجهه قال موضحاً: – أرجو المسامحة فانني الآن شبيه بالكلب الشريد. ولكن عندما نطرد الألمان من منطقتنا سوف أحلق ذقني. لقد كان عندنا صالون حلاقة ممتاز. فيه مرآة ضخمة بقدر قامة الانسان.

وبعد اجلاس ميخائيلوفا على صهوة أحد الحصانين بارتباك تمتم متحيراً: – لا تظني الظنون بشأن الذيل. انه حصان طبيعي وهذا نوع خاص من الخيل. أما أنا فسأمضي ماشياً. انني انسان فخور، معتد بالنفس، ويخجلني ركوب حصان أبتر. ان الناس عندنا ضحاكون. وبعد انتهاء الحرب سيظلون يهزأون بي.

كان الصباح وردياً وهادئاً، فاحت برقة جذوع الأشجار الدافئة

التي استمدت الحماوة من تربة الأرض. وانحنت ميخائيلوفا على السرج نحو الكابتن ونطقت بانفعال:
– ما أحسن ما أنا عليه الآن. – وبعد النظر في عيني الكابتن أطرقت الى الأرض وهمست مبتسمة: – أنا الآن في غمرة السعادة.
وقال الكابتن:
– وكيف لا، ولسوف تصبحين أسعد فأسعد.
وكان نصير المقاومة يسير ممسكاً الزمام بجوار حصان الكابتن، رفع رأسه قائلا على حين غرة:
– في السابق كنت عاجزاً عن ذبح دجاجة. كنت اغني بصوت صداح في جوقة الترتيل. وعملت نحالا – مهنة تتطلب تشغيل البال. ولكن كم نحرت من هؤلاء الهتلريين! – وضرب كفاً بكف وهو يقول: – انني شخص حقود ولا أنسى الاساءة!
ارتفعت الشمس في كبد السماء. وقد تراءت من بين التربة الداكنة نباتات خضراء ناضحة بالنضرة والرقة والمرح. صك الحصانان الالمانيان آذانهما، وارتعشا فزعاً مرتعبين من الأشجار العملاقة التي تلقي الى الأرض ظلال متشعبة الأغصان والفروع.
حين عاد الكابتن من المستشفى الى وحدته العسكرية كاد الرفاق لا يتعرفوا عليه. كان مفرطاً في المرح، متحفزاً، ميالا للحديث، يقهقه عالياً، ويوزع عبارات التحية والود على الجميع دون تحفظ. ظل طيلة الوقت يبحث بعينيه عن شخص ما. واذ لحظ الرفاق ذلك حزروا، وقالوا كأنما دون قصد معين:
– اما ميخائيلوفا فقد توجهت من جديد في مهمة.
بدت على وجه الكابتن سيماء المرارة برهة لكنها سرعان ما توارت. وقال بصوت مرتفع دون النظر الى أحد:
– انها فتاة نشيطة. لا يمكن ان يقال بحقها ما يشين!
ثم أحكم أزرار سترته، ودلف الى غرفة مكتب الرئيس لتقديم تقريره بصدد التحاقه بالوحدة عائدا من المستشفى.

سنة ١٩٤٢

رحلة عادية

جمد القرس اللاذع كل شيء، اما الشمس فقد كانت ساطعة كما في افريقيا. وتحجر النهر الهائل في ركام مشعث من جلاميد الجليد مشعشعة، معشية البصر حتى ليخال المرء أنه يكاد يسمع الخشخشة اليابسة لشعاعها النفاذ. بينما امتدت غابات التايغا منبسطة اشبه بقارة زرقاء لازوردية. أما السماء فقد كانت شفيفة منداحة كأنما فتحت أبوابها على مصاريعها.

وأما السكون فقد كان سادراً مطلقاً كما لا يمكن ان يكون الا في الفضاء الكوني. وعلى طول الوهدة العميقة التي تنمو في قاعها أشجار الشربين الشاهقة الضخمة تدب جرارة قاطرة تسحب مزلجة محملة بأكياس السمنت غطيت بمشمع جديد. تسحق الجرارة قشرة الجمد الثلجية الصلبة كالخزف مهشمة لها مخلفة وراءها أثراً يشبه الاخدود.

كان وجه السائق مزداناً بعوينات قاتمة يضعها المصطافون عادة، مربعة الشكل، حديثة الموضة؛ القمرة دافئة، والفروة القصيرة والقبعة ذات الرفرفين للسائق معلقتان على المشجب الالومينيوم المثبت الى جدار القمرة الجانبي. وهنا أيضاً في المقابض الحديد استقر ترموس أحمر شبيه باسطوانة اطفاء الحريق.

على الجدار الخلفي للقمرة ألصق تحت زجاج غلاف لمجلة «اغنيوك» يصور الرباع يوري فلاسوف بطل العالم المطلق في رفع الأثقال، بعضلاته المفتولة الجبارة مرصوص البنيان كأنه في زرد من العضل.

بدا سائق الجرارة سرغي ليوتيكوف على خلفية صورة يوري

فلاسوف قميئاً ضئيلا. فهو ضيق الكتفين، شعره الفاتح الحليق قصير منتصب مثل أبر القنفذ. بينما برزت من ظهره المحني لوحتا كتفيه، وقد ارتدى ملابس ازدرت مناخ الشمال: قمصلة خشنة القماش لرعاة البقر مفتوحة الياقة وسراويل عمل قطنية تشدها حمائل نسيج عريضة واحذية مفلطحة الانف، غليظة الجلد، مما ينتعل في السير على الأقدام خارج المدن بعيداً وجوارب صوفية بيضاء مقلوبة الحواشي. فيما نمت على خديه لحية كعادة قباطنة السفن اشبه باطار من اللباد، حشرت فيه سحنته الفتية ذات العينين الجريئتين اللماعتين كعيون القطط.

ليوتيكوف رغم حداثة سنه ميكانيكي في قاعدة السيارات، يشتغل في الشمال السنة الثالثة، ويكلف بأكثر الرحلات مسؤولية. انه رصين التصرف، كامل الاحساس بكرامته، ومتزوج. تعمل زوجته في المختبر الخاص بالخرسانة وهي كرجية، حسناء، فارعة القامة، ذات عينين تشعان بالبريق كشمسين سوداوين، غير مفهوم بأي سحر أسرها ليوتيكوف حين وصلت تمارا غوتسريدزه، بعد التخرج من المدرسة التكنيكية المهنية، الى ساحة الأعمال الانشائية في منطقة ما وراء الدائرة القطبية، وأخذت تحاول عبثاً اشعال الموقد في تخشيبة – المختبر حتى تجمدت دموعها على وجهها الأسمر، دخل آنذاك ليوتيكوف التخشيبة وقال لها:

– هلمي معي.

وقادها الى مسكنه، معلناً:

– سيكون هذا مسكنك.

– وأين ستسكن أنت؟

– سأجد لي مبيتاً في مكان آخر.

وقالت تمارا باعتداد:

– كلا لست موافقة، فنحن على أي حال لسنا رجلا وامرأة حسب، علينا أن نكون أعلى من هذا المستوى... – ثم تلفظت بنبرة شكوى وضعف: – ولعل من الأفضل مع ذلك لو أسدلنا بيننا ستارة.

وفي المساء جلب ليوتيكوف على متن الشاحنة القلابة هيكلا حاجزاً مصنوعاً من الواح الخشب المتصلة بمفاصل حديد.

واتفقا على ترتيب وتنظيف المسكن بالدور. لكن تمارا كانت دوماً مشغولة ولا وقت لديها واتهمها ليوتيكوف بأنها من البطرات.
وردت تمارا مستنكرة:
- في بلاد الكرج عندنا يتصرف الرجال دائماً حيال النساء تصرف الفرسان. - وأضافت متشدقة بتبجح: - وتلك هي سمتنا القومية المميزة. ولو كنت زوجتك اذن لاختلف الأمر وهان. وكان يحق لك...
- ولكنني مثلا لا أفكر مطلقاً في الزواج بك، - أعلن ليوتيكوف مغضباً.
- وما السبب؟ - استفهمت تمارا برنة باكية - ألست بحسناء؟ لست جميلة؟
وقال ليوتيكوف بلهجة ادانة:
- بل وذات جمال مفرط حتى لقد فكرت باستحالة وجود حسن حتى هذا الحد.
- بلى، يوجد! - قالت تمارا ورنت اليه بنظرة ظافرة متمعنة من شمسيها السوداوين.
فدنفش ليوتيكوف عينيه بارتباك.
...في التوندرا كان جيولوجيون يعانون من مصاب.
تلقى ليوتيكوف أمراً بالذهاب للبحث عنهم. وعاد عقب مرور اسبوعين. وبدت الجرارة القاطرة كأنها كتلة صخر متجمدة مقدودة من الجليد والطين. وكانت ملابس ليوتيكوف متجمدة ومغطاة بالجليد الأسود. كانت الجرارة قد جنحت الى مستنقع فانتشلها ليوتيكوف من الأوحال، بعد تقطيع الأشجار، وتمهيد طريق من الاغصان عبر المستنقع ودحرجة الجنادل تحت الجنازير، مؤديا هذا كله بمفرده، لأن الجيولوجيين الاربعة كانوا منهكين، خائري القوى جراء التجوال، وهم انطرحوا في البيت الخشبي السيار الملحق بالجرارة. نقل الجيولوجيون الى العيادة الطبية، اما ليوتيكوف فقد أخذته تمارا وخلعت عنه بلا تحرج ثيابه المتجمدة وأعلنت مشجعة اياه انه الآن أشبه ما يكون بفارس في درعه الحديدي. وصبت عليه الماء الساخن صارخة من أقصى الحنجرة انها لا ترى أي شيء. واضافت مؤكدة:

– في النهاية كان محتملا أن أغدو طبيبة. لقد انتميت الى العاملين في البناء لأني لم اجمع المطلوب من النقط للقبول في الطب.

حزت هذه العناية الامومية في كبرياء ليوتيكوف. وعند مطلع الفجر اختفى من البيت الخشبي ولم يعد اليه كرة اخرى مفضلا الانتقال للعيش الى قاعدة السيارات.

وذات مرة اعترضت تمارا الجرارة القاطرة التي كان ليوتيكوف يسوقها وطلبت منه راجية ايصالها الى مقصدها وسألته بلهجة تأنيب وعتاب:

– يبدو انك نسيتني تماماً ولم تعد تتذكرني بالمرة؟

واعترف ليوتيكوف صراحة قائلا:

– كلا. انني اتذكرك وافكر فيك.

– وهل تفكر في كثيراً؟ – استجوبته تمارا بصرامة.

– الآن، كثيراً، – رد ليوتيكوف مرتبكاً.

– وفي وقت العمل؟

– اثناء العمل كذلك.

– اذن فانت تحبني، – اعلنت تمارا بلهجة حازمة وحاسمة.

وكررت بلا تردد أو تلعثم:

– طبعا، تحبني. – وهزت كتفيها باستنكار وأضافت: – اذن فانت غبي! فالغبي وحده يمكنه ايقاع نفسه في وضع يضطر الامرأة الى الافصاح عن مشاعرها بدلا عنه.

– اذن فأنا غبي، – قال ليوتيكوف موافقاً منصاعاً.

– اذن، قد ارتكبت حماقة اذ احببتك، – تلفظت تمارا ذلك في حسرة. وسرعان ما وعدت بحنق وسخط: – ولكن تذكر ولا تنسى ما عشت انني لن أنسى أبداً ما حييت كيف جعلتني اذل نفسي، اذ كنت البادئة في الافصاح عن الحب، انه للمرأة خزي وعار!

– ولكني أول من باح بذلك...

– وماذا قلت؟ لقد تلعثمت حين استجوبتك. – وطالبته بانفعال وامتعاض:

– كلا. قل لي الآن أين اعتدادي بالنفس؟ لقد كنت في السابق

ذخوراً الى حد لايطاق. - وتوعدته قائلة: - لكنك سوف ترى كم أنا أبية لا تحتمل!

وتزوجا. ووفت تمارا بوعدها الانتقامي. ورغم كونها سمحت له أمام الناس بمعاملتها والتصرف معها بكامل التفوق الرجالي، الا انها داخل المنزل ألقت كافة المشاغل المنزلية حتى النهاية على كاهلي ليوتيكوف. كان ينظف البيت ويطبخ الطعام وحتى يغسل الثياب. فيما كان ذا خبرة كبيرة في كل أعمال التدبير المنزلي. فقد كان في سن الثامنة من عمره حين جاءت امه حاملة على كاهلها جنديا جريحا، ثم تبعته بآخر، مخفية اياهما في مخبأ سري.

أطلق الرصاص على الوالدة شرطي مخمور من الرجال المتعاونين مع المحتلين الهتلريين ابان الحرب. فتولى ليوتيكوف لوحده أمر العناية بالجنديين الجريحين واطعامهما حتى تم لهما الشفاء. ثم ذهب معهما الى فصيلة أنصار المقاومة. فأرسل على متن طائرة الى سمولينسك، الى ميتم. وحين جرى اخلاء الاطفال من الميتم لنقلهم الى مكان اكثر سلامة، تعرض القطار في الطريق الى غارة جوية. وجمع ليوتيكوف من بقي على قيد الحياة من هؤلاء الاطفال وهم اثنا عشر طفلا وقادهم مدة ثلاثة أشهر حتى موسكو، ليرحل فيما بعد، من المدرسة ذات القسم الداخلي، الى سيبيريا.

تلقى التحصيل في المدرسة المهنية، واشتغل في مصنع، وكان لصغره يقف بجوار الآلة على صندوق، قاعدة للوقوف. ثم انتسب الى دورات السواق - الميكانيكيين. وأراد مدير الدورة وهو من جنود الدبابات سابقاً أن يتبنى ليوتيكوف رسمياً ولكن ليوتيكوف قال: وما الداعي الى هذا التبني انني بكفاءتي التخصصية بوسعي أن أتبنى من شئت...

وتطوع للعمل في الشمال حيث استطاع، بمقدرته على العيش بتمسك ودون وجل، والكدح بجرأة وجد، مهما كانت الظروف، انتزاع الاحترام الثابت حتى من بين اولئك الذين فقدوا الشعور باحترام الناس الآخرين.

ان الاشراف على أعمال الناس ليس بأفضل الوظائف على هذه الارض! ولكن ليوتيكوف شق لنفسه دربا معبدا الى افئدتهم. لقد

شقه بمساعدة الورشة المتنقلة للتصليح على الجرارة القاطرة. وقد اعتبرها بمثابة سيارته الخصوصية، ولم يتنازل لأي أحد عن حق سياقتها. وان لم يكن جميع سواق قاعدة السيارات مدينين الى ليوتيكوف بانقاذه أرواحهم، فان كل واحد منهم على أي حال كان ممتنا له على مساعدته المتفانية لهم في المواقف الحرجة، ما لا مخرج منها.

كم من مرة تولى ليوتيكوف البحث عن السواق التائهين أثناء زوبعة ثلجية هائجة فى صحراء التوندرا المتجمدة، فيجدهم هائمين على وجوههم، او جامدين في وحشة الانفراد، بعد اشعالهم كل ما صفحت به السيارة من الألواح الخشبية، يتلوون خلف المقود وعلى وجوههم غبار جليدي لا يذوب.

بعد انتشال السائق المتخشب، فاقد السيطرة على بدنه تماما، ونقله الى القمرة الدافئة للقاطرة. يعكف ليوتيكوف وحيدا في البرد القارس تحت الصفر بخمسين درجة، ما يجمد حد الموت كل كائن حي، ملثما وجهه بقناع قطني، على تصليح السيارة المعطوبة بروح عملية وتصبر غير سامح لنفسه الا ندرة بتدفئة يديه المتورمتين المتشققتين، على اللهيب الداخن للكيروسين المتخثر كالمرق المثلج.

وفيما بعد يوضح للسائق قائلا:

– الأمر الرئيسي في حالة الصقيع المريع الامتناع عن الحركة المضطربة دون داع لئلا تصرف سدى السعر الحرارية في البدن، يتوجب الحفاظ على رباطة الجأش، وعندئذ ذلك يكون كل شيء على ما يرام.

سأله السائق حاسدا:

– أأنت ذو بدن خاص أم ماذا؟ ام انك اللامقرور.

– بدني من النوع العادي تماماً مثل غيره. لكن الرأس هو المهم انني لا أسمح لنفسي بالتفكير في انني أتجمد من البرد، ولم اتجمد مرة واحدة.

واستفهم السائق بسخرية.

– هل واتاك هذا الوعي بفعل الوظيفة التي تزاولها؟

ووافق ليوتيكوف بطيبة نفس وسذاجة.

- وبفعل الوظيفة ايضاً. يعجبني البقاء رئيسا ولهذا اقاوم واداوم.

غداة هذه الرحلة عاد ليوتيكوف الى البيت في ساعة متأخرة من المساء. تولى بنفسه تهيئة الماكنة للسفرة البعيدة. كانت تمارا نائمة، ارتسمت على وجهها ابتسامة رقيقة، رغيدة، فخورة قليلا، مثل الابتسامة التي رسمها على شفة السيدة العذراء أعظم الفنانين.

نامت تمارا. أما هو فقد استلقى متمدداً جوارها، ولم يغمض له جفن. ضميره يؤنبه يذنبه ازاءها. وجه تمارا الممتلىء بانتفاخ خفيف ملطخ ببقع صفراء كالصدأ، اما شفتاها اللتان كانتا حينا من الدهر رقيقتين ناعمتين فقد انتفختا كالجروح المتورمة. التصقت به بثقة وادعة ببطنها الساخنة المدورة بارتخاء. وكان لا يخالجه سوى شعور الارتعاش من الخوف لتشويهه زوجته بلا شفقة الى هذا الحد. وحتى لقد شعر وكأنه يمكن ان يغدو قاتلها بالفعل في حالة وفاتها اثناء الوضع.

وحين أنهى اليها بانفعال ما خالجه ورجا منها الغفران استمعت اليه تمارا بتسامح ثم قالت وفي صوتها رنة بالرفعة والاعتداد:

- يا لك من مغفل! انني الآن في منتهى الغبطة والسعادة: - ثم وعدت بلهجة واثقة: - قريبا سنغدو ثلاثة، وعندها لا يكون لسعادتي حد.

دهش ليوتيكوف كون تمارا التي كانت نهبة للاستحياء النسوي منذ أمد قريب قد راحت تتحدث الآن دون أي حرج عن حملها.

كانت ملأى بشعور الفخر بأمومتها المرتقبة، بل وكان ظاهراً انها تتبجح بها. كانت في السابق تنفر اذا تأبط ذراعها، أما الآن فهي دائماً تضع يدها تحت ذراعه عندما يسيران معاً، دافعة بطنها فخورا الى الأمام. وقد حدث مؤخرا حين ذهبا معاً الى النادي انها تباطأت عمداً حتى تحققت ان الجميع قد استقروا في مقاعدهم بالقاعة، ورن الجرس الثالث، فمرت آنذاك بابهة وافتخار عبر القاعة كلها متكئة على يد زوجها، ولم تنتقل الى مقعدها الا بعد وقوف الجميع في الصف بكل تبجيل لمرورها من أمامهم، محنية رأسها بايماءة متلطفة لمعارفها، محافظة على وجهها بسيماء شمم خاص.

وحين هرع رئيس مشروع البناء، الذي وخطه الشيب، الى جلب كرسي وتقديمه لها في البهو، شكرته تمارا بايماءة خفيفة من رأسها، دون احتفال كبير، وجلست مستفهمة من الرئيس، عما اذا كان لديه أطفال؛ وأخذت تطرح بروح متعالية وجهات نظرها بصدد مبادىء تربية الأطفال، زاعمة ان جميع الوالدين يعانون من الكبرياء الفائضة ولهذا لا يبدون التفهم اللازم ازاء نفسية الطفل.

اعترف رئيس مشروع البناء، شاعراً بالذنب لكونه لم يتغلغل بعمق في نفسية أطفاله لانشغاله الدائم، فيما أصبحوا بالغين في غفلة منه. كان بوسعه الآن تدارك هفوته بتربية الأحفاد، ولكنه كثير المشاغل كما في السابق فهو يخشى أن يصبح أحفاده أيضاً بالغين على حين غرة منه.

قالت له تمارا بلهجة تأنيب:

– ليس هذا بحسن منك.

وافق رئيس مشروع البناء مسلما:

– أجل، بالتأكيد ذلك ليس حسنا.

لم تكن تمارا متعنتة ازاء ليوتيكوف من قبل مطلقا كما هي الآن، وقد سألها ليوتيكوف شاكياً:

– وما الذي تريدينه مني؟ ولماذا كل هذه المماحكات؟ انني كما أنا عليه ولن أصبح أفضل.

قالت تمارا بحدة قاسية:

– بل ستصبح! وأنت ملزم ما دمت ستصبح أباً، ولك تأثير على طفلنا!

– وهل أنت مثل أعلى؟

قاطعته تمارا قائلة ببرود:

– بوسع الأم أن تكون على أي نحو كان، يكفيها انها أم. أما الأب فانه رب الأسرة...

– لديك تصورات متخلفة عن الأسرة.

– هذا مبدأ عام للبشرية جمعاء.

– أما أنا فأرى ما يلي: الأفضل منا له الدور الرئيسي.

قالت تمارا بغضب:

– أعرف انني أفضل منك، لكنك ستكون صاحب الدور الرئيسي. ولا يحق لك التملص من المسئولية.

تلقى ليوتيكوف فجأة رسالة من معهد الهندسة المعمارية رداً على طلبه وبحثه المقدمين لقبوله في المعهد، تسمح له بأداء امتحانات القبول في قسم التعلم بالمراسلة.

استغرب ليوتيكوف:

– ولكنني لم أكتب أي طلب بهذا الشأن! هذا اشتباه محير.

قالت تمارا:

– أنا التي كتبت، انني لا أريد بالمرة أن يكون لابني أب ليس من ذوي التحصيل العالي. – وسألته برقة، – قل لي، ألست تحب صغيرنا حباً جماً؟

اعترف ليوتيكوف بحرارة:

– انني أحبك أنت، أما هو، فأنا أخافه طالما هو ليس بيننا بعد.

– أما أنا فان حبي له الآن أضعاف حبي لك.

– اذن فانني سأكون في البيت الثالث من حيث الترتيب كما يبدو. أليس كذلك؟

– بالطبع!

وفي تلك الليلة، غداة الرحلة، لم يكد ليوتيكوف يذوق طعم النوم لخوفه على تمارا. وكان طيلة الوقت يدفع جسمه الى الجدار نحو حافة السرير خشية دفع زوجته، فيؤذيها بحركة غير مناسبة. فلقد قال له أحدهم ان الوحمات تظهر على بدن الوليد حتى بسبب ايقاظ أمه بشكل مفاجىء يفزعها.

وعند الفجر تسلل ليوتيكوف زاحفاً من تحت اللحاف دون صوت، خاطفاً ملابسه ليرتديها في المطبخ. وكتب بحروف عريضة على ورقة: «أحبكما أنتما الاثنين من كل قلبي».وذيلها بتوقيعه. ووضعها على غطاء القدر. ثم ذهب قاصدا قاعدة السيارات عبر الضباب المتلبد البارد. وانتقل بالجرارة القاطرة الى نزل العمال حيث كان نستور فوميتش بولوخين رئيس فرقة صب الخرسانة الشهير الذي طبقت شهرته كافة أنحاء الشمال بانتظاره.

بولوخين هذا ممتلىء الجسم، عريض المنكبين، وله وجه يشع

سطوة دائماً، وكان قد حاز على لقب الجدارة في مجال البناء لجمهورية بشكيريا، وكوفىء عن جهاده في جبهة القتال بوسام المجد ثلاث مرات، والعلايد من المداليات، كما منح وسام لينين لقاء الاسهام في تشييد المحطة الكهرمائية على نهر فولغا (سنة ١٩٥٧).

يعتبر بولوخين نفسه لا صباب خرسانة بل أستاذ عمل في البناء بالسمنت. وهو اختصاصي في ترميم أنواع التربة الصخرية التي تتخذ أساسا لشتى المنشآت.

كان بولوخين يمجد نفسه بقوله :

– حتى الوزراء يهابونني ناهيك عن الرؤساء العاديين. فان لم أحقق للبناية في الاساس الاغلاق المحكم المطلق مالت البناية كلها الى جانب. بالنسبة لكل المواطنين الماء هو الماء، أما بالنسبة الي فانه محلول كيمياوي. فهذا النذل بوسعه التسرب حتى خلال اللوحة الغرانيتية وخلل الصخرة الصلدة العصماء كأنه يمر عبر لفة من القطن الطبي. ثمة اكاديمي لقبه كابيتسا يزاول دراسة القدرة الخارقة للمواد على التسرب. وهو يمرر السوائل المائعة بالضغط حتى عبر المعدن. وقد توصل الى تحقيق المفعول الكبير! أما مهمتي فانها انجاز ضروب أخرى من هذا المفعول ولكن بالاتجاه المعاكس، أي عدم التسرب وصنع تلك اللوحة الصلدة غير النفاذة والمنيعة ازاء تسرب السوائل بحيث يمكن أن تقيم عليها أي تمثال تذكاري للعصر شئت، سواء محطة كهرمائية أو مصنع أو برج تلفزيوني. أنا المسئول عن الأسس التي أرسيها حيال الأزمان القادمة قاطبة. وأدرك دوما انني أتحمل هذه المسئولية. ولهذا أستبد دون رحمة بالرؤساء لكي تتوفر تحت يدي مواد من أعلى صنف دائما.

القيعان الصخرية للحفر التي يشرف على انجازها بولوخين، تغسل بالصابون أولا، وتمسح بالفرش، وتنفخ بخراطيم المضخة الكابسة، وتسد الشقوق بالمحلول السمنتي.

أنهى نستور فوميتش هذا قبل أمد غير بعيد بجهد لا يكاد يصدق، تعلمه بالمراسلة بمعهد الهندسة المعمارية. ولكنه يخفي عن الآخرين انه يحمل لقب مهندس، بسبب كرامته العالية لئلا

يعتبر مهندساً ناشئاً، ومن الجهة الأخرى لكي يدهش المهندسين الشبان بزعمه انه مجرد عامل ولكنه ملم بالمعارف الهندسية لا أقل منهم.

هو يحب التظاهر اثناء الحديث كأنه بسيط ساذج بل وحد الغفلة.

قد قال في خطاب له، نائبا الى مجلس سوفييت المنطقة، اثناء دورته الأخيرة:

– ان الظروف الذهنية لمرحلتنا الزمنية هذه تتيح الفرصة لكل واحد منا أن يبدي مواهبه وملكاته وقدراته على أحسن حال. نحن مزودون بالتصنيع حسب آخر تطورات العلم والتكنيك. وما من مكان يمكن فيه الارتقاء السريع كما هو الحال عندنا هنا في سيبيريا. يأتي اليها أحد الناشئين من خريجي معاهد التعليم العالي غير المتعودين على القرس السيبيري، فيغدو رئيس وحدة انتاج رصيدها ملايين الروبلات – يا له من شخصية فريدة!

أما اولئك الاداريون الذين يرددون ان الكوادر قلة، فانهم يفصحون في الواقع عن قلة عقل في جذب الشبيبة. ينبغي أن تنشر على نطاق واسع تلك السير المعروفة لأولئك الذين أصبحوا عندنا شخصيات لامعة كقدوات ايجابية جديرة بالاتباع. ان الشبيبة مولعة باقتداء النماذج العليا. ولدى ذلك ينبغي شرح كافة أنواع المصاعب باسلوب شيق. فالشبيبة مولعة أيضاً بالصعاب وتذليلها، رغم اننا لسنا بحاجة الى المصاعب. علينا أن نشدد لا على كوننا نشيد محطة كهرمائية في ظروف أوطأ درجات الحرارة، وانما على كوننا نشيدها مستخدمين أعلى أنواع التكنيك.

الآن سأتحدث لا عن الصعاب وانما عن الحماقات ومرتكبيها...

وانهال بولوخين على هفوات وأخطاء مشرفي المشاريع الانشائية موبخاً بدقة وصرامة، غافلا لدى ذلك كونه، كما يدعى عنه، لا يكاد يدرك في الابداع الهندسي...

كان بولوخين يرتدي معطفا اوبر ضخما دافئا كالموقد، من فروة ضأن، وحين تطلع ماداً رأسه الى قمرة الجرارة القاطرة لاحظ ليوتيكوف فقال له:

– ولكنك دفأت المكان دون حرص على الوقود. – مسح

الزجاجة الجانبية وتطلع الى الطفاوة البيضاء الشمالية في السماء وتلفظ متأملا: - ياله من نور. وليس بوسع العلم لحد الآن الاهتداء الى سر هذه الهالة. - ثم قال آمرا: - هيا بنا. فلنتحرك...

عقب مضي بعض الوقت سأل بولوخين ليوتيكوف برنة سخط:

- لماذا لا تتجاذب معي أطراف الحديث؟ أم ان كل مطلبك من الحياة الثقافية السينما وحدها؟

وأجاب ليوتيكوف موافقا:

- أجل، صحيح. السينما لا غير.

قال بولوخين: - سدى! الانسان ينمو بالمعاشرة مع الآخرين.

- أما أنا فلقد أكملت النمو.

- ثمة أناس يقيسون طولهم على قياس بدلاتهم.

- فاني اذن من هؤلاء الناس، مقياس ملابسي ثمانية وأربعون.

تساءل بولوخين بانشغال بال.

- زعلت؟

- كلا، انما الطريق ليست للثرثرة فالدرب وعر كله انحدارات.

وقال بولوخين موافقا:

- اذن فسوف التزم الصمت، - وبعد مضي بعض الوقت تساءل: - ماذا لو أرخيت أهدابي فغفوت ساعة؟

قال ليوتيكوف:

- خذ راحتك.

استلقى بولوخين على ظهر المقعد ممددا ساقيه الى الأمام في حذاءيهما الضخمين من اللباد الأبيض، وأغمض جفنيه المترهلين المنتفخين، مرخيا وجهه قليلا، وأغفى. ففقد وجهه تعبيره السلطوي، وبدا عليه الضعف والوهن شأن وجوه المسنين، بل وبدت عليه أيضاً طيبة العاجزين.

شعر ليوتيكوف بشيء من الحرج وعدم الارتياح لكونه رد على بولوخين بهذه الحدة. ولكنه كان ممتعضا من بولوخين منذ البداية لقوله أمس لرئيس قاعدة السيارات:

– كيف ترسل معي فتى في مقتبل العمر الى مثل هذه الرحلة النائية؟ أفلم تجد غيره ممن هم أرصن؟

ومع ان رئيس قاعدة السيارات قد وصف له ليوتيكوف بخير، الا انه رغم ذلك قال ملاحظا:

– ليس من الضروري أن تذهب يا نستور فوميتش شخصياً في هذه الرحلة،. كان ممكنا ارسال أمين المخزن.

رد بولوخين:

– انني ممن يضعون ثقتهم في الناس ولا أفكر عن كل واحد منهم بانه مختلس. لكن يصادفني في دربي أشخاص عليهم سيماء الماضي فلا علامات خاصة على وجوههم، انهم يشبهون الناس حسب...

استغرق بولوخين في النوم طيلة نهار السفر غاطا في رقاده، الا انه كان يزحف الى كتف ليوتيكوف عند الوعورة، ودون أن يستيقظ من نومه يدمدم معتذراً، فكان ليوتيكوف يدفع بكتفه البدن الثقيل في معطف الفرو الدافىء الضخم.

باتا الليل في كوخ للصيادين، وما ان انبلجت تباشير الصباح حتى ايقظ بولوخين ليوتيكوف. كان بولوخين قد انتهز الفرصة لحلاقة ذقنه والتعطر بماء الكولونيا، وبدا نشطا مفعما بالحيوية. وقلى على نار من قطع الخشب عجة بيض وقال للسائق:

– تناول الطعام.

– وأنت؟

– لقد أكلت الخبز بالبصل، – رد بولوخين مرحاً. – وأنا أمسك نفسي عن تناول عجة البيض لانني مصاب بالغلسترين. في مثل سني يكون الاوان قد حان لمراعاة الصحة والتفكير في شأن الراحة، البصل فيتامينات، يستحلب الدموع ويساعد على التنفس، في المركز أمتنع عنه تهذيباً، وأما في الايفادات فاني أقبل عليه.

كانت التوندرا تلمع بصبغتها البيضاء كدهان الخزف، والغبار الثلجي الخفيف يتلألأ في الهواء النقي الجاف، اليوم التالي من السفر شأن الأول ليس منهكا جدا. وقرر ليوتيكوف عدم التوقف لاحقا للمبيت، فبلغ مستودع النقل، الواقع على ضفة النهر، بعد منتصف الليل.

شعر ليوتيكوف بالألم في يديه ورجليه وظهره؛ كأنه حمل طيلة هذه الأيام على كاهله حملا ثقيلا فوق الطاقة. وحين نزل من قمرة الجرارة القاطرة الى الأرض ترنح لانه شعر بدوار من ركب البحر طويلا. وكانت الجرارة القاطرة تتأرجح في الطريق كالقارب القلق.

وأعلن بنشاط رغم التعب:

- سأغمض عيوني ساعة من الزمن.

نام ثلاث ساعات. لكنه حين خرج الى الشارع رأى ان الزلاقة الملحقة فارغة. لم تكن في مستودع النقل حيث كان على بولوخين أن يتقدم بطلبية استلام سمنت من نوعية عالية خاصة متوفرة وسائل شحن، بل ولا الاشخاص الذين بوسعهم اجراء الشحن.

قال مدير المستودع متأففاً:

- هل عندي مستودع؟ انه مزبلة! مرت قافلة الملاحة الأخيرة قبل تجمد النهر، بينما الجليد في أسافل النهر قائم. كومنا كل شيء على البر. لكن أهذا بر؟ في مثل هذا المستنقع كانت حيوانات الماموث التي عاشت في فترة ما قبل التاريخ تنفق كالأرانب. وأنا شخصياً من اكون؟ لقد كنت خبير بضائع وها عينوني بهذا المنصب.

قال له بولوخين:

- لك يا صديقي على أي حال منصب المدير وعليك التدبير.

- ليس عندي الأيدي العاملة. لا توجد! - فتح مدير المستودع ما بين يديه مشيراً بهذه الايماءة الى عجزه التام عن ايجاد مخرج.

- لماذا لا تستعين بالناس؟

- وأين هؤلاء الناس هنا؟ ما من أثر هنا للناس، السكان ثلاث عزب لصيادي الأسماك. جميع الرجال مضوا للصيد في غابات التايغا، وبقيت النسوة وحدهن. وهن لا يعترفن بأي تعبئة وليس عندهن أيضاً ما يسمى الاهتمام المادي. الناس هنا من ميسوري الحال جداً بسبب الأسماك وفرو الثعالب الشمالية. الدافع الاجتماعي عندهم يظهر في حالة واحدة حسب، عندما يحل مصاب بأحد منهم. أما في غير هذه الحالة فانهم لا يحركون ساكنا، وليست لديهم عادات ثقافية في الاستماع الى طلبات الاشخاص ذوي المناصب الرسمية. يتوجب الانحناء لهم في كل مرة عند الحاجة الى أمر تافه.

وليس الا آنذاك تجدهم يتحركون. لقد فقدت هنا بالتعامل معهم كل اعتداد بالنفس. ولكن مستودعي هذا في المنطقة يمثل البؤرة الرئيسية للتطور اللاحق من حيث الجوهر. ربما يكون المستودع أساسا لمركز المنطقة في المستقبل، ولكنهم لا يقيمون الأمر حق تقديره.

طلب منه بولوخين مشمئزاً:

– لا تكثر من الكلام. دعني أتفحص الأمر. تقول انه ينبغي الانحناء؟

اكد مدير المستودع:

– الانحناء بالذات.

– وماذا في الأمر هذا ممكن، – قال بولوخين برزانة.

رمى فروته على يدي مدير المستودع، واذا به في معطف جيد الخياطة من الجوخ السميك. برم باصبعه الى الأعلى شاربيه المسبلين على شفتيه، وتوجه دون عجلة، بهيئة محترمة، نحو عزب صيادي الأسماك. ليس من المعروف عم وكيف تحدث هناك الى النساء. ولكن سرعان ما عاد الى المستودع صحبة زوجات صيادي الأسماك. وقال مخاطباً الجميع:

– وهكذا أيتها المواطنات بين أيديكن مصير المشروع الانشائي، هل يكون أم لا يكون؟ بدون السمنت حالنا جنازة دون صلاة!

– لا تنحب، – صرخت في بولوخين امرأة مسنة – كفاك، قل لنا من أين والى أين ينبغي النقل. والا فلدينا بدونك من الأشغال ما يكفي – وأضافت متضاحكة: – أتظننا لا نستمع الى الاذاعة، ولا نعرف عن المشروع الانشائي شيئاً؟

شحنت النسوة بصمت وسرعة وجد أكياس السمنت الى الزلاقة الملحقة بالجرارة القاطرة.

شارك بولوخين ومدير المستودع كذلك في حمل الأكياس بوجهيهما الارجوانيين من شدة الجهد.

ووجه بولوخين السؤال الى ليوتيكوف:

– وماذا بشانك ايها الشاب؟

فقال ليوتيكوف:

– أما أنا فلا ينبغي لي. عند كل عطفة أو حركة مقود يتعين علي بذل جهد يعادل رفع ثلاثين كيلوغراماً. يتوجب علي سياقة الماكنة في طريق الاياب أيضاً.

صمت بولوخين، ولكنه تطلع الى ليوتيكوف بادانة بحيث جعله يشعر باساءة من وقع هذه النظرة، وأحس بمرارة. ولكنه ضبط نفسه لئلا يبدي هنا من نفسه خير جوانبها. فليظنوا به الظنون السيئة. لكن أليس واجباً عليه سياقة الماكنة! لا يحق له أن يتعب هنا ليكون بعدئذ دون قوة احتياط، التحرك بدونها لا يجوز كالانطلاق في الشمال بلا قطع الغيار برحلات بعيدة.

كان ليوتيكوف فضلا عن ذلك ينظر بازدراء الى العمل اليدوي معتبرا اياه خيانة لروح العصر في مرحلة انتصار التكنيك، بينما كان يشعر ان كرامته كميكانيكي يمس بها كل مرة يعجز فيها عن معاونة الناس بالتكنيك. في تلك المرة مثلا، حين ذهب عمال المشروع الانشائي بعد زوبعة ثلجية دامت عدة أيام لمكافحة الركام الثلجي لا بالفؤوس كما كان يجري في السابق وانما بالمناشير ذات المحرك البنزيني، وأخذوا يشقون طريقاً في الكتلة الثلجية ذات الأمتار العديدة والصلدة مثل الحجر الرملي، بقي ليوتيكوف تائها في أعمال الاستنفار العام مدة يومين ليل نهار، وتمتع باحساس الفخر بالتكنيك الذي وجد له مجال جديد للاستخدام.

وحدث الأمر نفسه خلال العام المنصرم حين انقطع بفيضان مفاجيء حبل الارساء لباخرة كانت تحمل حديد التسليح، وارتطمت بصخرة كامنة تحت سطح الماء وغرقت. استدعيت طائرة عمودية، فاكتشف الطيار موضع الباخرة الغارقة على عمق غير بعيد.

فتطوع ليوتيكوف للهبوط الى الباخرة الغارقة في بدلة غطس خفيفة. وقام بربط حزمة حديد التسليح الى الامراس المرمية من الطائرة العمودية، فسحبتها الطائرة الى الشاطيء.

قالوا بعدئذ في قاعدة السيارات مازحين:

– انك يا ليوتيكوف قد رفعت وحدك ألف طن من الحديد فأين هذا الرباع الشهير يوري فلاسوف منك. دعنا نتحسس باللمس عضلات كتفيك.

وقال ليوتيكوف متنحيا عنهم:
– ليس في الأمر عضلات، انه التكنيك...

دحرج ليوتيكوف برميلين مدعوكين من وقود الديزل على ألواح الخشب المركونة بوضع الانحدار الى الزلاقة الملحقة، وبدل الزيت في المحرك. ثم جلب رزمة من الحطب، ودفعه ما بين أكياس السمنت تحوطا، فما اكثر ما يمكن حدوثه اثناء الرحلة في الطريق! وهل التدفؤ على موقد الوابور مثله عند موقد مشعول من الاخشاب؟ في التوندرا يصعب العثور على الحطب. فجذور أشجار البتولا المتلوية الصغيرة تنمو لا في العمق، وانما بالعرض، فالتجمد الدائم لا يسمح لها باكثر من ذلك. واذا اقتلعتها من تربة الخث أخذت تنتفش أمامك كأسياخ المظلات.

شغل ليوتيكوف المحرك وأحنى رأسه مطرقا لينصت الى تنفسه الرتيب الموزون. ثم فتح درج قطع الغيار وتفحص ما فيه. ووضع في القمرة وصلة الجنازير وأجزاء لها. ففي يوم بارد كهذا ليس من المستبعد انفجار وصلة ما في الطريق. في هذه الدرجات الواطئة للحرارة يغدو المعدن هشا. لهذا لا يجوز ترك الآلية تبرد فترة طويلة لئلا يتلف تركيب معدنها الجزيئي، وربما تنشأ فيه شقوق وشروخ رقيقة. فك الزلاقة الملحقة عن الجرارة القاطرة وأخذ يسوق الماكنة ببطء حول المستودع مطلا برأسه من الكوة المفتوحة في القمرة، متسمعا الى دوران الاحزمة. وحين عاد كانت الزلاقة الملحقة قد شحنت، وغطيت بعناية بمشمع جديد مشدود.

كان بولوخين يطارد زوجات صيادي الأسماك النوافر عنه بوجهه الارجواني السعيد، وعروقه الزرقاء والوردية الرخامية، وانفه اللامع كالمدهون، مفتوح الفروة، صارخاً بهن مقهقهاً:

– ألا ترين انني عجوز هرم! أريد مداعبتكن وتقبيلكن كجد، فهيا يا حفيدات بالارتماء على جدكن فانه طيب القلب.

لكنه لم يكن ليستطيع بدون معونة هؤلاء النسوة الصعود بنفسه الى قمرة الجرارة القاطرة. ومد بولوخين يده بابهة لمصافحة مدير المستودع سائلا:

– واذن، هكذا، فان الاستقامة هي السبب في وهنك هذا،

ها؟ - وأضاف غامزا: - لكن هيئتك تفيد انك لست النوع المفضل لهن.
لوحت زوجات صيادي الأسماك اللواتي أحطن بالماكنة بايديهن لبولوخين، ووجهن اليه الدعوة للقدوم ثانية وتناول حساء السمك.
لكن احداً لم يودع ليوتيكوف، وكأنه لم يكن موجوداً.
- انهم قوم طيبون واصحاب شعور دافىء، - قال بولوخين ذلك وأضاف بلهجة ذات معنى كبير: - انهم اجتماعيون.
- ولكنك أسرفت في التحامل على نفسك.
- وهل شعرت بالحسد؟
- يا لك من نائب!...
قال بولوخين بصرامة:
- اسمع أيها الفتى، - انني أعرف بدونك انه لا يجوز لي تناول المشروبات الروحية لأسباب صحية. العلة في قلبي. ها هو، - وضع على صدره راحة كفه البدينة المزرقة. وأنصت بولوخين متسمعاً بقلق وقال: - انه يؤلمني أتفهم؟ ولكن هذا ليسِ بسبب الخمر، وانما لأكياس السمنت. - وتلفظ بصوت حزين: - انني لم أعد صالحاً لحمل مثل هذا الثقل.
- ولماذا اذن لا تطلب احالتك على التقاعد؟
- لكي أبقى مع شيخوختي وجها لوجه؟ كلا، لا أرغب في ذلك. ثم ان العمل يطيل من عمر الانسان. العقل مطلوب وهذا صحيح. وأنا لست بذي عاهة عقلية. وكما يقال فان الكريات في جسمي لا تزال تدور. من الذي صمم وركب جهاز الميزان الاوتوماتيكي؟ هذا هو الأمر. - استلقى بولوخين مسترخياً على ظهر المقعد وقال: - انني أحلم بالمدفع السمنتي للأعمال في الأنفاق بحيث لا تعطى ارتداداً كبيراً من المادة من السطوح، والا فانها جميعاً ليست اقتصادية بالدرجة الكافية.
- أفليس لديك حلم آخر؟
تطلع بولوخين بحب استطلاع الى وجه السائق، وسأله:
- ربما تتحدث أنت في الأول عن حلمك؟
لم يقل ليوتيكوف شيئاً.
تطلع بولوخين في المرآة المركبة عند الزجاجة الأمامية للقمرة

وحولها مغيرا اتجاهها لكي يرى نفسه بشكل أفضل، وكرمش خديه بأصابعه عاصراً ثم أوضح متحسراً:

- ها أنا أنظر الى صورتي فأرى نفسي رجلا مرموقاً، أما النساء فينبزونني شيخاً. بماذا أبدو شيخاً؟ ألانني أصلع؟ ولكن الصلع ليس بعاهة. لقد اكتسبت الصلعة وأنا في سن الشباب. يظهر ان شعري أخذ يسقط لكوني من محبي ارتداء قبعات الفرو.

- أأنت متزوج؟

ابتسم بولوخين:

- لقد طعنتني! أبسبب زوجات صيادي الأسماك؟ ولكن، أتدري لماذا كنت منطلقاً معهن الى هذا الحد؟ لأجل تسليتهن. - وأضاف بنبرة حزينة: - أما في الواقع فانني حيي مع النساء. اني أحترمهن. لقد تزوجت في كامل سني بجبهة القتال، اثناء الحرب، كانت زوجتي من جنديات تنظيم حركة المرور. وقد صدمتها واحدة من دباباتنا في الطريق خلال فترة هجوم القوات السوفييتية على الأرض الألمانية. فلفت بقاياها في رداء مشمع، ودفنت في تسفيكاو. بهذا انتهت حياتي الزوجية.

- لماذا لم تتزوج بعد ذلك؟

- هل كان ذلك بوسعي؟ - تساءل بولوخين مفزوعاً. - كيف كنت أستطيع ذلك وأنا أتذكرها لحد الآن طيلة الوقت؟ لكان ذلك من غير الجميل. - وأطرق برأسه، ثم نطق بصوت أجش: - أتدري كم كانت عيناها بديعتين. لقد كنت أفكر انها حين ترنو بهاتين العينين فانها ترى كل شيء حسناً ونقياً، واذن فأنا أيضاً كذلك...

وقال ليوتيكوف:

- لزوجتي أيضاً عينان تتميزان بشيء ما خاص بهما.

قال بولوخين:

- ان العين لدى الانسان بمثابة الهوية عن شخصيته. يحدث ان الانسان يكذب بالكلمات، أما بالعينين فذلك غير ممكن، هذه حقيقة.

- نحن في انتظار وليدنا، - أعلن ليوتيكوف وابتسم مرتبكاً.

هتف بولوخين بفرح:
- يا سلام! ومتى؟ قريباً؟
- قريباً جداً، وربما تتم الولادة في غيابي هذا.
- اذن فهذا هو السبب في كونك هائج الأعصاب الى هذا الحد؟

قال ليوتيكوف في حيرة:
- وكيف لا، فهي على كل حال لا تزال بعد دون أي خبرة في هذا.

قال بولوخين غاضباً:
- ولماذا حافظت على الصمت؟
- وما الذي كان يمكنني قوله والرحلة مقررة.
- اذن فاستمع الي! - أمر بولوخين. - انني ألغي التوقف للمبيت في الطريق، وسوف نتناوب السياقة. لقد سبق لي أن عملت في سياقة جرارة. - ألقى نظرة متطلعة وسأل: - ما هذا الذي عندك في الترمس؟
- شاي.
- اذن سأشرب منه المزيد لكي أصحو نهائياً وسأغفو قليلا ثم أنوب عنك في السياقة. - وقال مطمئناً: - انني رجل صاحب قدرة، فلا تشك في. أما بصدد الشرعية فانني نائب في المجلس، أصدر اليك الأمر وكفاية...
- كان بولوخين ماسكا بين أصابعه الكأس البلاستيك، يرتشف الشاي ويطرح أراءه منفعلا في حماس:
- أيتها الأرض يبدو انه كان لك بادىء ذي بدء جسم بارد... - تطلع عبر النافذة الى سهوب التوندرا المتبارقة من الصقيع، وأعلن: - يبدو انها ظلت على هذا النحو من البرد تقريباً الى أن أصبحت بعدئذ تدفأ بسبب تفسخ العناصر ذات الاشعاع.
- لماذا اذن يجري العثور هنا عندنا في أقصى الشمال على آثار النبات والحيوان ما لا يصادف الا في المنطقة الاستوائية وشبه الاستوائية؟

رفع بولوخين متحيراً حاجبيه الكثيفين وتنفس بصوت مسموع ثم قهقه وأعلن باعجاب:

– دحض قاطع! لا اياي، وانما العالم الذي قرأت له رأيه هذا. يا لك يا ليوتيكوف من رأس مفكر!

لكن ليوتيكوف اكتفى بابتسامة مقتضبة وطلب بشكوى:

– لكنك يا نستور فوميتش قد وعدت...

– بأي خصوص؟

– النوم.

– هذا صحيح. لقد تعهدت بهذا، – قال بولوخين موافقاً.

وبعد اعادته باللف الكأس البلاستيك الى رأس الترمس أحكم بولوخين التفافه داخل معطفه الفرو الضخم وسرعان ما أغفى على الأثر تقريباً. فظل مرتسماً على وجهه فترة طويلة ابتسام متلاعب. لكنه انقبض بعد ذلك متكرمشاً، وارتخى مترهلا، فاقداً لكل تعبير، وتدلت شفته السفلى بضعف.

كان الثلج المتصلب يئز متكسراً تحت جنازير الجرارة ويطقطق، وارتسمت الشقوق على سطح الجليد كما الزجاج المهشم. وهبت في البداية ريح متسللة ثلجية، ثم جرت واطئة وانبسطت ملاءة منتشرة من الثلج على الأرض موشوشة كالرمال. ولكن الريح استجمعت قواها، وسرعان ما تهابيت بقوة. وبدأت زوبعة، عاصفة ثلجية. سارت الجرارة القاطرة وسط العاصفة من الغبار الأبيض، وضربت أمواج الثلج الزجاجة الأمامية وكأنها رغوة بيضاء. تحولت الزوبعة البيضاء الى زوبعة سوداء. نفخت الريح الثلج ورفعته الى فوق، والآن صارت تضرب به بجبروت المدرع الضخم صفحة الكسوة الأرضية للتوندرا. وتلفعت سائر الرحاب بدوامات الريح الكثيفة السوداء لا يخترقها البصر، كأنها أعمدة من الدخان الهدار.

وبدا ضوء الكشاف المنصوب على الجرارة القاطرة خافتاً ضعيفاً بسبب الثلج الأسود الملتصق به.

لم يخفف ليوتيكوف السرعة رغم سياقته الجرارة عشوائياً بتعيين الاتجاه حسب البوصلة والساعة. وكان يعرف انه بهذه السرعة سوف يجتاز القطاع المعروف له من الطريق في رحاب التوندرا في غضون سبع ساعات، وبعد هذا ستبدأ منطقة الركم الثلجية، وبعدها التوندرا مرة أخرى، لكنها ستكون هذه المرة

مغمورة بالمستنقعات، وكذلك كثرة من البحيرات المتجمدة بصلابة حتى القاع.

استيقظ بولوخين من غفوته. وطلب التنازل له عن مقعد السائق.

قال ليوتيكوف:

– لا يجوز، فالرؤية معدومة.

أعلن بولوخين:

– وما حاجتي الى الرؤية؟ لست من المعنيين بمشاهدة المناظر الطبيعية. لقد اضجرتني هذه المناظر، انا أفهم في الاستدلال بالبوصلة لا أسوأ منك، وسبق لي استخدامها اثناء الحرب حين كنت جندي استطلاع ولم تخني ولا أنا خنتها.

وزحف بولوخين الى موضع السائق عاصراً بشدة لدى ذلك ليوتيكوف الى الجدار الخلفي بكرشه المتكور البدين. فك أزرار فروته ووضع رجليه على الدواسات ويديه على المقود. تابع ليوتيكوف بعض الوقت بعينيه قلقاً ليراقب كيفية سياقة بولوخين للجرارة. وبعد التحقق من قدرته على ذلك مال على مقعده وتململ قليلا ثم أغفى.

استيقظ بغتة اذ توقفت الجرارة. وقال بولوخين كمن يعترف بذنب:

– لقد انهكت بسبب عدم التعود. – عب من الشاي بشراهة. مسح على صدره بيده، وقال شاكياً: – القلب اللعين يعصر وينعصر. – وانطرح مستلقياً على المقعد وأغمض عينيه كانت عروقه المترهلة تنبض.

تطلع ليوتيكوف الى الساعة فانبهر مستغرباً، الظاهر ان بولوخين ساق الجرارة اكثر من خمس ساعات!

وسرعان ما بدأت مرحلة الركم الثلجية من الطريق، ولم تكن الزوبعة الثلجية بالغة الشدة هنا، ولكن ارتقاء المرتفعات، والأنكى من ذلك الانحدار منها مع مزلجة الشحن المقطورة، كان يتطلب كل ما لدى ليوتيكوف من مهارة وحذق. عرضت لحظات زحفت فيها الجرارة القاطرة متدحرجة كأنها كتلة معدنية صماء، مهددة بالانحراف على عرض المنحدر والانقلاب.

سبح ليوتيكوف في عرقه من الجهد في تحريك عتلات السير، ففتح قليلا الباب الجانبي حيث كان بولوخين نائماً في وضع الجلوس وذلك لكي تتهيأ له فسحة الوقت عند اللزوم لدفع بولوخين من الجرارة في حالة سقوطها المهلك.

وما ان أطل ليوتيكوف فاتحاً الباب قليلا من جهته حتى ارتسم على وجهه السابع بعرقه قناع من حرشف ثلجي.

انتهت مرحلة الركم الثلجية وبدأت من جديد التوندرا. وصرصرت تحت الجرارة القاطرة البحيرات المتجمدة حتى القعر. وزمجرت بصوت أجش القطع الفولاذية من جنازير الجرارة وهي تطرق على هذه الألواح الجليدة الضخمة المسبوكة. وضربت الزوبعة جانب الجرارة. وكان الغبار الثلجي الناعم جداً يندفع الى داخل قمرتها كما يتسرب الرمل الناعم في الصحراء القائظة الى قمرات السيارات المغلقة باحكام.

استفاق بولوخين من نومه وقال شاكياً:

- يبدو ان رجلي قد أصابهما البرد قليلا رغم زوجين مزدوجين من الجوارب المحاكة من شعر الكلاب بيدي عجوز حنون. - وتساءل: - ألا نتناول الطعام؟ أخذ الجوع يصيح في البطن. - وقطع البطة المحمصة الى أجزاء كبيرة معلنا. - انني بتناولي هذا الطعام الدسم كأنما احفر لي قبراً بأسناني، فأنا مصاب بمرض تصلب الاوعية. - واضاف مفتخراً: - حتى الخرسانة معرضة للاصابة بالتصلب. يتسرب الماء وتتسرب الأملاح في مسامات الخرسانة. - وتبجح ظاهراً: - ولكني ابتكرت قوالب من ألواح الخث المضغوطة تكتنف الخرسانة لتقليل الامتصاص فيها. وبهذا أكفل للخرسانة الخلود.

كانت الجرارة تتأرجح بقوة، متقاذفة على الجلاميد الصغيرة. وقال بولوخين متذمراً:

- انني في الصيف أفضل وسائط النقل المائية. لكن البرغش والبعوض هناك لحوح. وفي الصيف الماضي امتص من دمي ما لا يقل عن السطل، انتبه الى ان الذي يعض ويقرص من البعوض انثاه حسب، أما الذكر فهو وديع. - وتلفظ بلهجة حالمة: - لقد

رأيت على جسم طيار فاشي بدلة عمل مجهزة بتدفئة كهربائية، حبذا لو كان لدينا الآن انا واياك مثل هذا الجهاز!

سأله ليوتيكوف ساخراً:

– كيف لم تحتفظ لنفسك على سبيل الذكرى بتلك البدلة؟ كانت افادتنا.

وقال بولوخين بطيبة نفس:

– لكم رجوت ذلك الفاشي أن يستسلم بالحسنى، أبى، واستمر في اطلاق النار، فاضطررت الى تهدئته.

– أين صادفته؟

– في مطار لهم حين انقضضنا عليه في قوة انزال.

– سبق لك الخدمة في وحدة المظليين؟

– حصل.

– عجيب! وكيف أطاقت مظلة حمل جسمك هذا؟

ابتسم بولوخين قائلا:

– أنت العجيب الغريب! هل تظنني كنت طيلة عمري بهذا الجسم البدين كما أنا عليه الآن؟ لقد كنت ارتدي قمصلة عسكرية مقاس ثمانية وثلاثون أما الآن فلا تتسع لرقبتي قمصان مقاس عنقها ستة واربعون... وفجأة ارتسمت العجرفة على وجه بولوخين تعبير التعالي والخيلاء وأعلن بلهجة سلطوية: – لكن كفى استرسالا في الاحاديث، فلقد حان دوري لسياقة الجرارة. – وقال محتداً، وهو يضع على المقود كفيه المكتنزتين النمشتين ببقع حمراء كبيرة:

– انني أشعر بكل الرضا عن عمري الذي قطعت دربه الطويل، ولست ارتضي مثلا ان نتبادل أنا واياك عمراً بعمر.

تدحرجت الجرارة مزمجرة على الكتلة الصلبة من الجليد والحجر زاحفة، ساحبة خلفها الزلاجة الملحقة بها في صرير.

ساق الجرارة ليلا ليوتيكوف. بل ولم تكن تلك بالمرة ليلة وانما نهار مكفهر لا ظل فيه ولا شمس، فالسماء تنير نفسها بنفسها وهي فارغة حزينة. كل شيء أبيض صامت جامد. وفكر ليوتيكوف حول الراديوتلسكوبات العصرية التي تقتنص الموجات الضوئية التي تكونت حين لم تكن الأرض بعد. وهذه الموجات

منطلقة بسرعة ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، ولكنها لكي تصل الى الأرض من المجرة احتاجت الى زهاء عشرة مليارات من الأعوام. وموجات الراديو القديمة هذه يقتنصها حالياً ناسنا ولكنهم لا يستطيعون قراءتها بعد، فسوف يحين وقت يتمكنون فيه منها.

لا يزال الكون منغلقا على أسراره العظمى غير المدركة للانسان. أما ليوتيكوف فلديه ما هو أهم وأحوج من هذه الحياة الخفية في الكون. وعبثاً يغضب الى هذا الحد على تمارا لكونها اذ تنزع الدبابيس من شعرها الفاحم السبط وتضعها في منفضة السجائر كل مرة. وها قد استاء من تمارا حين قالت انها تحب وليدهما المرتقب اكثر من حبها لليوتيكوف. أما الآن فان كيان ليوتيكوف كله اختلج مرتعشاً عند تذكره كل نبأ بدر منها نحو ذلك الكائن الذي لم يظهر الى الوجود بعد، لكنه اذ تكون في تمارا كأن بمثابة التتمة والتكملة لوجود ليوتيكوف نفسه وهذه الاستمرارية لحياته في حياة الآخر قد وهبتها له زوجته. ساق ليوتيكوف الجرارة القاطرة بسرعة مستسلما لعجالته ومحركاً العتلات والدواسات بتلك الرشاقة الطبيعية التي يتحلى بها الانسان حين يندمج بكل كيانه مع الماكنة.

أخذت السماء تتحلى بالفجر الوردي، وشعشعت القشرة الثلجية لمنطقة ما وراء الدائرة القطبية متلألئة ببياض لا يطاق. وقرقشت تحت الحديد، و دوم الغبار الثلجي، قادحاً شرراً أبيض مزوبعاً، عالقاً في الهواء طويلا.

قاد ليوتيكوف الجرارة من الضفة الرحراحة تدريجياً الى جليد النهر المتجمد. كانت الجنازير تتزحلق على هذه الصفحة الصقيلة بهبوب الرياح. توجب تخفيف السرعة وتفادي كتل الجليد المتراكم البراق الساطع. لقد غدت الضفة المقابلة قريبة حين سمع ليوتيكوف في البداية دوي أجش سرعان ما تحول الى صوت انفجار ثاقب بشكل حاد ثم أحس كأنما بترجرج الرحاب الجليدية كلها... تهاوى شيء ما رخوا تحتهما. تعاظم الصوت الزجاجي متحولا الى تهشم رهيب. ولم يكن ليوتيكوف يدرك بعد تماما حقيقة ما وقع، حين فتح باب الجرارة على مصراعه ودفع بحركة قوية من كتفه بولوخين من القمرة

وزيد السرعة ضاغطا على المعجل، وحرك الجرارة منطلقاً في قعقعة، وسط دوي الجليد. تدفق الماء الى القمرة ولكن الجرارة زحفت الى الشاطىء، وتوقفت.

اصطدم رأس ليوتيكوف بالزجاج وسمع من جديد قرقعة ورنين الجليد، ولكنه كان هذه المرة قصيراً. وعمت العتمة كل شيء.

– هكذا يا أخي كدنا ننتقل الى العالم الآخر، – قال بولوخين وهو يعصب رأس ليوتيكوف وأضاف يمتدحه : – لقد كنت مصيباً بقذفك اياي من القمرة. اذن فعلت فعلها لديك الميكانيكا النفسية، فخففت الحمل عن الجرارة. – أفاد راضيا عن نفسه :

– ولكنني كذلك أسهمت بقسط في تخفيف العبء عنك وساعدتك. – وأشار الى الزلاقة الملحقة واقفة منفردة على الجليد، وأعلن بفخر: – لو لم أفلح في فكها ما أمكنك الخلاص مع هذا الثقل، ولغرقت أنت والجرارة القاطرة مثل ذلك الطبر.

– ماذا فعلت؟ – سأله ليوتيكوف بغيظ. – من الذي طلب منك أن تذعر على هذا النحو؟ لقد اتلفت الشحنة!

– انك بهذا تهينني مواربة. – قال بولوخين بدماثة خلق.

– لقد خشيت ان تهبط الى الماء مع الزلاقة المرفقة وينتهي كل شيء. وعندها لا داعي لدفنك بمصاحبة الموسيقى!

– دعني اقرر بدونك كيفية التصرف برفاتي بعد وفاتي، وما اذا سيكون تشييع جنازتي بمصاحبة الموسيقى أو بدونها، – قال بولوخين بضجر. – والآن علينا أداء الشغلة و طرح اللواعج. أقول ذلك بلهجة الصديق حالياً!

– لكن كيف يتسنى الآن جر الزلاقة؟ والجليد تحتها كما ترى لا يؤتمن، وهي وشيكة الغرق.

قال بولوخين ببرود:

– أرى ذلك، أنا أتفحص وأفكر...

وبدا قرص الشمس الأحمر عديم الأشعة معلقاً في أقصى الأفق. ونفخ الهواء النقي كنقاوة الفضاء زمهريراً لاذعاً كحامض النيتريك.

قال بولوخين:

– رأيتك تنهب الحطب من المستودع بلا فاتورة. يجب أخذه من الزلاقة، نشعل لهبة من النار. وتفرح بها. – واستأنف ساخرا: – انني انسان لم يتعود على الأسى. – بعد تأمل قال: – لن نتولى تصليح الجليد، فهذا ليس من شأننا. اما لقب العتالين فانني سوف اقلده لنفسي ولك.

– ماذا سنحمل؟ أحدنا الآخر أم ماذا؟

– أكياس السمنت، – قال بولوخين بلطف، – سننقل أكياس السمنت الى الشاطىء، ثم نجر اليه الزلاقة، ومن جديد نستأنف السير، هذا كل ما في الأمر. – وأضاف مبتسماً: – أنت ماذا ظننت؟ ان لم أضحى هنا برأسي الأصلع فانه غير قادر عن التفكير؟ انه لقادر، بل ومثل مركز القيادة.

ألقى بولوخين الى الأرض فروته بأذيالها المبلولة وتطلع الى حذائه اللبادي الطويل وقال بلهجة فيها رنة ادانة:

– يا له من مصاص للماء! لكنني ساكيفه على خير وجه. والا فالماء شيء مرطب. ثم سار على الجليد الى موضع الماء وغمس بسرعة فيه أولا احدى رجليه، ثم غمس الأخرى وقال موضحاً: – هذه طريقة الصيادين انها لن تكون مبلولة، لكن سوف تكتسي بالجليد وعندئذ تمنع نفاذ الماء من خلالها وبهذا تبقى رجلي يابستين، سيكون هذا لهما من حسن الطالع.

استمرا حتى الهزيع الأول من الليل ينقلان أكياس السمنت الى الشاطىء. ثم جرا الزلاقة ولكنهما لم يقويا على شحن الزلاقة. استلقى بولوخين عند موقد النار على المشمع المفروش، وعيناه تلمعان بشكل مريض، كأنما تغطتا بغشاء سلوفاني. وتمتم براجب انعاش ليوتيكوف أكثر من رغبته في التحدث:

– رغم كوني مثقلا بالكرش ومحزونا بالصلع أرأيت كيف لما ازل أتمتع بقوة التحمل. انني أعيش! أنا عائش على قوة عصبية خفية، بفضل الانفعالات الطيبة لكوني لم أغرق.

كان ليوتيكوف يستمع الى بولوخين باشمئزاز منشغلا بالمحرك، مدفئا يديه على ندرة بدسها تحت ابطيه.

كانت لهبة اللحام تحت علبة التروس لتدفئة الزيت المتجمد. وعلى الموقد دلو فيه ماء لملء خزان المشمع. وقد انتشرت على

وجه ليوتيكوف بقع زرقاء من البرد. بينما اسبرارة القاطرة بدت كأنها كتلة من الجليد. ثم وضعا الأكياس على الزلاقة، رافعين كل كيس معاً بسبب قواهما الخائرة.

كان ليوتيكوف قد احتذى حذاء بولوخين اللبادي. اما بولوخين نفسه فقد لف قدميه بقطع من مشمع مقطوع.

كثيراً ما كانا ينطرحان مع الكيس على ظهر الزلاقة ثم ينهضان بعد ذلك بجهد جهيد. وبالايدي المضرجة بالدماء كسرا الجليد المتجمع حول أجزاء التشغيل للجرارة القاطرة.

وسارت الجرارة القاطرة من جديد على الدرب مع الزلاقة الملحقة في غسق الليلة القطبية الوضيىء الخالي من الظلال والنجوم، شاقة لنفسها اخدوداً في الثلج الأبيض الجاف، وهي ذاتها شبيهة بكتلة من الجليد.

وحينما لاحت أخيراً الصارية الهوائية الشامخة المتعالية المخرمة لمحطة الاشارات اللاسلكية في البلدة قال بولوخين بقلق ماسحاً بباطن كفه على وجهه المترهل:

– لقد طال شعر ذقني وهو عندي أصهب خشن ليس بالجميل.

– أخرج من الحقيبة آلة الحلاقة الميكانيكية «سبوتنيك» وبدأ بتدوير زنبركها، ولكنه عدل بغتة عن رغبته في الحلاقة. ومد يده بآلة الحلاقة نحو ليوتيكوف قائلا:

– ولمن كل هذا الاهتمام الخاص بالمظهر للا أحد!

كان بولوخين جالساً في مقعد السائق مدنفشا بعينيه من بريق السهل الثلجى ما لا يطاق، وابتسم متأملا، ثم قال في وجل:

– لقد حظيت أنا أيضاً من السعادة حتى قمة الرأس. كنت أمر وأنا في سيارة الاسعاف على فادا وهي تقف بالعلمين الصغيرين ملوحة بهما كأنها جناحان. هل تعرف انني حاربت دون انتظام كثيراً ما أصبت بالجراح. ولكن ما ان تقع عيناي عليها حتى سرعان ما يزول كل ألم. أتكىء بمرفقي على السرير المعلق وأرنو اليها من خلال زجاج النافذة واشعر بالغيرة عليها من جميع الضباط الذين ينتقلون بحرية على دروب الجبهة في السيارات وبوسعهم التوقف حيثما عن لهم، وتوجيه الأسئلة وفق مشيئتهم الى أي واحدة من جنديات المرور استفهاماً عن الطريق. – ضيق

عينيه اكثر وقال: - وهكذا انطبعت هي كلية في ذاكرتي على مدى عمري بطوله...

حين وصلا الى المستودع استعاد وجه بولوخين التعبير السلطوي الرصين، احتقن وجهه بلونه الأحمر المزرورق. صرخ بصوته الأبح في مدير المستودع:

- هات لنا ميكانيكيا مع شاحنة! هيا بسرعة! وليكن كل شيء بمنتهى الانتظام. فان انخرق ولو كيس واحد فاني أقطع رأسك. - قفز بنشاط الى الأرض ولكنه تمايل واستند بظهره الى الجرارة القاطرة وطلب سائلا: - أعندك سيجارة؟ - سحب نفساً طويلاً مستمتعاً بلذة التدخين حد استحلاب الدموع، وقال بصوت مرتفع: - والا لا تدخين بعد الموت! - مد يده المترهلة الى ليوتيكوف مصافحاً وتلفظ بكل رقة ومن الصميم: - شكراً لك يا سيريوجا. لقد فسحتني على أفضل وجه!. - وذهب الى المستودع ليتفحص الموضع حيث سيخزن ثمة سمنته عالي الجودة خصوصاً.

ذهب ليوتيكوف الى بيته. كانت الغرفة مضاءة، رغم النهار القطبى الوضيىء في الخارج.

كانت تمارا جالسة في معطف الفرو الى منضدة وعليها ساعة منبه ومرآة. تتطلع الى هذه تارة والى تلك تارة أخرى وعلى محياها قنوط. غارت عيناها في وجهها حيث انطبعت البقع الشوهاء الصديئة بقوة. و التفتت متلامعة العينين الواسعتين السوداوين المتوهجتين، وتساءلت: - جئت؟ جئت؟ - وأطرقت برأسها، وانخرطت في البكاء فجأة.

رنا ليوتيكوف بتخوف الى بطن تمارا. كلا، كل شيء على ما يرام لا تزال من الحوامل. اذن، فلم يطرأ ما يخشى منه.

نهضت تمارا ودنت اليه حتى وقفت بقربه ووضعت رأسها على صدره وأراحت يديها على كتفيه. وتسمرت ثم سألت شاكية:

- أ أصبحت بعيدة جداً عن الجمال. أليس كذلك؟ جدا؟ وحبك لي الآن أقل مما كان؟

تمتم ليوتيكوف حائراً بصوت طافح بالسعادة:

- انني مبترد حتى العظام ولكنك تلتصقين بي. بهذا ربما تصيبينه بالبرد فيولد مزكوماً!

ابتعدت تمارا عنه وتطلعت اليه بحب استطلاع:

– لماذا أنت حليق الذقن؟ لماذا؟

– فعلت ذلك من أجلك. لقد حلقت ذقني عند مشارف البلدة.

تبرأ ليوتيكوف، وهو الآن أكثر ما يكون شعوراً بالفخر لكون تمارا، تنظر اليه بمثل هذه الدرجة من الريبة والغيرة. وقبلها في حرص على شفتيها المرتعشتين المتورمتين وعلى شعرها الجاف الشعث بشكل غير جميل وعلى عينيها المبلولتين المشعتين كشمسين سوداوين...

كانت قبة السماء الفضائية العظيمة المعلقة فوق رحاب التوندرا الجليدية الموات تسقسق بالموجات الملغزة للهالة الشمالية. تنطفىء ثم تظهر من جديد. فيما امتد الاخدود المسنن للأثر الذي خلفته جنازير الجرارة القاطرة في المدى البعيد. وقد أخذت التيارات الثلجية البيضاء الكثيفة والجافة تطمسه، وسرعان ما سيختفي الى الأبد، ويزول حتى من ذاكرة من رسمه. لأن هذا الاثر من رحلة عادية جداً. ومن الذي يتذكر هنا طيلة العمر هذه الرحلات العادية؟ لا أحد ربما.

سنة ١٩٦٤



تعرفوا، هذا بالويف!

قصة

«... لا فظاعة. وهل كانت هناك ثقة راسخة؟ تهيأوا لما هو أسوأ! واذن، ما القضية؟... لم يتح اكمال الشغل بصورة احتفالية قبل الموعد المقرر بكثير. ولكن. أظننتم اقامة المعبر المائي انها تمثيلية هواة؟...»

وقبل يوم أصدر بالويف أمراً فحواه: اذا عجزت الجرارات الجبارة عن سحب خط الأنابيب بوزن ألف طن وطول كيلومترين ينبغي قطعه وجره أجزاء. فما وجه الانزعاج؟ أهو التعب؟.. واذا كنت قد تجاوزت منذ أمد بعيد سن الخمسين وأحسست بتقدم العمر وكأنه بداية مرض مزمن يمكن التعود عليه وحتى اغفاله عندما تسير الأمور على ما يرام؟

لكن ماذا، لو كان الأمر عكس ذلك؟

عندها سيبدو كل شيء كئيباً باهتاً، وتفكر في مرارة لاذعة عما هو سيىء يثير الامتعاض في نفسك وفي نفوس رفاق العمل.

– لا، انه لفظيع على أي حال! – قال بالويف والتفت مفزوعاً.

الغسق الداكن الرطب يغرق ساحة العمل في عتمة حالكة... وتلوح آثار جنازير الجرارات المملوءة بالماء الأسود جهماء، والهواء تملؤه الرطوبة، ويغدو ثقيلا على النفس. ولكن النهار المنتهي لتوه كان جافاً بارداً ناصعاً.

كانت السماء وضيئة لازوردية.

لقد تطابقت بدقة تنبؤات نشرة الأنواء الجوية باشتداد موجة البرد مع الموعد المعين لسحب الأنابيب السفلية.

هل كنتم تظنون ان ينجز كل شيء في موعده المقرر ببساطة؟ تحويل المستنقع الى ساحة أعمال وشق طرق النقل فيها من جذوع الشجر وحفر الاخدود الشبيه بقناة في التربة المخلخلة الموحلة؟ وملء القناة بالماء والحفاظ عليه في قعر المجرى الرملي المتسرب للماء؟ وجلب الانابيب الفولاذية الثقيلة الى هنا ولحامها في خط متصل يبلغ طوله كيلومترين؟ واختبار الانابيب السفلية تحت الضغط الهوائي الكبير للغاية، وفحص متانة كل عقدة لحام، وتنظيف هذا الخط من الأنابيب لحد لمعان الفضة، ولفه بالعازل عن الرطوبة، وانزال الأنبوب الفولاذي العملاق بعناية الى القناة، لطمره اليوم بالذات دون توقف تحت الماء في الأخدود الذي يقاطع نهراً وافر المياه؟ والصمود بوجه زخم التيار العنيف، وتطريز قعر النهر على نحو دائم بخط الأنابيب الذي سيتدفق عبره تيار الغاز المندفع، الكثيف الليلاكي.

ويجب انجاز كل هذا المعبر المائي، قبل أن يمتد من كلتا ضفتي النهر الخط الغازي الرئيسي الأرضي بطول ألف كيلومتر، لكي يلتصق دون ابطاء بالأنابيب السفلية تحت الماء. وكل رتل ميكانيكي من «واصلي» الخط الرئيسي يجتاز خلال اليوم بليلته كيلومتراً ونصف الكيلومتر. وما من عار أكبر على الغطاسين من رؤيتهم بأم أعينهم اقتراب الأنبوب الغازي الرئيسي الأرضي الحتمي. وهذا مالم يحدث مطلقاً لحد الآن. كان «الواصلون» يقتربون من الموانع المائية حين كان الغطاسون قد ذهبوا، وكانت فوهات الأنابيب السفلية مطلة من الضفتين.

يضم قطاع أعمال بالويف التكنيكية تحت الماء ستة أنهار كبيرة وكثرة من الأنهار الصغيرة.

لكن هذا المعبر المائي ظهر انه أصعبها وأشقها. ههنا تمتد منطقة تحولت الى مستنقعات مهلكة لا متناهية، يظللها ضباب نتن الرائحة.

قرر بالويف البقاء عند هذا المعبر المائي. ورفع كامل المسئولية عن رؤساء العمل، متولياً أياها على عاتقه.

والآن حين زحفت الأنابيب السفلية وفق ايعازه مقطورة على أمراس فولاذية من الأخدود الى النهر منجرة مع تيار الماء

المتدفق من الأخدود بعد فك الفاصل الترابي، وحين كان يبدو ان كل شيء يجري رخاءاً، حدث شيء ما على الضفة الأخرى. تدلت الأمراس التي قطرت بها الأنابيب وارتخت، فتوقفت الأنابيب العملاقة متسمرة في مكانها. وتدفق الماء من الخندق لانهم لم يفلحوا في سده على الفور. تأكلت المياه في عدد المواضع الحاجز الطيني المانع للماء. تعرت الرمال التي لا قعر لها وصارت المياه تغور فيها. زحفت التربة في المواضع المتشققة من الأرض. وحين كوموا تراب السدادة بالجرافة، أحاله الماء في البداية الى ما يشبه العصيدة ثم أخذ يتسلل من تحته وتطلب رص التربة وضغطها المزيد من الوقت والمهارة الخارقة حقاً من سائق الجرافة لاقامة حاجز بوجه الماء في هذا المستنقع.

انطفأ ضوء النهار المرذرذ بالصقيع تحت شعلة السماء الزرقاء. فتشبع الغسق الأغبر على الأثر بظلمة الليل الرمادية القارسة.

وها هو بالويف يتنقل خلسة في ساحة العمل الفارغة مثقلا بوحشة الوحدة وشاعراً في الوقت عينه بضرورة الانفراد بغية تقييم ما حصل بدقة وسكينة وامعان تفكير لايجاد المخرج...

كان الأخدود الضخم المجروف بجدرانه المنهارة ملفعاً بالظلمة، في قعره، الأنابيب السفلية مجللة بالعار، ملطخة بالأوحال، نصف مغمورة بالتربة المدعوكة، بينما برزت براميل الطوافات المربوطة في عمق الحفرة الخالية من الماء مشوهة.

كان النهر غير المرئي يتنهد سحابة الضباب ويتلألأ دخانه الرمادي المزرق ثلجاً ساقطاً متناثراً.

كان سائداً البرد، والعزلة، والكآبة... وليس بوسعك ايجاد موضع أسوأ من هذه الوهدة المملوءة بالمستنقعات.

حبذا على الأقل لو انحدر هذا القطاع الرخو الموحل زاحفاً تدريجياً الى النهر! ولكن الأمر على العكس، فانه على قدر الاقتراب الى الماء يزداد ارتفاع السدة الرملية وعند المقطع نفسه جرف حاد، فالقطاع أشبه بمغسل ضخم، مملوء بالحمأ النتن.

يتمسك المصممون عادة بالحقيقة المطلقة القائلة، بأن الخط المستقيم هو أقرب مسافة ما بين نقطتين. أما هنا في هذا القطاع

فأن يقينهم بهذا الشأن قد تزعزع. ونشأت في أذهانهم فكرة مغايرة حول تفادي منخفض المستنقعات.

يا لها من ساحة عمل فاخرة قد أشروها لانشاء المعبر المائى! انه مصيف به بلاج رملي رائع، وأشجار الصنوبر الذهبية الفواحة، أشبه بشاطىء في ساحل البلطيق! ان هؤلاء المصممين عباقرة!

بافل غفريلوفتش بالويف رئيس هذا القطاع من الأعمال التكنيكية تحت المائية لتشييد الخط الرئيسي لأنابيب نقل الغاز – انسان وافر الخبرة، قوي الارادة، ميال للحرص «من قبيل الاحتياط» أحيانا على التزود بالفائض من المعدات، ولكن، والحق يقال كان لدى اكتشافه متلبساً بذلك يعيد تلك المعدات الى مكانها. وهكذا بعد التعرف على الامكنة المخصصة للمشروع الجديد توصل بالويف الى استنتاج مشجع بانه سوف ينجز مد الأنابيب السفلية في ظروف ملائمة كهذه قبل الموعد المقرر بشهرين وينتهي من المعبر حائزاً على التكريم وفائزاً بمكافأة مالية جزيلة.

واذا ظهرت في شقة عائلة بالويف في موسكو تحف فنية مشتراة من محلات «الهدايا» فهذا معناه ان بافل غفريلوفتش قد انجز مأثرة عمل جديدة. وكان يسمح لنفسه احتفالا بأمثال هذه الأحداث باقتناء التحف الفنية ومن الممكن اعتبارها بنفس الوقت كنوع من النياشين وكشاهد على طيبة النفس وشدة الحياء والبساطة.

كان بافل غفريلوفتش يتلفظ دوما لدى تسليمه مبلغ المكافأة المالية الى زوجته بالعبارة نفسها:

– وهذا لك يا دوسيا تحوطاً لكل طارىء.

واذ اعتاد بافل غفريلوفتش على حياة التنقل والارتحال، كان يحمل نفسه على منتهى التقشف في صرف النقود. بينما اشترت زوجته بناءاً على الحاحه من محل الدولة التجاري العام بموسكو معطفاً من فراء السنجاب وأعطت ابنتها معطفها من فروة الشاة الذي يكاد يكون جديداً.

لا يتعاطى بافل غفريلوفتش شرب الفودكا. ولا يتناولها حتى

حين يعود من العمل مرتعشاً من البرد، ومبلولا بالماء. ولكنه حين يكون صحبة زملائه يشرب جفنات منها لئلا يتعرض للالحاح من جانبهم بل ويعتبر ذلك نافعاً. لماذا؟ فلنقل مثلا الأمراس.

مال رئيس القطاع المجاور لوجنيكوف، عقب النخب على نجاحاته الانتاجية المرموقة، على جاره خلف الخوان وتمتم وقد حلت عقدته الأماديح:

– هل تعرف من أين أحصل على الأمراس؟ من أهل النفط. انها بعد استعمالها في آبار الحفر تعتبر مستهلكة وتشطب. لكنها لجر الأنابيب السفلية عندي صالحة تماماً...

عقب مرور أسبوع نقلت شاحنة مغبرة لفتين من الأمراس تفوح منها رائحة النفط أيضا الى قطاع بالويف... وجاء لوجنيكوف يشخط. وأعطاه بافل غفريلوفتش بانصاف احدى اللفتين، ولكنه طالبه بالدفع من حساب قطاع لوجنيكوف أجور الايفاد، وكذلك اعادة الوقود المصروف في هذه الرحلة.

قال لوجنيكوف: – بالمناصفة!

– كلا. منك كاملا! – قال بالويف مصراً وشاعراً بنشوة المنتصر.

لعله لم يكن في هذا كله أي شيء عدا رغبته في اظهار قدرته على «الخطف» رغم انه والحق يقال لم تكن ثمة ضرورة الى مثل هذا الاظهار. ولكن الرؤساء يشعرون لسبب ما بارتياح خاص لدى تبجحهم أمام بعضهم البعض بصدد هذه القدرة على الخطف.

وعليه كما ترون لم يكن بالويف يخلو من بعض النواقص.

كان بافل غفريلوفتش يعتقد بأن رئيس العمل ملزم بان يكون عالم نفس. وهو حين يأتي الى مشروع جديد كان يقوم حتماً بزيارة الى الرئيس الاداري المحلي ولكنه كان يبقى محافظاً على روح الاستقلال، ولم يطلب سلفاً أي شيء، بل وحتى كان هو نفسه يعرض خدماته بسخاء نزيه، ان تطلب الحال استخدام جرافة للتخلص من مخاضة ما تعرقل الملاحة المحلية، او ارسال حادلة الى حيث تحلم سلطات المنطقة بانشاء ملعب رياضي. وكان يرسل براديه وعماله للتركيبات الى المستشفى المحلي لينظم هناك

في ظرف يومين اسالة الماء. بينما أخذ أصحاب السلطة يبدون بدورهم رغبتهم لتقديم العون التام له حتى حين كان العمل في قطاع بافل غفريلوفتش يسير بهمة ونجاح. لقد سمحوا له باستخدام الأمراس دون ايجار، وفتحوا أبواب المؤسسات الثقافية المحلية على مصاريعها بترحاب أمام البناة.

أما هيئة تحرير جريدة المنطقة التي تغنت بالزوال المفاجيء للمخاضة الضحلة في النهر، وظهور الملعب الرياضي الجديد، وتجهيز اسالة الماء في المستشفى فانها وضعت صفحاتها، بمفخرة وطنية الروح، لنشر الرسائل الصحفية من منطقة العمل الانشائي، وحتى نشرت بحرص مقالات خاصة مكرسة لقضايا اقامة المعابر المائية.

وافق الكثير من الرفاق على الرأي القائل بان بالويف صاحب عقل من النوع الذي يوصف بانه «سديد».

انتظاراً لوصول الآليات الى موقع المشروع الجديد لم يذهب بافل غفريلوفتش ولو مرة الى البلاج الرملي المفعم بالنكهة الصحية لأشجار الصنوبر، حيث أسعد الطالع باختيار موقع العمل، مفضلا التجوال بمفرده في منطقة المستنقع المقرفة. ورغم انتعاله الأحذية المطاطية طويلة الساق حتى خن الورك فانه عاد من هذه الجولات مبللا، نتن الرائحة كالغريق.

لعله طاف المستنقع اطفاءاً لغلة الصيادين في نفسه؟ كلا. ما هذا الظن، فهل من الممكن أن يأوي الى مثل هذه الحمأة النتنة حتى ولو أرذل الحيوانات؟ بل ولم تكن لديه بندقية صيد. كانت لديه واحدة منحت له مكافأة، ولكنه أهداها الى ابنه. اذن فما سر الأمر؟ ولماذا عقب كل جولة من هذه الجولات، كان وجه بافل غفريلوفتش يكلولح ويكتسي بتعبير قلق متزايد؟

بافل غفريلوفتش مربوع، عريض المنكبين، ولكنه اثقل بكرش، وخط الشيب شعره، وجه جليل وقور فبدا جباراً مهاباً. لا بنطلونه ولا سترته من الجديد، وان ارتدى قمصلة العمل، او اللبادة القطنية، لم يكن يتخلى عن رباط العنق الذي يشده في عقدة عريضة منتفخة، تجعله قصيراً، فهو ينفلت عادة.

وبسبب البقاء دوما في الهواء الطلق كان وجهه داكناً ضارباً الى الاحمرار وصوته أبح مستبرداً.

رغم أن الرئيس ليس ملزماً بفعل كل شيء بنفسه فان بافل غفريلوفتش كان بوسعه مثلا اذا استدعت الضرورة القيام بلحام الدرز في الأنبوب ليس اسوأ من أي لحام عادي والعمل في سياقة الجرافة لنوبة عمل كاملة لا أقل من سائق الجرار العادي. واذا تعلق الأمر بالقدرة على التحمل بصلابة للظروف غير المريحة للحياة الميدانية في ساحة الأعمال الانشائية فان بالويف تميز في هذا بمهارة الجندي: فقد استطاع النوم العميق لحد استعادة القوى تماماً جالساً في قمرة الشاحنة، وتناول وجبة كاملة من الطعام ليلا والشعور بالشبع طيلة النهار التالي، وكان يعرف كيفية استخدام الخرق المحروقة طلبا للحماوة على جليد النهر ودرجة الحرارة ثلاثون تحت الصفر. ظل بالويف مدة عامين في مكتب الادارة العامة خلف منضدة عليها لوازم مكتبية فاخرة. ولهذا عندما كان يوجه السؤال الى بافل غفريلوفتش أهو نفس بالويف ذاك الذي تسنم وقتاً ما المنصب الفلاني، كان يكتفي بابتسامة غامضة وعديدة المعاني بنفس الافتخار الحزين الذي تبتسم به امرأة مسنة حين يجري الحديث عن مدى الجمال الذي كانت تتمتع به في شبابها.

وخلال أعوام خطة التنمية الخمسية الأولى (١٩٢٩ - ١٩٣٢) كان الارتقاء الحثيث الجريء للملاكات الفتية أسرع كثيراً من خبرتهم ومعارفهم. وقد أدرك بعضهم ذلك فلم يفقدوا وهم يتولون مناصب قيادية حرص الطلبة على التعلم، اما الآخرون فقد أثملتهم وأدارت رؤوسهم نشوة النجاحات، فنسبوا لأنفسهم ما تولد عن الموجات السريعة بشكل لم يسبق له مثيل في العملية التاريخية فكتب عليهم الاقصاء من ذراهم في الوقت المناسب أو بعد بعض التأخير.

وهكذا فان بافل غفريلوفتش ذاق في حينه طعم حلاوة التصعيد ومرارة السقوط. ولكنه تذكر هذه الحقبة من عمره ببرودة أعصاب غير آسف الا على أمر واحد هو انه قد فات عليه تلقي التحصيل العالي.

٢

كان بالويف من ذلك الجيل من الكومسومولين الذين أصبحوا بناة في حقبة الهجمة التصنيعية الأولى. ويمكن التعرف رأساً على السمات المميزة لهؤلاء الناس. والآن عقب مرور العديد من الأعوام حين نبقى وحيدين مع الصديق من ذلك العهد يطيب لنا استرجاع الذكريات. ونتشدق باننا عشنا في تخشيبة غطاها الجليد من الخارج والداخل، وارتشفنا الحساء من الماء الدافىء بسمكة باردة، واعقبناه بسمكة دافئة مع العصيدة الباردة من جريش الدخن، كان ذلك وجبة طعامنا الكاملة. ونحن نتلذذ بالذكريات عن كيفية نقلنا خلطة الخرسانة بالعربات اليدوية شتاءا ونحن نغطيها بفرواتنا القصار، وكيف سترنا الأعمدة الخرسانية بالاخشاب للحفاظ عليها من البرد، وكيف أحرقنا في المناقل ألواح الاخشاب من تخشيبتنا واستعضنا عنها للسكنى بحفر مخابىء أرضية، وكيف تعين علينا بعدئذ تحمل المسؤولية عن التصرف الكيفي باتلاف المساكن.

ونتذكر أيضا كيف كنا قساة على أنفسنا حينذاك وعلى الآخرين ولم نعرف للتساهل معنى، ولم يكن لدينا ميل الى التنازل.

هرب اثنان من جماعتنا من المشروع الانشائي ولحقنا بهما في السهب المغطى بالثلج وشيعناهما حتى المحطة الصغيرة بصفير السخرية ثم كتبنا بالطباشير على عربة القطار التي استقلاها عبارة: «هاربان من الخدمة» فطردهما مرافق العربة وهو فتى مثلنا، وكذلك رفض مرافقو العربات الأخرى ايواءهما، ولم يسمح لهما مدير «محطة القطار»، كما سمى الكشك الخشبي، بالمبيت هناك انتظارا للقطار التالي. وعادا الينا كرة أخرى بعد يومين بليلتيهما وهما عليلان يرتعشان من البرد وكنا جميعاً في ذلك اليوم نشيع الى مثواه الأخير بوريس ستبتشنكو الذي انهارت عليه خلطة خرسانة العمود الحامل. وكان قد نزل الى قالب الخرسانة لكسر كتلة من خلطة الخرسانة المتجمدة. انتزع جسد ستبتشنكو من السمنت، وتساقطت كتلة الخرسانة قطعاً، انطبعت عليها أشكال أجزاء جسده. ثم وفد الينا أقرباء ستبتشنكو وأريناهم شارع التخشيبات

الذي أطلقنا عليه اسم ولدهم تكريماً له وعنبر المصنع الذي لقي بوريس مصرعه في أحد أعمدته. اجترف قبر ستبتشنكو الثلج المذاب، وقد أزمعنا وضع شاهد عليه من صفيحة أول معدن لأول فرن كومسومولي لصهر المعادن، ولكن قضية تدشين الفرن لم يحالفها النجاح. ولقى مصرعه فتى آخر من فتياننا، نزل الى مهواة الفرن لنسف قطوع فيها، وأردنا أن نضع على قبره أيضاً شاهداً من صفيحة معدنية من الانتاج الأول.

اشتغل بالويف الأب والابن في مشروع البناء حفارين. كان الأب يأمل في توفير نقود لشراء فرس. ولكنه اذ أدرك المصاعب هنا، قرر العودة الى القرية وحين أصر ابنه على البقاء في مشروع البناء، خطف منه فروته القصيرة وقبعته من الفرو. وخاط باقل بالويف لنفسه ملابس من الخيش. واشترى من السوق هرمونيكا.

شب ليلا حريق في مستودع الوقود، وهجم بالويف مخترقاً اللهيب ودحرج البراميل بعيدا، حتى سقط فاقداً الوعي من الاعياء. أصيب بحروق شديدة. وكنا فخورين به وقد عقدنا اجتماعاً جماهيرياً خطب فيه قائلا:

– ان ملابسي، أيها المواطنون ترون ماهي، فهل تستحق الحرص عليها؟ ولهذا ألقيت بنفسي في نار الحريق. – ثم أمعن في التفكير قليلا وقال بتأسف: – في الريف لا أثر للكيروسين هناك يشعلون أعواداً للانارة، أما هنا فالبراميل ملأى بالكيروسين. فأي تعاون هذا؟ كان ينبغي مشاطرة الناس في الريف.

رفض الرقاد في المستشفى غير مصدق بان الأجر سيدفع له أثناء فترة العلاج كما في فترة العمل تماماً.

هو نحيف بقع جلده الجرب عابس، يربط حديد التسليح في وردتين على التوالي فأصبح متقدماً في العمل. علقت صورته في لوحة الشرف التي تعلن فيها أسماء وصور خيرة العاملين. وكان يتطلع منها بعينين يتطاير منهما الشرر، وقد نتأت وجنتاه بعضلتيهما. ورغم جهد المصور في التمويه على آثار الحروق بالرتوش ظل وجهه مبقعا...

واذا تناول الحديث تحول باقل بالويف الحثيث فانه مدين

لذلك لا للزمن وحده، الذي زعزع صلابة أعتى نفوس البشرية عقيدة.

ان عاملة حديد التسليح دوسيا الضعيفة والحازمة، الجريئة والحيية قد جمعت في نفسها القوة السلطوية لزمنها. وهي ابنة عامل التسقيف من مدينة اتشينسك الصغيرة في ناحية كراسنويارسك بسيبيريا. قد استحوذت بجرأة على نفس بافل، متحملة بصبر كل الانانية الاستبدادية لطبيعته الرجالية، وهي الطبيعة المستريبة والمتسترة ولكنها ليست خلوا من الطيبة المتفانية والرقة.

بل ولقد غدا بافل بالويف رجلا آخر. ولكن، لعله تزوج دوسيا بسبب شعور الواجب وبعدئذ عانى على مدى أعوام عديدة جرح الغرور الرجالي، وقد أدرك تفوق زوجته عليه.

لقد شعر بتفوقها أيضاً حين درسا سوية في الكلية العمالية، اذ ساعدته في الدراسة، وحين درس في المعهد اشتغلت دوسيا موفرة له من أجرها الملبس والمأكل. وحين أصبح رئيس مشروع انشائي لأول مرة صانته دوسيا من الغرور، اضراراً بنفسها وحبها. وكذلك حين ترك بالويف مكتب الادارة العامة فكأن هذا التنزيل لمقامه رفع من جديد منزلة دوسيا، لانها أكدت له ان قيادة الناس تتطلب التفوق عليهم من حيث المعرفة والخبرة، وليس فقط بالسجايا الشخصية. كانت لدى بالويف روح السطوة، ولكنه بدون المعارف التكنيكية والعلمية العميقة كان بوسعه فقط أن يتولى تنفيذ أفكار الآخرين.

قبل الحرب كان بالويف، بل وكنا نحن جميعاً، في سن تقل عن الثامنة عشرة. وفي مكتب الادارة العامة نال بالويف التقدير نظراً لقسوته على نفسه، وهي تلك القسوة التي ارتمى بها طالبا ارساله الى أصعب مواقع الأعمال الانشائية.

اشتغل في منطقة ما وراء الدائرة القطبية مشرفاً على الأعمال، وأقام على ساحل المحيط المنشآت التي يتطلبها الدفاع عن البلاد. بينما اشتغلت دوسيا في معهد للبحث العلمي.

كانت دوسيا نحيلة القوام، ذات عينين تطفحان بالقلق والعناية، ميالة الى الصمت، شديدة الضبط لعواطفها. وعند

هياجها حسب كانت تظهر على يديها وعلى جيدها الرفيع بقع ارجوانية ويرتعش أحد جفونها برفيف غير لطيف. ولكن كلما زاد هياجها العصبي زاد اتساق صوتها وتوازن نبرته، وامعانها في التفكير بكل كلمة تقولها، واصبحت عباراتها صارمة الى حد ما مستعارة من لغة الكتب. ولكن عينيها لم تتغيرا ولا لوناً بمر السنين، ظلتا ضارعتين برقة، صافيتين كعيون المراهقين.

وحين كان يعود الى البيت في اجازة سنوية طولها ثلاثة أشهر تمنح لمن يشتغلون في أقصى الشمال، ويهيجه التعطش الى مكافأة النفس مقابل جميع الحرمانات التي عاناها هناك في الشمال كان بافل غفريلوفتش يقتنع على الدوام بان زوجته لا يمكنها أن تكون شريكة له في تسليات خلية خلال فترة الاستجمام.

ان القسوة على النفس التى طالما افتخر بها بالويف كانت ملازمة بشكل لا يقل عن ذلك أيضا لعقيلته. لم تنطمس من ذاكرة يفدوكيا* ميخائيلوفنا مطلقا صورتها حين كانت دوسكا عاملة حديد التسليح، حليقة الشعر، نحيفة حتى استحت من دخول الحمام العمومي لبروز عظام جسدها، ممسوحة الصدر، رغم انها ذات سبعة عشر ربيعاً... كان بوسعها بالطبع أن تسمن قليلا، ولكنها كانت تتناول طعام الغداء عادة بدون الخبز، عامدة الى تقطيع ارغفة الخبز المخصصة لها، وتجففها لترسلها الى أمها في اتشينسك وكذلك السكر والزيت النباتي والاقمشة التي منحت اياها بالبطاقة، لامتيازها في العمل.

ولكن دوسكا الشحيحة هذه اشتركت بسخاء في شراء سندات قرض الدولة براتب شهر كامل، ثم باعت ثيابها الداخلية لدفع ثمن بطاقات التغذية. وقدمت قفازيها الخاصين الى الفتى الذي تذمر شاكياً من عدم تزويده بقفازات عمل خاصة وصارت تربط الهياكل تاركة مزقاً من جلد يديها على الأسياخ الحديدية اللاذعة في زمهرير الأربعين درجة تحت الصفر. وحين تدفق الماء سيلا الى الحفرة في الشتاء لم تلذ بأذيال الفرار، بل وقفت مغمورة حتى الحزام في الحمأة اللزقة الجليدية بينما جلس النجارون على

---

* دوسيا، دوسكا هما تصغير الاسم العلم يفدوكيا. **المترجم**.

قرم الأشجار، منتظرين بصبر حتى ينتهي الكومسومولیون من اقامة صقالة لكي يتسنى لهم تركيب القوالب من الألواح الخشبية دون تعرض أرجلهم الى البلل.

ولكن كلما حالف التوفيق يفدوكيا الآن اكثر فاكثر كباحثة علمية في المعهد نما في نفسها بشكل أقوى الشعور المقلق بالمسئولية حيال نفسها، حيال دوسكا تلك التي كانت في ذلك الحين من الدهر، والتي لم تشأ أن تفارقها حتى آخر العمر.

لقد أحبت دوسكا عاملة حديد التسليح تلك، التي كانت تؤكد قائلة: «في عهد الشيوعية سيغدو الناس جميعاً من الطيبة واللطافة حداً لا يمكن تصوره» وكانت تريد لها أن تغدو انساناً، كبير المقام، نقي النفس، طاهر الروح،رائعا.

حقاً، كيف سيكون انسان المستقبل هذا؟ وكيف يمكن معرفة سماته؟ باي علائم تحزر؟ وماذا لو جربنا التمعن بعناية وصبر على سبيل المثال متأملين هذين الزوجين، لعل فيهما شيئاً ما شبيهاً بسيماء انسان المستقبل؟

٣

وضعت يفدوكيا ميخائيلوفنا بالويفا لنفسها جدولا صارماً لنظام الحياة. استيقظت في الخامسة، زاولت التمارين البدنية، أفطرت في الخامسة والنصف، عكفت حتى الثامنة على اعداد الأطروحة، أمضت أربعين دقيقة أثناء ركوبها الباص في مراجعة التمارين بقواعد اللغة الفرنسية، غادرت المعهد في تمام السابعة مساءاً، ساعدت مدة ساعتين الأطفال في تحضير الدروس، عكفت حتى العاشرة مرة أخرى على اعداد الأطروحة، طالعت في الفراش، سجلت المقتطفات من المقروء. أطفأت في الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل ضوء المصباح، وحاولت وسنى قبيل الاغفاء التفكير باللغة الانجليزية التي أحسنت الالمام بها.

حظيت بالويفا في المعهد بالتبجيل لقاء الاصرار العجيب على الدقة في تنفيذ كافة المهام المختبرية.

ولكنها لم تستطع مطلقاً التغلب على تهيبها ازاء ذوي الشأن، وروح التنفيذ في طاعة، مما سلب في الكثير من الأمور عملها روح الابداع. ولكن ما الذي كان بوسعها فعله مع نفسها مع دوسيا تلك، التي عاشت داخلها وتجمدت مختلجة الفؤاد باعجاب حماسي حيال الأسماء الجليلة للعلماء الشهيرين؟

أجل، كانت دوسيا عاملة حديد التسليح السابقة تتهيب هنا في المعهد. ولقد شعرت بشيء ما مماثل في حينه هناك في ساحة الاعمال الانشائية.

لاحظت ذات مرة بشكل ما شروخا واسعة بين توصيلات البراطيم الخرسانية المسلحة للقنطرة. فهرعت مرعوبة مهتزة، من هذا الضرر المكشوف، الى اللجنة الحزبية في المشروع. فأوضح لها المهندس متضاحكا باساءة جوهر قوانين الفيزياء. واستمعت شاعرة بالذنب وقد اتضح لها ان البراطيم الثقيلة والثابتة تتحرك متزحزحة وتتمدد وتتقلص كما لو كانت أجساماً حية مثل الزئبق في المحرار وبنفس تلك القوانين. ولا تحول دون تهدم البراطيم جراء تلك القوة الهائلة للحركة سوى الحرية المتاحة لها بتلك الشقوق.

عاش حينئذ في نفس دوسكا الصغيرة شعور قاس وحاقد ومتغطرس بالحذر من الفئة المثقفة.

– من هم هؤلاء المثقفون؟ انهم مجرد فئة اجتماعية! بين من ومن؟ هذا هو الأمر! انهم يسيرون في خيلاء، والجميع يطلبون منهم المشورة. فليذهبوا وشأنهم!

– ما لك تهرفين بما لا تعرفين وكأنك من «الماخيين»*.

– لست هارفة بل على العكس، انني موافقة. ليدفع للخبراء أجر أكبر وتمنح لهم بطاقات تموين عمالية وتعلق لهم الأوسمة على الصدور، بل ولتخصص لهم الخيول. انهم رؤسائي، فليكن. لكنني في غير هذا من الأمور أنا عنهم مستقلة برأسي.

– يالك من خرقاء!

---

* تيار للبرجوازية الصغيرة في الحركة الثورية في روسيا، اعتبر المثقفين طبقة طفيلية عدائية للبروليتاريا. **الناشر**.

– رمتني بدائها وانسلت! فليتلقوا التحصيل في الاختصاصات ما شاء لهم الهوى أما أن يتصوروا بعد هذا انهم قد أصبحوا شيئاً ما من نوع خاص فهذا ما لا يكون!

– كل انسان ينبغي أن يكون شيئاً ما من نوع خاص ولكن ليس كل شخص بقادر على أن يصبح مثقفاً.

– ما دام من أحد المعاهد الدراسية العالية اذن فهو مثقف.

– ان المثقف هو ذلك الشخص العارف بتخصصه أولا ثم الذي يدرك ان الانسان هو أعلى صورة من المادة المنظمة الواعية لنفسها ومن أجل هذا وحده يحترم أي انسان كان.

قالت دوسكا بلهجة ظافرة:

– اذا كان شيء ما منظم فانما هو الحزب وحده وليس بالمرة هؤلاء المثقفين.

كانت دوسكا تعامل نفسها باهمال، وترفض بلا مبالاة وبخلق شكس كل ما من شأنه التخفيف بشكل ما من أعباء عيشتها الشاقة.

– اطلبي يا دوسكا من مدير المسكن في القسم الداخلي، مادام اللحاف غير متوفر لديه، ليحول سريرك أقرب الى الموقد.

– وما حاجتي الى ذلك؟ انني أتغطى بالفرشة راقدة على الدراعة المضربة وهذا حتى أدفأ.

– دوسكا، توجد بعثة الى دورات عاملي المختبرات الخاصة بالخرسانة.

– ماهذا. هل من المعقول أن أستبدل بطاقة التموين العمالية ببطاقة المستخدمين! هل وصلت هذا الحد من الغباء؟

– دوسيا. اسمحي لي بدعوتك الى الرقص!

– دعك من هذا. انني أعرق من الرقص في الجو الخانق.

– فلماذا اذن تأتين الى النادي؟

– لكي أرى وأضحك كيف تتغابون.

– أنت يا دوسكا لا طائل منك!

– أما أنت فمجنون.

لكنها حين أحبت بافل بالويف أعلنت قائلة للصبايا بلهجة حازمة:

– لا تضعن أبصاركن بعد الآن على هذا الفتى فانني سوف اتخذه زوجاً بالتأكيد!

وقالت لبافل حين أخذ يتنزه معها بلا نهاية في شارع التخشيبات المطمور بالكثبان الثلجية غارقا في الحياء، صامتا، خجولا:

– أتظل طويلا على هذا المنوال تجرجرني معك كل مساء جيئة وذهاباً كالمكوك؟ اسمع أفلا نجلس في الدفء. – وأخذت دوسكا تقوده الى الورشة الفارغة حيث كانت المناقل تسخن الخرسانة خلف صفائح من الخيش، فتجلس على ترس مطروح، وتفك أزرار معطف الفرو القصير، وتقول له ناصحة: – التصق بي فسيكون هذا أدعى للدفء – ثم قالت مغمضة العينين: – باشا* انني مستعدة لكل شيء. – وأضافت مشجعة: – لا تخف! انك لست أول رجل في حياتي.

وحين أخذ بافل الغارق في السعادة والغبطة الغامرة يهز كتفيها ويسألها في اضطراب: – «كيف كذبت علي يا حمقاء؟» – قالت وهي تتضاحك منتصرة: – «وماذا في الأمر؟ أفلم يصبح ذلك الآن حقيقة؟»

– ولكن فكري في فعلتي!

– وما شأني في التفكير؟ أنت الملزم بان تفكر.

– حسنا. سنعقد قراننا، – قال بافل. – فليكن مايكون! – وتساءل وكأنه يعتذر: – يبدو انك قررت خداعي من أجل هذا فقط؟

– أجل، كيف لا! فاعلم انني قوية العزم جداً. ما دمت وضعت عيني عليك، سيكون هذا مدى العمر كله.

لم تخش يفدوكيا ميخائيلوفنا الاعتراف لنفسها بانها ليست لحد الآن سوى نساخة دقيقة لمعارف الغير وطباخة مختبر. ولكنها حافظت في المعهد على كرامتها بصرامة.

بقدر زيادة استيعابها المعارف زادت فيها قوة الشعور بالاحتجاج لكون منجزات العلم العظمى لا يمكن تطبيقها بعد بسرعة، وعلى نطاق واسع، في متطلبات الصناعة.

---

* باشا، تصغير الاسم العلم بافل. **المترجم**.

كانت تقنع زوجها: «افهم، ثمة زهاء مليون هكتار من أسطحة المنازل الحديدية الصدئة! بينما توجد لدائن شفافة وخفيفة ودائمية. ويمكن جعل الجرادق العلوية للمنازل صوبات وحدائق صيفية، ومتنزهات للأطفال. - ووضعت في كف بالويف قطعة شفافة تستخدم في الطيران.

تطلع بافل غفريلوفيتش الى زوجته من خلال القطعة مضيقاً عينيه واستفسر:

- كم يساوي الكيلوغرام الواحد منها؟ - وبعد سماع الجواب قال متنهداً: - هم... م... - وألقى القطعة على المنضدة: - هذا لا يصلح، انه غالي. - وقال بتساهل: - انكم في حاجة الى العمل تحت رئاسة خبير اقتصادي لعلمكم كيف يكون التفكير الاقتصادي الصحيح....

كتبت يفدوكيا ميخائيلوفنا على ظهر غلاف دفتر يومياتها عبارة العالم الشهير بافلوف: «لا تدعوا شعور الفخر يستحوذ عليكم، ذلك يجعلكم تعاندون حيث ينبغي الموافقة، وتعرضون عن قبول النصيحة النافعة والمساعدة من الصديق، وتفقدون القدرة على الشعور بالموضوعية». وأضافت تحتها عبارة من عندياتها: «الوقت هو الحياة».

٤

ذات مرة عاد بالويف الى البيت عقب غياب جديد طويل دام أشهرا عديدة، فاقترح بجراءة:

- هلمي يا يفدوكيا، نرحل معاً!.. - وبعد برهة تأمل أضاف: - يمكن الى تفليس، هناك الشواء وافر. وان شئت فالى مصيف صوتشي على البحر الأسود. أو الى لينينغراد حيث نتمتع بالعيشة الفاخرة في فندق «أستوريا». - تذكر فهرع الى الحقيبة وأخرج منها علبة جلدية حمراء اللون، ونفض على المنضدة قرطين، ثقيلي الوزن، أشبه بشمعدان مصغر الحجم. - أترين، صياغة من أعلى صنف! - وعلق القرطين الى شحمتي اذنيه المنتفختين المتجمدتين.

– ولكن اذني حتى غير مثقوبتين.

– اثقبيهما.

– يا للوحشية.

– اذن نصنع دبابيس لهما، فتبقى اذناك سليمتين.

– لكنك يا بافل تعرف اني لا أحب أمثال هذه الألاعيب.

صرخ بالويف مناديا الخادمة المنزلية:

– ماشا! هل اذناك مثقوبتان؟ اذن خذي والبسيهما.

استفهمت دوسيا مبتسمة:

– هل أردت بهذا اهانتي؟

– أجل، وكيف لا!

– انك يا بافل طيب وساذج حد الغباوة.

وافق بالويف.

– صحيح، انني أحمق، وضحية التفاوت العقلي. – واستدار وتلفظ بصوت أبح: – أنت هناك تظهرين لي في اطيافي حد الألم. – وأضاف باستهزاء في الحال: – تصوري، انطلقت من محطة القطار رأساً اليك في المعهد. دخلت، فوقعت عيني على منظر لرجل وقور يلقي درساً على الكناسة: «كيف تكنسين؟ ينبغي القيام بهذا العمل بشكل خفيف ودون ضغط. الغبار مستقر على السطح فاذا جرى الكنس بضغط تعرض صقل الأرضية للحك دون ضرورة، ينبغي أن تكون عيدان المكنسة مائلة قليلا بزاوية قدرها خمس عشرة درجة تقريباً...» تسمرت، أصغي باجلال، ظننت بان هذا قد يكون اكاديميكم الرئيسي. وظهر انه ناظر القسم الداخلي. هذا هو تأثير معاشرة خيرة المفكرين! ما أحوجني الى مثل هذه المؤهلات. – ضرب براحة كفه على جبينه قائلا: – لا تتسع سعته.

– ولكن يا بافل لماذا تماحك؟

– زوج المراسلة يضاعف بفعل التصور المتهيج مناقب زوجته بقدر المسافة والوقت، اللذين يفصلان عن موضوع تفكيره.

– هذا غير ظريف.

– فليكن غير ظريف... – تساءل بنبرة حادة، متغير الوجه:
– اذن فأنت لا تريدين الرحيل معي للاستجمام؟
– لست لا أريد وانما لا أستطيع!
– طيب. كل شيء حسن، ومفهوم! واغفري لي، فانني متوتر الاعصاب فعلا، وما أن ألتقي بك حتى يركبني الغباء رأساً. لكن عقب مرور أسبوع سوف تزول هذه الحال. وسأغدو من جديد رابط الجأش ولربما حتى حكيماً شأن صاحبكم هذا ناظر القسم الداخلي. ولا تعودين تلاحظين ان في البيت شخصاً غريباً
– لا عنك، وانما عن ذلك الوسط من الناس الذي تعودت عليه...

ولكن مهما حصل بينهما فانهما كانا سعيدين، رغم أن أي واحد منهما لم يكن يعتبر هذا سعادة، ولم يعتقد بان السعادة هي على هذا النحو.

حركت دوسيا بافل غفريلوفيتش:

– اسمع، يا باشا دع عنك الرقاد، قل لي! هل من الممكن التعود على رؤية الجمال حتى لا نعود نلاحظه؟

تساءل بالويف وهو لا يزال تحت تأثير النعاس:

– ماذا تقصدين بهذا؟
– فلنفرض انك ذو زوجة حسناء.
– وهل أنت أقل جمالا منها؟
– ممن؟ أجب حالا!
– من تلك التي تقولين عنها.

واعلنت دوسيا حالمة:

– لقد أردت أن أكون حسناء من أجلك فقط. أتفهم، لقد لاحظت انه حين تدخل امرأة حسناء الى مكان سرعان ما تغدو وجوه الرجال فيه طافحة بالتزلف.
– لست من الذين يتذللون حيال كل امرأة.
– ولكنكم تتذللون.
– هل أعترف بصراحة وشرف؟
– أجل. حديث رجل مع رجل.

استل بالويف سيجارة فأشعلها، وتضاحك قائلا:

– وهل بوسع الرجل الحقيقي تبادل الحديث بهذا الشأن مع آخر؟ لا يتحدث عن هذا الا أهل الشبق لتشجيع النفس.
– معي ممكن، أنا خاصتك.–وضعت دوسيا رأسها باستسلام على كتف زوجها الناتئة القوية.
تحدث بالويف منتقياً الكلمات بصعوبة، شاعراً بالقلق، متطلعاً الى السيجارة المشتعلة:
– عندنا، أتفهمين؟ لربما يعترينا الخجل. أو لربما لا نستطيع، أو الشيطان وحده يعرف لماذا... مثلا في الكتب، اذا كان الزوج يحب زوجته، وهي أيضاً تبادله حباً فانهما يصبحان بمثابة أحمقين مملين. أما اذا كان أحدهما يخون فسرعان ما يكون... – واعترف قائلا: – أنا كما تعرفين قليل القراءة الا في الفراش طلباً للنعاس. فلنأخذ واحداً من مؤلفينا أو مؤلفاً أجنبياً... لديهم جميعاً أحدهم يخون، وهذا يجري في رواياتهم بشكل موفق ومقنع!
– بافل، هل عندك هناك امرأة؟
– هذا ما يدعى بالمنطق العلمي، أنت التي دفعت بي الى الحديث عن النسوان، ثم جعلت ذلك دليلا على الاتهام!
– حسناً اني أصدقك. لا تغضب. – وأخذت تمسح على يده برقة وحنان.
– أراد المرء التعبير عن شيء ما في نفسه فتلقى رأساً: «قف، أرفع يديك! اعترف بذنبك!»
– طيب، سأكف عن ذلك.
استغرق في التفكير ثم تلفظ متردداً:
– لعل من الأفضل أن أقص عليك شيئاً محدداً من الحياة الواقعية. وهو هذا. حدث عندي هناك ان عامل التدفئة أغوى زوجة مشرف الأعمال واستلبها منه. ذاك أدمن طبعاً على السكر. فاستدعيته وأخذت أقلب معه الأمور على كل وجه. وأفهمته انني لا أريد التدخل في شئونهم الخصوصية. ولكني ان علمت بانه جاء للعمل مرة أخرى وهو شارب طردته. كنت قد عرفت زوجته. لا بأس بها، ذات عينين زرقاوين عميقتين، ممشوقة القد، ولكن عامل التدفئة أيضاً لا بأس به وهو فاحم الشعر... وقد ترك مشرف الأعمال الادمان على الشراب ولكنه أفرط في مصاحبة

عاملات الخرسانة. تخلى عن واحدة وأخرى وكأنه قرر الانتقام من كل النساء عن المرأة التي خدعته. استدعيته مرة أخرى. وهذه قضية شخصية وبالغة الحساسية. ونحن ازاء قضية كهذه يساورنا الحياء. حين امسك بنصاب يزوغ - أقطع معه حبل الوصل وليذهب الى حيث شاء... أما هنا... - وأضاف متشكياً - بالشكوى: - فكأن تصليح الساعة يجري باداة براد. - وتضاحك قائلا: - نسبة الحسناوات أقل بين ذوات المظهر العادي.

- وهل الذنب في هذا واقع على النساء وحدهن؟

- لست اتحدث عن المذنب، بل أقول ان التعطش الى كل ما هو جميل موجود بالطبع.

- وأنت، لم تخني ولا مرة؟

ابتسم بالويف بمكر ومشاكسة متسائلا:

- هل أعد؟ كانت لدي صبية من عاملات حديد التسليح فهذه واحدة. ثم تلميذة في الكلية العمالية وهي الثانية. وأخرى جامعية فهي الثالثة. ثم واحدة مهندسة مثقفة بدرجة المرشح في العلوم... ولكن المؤسف انه لم تكن عندي بينهن امرأة عضو في الاكاديمية، ذلك مطلوب لتكميل التشكيلة.

صرخت دوسيا بصوت سعيد:

- لكن هؤلاء جميعهن هن أنا! - ثم قالت بتوجس: - ألست تكذب؟ - وبعد تأمل، - ولكن لماذا قررت التحدث الي في هذا الوقت بالذات عن هذا الحادث الذي جرى عندكم هناك؟

- لا أدري، لقد أردت ان أتحدث عن الحب بشيء ما محدد وفعلي. لست قادراً على الحديث بحيث يكون جميلا ومجرداً.

- وهل تحبني؟

- أقول بجرأة: أحبك.

- ولكن لماذا بجرأة؟

- انتظري لا تقاطعي. - تهلل وجه بالويف بالضياء وقال في ارتباك: - وهل تعرفين ان المشرف ذاك ظهر انه فتى جدير بالتقدير في رأيي. ولعلي أنا أيضاً كان بوسعي من أجلك...

- بافل، ماذا تقول؟!

- وماذا في الأمر؟ أستطيع. - ضغطت الغضون العنيدة

الصارمة على قصبة أنفه. — لما كنت أتنازل عنك بلا نزال! احتقر اولئك الذين يتنازلون بلا ذود!. — أخذ كتفها بكفيه وضاغط عليها قائلا من بين اسنانه: — أتعلمين انت لي كيف؟ كل شيء. ابتداءاً وانتهاءاً. انني اتذكرك دائماً مهما اختلفت، وانت الوحيدة لدي دائما. أتفهمين؟

— دعني أنت تؤلمني.

— انني أنسى معالم وجهي. لا أجد الوقت لالقي نظرة على المرآة. أغسل وجهي والقبعة على رأسي وشعر ذقني يملأ وجهي ويعتريني الاعياء الى حد القرف من النفس. وعلى حين غرة تخطرين على بالي! واذا كل شيء في نفسي في مكانه. يا للشيطان، ما أسعد من قيض له الحصول على مثل هذه المرأة! وخيرهن وحتى ليقع المرء في الارتباك. وأفكر: انها تعلم عن نفسها كل شيء، حتى لتراودني رغبة أن تصبحي أسوأ كي لا تقع أنظار الآخرين عليك ولكي تكوني أقل جذباً للعيون. ولعلك حتى لو أصبحت عوراء مثلا. ما كنت ألاحظ ذلك على الاطلاق. فأنت عندي دوما كما كنت وكما ابتدعتك وكما توجدين ولن تكوني لي أخرى!

— بافل. انك رائع حين يلم بك الشوق، وما أبهاك حينذاك!

— وفي الحالات الأخرى جميعاً: أسوأ؟

— لا أسوأ ولكن آخر بالمرة.

— على أي حال أسوأ؟

— كلا، لكنني عارفة بك على حقيقتك.

— فاذن أي أنا؟

— أنت كما أنت الآن، ولكن هذا مالن يعرفه أي أحد في العالم في أي وقت كان. هل تقسم على ذلك؟ ألن يعرف أحد؟

— والآن أنت تخنقينني. — دمدم بالويف بفرحة. — ياليديك ما أقواهما! هذا ما يعني انها عاملة حديد تسليح سابقة! — وتباهى بجذل: — أنا نفسي هناك لويت بيدي قضبان الحديد بلا آلة، وبينت ما لا نزال نستطيع فعله.

— أسكت. كفى!

– ها أنا أسكت، – قال بالويف وأغمض عينيه لكي يتذكر وجه دوسيا بالشكل الذي رآه الآن للتو...

ولكن حين كان ضيوف يحلون على آل بالويف، ومعظمهم زملاء الزوجة في الشغل، من العاملين في المعهد، كان بافل غفريلوفتش يتصرف بعجرفة ولعله يمكن القول بغباء. كان يقول، رافعاً الكلفة دون تحفظ:

– ان موقفكم أيها الرفاق ازاء العلم هو التبجيل، ونحن قوم من ذوي العمل العضلي، فنحن بناة محرومون من الترف كالتمتع بالطرائف الذهنية. كل شيء عندنا ملموس. عندما أبني سكناً موقتاً لمائة شخص ينبغي علي اقامة مرافق عامة فيها، مراحيض بعشرة مواضع وأنا ملزم بأن أقيم تحتها عشرين متراً مكعباً من التراب. وكل متر مكعب واحد يساوي...

– بافل. أرجوك... – توسلت اليه دوسيا قلقة.

واصل بالويف قوله:

– واليكم مثلا هذا الحادث، حفرنا ذات مرة الاساس فاذا بنا نعثر على جثة كاملة لحيوان الماموث وفكرت في ارساله هدية الى المتحف. دخلت الى السكن الموقت وكان الفتيان يتناولون وجبة العشاء ويضحكون. فما الذي حدث؟ كانوا قد شووا كباباً بيتياً من لحم هذا الماموث.

وقالت يفدوكيا ميخائيلوفنا:

– لقد شب آنذاك عندكم حريق في مستودع المؤونة، ولم تستطع الطائرات جلب المواد الغذائية لهبوب زوبعة ثلجية.

– وحتى لو لم يكن ذلك لكانوا أكلوا الماموث. وحسناً فعلوا. فما شأن تبجيل المعتقات؟ أما الحفارة فهي شيء آخر. هي الآن تمشي في سهوب التوندرا، بدلا من الماموث.

كان بلياكوف بجسمه الضئيل، واذنيه الشاحبتين، وقد دس فيهما القطن الطبي، يرنو متطلعاً بهلع طيلة الوقت نحو النافذة الصغيرة غير المغلقة باحكام، قال باعجاب بالغ:

– تصوروا، في منطقة الانجماد الدائم تعيش انواع كثيرة جداً من البكتيريات، وعلى أعماق كبيرة، فيا لها من قدرة مدهشة على الحياة!

فسأله بالويف بفظاظة:
– وأنت من أين تعرف ذلك عن بكتريانا هناك؟
– انه يريمي فيودرفتش الذي ترأس بعثة علمية الى الشمال. وقد درسها هناك...
– أهو أنت؟ – سأله بالويف.
– أجل، أنا بالذات. – تلفظ بلياكوف بفخر. – ويشرفني أن أكون مؤلف بعض الابحاث الكيماوية عن منطقة الانجماد الدائم، التي تستمد منها الفائدة دون شك باعتبارك من البناة، وحتى لدى اقامتك المنشأة التي ذكرتها ذات العشرة مواضع.
قال له بالويف منفعلا:
– عزيزي! لقد اعتبرتك متعلما لدى حديثك عن أمراضك فقط.
قال بلياكوف فخوراً:
– قصة أمراضي طريفة للغاية. قبل انشغالي بالعلم اشتغلت عامل مناجم في مقالع الرصاص. وأعتقد ان طريقة التعويم المتبعة حالياً في الصناعة لاستخراج المعادن النادرة صالحة للاستخدام ايضاً للأغراض الطبية بغية شفاء الأمراض المرتبطة بتسمم الأبدان من الرصاص والزئبق وما شاكلهما. واذا تسنى تحقيق ذلك في مجال الطب فسيكون بوسعنا بلا ريب اقتباس شيء ما منه في الصناعة ايضاً للعمل بمزيد من الدقة والاحكام على فصل المعادن النادرة عن الخامات. ولكن هذا المجال كله على حد تعبيرك من كماليات اللذائذ الذهنية. – نهض بلياكوف وأعلن بهيبة: – اقترح رفع النخب على صحة يفدوكيا ميخائيلوفنا كباحثة علمية دقيقة في العمل، ومثابرة بدأب، تدهشنا بانضباطها الاسبرطي. – ثم انحنى تبجيلا، ودنا الى دوسيا و قبل بكل احترام يدها.
وكانت دوسيا لدى هذا كله تتطلع بانفعال بلغ حد الاستغراب الى بلياكوف، وهامته المنحنية الصلعاء، وابتسمت ببهجة تجلت وجهها، بحيث ان بافل غفريلوفتش لم يطق كظم عواطفه فقال بحقد:
– هل تتذكرين يا دوسكا ساروكين الذي كان معنا في الكلية العمالية؟ انه الآن رسام. وهو كذلك شأنه في ذلك شأنك يحافظ على النظام الصحي فينام تاركاً النافذة الصغيرة مفتوحة ويغتسل

بدوش ماء بارد، ويزاول التمارين البدنية. ترك التدخين، بينما ظل يرسم لوحاته عديمة الموهبة. انها ليست تصويراً، وانما هي مجرد ألوان متضاربة. لقد كنت في معرض وتطلعت الى ما رسم فشعرت بالغثيان.

ارتعشت يفدوكيا ميخائيلوفنا، والاستغراب تفاقم على وجهها الذي علاه الشحوب. حاولت أن تبتسم، ولكن عبثاً.

جلس يريمي فيودرفتش من جديد جوار بالويف، وقال بنفور:

– اعذرني! انني انسان من خلق فظ كذلك، وسليط اللسان، لكنني اتفادي التفاخر بهذه الصفات. اما بخصوص الحالة المناظرة لتصرفك فاني أقول فيها... – وكظ على يد بالويف العبلة بأصابع قوية مثل أصابع البراد. – لقد دخلنا عالم العلم كما دخلنا في الثورة لان العلم هو دوما ثورة. ونحن نفخر لدى ذلك أن نكون فيه حتى من مزاولي العمل العضلي الأسود. مفهوم؟ – وهنا طرح يده، قام وأعلن بصوت عال: – أحب، لو تعلمون، مراجعة الأطباء فاحيط نفسي بالعناية الخاصة. الاستشفاء من العوائد الطيبة كذلك. تصوري يا يفدوكيا ميخائيلوفنا، لقد ابتكرت شخصياً لنفسي جهازاً يتولى اجراء التحليل السريع لمقدار احتواء الدم على الرصاص وعرضته على يفغيني دافيدوفتش فأعجبه. ولكن أتعلمين يا سيدتي المحترمة ما هو الآن أكثر جاذبية؟ انه الراديوكيمياء. عن طريق أشعة غاما وبيتا تبدو آفاق المستقبل مذهلة.

واستمع الجميع الى كلام بلياكوف باستمتاع بحيث لم يلحظ أي منهم كيف نهض بالويف من خلف المائدة وغادر الغرفة... لم يجد بافل غفريلوفتش في نفسه الشجاعة الكافية لكي يقدم الاعتذار الى زوجته وهي أيضاً لم تجد في نفسها من القوى النفسية لمساعدته على التغلب على نفسه. وظلا طيلة اليوم التالي مثقلين نفسياً بعبء التباعد الروحي وتلقى بالويف ليلا مكالمة هاتفية من المستشفى لاخباره بان زوجته قد أصيبت في حادث انفجار مواد متطايرة داخل المختبر ولكن حياتها ليست عرضة للخطر.

في الصباح التالي بدأت الحرب. نقل الأطفال الى حماته، ورحل الى جبهة القتال.

تلقى رسالة من زوجته وقد كتبت له فيها مفصلا عن الاطفال الا انها لم تكد تذكر أي شيء عن نفسها.

أخلى بالويف مثخناً بجراحه البليغة الى المؤخرة، وأرقد في مستشفى بسيبيريا حيث وجدته زوجته مضعضعاً من اصابته، فاعتنت به حتى شفي.

حين تطلع بالويف واعياً للمرة الأولى الى زوجته وعرفها، تلفظ عبارته بصوت واهن وسعيد:

– أتعرفين يا دوسكا ان آثار الحروق على وجهك... لا تبين تماماً. – ووضع كفه على كفها.

ولم تحدث دوسيا زوجها عن كيفية حياتها مع الأطفال في الاجلاء.

نقل المعهد الى مبنى مصنع للجعة. خلال الفترة الأولى من الوقت عاش قسم من باحثيه في المساكن الأرضية وعدلت دوسيا كوة النافذة في السكن الأرضي ولكونها خالية من الزجاج عوضت عنها بصف من القناني. وصففت من طابوقات الآجر موقداً، وحصلت على أنبوبة للمجاري جعلت منها مدخنة، وقد نقلتها من المدينة على المزلجة.

وجمعت من فناء قاعدة النفط السابقة الثلج المشرب بالمازوت بدلو، وذوبته ثم غمست قرمة خشب في المازوت لتتمكن من تدفئة الموقد بسرعة قبل الذهاب صباحاً الى العمل.

واستطاعت يفدوكيا ميخائيلوفنا بالويفا في مهجر المؤخرة، سوية مع مجموعة من باحثي المعهد، انجاز عمل البحث العلمي الجماعي الذي استمر أعواماً عديدة والذي عنى ثورة في فرع الكيمياء كاملة.

أثناء فترة العيش في الاجلاء قضى بلياكوف نحبه. قبل أن يتوفى ارتسمت على وجهه ابتسامة مضحكة وتحدث لا عن «علله المبهمة» كما سماها بنفسه وانما عن تعبه حد الاعياء. وقال ليفدوكيا ميخائيلوفنا برقة وحنان:

– هكذا يا دوسيا! أصبحنا من أهل الخير للبشرية... ولسنا

بالمرة عباقرة على نحو ما أو فوق البشر وانما نحن فقط عاملون في حقل العلم. وان كان قد تحصل لدينا شيء ما فذلك لكوننا قد حملنا أنفسنا حملا على الاجتهاد في العمل، أكثر من طاقة البشر، ولهذا بلغناه. — ثم استدعاها نحوه باشارة من سبابته وقال واهناً: — لا تبتئسي يا يفدوكيا. انت الآن تحلين صدرك بمدالية الفوز الذهبية ولكن اذهبي الى العمل في التدريس وأفسحي المجال أمام الشبان. أنت مجتهدة. وليس فيك عدا هذا شيء ما خاص. — ورجاها متوسلا: — فليذهب الى العلم الشبان الموهوبون وحدهم لا غير. طيب؟ — أغمض عينيه وقال هامساً: — لكل انسان خاصيته وتذكري هذا: كلما تقدمنا صار ذلك ملحوظا أكثر فأكثر. ما أقل ما بحثنا نحن لأجل انفسنا، ينبغي أن نفعل ذلك أكثر. ان الانسان هو الأهم على وجه الأرض، هو بداية كل شيء. لكل شيء نهايته الا الانسان.

صارع بلياكوف الموت، ولم يستسلم له حتى آخر رمق من روحه. قضى نحبه مفتوح العينين.

أدخلت يفدوكيا ميخائيلوفنا الأطفال المدرسة ذات القسم الداخلي، وبقيت هي تعيش في السكن الأرضي، والى هنا جاء بعد مغادرة المستشفى بافل غفريلوفتش أيضاً.

لأول مرة في حياتها أحست بضيق في قلبها وخوف ذليل من نفسها. ورغم انها صبغت بغزارة شفتيها الشاحبتين الجافتين بأحمر شفاه لزج وحلو الطعم، وعقصت شعرها في قرفصات، لكنها ظلت تشعر على نحو مؤلم طوال الوقت بجسدها بارز الأضلاع مثل لوحة غسيل الثياب، ويابساً، هزيلا، فاقد الأنوثة والرقة.

خشيت باقشعرار تلك اللحظة التي سيرغب فيها زوجها أن يعانقها. بينما هز بافل غفريلوفتش كل ما عرفه عن حياة زوجته؛ لدى رؤيته هذا السكن الأرضي والقناني في كوة النافذة بدلا عن الزجاج، والموقد اليدوي الصنع، ومدخنته من انبوب المجاري، والمنقوع الفيتاميني من الصنوبر، والبنطلون المضرب والمدسوس في كيس المخدة لتهيئة وسادة له، وقع في حالة من الاضطراب النفسي. حاول أن يتلافاها بمزاح أجوف من «اختراعاتها». وعمد، بدون مناسبة اصلا، الى تذكيرها بان الحياة هنا أفضل على أي

حال من ذلك العهد، داخل الحجرة في المشروع. ولشعوره بانه نطق بعبارات ذميمة سقط نهائياً في وضعية الديك منفوش الريش وأخذ يتحدث كيف قاتل كأنه يبرر بهذا تصرفاته أمام دوسيا. ولكي يجد المخرج من هذه الورطة النفسية المزعجة أخذ يصب على عجل السبرتو في القدحين، ودون أن ينتظر حتى تنتهي دوسيا من تحميص البطاطس وتغطية الصندوق المتخذ خوانا بالسفرة، شرب في عجلة، وحمل زوجته حملا على الشرب معه.

كانا الآن يحسان بالخجل والحياء من بعضهما البعض، وكان ذلك ثقيل الوطأة على النفس حداً لا يطاق. ثم جلسا كرة أخرى على الصندوق وشربا مرة أخرى، ولكن هذا أيضاً لم يعد عليهما بتخفيف الوضع، وكل ما حصل عليه الاثنان من شرب السبرتو هو الصداع.

حين مد بالويف ذراعه والابتسامة مرتسمة على واحد من خديه فقط فسحب زوجته اليه وعانقها انكمشت على نفسها، مستجمعة جسمها، وأطرقت برأسها ونشأت على جيدها المنحني حفرة عميقة. ورجته دوسيا شاكية:

– تمهل. دعني انفخ المصباح. – ولم تستطع، لم تجد قوة تكفي لاطفاء البصيص. وقالت برنة بائسة: – بافل، أرجوك الامتناع بعدئذ عن ذكر شيء عني لي فأنا أعرف عن نفسي كل شيء. – وطلبت منه في يأس وقنوط: – هات أولا يدك. ولا تنظر.

ومررت كفه على ترقوتها وعلى اضلاعها. رفعت حنكها وقالت مغمضة عينيها:

– أرأيت كيف أصبحت أنا يابافل، والآن أنت تعرف... – مسحت بظهر كفها الطلاء الأحمر عن شفتيها، قائلة بمرارة: – لقد أردت رغم ذلك خداعك لكي أعجبك فتجملت ونتفت شعر حواجبي! هل تسمع يا بافل، أردت أن أخدعك!

جثا بالويف على ركبتيه في أرضية الحجرة الترابية، ودس وجهه في حذائها القماشي... لم يستطع بالويف أبداً لا حينئذ ولا فيما بعد ايجاد كلمات يقولها لدوسيا تعبيراً عما خالجه في تلك اللحظات من التبجيل حيالها.

أما دوسيا فلم تستطع سوى التململ في موضعها بخجل، محاولة أن تثني رجليها تحتها، وتوسلت:

– باشا، دع عنك هذا، انهما قذران. – همست وهي تبتسم بسعادة: – باشكا، لماذا تقبل أحذية الغير؟ لقد استلفتهما من زويا الكسندروفنا. أما أحذيتي فها هي هناك على الموقد. – وضحكت بصوت دقيق النبرات بلا مبالاة وهو مالم يسمعه بافل غفريلوفتش ربما منذ ذلك الوقت حين كانت زوجته دوسكا عاملة حديد التسليح.

حينما عاد بالويف الى جبهة القتال حارب بقسوة شرسة محترسة كانت على العدو أفزع من عنفوان الانتقام.

في ستالينغراد نسف بمنتهى الحذق تحصينات العدو الدفاعية وفق الحساب الهندسي الدقيق والحرص الشديد على توفير كيلوغرام من المتفجرات، بل وكيف جهاز حفر عادي للقيام بالحفر الأفقي لدس علب الألغام تحت معاقل العدو.

وهو الذي تسلل عبر شبكة المجارير ونسف مستودع وقود للالمان. ثم حينما زحف عائداً كان النفط المشتعل يسيل متدفقاً عبر قنوات المجارير تحت الأرض، وانفلت من الكوة محترقا فأطفأه رفاقه المحاربون بدحرجته على الثلج... ورغم أن يفدوكيا ميخائيلوفنا عاشت حينذاك في موسكو وكانت تتلقى المؤونة التموينية من الاكاديمية بعث بالويف بعناد في الطرود البريدية مواده الغذائية الاضافية الجافة المخصصة للضباط، وما استبدله مع رفاقه من الزبدة والشحم مقابل حصته الجبهوية من التبغ والفودكا. وكتبت له زوجته بانه لا داعي لقلقه، وانها الآن قد سمنت وتساءلت بقلق: أمن المعقول انه لا يستطيع نسيان ما كانت عليه من نحافة ابان اقامتها في الاجلاء!

ثم استدعي بالويف من جبهة القتال الى موسكو. وكلف بمهمة سرية، هي التوجه الى الشرق الأقصى لتشييد خزان تحت الماء يزود سفن الاسطول بالوقود في عرض الاقيانوس. وكان عليه أن يغادر جواً الى الموقع المنشود بنفس اليوم.

تلفن بالويف طالباً زوجته في المعهد لكي تأتي الى المطار. كانت سحب ثقيلة كثيفة تتهدل واطئة من السماء. وكان المطر

يهطل سيولا. بينما كانوا ينزلون من طائرة القسم الطبي المصابين بجراح خطيرة، ملفوفين بالضماد من قمة الرأس حتى أخمص القدمين كأنهم المومياء.

واقتيد جنرال ألماني يرتدي معطفه الرمادي الرسمي ويعتمر سدارة عالية رمادية وله وجه رمادي وخدان غائران بعمق. كان يخطو متعجرفا، لا يثني ساقيه عند الركبة. ولكن عينيه كعيون المجانين، وحدقتاهما ثابتتان بلا حراك.

اما في الكشك ابيض اللون الذي بيعت فيه قبل الحرب قناني الماء المعدني فقد جلست فتاة على صندوق. وضابط برتبة رائد، محني الركبتين، يجرب لها في قدمها حذاءاً عالي الكعب من طراز القارب، وكانت في العربة المرفقة بالدراجة النارية العائدة الى هذا الرائد علب أخرى فيها أحذية سيدات. وكانت هذه الفتاة من مظليي التخريب، لم يلاحظوا، الا في آخر لحظة، هنا في مطار موسكو، انها انتعلت حذاءاً عسكرياً عالياً، وها قد أسرع الرائد جالباً الأحذية النسائية. انشغلت الفتاة في انتقاء الحذاء وكان بادياً عليها انها حريصة على انتقاء اجملها، وهو الحذاء المزدان بفراشة. قال الرائد:

– المهم الا يكون الحذاء ضيقاً على القدم. – تطلع من تحت لفوق الى وجه الفتاة المائل، وأضاف بلهجة فيها رنة رجل عمل:

– في عملنا أي شيء طفيف... – وقبض باصبعيه على خناق عنقه تحت الحنك.

وأجابت الفتاة أيضاً بروح عملية:

– لكن هذا ليس لازماً بالضرورة. ففي الامكان الانتحار باطلاق الرصاص على النفس.

انزلت من طائرة «دوغلاس» مصبوغة بطلاء جيري عبر فتحة الهبوط بالمظلات بقرة نحيلة، صفراء ذات عينين زرقاوين. وقال الطيار هازا كتفيه علامة اللامبالاة للمراقب المناوب:

– شأني في الأمر صغير. أمر قائد وحدة الأنصار فنفذت. يقال انها من ضاربات الرقم القياسي العالمي وان لها قيمة على نطاق الدولة. والشيطان وحده يعلم، فلم أكن راعياً ولا علم لي بالمواشي!

وقفت البقرة تحت بدن الطائرة كما لو تحت سقيفة لامبالية، هادئة، معتادة كما يبدو على كل المنغصات.

سارت دوسيا مرتدية معطف فراء السنجاب مبللا، مفتوح الأزرار، حاملة مظلة حامية بها شعرها المصفف في تسريحة جميلة، وقد ارتدت فستاناً خفيفاً ملتصقاً بقوامها، ومن اذنيها تدلى قرطان. وقع نظر بالويف عليها رأسا. فخف اليها، وعانقها وأخذ يقبلها بصمت ولهفة، يكاد ينتزعها من معطفها الفرو المفتوح.

— بافل ماذا تفعل، الناس ينظرون!

لكن، لم يكن أحد ينظر اليهما وكل هذا هنا مألوف لا يثير الدهشة، لا منظر البقرة، ولا الفتاة الذاهبة لمواجهة خطر الموت، ولا الجرحى شبه الموتى، ولا الجنرالات الأسرى السليمين المعافين، ولا أيضاً الوداع اللاهب اليائس مع الأقارب.

تجاوز السائرون الى الطائرات بالويف وزوجته دون التفات، كما تجاوزوا لتوهم النقالة وعليها جثمان ميت تركه رجال الصحة على الأرض ليحملوه بعد الانتهاء من نقل الجرحى الذين لا يزالون على قيد الحياة.

لمس بالويف باصبعه ثقب اذنها الذي تدلى منه القرط وسألها:

— أليس مؤلماً؟ لم يكن ذلك لازماً مادام يسبب الألم: — ضغط على كتفيها وأبعدها قليلا عن نفسه وأضاف: — على العموم، فهذا يلائمك. — وفجأة اعتراه الغضب. — من المؤسف أن تكوني هكذا بدوني! كان بوسعك الانتظار!

— بافل انك لمضحك! انظر. — وحسرت شعرها عن صدغها — أترى الشيب الذي وخط شعري. لقد كبرت.

— فليكن! — قال بالويف راضياً. — لا بأس. — ومن جديد أوضح باعجاب: — يا لك من امرأة! — وأضاف شاكياً — متجددة دوما.

— وأنت أيضاً عندي متجدد دوما. — أغمضت عينيها: — ما أشد فرحتي انك لن تكون بعد الآن عرضة للقتل.

قال بالويف:

— أجل حتى ليشعر المرء بوخز الضمير. — غضن وجهه،

وأومأ برأسه ناحية البقرة التي لا تزال واقفة تحت بدن الطائرة.
– يبدو اننا سننقل سوية الى المؤخرة.
– لكنك يا بافل مكلف بمهمة بالغة الأهمية.
هز بالويف كتفه ممتعضا:
– لا أحد يملك الحق في تهديد الانسان السوفييتي الآن، لا أحد، ولا بأي شيء! أما الفاشيون فهم قضية أخرى، ولقد جربوا. لا أحد، ولا في أي وقت.
– ماذا تقصد يا بافل؟
– أتعلمين يا دوسكا، – قال بالويف مفكراً في أمر ما شغل باله، – انك تعتبرين ان الحرب انما هي شر حسب؟ كلا، لقد غدا واضحاً الآن نهائياً أي قوم نحن جميعاً. اقتربي الآن هنا الى أي شخص مثلا وقولي له ولكن بتأدب: «نحن في حاجة الى دم لجريح» فسيكون جوابه: – «حاضر، تفضلوا». أو بدلا من تلك التي تسير بالحذاء ذي الكعب العالي. أترينها تلك الغندورة التي تتمخطر في الوحل؟ انها ذاهبة الى عمق الألمان لمواجهة الموت؟ اسألي: من يوافق على الذهاب بدلا منها؟ ستسمعين ذات الجواب: تفضلوا.
قالت دوسيا:
– بافل، أنت اليوم عاشق كلك، ويبدو لي ان حبك ليس موجها نحوي بالمرة، بل يخالجني شعور بالغيرة.
تابع بالويف وعيناه تشعشعان:
– ستنتهي الحرب، فيتوجب أن يقام أضخم تمثال من الفولاذ المقاوم للصدأ، لا لشخص ما، وانما للانسان السوفييتي عموماً. يجب أن نصبح من عبدة الانسان، فهذا ما نحتاج اليه أساساً عقب الحرب...
كانت الطائرة التي تحلق نحو الشرق الأقصى مرقعة الخروق كلها. بدت على صدر الطيار وميكانيكي المتن العلامات القماشية الذهبية والحمراء دالة على عدد الاصابات بهما. وقد قال الطيار لبالويف، كأنما على سبيل التبرير:
– بعد الخروج من المستشفى نرتاح على النقليات المدنية.

كان وجه الطيار أحمر لماعاً وجامدا مشدود الجلد الرقيق الشفاف كغشاء بقوة. كان بالويف قد رأى مثل هذه الوجوه الشايطة، والمحروقة أيضاً، لدى جنود الدبابات...

٦

كسر الاقيانوس أربع مرات الخزان المشيد تحت الماء، قاذفا الأنابيب المهشمة الى الشاطىء المغطى بالجليد. وتعين البدء بكل شيء منذ البداية. وكانت جزيرة صخرية صغيرة قد اتخذت قاعدة انتاجية فيما الأمواج المعلاقة تكاد تطغي عليها اثناء الزوابع، فيغادر الجميع التخشيبة التي كانت جدرانها تنحني بفعل الريح، متجمعين عند الجرارات، متمسكين بالأمراس المشدودة بين هذه الجرارات.

حينما كانت الموجة تنزاح كان ينبغي اجراء تعداد للعمال، بينما كانت الجرارات تضيىء مصابيحها بحثاً عمن يكون قد فقد الوعي. وتبدو الجزيرة كلها حينئذ مزرورقة وكأن قشرة جليدية فاتحة كستها وكذا ملابس الناس...

بعد الزوبعة، كان الجميع تقريباً يعكفون على مزاولة الأعمال تحت الماء، يدحرجون الكتل الحجرية التي راكمها الاقيانوس على صهريج الخزان وينتزعون الأجزاء المهشمة، معلقين بدلا من الأثقال الحديدية المخلوعة عن المسامير أخرى جديدة.

حاسة اللمس لدى الغطاسين مرهفة كما لدى العميان فالرؤية في الأعماق شبه معدومة. ولهذا جعلوا كسبا للوقت عمل الغطاسين في الليل، وأما النهار فقد ترك للتهيؤ له. كان الماء العذب لا يكفي سوى لطبخ الطعام. ولئلا يحز ماء البحر المالح الأجساد جداً دهنوا الجلد من قمة الرأس حتى أخمص القدم بزيت السمك، فيما الجميع قد اعتادوا على زنخته...

لقي عامل التركيبات بوخوف حتفه بضربة من طرف مرسة انقطعت، فلم يجدوا في الجزيرة الحجرية الصلدة أرضاً يمكن أن تحتفر لدفن القتيل. وعندئذ صنعوا صندوقاً، سدوا شقوقه بالقنب وطلوه بالقطران ثم أرقدوا جثمان بوخوف في داخله، اغلقوا

الصندوق، وأعادوا طلاءه من الخارج بالقطران، ونصبوا بواسطة الرافعة فوق هذا الصندوق قطعاً ضخمة من الصخور كالخيمة.

رغم أن ظروف الحياة في هذه الجزيرة كانت شاقة، فوق طاقة البشر، فان الأعراف السوفييتية روعيت بقدمية. فعلقت الصور لخيرة العمال مرسومة بقلم الفحم على ورقة مزيتة. ونظمت الأماسي لهواة الفن في منهاج ثابت، فكان الغطاس بوبنوف يرقص ناقرا بحذائه البحري وينشد ميكانيكي التركيبات أبياتاً للشاعر الروسي يسينين بصوت رنان، ويعرض رئيس عمال العزل مدفيديف ألعاب الحواة بأوراق اللعب. وعند اختتام الحفلة الفنية للهواة كان بالويف ينطق دوما العبارة نفسها:

– أيها الرفاق لقد مرحنا واسترحنا فهلم بنا الى العمل بنشاط جديد.

كانت الجلسات الحزبية المغلقة تعقد في حجرة غير مدفأة بالمستودع، ورغم هذا فقد حضرها أعضاء الحزب دون أن يرتدي أي منهم بزة العمل العادية المقاومة للزوابع والبرد. كان الجميع يغيرون ملابسهم كما ينبغي، فكان غريباً ان يرى في المستودع، شبه المعتم والبارد، أناساً يتصبرون على البرد في جاكتات قصيرة على موضة ما قبل الحرب وعليهم الصرامة والمهابة والجدية، حليقي الوجوه درجة النعومة، يفوح منهم عبق ماء الكولونيا.

وعندما كان بالويف يخطب في الاجتماعات الاحتفالية بورقة اقتبس جميع عباراتها من البرامج الاذاعية، ويصرخ عالياً بما كان الجميع يعرفونه بداهة، تعلو وجوه الناس هنا مسحة الانفعال. وحين كان يهتف في ختام كلمته: «عاش وطننا السوفييتي!» كانت عيناه وكذا عيون الجميع تنز دمعاً، فيما أعماقهم تهتز فرحاً، وتخالج النفوس رغبة في اجتراح مأثرة، ذلك لان أياً منهم ما كان ليخطر على باله انه يجترحها فعلا ههنا كل يوم...

وحل وقت انجاز تشييد الخزان، فالجميع بلا عمل يشغلهم، تفرقوا يتسكعون على الأحجار المطحلبة انتظاراً للسفينة، وقد خالجهم شعور بالسعادة العظمى بما انجزوه، وبنفس الوقت خامرهم احساس بالحزن والأسى لتوديع أولئك الذين كانوا هنا، من لا

يمكن أن يكون مثلهم أحد حتى من أجل أي ثواب أو عقاب على الأرض. لا يمكن أن يغدو كهؤلاء الا أشخاص اعتراهم شعور الخجل لكونهم ليسوا عرضة للقتل هنا، في حين كان غيرهم، من أمثالهم، يلقى مصرعه في جبهة القتال.

وليس الا بعد العودة، عقب انقطاع طويل اتيح لهؤلاء البناة مجدداً أن يقصدوا الحمام، ويتطلعوا الى أبدانهم النحيلة، المغطاة بسحجات وكدمات، أبدان من عانى أصحابها كأنما من مرض عضال، فأدركوا حينئذ مدى الارادة التي لا بد من توفرها للاحتفاظ بقوى النفس في الصراع ضد الاقيانوس. فيا لذلك الشد الذي عاشوا به على هذه الجزيرة! كانوا يرسلون الى اسرهم شهريا نفس البرقية المقضبة النمطية باللاسلكي: «انني سليم. أبعث القبلات». ثم كان عامل التلغراف في المركز يضيف اليها عناوين من ارسلت اليه هذه النبذة.

كانوا جميعاً يعتبرون من أهل المؤخرة، بل وشعروا أنفسهم انهم من العاملين في المؤخرة، وذلك لانهم، وأكرر: ليسوا هنا عرضة للقتل كأولئك الذين يقاتلون في الجبهة. كان ممكنا ملاقاة الموت في الجزيرة جراء البرد فقط او مجروفاً بموجة او شارقاً بالماء في بدلة الغواص الممزقة أو مصدوماً بدعامة خرسانية أو مطروحاً باعصار أو مشقوقا بمرسة منقطعة تضرب بقوة لا تقل عن قوة شظية قذيفة.

لم يعجبهم نعت «سكان الجزيرة». وطالبوا بشدة وصفهم بالتعبير الذي اخترعوه لأنفسهم: «أهل الجزيرة» بدا لهم انه أكثر مدعاة للاحترام. ولكن مأثرتهم بقيت دون تسمية. زالت الحاجة الى تزويد السفن العسكرية السوفييتية بالوقود في عرض الاقيانوس. اعتبرت معلومات الاستخبارات الاجنبية في الأركان العامة المعنية، بصدد هذه المنشأة، خيالية. فان مثل هذه المنشأة المعقدة الضخمة تشكل آمالا باطلة على أي واحد من كلا الطرفين المتحاربين.

لقد خلف الاغريق القدامى بعدهم ذكرى طيبة عريضة هي تماثيل منحوتة من الرخام النفيس لنساء ورجال متناسبي الاعضاء

بعضلات رياضية كاملة التكوين. وقد تجسد الانسجام البدني الكامل في التماثيل الشهيرة على نطاق العالم كله.

وكان بين البناة الذين اشتغلوا في قاع الاقيانوس، بالاخص من مجموعة الغطاسين، فتيان بمثابة نسخة حية لتلك التماثيل السحرية. صدر فخور بارز بشدة، بطن رائع الشد، عضلات مصقولة كالدروع، أيدي وأكتاف عضلها كالسبائك المحبوكة. وكأنهم يمتون بقربى مباشرة الى داوود وجالوت وهرقل. غير انه لم يكن مناسباً على أي حال عرض العديد من البناة مرتدين السراويل والفانيلات حتى في الملاعب المحلية، فقد ترك الجهد الشاق للاجيال السابقة، وكذلك الأكل الثقيل الوطأة، آثارهما على شكل أبدانهم وتركيبها. ورغم ذلك فان هؤلاء الناس بالذات كانوا نموذجا للتحمل البدني في أسرة عمل «أهل الجزيرة».

فلنقل مثلا ان الميكانيكي بتوخوف معوج الرجلين من أثر مرض الكساح الناجم عن المجاعة في حوض نهر الفولغا في أوائل العشرينات، له عينان مائيتان مستكينتان، ويعاني من مرض الفتق منذ زمن الحرب الاهلية في سيبيريا اذ حارب في صفوف أنصار المقاومة، حين نقل مع جندي التصويب شبه الحي، ساحبين من الثلج بالجهد الجهيد المدفع عيار ثلاث بوصات الى مربض جديد، ولكنه هو فقط، هو نفسه بالذات، من استطاع على مدى عشر ساعات على التوالي من التعرض لضربات أمواج الاقيانوس أن يعلق الأثقال على أنابيب الخزان. كان بتوخوف يعود الى التخشيبة وقد احال الجليد ملابسه الى ما يشبه الزجاج. ليظل في بزة العمل المشمع واقفاً أمام الموقد طويلا، دون أن ينزعها عن جسده خشية التكسر منتظرا حتى يذوب الثلج عن الملابس فيغدو ممكنا خلعها دون تمزيقها. ولم يستبرد بتوخوف أثناء ذلك مرة واحدة، بل حتى لم يعطس! وحين ارتدى الملابس الجافة اكتفى بقوله آسفا:

– الثياب الداخلية على الجسم النحيل تبلى أسرع لكونها تحتك بالعظام.

قال بتوخوف وهو يعلق بزته المشمع لتنشف:

– انهم يزودوننا هنا بصورة طيبة، ولكن يجب الاقتصاد: ما

ان نقضي على الفاشيين حتى برلين حتى يمثل المحررون عراة جوعى فينبغي الباسهم واشباعهم، وبما اننا هنا في وضع ذي امتيازات علينا اذن التوفير مما هو فائض لدينا لنهديه فيما بعد الى المحررين.

وبناء على اقتراح بتوخوف ذوب «أهل الجزيرة» بالتسخين عشرة أطنان من زيت السمك وبعثوها الى اللينينغراديين، وان لم يكن ذلك في براميل (لعدم توفرها) وانما في قطع من الأنابيب غير الصالحة لحموا صماماتها، فغدت ثقيلة كأنها اعمدة من الغرانيت ونقلت على متن سفينة.

من أين كان بتوخوف هذا يستمد القوة بظهره المحني، وقد برزت فيه لوحتا الكتفين عندما ينتزع من الجليد الأثقال الحديدية المتجمدة ويثبتها فوق الخزان!

يقول بتوخوف مازحاً:

– اننا قوم من أصحاب العرقين، لنا عرق ظاهري، وآخر داخلي رئيسي نعزف عليه كما على الأوتار.

– وما هي اغنيتك الخاصة التي تعزفها؟

أجاب بتوخوف بجد:

– ان لحنها عادي جداً، وأنا أتذكرها منذ عام ۱۹۱۷ أيام ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى. وهي لا تصلح للرقص على أنغامها ولكنها صالحة للترنم أثناء العمل. – وكان يسأل بشكل صارم: – أمفهوم عنأي موسيقى أتحدث؟

أما الغطاس بوبنوف فله وجه ثقيل مترهل! كان يشتغل تحت الماء بتمهل واحتراس معانيا على الدوام الجوع الاكسجيني. كان يعرق داخل بزة الغواص الى درجة امكن معها عصر ملابسه الداخلية الصوفية السميكة وكأنها خرقة مبللة. حين كان بوبنوف يشتغل يقف عند مضخة الهواء أربعة نافخين لكنه رغم ذلك يظل يعاني من نقص الهواء. هو وحده من تمتع بقوة هرقلية، وزحزح كتل الصخر بوزن ربع طن عن الخزان. وقد عجز بوبنوف هذا نفسه عن رفع أثقال رياضية من وزن سبعين كيلوغراماً. وقد علل ذلك بقوله معتذراً:

– لست من أهل العبث في هدر طاقتي.

ها هو الغطاس الشاب بيتكين يرفع بالنتر وزن مائة كيلوغرام كاملة. ولكن كم من مرة سحبوا فيها بيتكين هذا نفسه فاقدا قواه أثناء العمل على الصخور، بل في يوم عمل غير كامل! كان بوبنوف البطيء، ثقيل الوزن، يؤكد ان الغطاس ملزم بأن يكون عصبياً.

– حين تشتغل من الأعصاب تستطيع دوما الانجاز عن طريق القوة اما حين يكون الشغل على القوة وحدها فان الأمر لا ينجز بسبب العجز.

وعندما سئل بوبنوف:

– مالك لا تنام؟ وبل تتقلب في الفراش وتتململ!

أجاب بصوته الأجش:

– بسبب الأعصاب، فانها منزعجة. لقد عاد المكتب الاعلامي لنشر البلاغات الحربية الى التحايل في التعابير. فما معنى «المعارك العنيدة ضد قوات الخصم المتفوقة»؟ فاذا كانت متفوقة فهل معنى ذلك انها توجه الضربات الى قواتنا؟ واذا كان تعدادها في القطاع المذكور أكثر، وتعداد قواتنا أقل منها، فهل معنى ذلك اننا متفوقون عليها في حالة ايقافنا لها عند حدها؟ اذن كان ينبغي ان يكتب عن هذا الأمر بلغة روسية جلية مباشرة!

أما عامل اللحام بوسونوغوف فهو فتى من مدينة منوسينسك، عيناه شبيهتان بجرحين داميين.

كان رذاذ الماء يرش طيلة الوقت زجاجة القناع الواقي، وعندما تجف يكسوها في التو بقشرة ملحية. اللحام مضطر أحيانا الى العمل بدون الزجاجة الواقية. ولكن اذا انفجر الأنبوب في اختبار الضغط فان ذلك يحصل في مواضع ليست على الاطلاق تلك التي لحمها بوسونوغوف.

قالوا له:

– فولودكا. انتقل الى عمل آخر فانك عرضة لخطر العمى، يا أحمق!

– أين يمكن العثور على لحام آخر؟ ان دوبوف لزم الفراش الأسبوع الثالث على التوالي. فمن سيتولى لحام الأنابيب اذن؟

هيأ هذا الفتى في عامه التاسع عشر نفسه مسبقا لاحتمال

اصابته بالعمى. وتعلم الكتابة واضعا مشبكة خشبية على الورق، وقصد في الليالي حجرة اللاسلكي فلقنه عامل الارسال أصول شغلته. وقد تعلم بوسونوغوف فك وتركيب الجهاز مغمض العينين وكذلك ملء الاستمارات وتلقي الاشارات اللاسلكية بالسماع. وكان يقول بارتياح:

– هذا معناه انني هنا أرفع مستوى كفاءتي في التخصص. ان مهنة عامل الارسال أعلى درجة من عمل اللحام.

كانت عينا بوسونوغوف الحمراوان مغرورقتين بالدموع دوما. ولدى ذلك كان دوما يبتسم و يمزح:

– عندما تذاع نشرة آخر الاخبار تعتريني دوما حالة واحدة فاذا الالمان احتلوا احدى مدننا بكيت واذا جنودنا حرروا مدينة ما بكيت أيضاً. وهكذا فانني أبدي الموضوعية، اعترف...

وحينما كان الاقيانوس يلفظ الخزان ممزقاً، وتلاطم الأمواج الأنابيب مقطعة بالصخور ويتشبث الناس بهذه الأنابيب ويجرون بالجرارات لانقاذها من عنفوان الأمواج، كان بتوخوف النحيف، محني الظهر، يتقدم الآخرين دائما. لم يكن يعرف معنى للخوف وكان اذ يبتعد غير عجل عن الموجة العارمة المقبلة عليه يلتفت نحوها، ويصرخ:

– هيا، هيا. عربدي يا ساقطة! – ويبصق على الماء بضراوة.

لكن ها هو الاقيانوس قد استجمع قواه تهيؤاً لدفقة جديدة، وها بتوخوف قد لحق في الوصول مع الحبل الى الانبوب المقذوف فشبكه به، ولم يتراجع عنه الا في تلك اللحظة التي كاد التل المائي العارم الجديد يطبق عليه.

اكتشف بالويف ان طبقة مياه الاقيانوس في عمق يتراوح بين الخمسة والعشرين متراً والثلاثين متراً ليست عرضة للتموجات، فأخذ البناة ينزلون الأنابيب الفولاذية قبيل هبوب العاصفة من الأماكن الضحلة ليحفظونها بهدوء في المنطقة العميقة. وكان يحدث أحيانا ان تنتفض منطقة المخاضة الضحلة وقوس الشاطىء

كله تحت ضربات الهواء القوي المضغوط الذي كثفته الزوبعة، فتتدحرج كتل الماء أطناناً عديدة في أمواج ثقيلة، بينما الحصى يرن ويزن، وقد تلاعبت به دفقات الزوبعة أماماً وخلفاً؛ أما الأنابيب فانها كانت تستقر في الأعماق بسكينة وسلام.

وبعد كسب الخبرة في حفظ الأنابيب من سورة الاقيانوس داخل الأقيانوس نفسه كان بتوخوف يتوجه مرتدياً رداءه المشمع الى الشاطىء في جو عاصف ويخاطب الاقيانوس بقوله:

– أرأيت كيف بدوت ضعيفاً واهنا أمامنا أيها الراكع!

عاد ذات مرة الى التخشيبة. وبعد نفضه بيده البقع البيضاء المتبقية من الرغوة المالحة الناشفة على ردائه قال:

– ما أقوى وأقدر الانسان!

وانها لحقيقة!

حين كانوا يسألون بتوخوف فيما بعد: «وكيف كان شأنكم هناك في الشرق الأقصى مع الخزان؟» كان يجيب بهدوء يقرب من اللامبالاة: «لا بأس، كل شيء تم كما يرام، طبقا للبرنامج». ويضيف بحيوية: «المهم أن صيد الأسماك هناك لذة ما بعدها لذة، تستطيع الصيد بصنارة خالية. يا له من مكان ساحر لهواة صيد الأسماك!»

أما بالويف فقد لحق – في غضون شهر رفع بعده الحساب الى الجهات المختصة عن كل أنبوب أتلفه الاقيانوس – ان يركب له أسنانا اصطناعية بدلا من أسنانه المنخورة جراء الاسقربوط. وقد استولت هذه المشاغل على ذهنه حد نسي مصاعب البناء، حتى انه حين سئل في الادارة الرئيسية: «كيف يا بافل غفريلوفتش، هل الوضع عصيب عليكم هناك؟» – وافق بمرارة: «مضبوط تماماً، لقد تخليت عن الدقة، لقد ظننت انني لن أحيد عنها. الشكر الى قيادة الأسطول التي نظمت لي نشرة أنواء جوية انتشلتني بوثيقة للتبرير».

مع أسرة العمل هذه نفسها رحل بالويف الى حوض فحم الدونباس المحرر من المحتلين الألمان، نزل نفس هؤلاء الناس مرتدين بزة الغوص الى المناجم المغرقة، كي ينزحوا عنها اقيانوس الماء الفاسد العفن. وهؤلاء الناس أنفسهم كرروا هنا أيضاً مأثرتهم التي اجترحوها في تلك الجزيرة. كانت صمامات خوذة الغطاس تتعطل أحيانا فيشتغلون وأنفاسهم تكاد تختنق في بزة الغطس المنتفخة، سابحين في عرقهم البارد وقد احتقنت عيونهم، حاملين أثقالا اضافية ليدوسوا حمأة الوحل اللزجة الثخينة التي تملأ مهواة المنجم حتى أعلاها. ولم يقتصر عمل هؤلاء الناس على الغوص تحت الماء، بل لقد اشتغلوا أيضاً تحت الأرض المهددة بالانهيارات، وجربوا الشعور بالاختناق المساوي تقريباً لعذاب لحظة الشنق.

ان الناس يأتون ويذهبون، أما أعمالهم الشخصية فتبقى بعدهم.

عقب مرور بضعة أعوام بعد الحرب أخضع للتبسيط علم الملاكات الدواوينى المبهم كالكيمياء. كانت عاصفة الحرب قد فرقت المواطنين السوفييت شذر مذر وهي نفسها من كتلهم. عرف الملايين منهم الاخوة في الجيش، وجرب الملايين الذين طردهم زحف العدو من ديارهم في رحاب سيبيريا والجمهوريات الآسيوية قوة القربى الاشتراكية، وأصبح الاحساس بالوطن لديهم أعمق وأكمل.

تبلورت في بوتقة ويلات الحرب نفوس الناس وازدادت صلابة وجمالا فوق العادة.

تذكر ملايين الناس بعضهم البعض، سواء كانوا تآخوا في الجبهة أو في المؤخرة، حيث العمل ثمة لم يختلف عن القتال في الجبهة.

أشرف بافل غفريلوفتش بالويف على العمل في انشاء ممرات تحت الماء لخط أنابيب رئيسي للغاز.

وكانت هذه القضية جديدة لم تعهد له من قبل. وكان بالويف

يعرف ان عملية تزويد البلاد بالغاز مساوية من حيث الأهمية بالكهربة، فأمده حماس الخلق الجديد العظيم بالحيوية، ولكن بافل غفريلوفتش أبدى تقتيرا على الناس لم يسمع به على الرغم من غريزة صاحب العمل في خطف أكثر ما يمكن من المعدات.

ألزم بالويف قسم الملاكات بالاعراض عن انتقاء الاشخاص للعمل عنده، والتخلي عن الفحص والاختبار للبحث عن عناوين أولئك الذين حارب سوية معهم، ومن شيد رفقتهم المشاريع الانشائية ابان أعوام الحرب من ظل يتذكرهم في حافظته طيلة العمر.

عين بالويف في منصب كبير الميكانيكيين لقاطعه ميكانيكي الطائرات سفولوبوف، من حمل بافل غفريلوفتش على الهبوط معه بمظلة واحدة، بعد أن لم يفلح في اطفاء نار طائرتهم التي أصابها الألمان.

لم يشعر بافل غفريلوفتش حيال سفولوبوف بالامتنان حسب على انقاذه حياته. كان مفهوماً لديه أيضاً حزن سفولوبوف على الطائرة التي أصابها الألمان وأسقطوها، بينما المحرك فيها مستبدل لتوه بجديد. فقد أوقع فقدان المحرك الجديد سفولوبوف في حالة قنوط، أضجر معها بالويف في تلك الأيام حداً لا يطاق بمطالعاته عن المزايا التكنيكية للمحرك الجديد، وكذلك بالأمل المضنى بان الطائرة لو كانت سقطت على تربة لينة لأمكن انقاذ المحرك ربما، ونقله الى المرأب حيث القسم المخصص بالطيران المتميز باجهزة تضاهي مالدى المصانع تقريباً.

أقض مضجع بالويف تلك الأيام ان سفولوبوف، وقد وقع في مؤخرة العدو، كان كثيراً ما يمتدح التوربينات الغازية الألمانية المنصوبة في قاذفاتهم، حتى بدا ذلك لبالويف ليس فقط مخالفاً للشعور الوطنى بل وهو مبعث الريبة سياسياً.

ولكن بعد أن استطاع سفولوبوف بمهارة اصابة راكب دراجة نارية الماني من مسدس صغير خاص بالسيدات واصلح في فترة قصيرة جداً الدراجة النارية شبه المحطمة فتسنى لهما بفضلها تيسير رحلتهما كثيراً، تلاشى ارتياب بالويف في سفولوبوف تماماً،

رغم ان هذا لم يكف بعدئذ عن اغداق الاطراء على هذه الدراجة المغتنمة أيضاً، ماركة ب س ا.

وهل كان في الامكان نسيان العريف لغوشين المتذمر دوما، بعينيه الماكرتين الزرقاوين اللامعتين، الذي أعلن نفسه مرة:

– لست أيها الرفيق الآمر مؤهلا لمثل هذه الغباوة في البقاء داخل الخندق الأخدودي سابحاً فيه كالفأر، معانياً الاستبراد.

ثم عرض المحرك الذي غنمه وقد «كيفه» للعمل كمضخة، فرابطت وحدة لغوشين كلها في خندق اخدودي ناشف حقاً، فيما خنادق الوحدات الأخرى مغمورة بالمياه الجوفية.

كان لازماً نسف مربض نيران للعدو، فأشار لغوشين بالاقتراب الى المربض تمام الاقتراب مع دفع أنبوب من حديد الزهر للمجارير، الى الأمام قطره مائتان وخمسون ملمتراً.

وتحت ستر الأنبوب قام النسافون بعملهم فأعلن لغوشين بفخر:

– اذا كان دماغ الانسان يعمل كما ينبغي فان جسده سيكون في سلامة وأمان أيضاً. امثال هذه الأعمال لا تنجز بهتاف «هورا» وحده.

أما المساعد بيفوفاروف لقسم التصليح المتنقل، فقد كان يأتى الى مواقع المدفعية راكباً دراجة علقت بها حقائب من القماش المشمع احتوت أدوات. ومهما كانت كثافة نيران العدو فانه يعكف بوجهه الرصين على تصليح المدافع مؤكداً ان الميكانيكي في جبهة القتال «هو الشخص الرئيسى أما اطلاق القذائف فيمكن تعليمه لأي مغفل».

كان بيفوفاروف يذكر هتلر باحتقار:

– انه لم يشتهر الا بدناءته السافلة. فاشي شقي!.. مشط خصلة من شعره على جبينه... ولكن الأدوات عندهم من ماركة «زولنغن» والموتورات من ماركة «سيمينس شوكرت» وفولاذ شركة «كروب» وانها لاشياء جيدة.

– لا تبث فينا دعاية تبعث روح الانهزام!

لم يستأ بيفوفاروف، بل قال:

– يا بلداء! اني انما أرفع معنوياتكم وابث فيكم روح النشاط.

انكم تفلون بسبائك تشليابنسك فولاذ كروب، معنى ذلك ان فولاذنا أيضاً لا يستهان به، هذا ما أوحي لكم به. اذن فأنا أقوم بينكم بالتوجيه السياسي اضافة الى وظيفتي، لانني معدود أيضاً في عداد المحاربين بسلك التوجيه السياسي. لكن مجال معلوماتي ينحصر في المادة التي يعرفها الميكانيكي. وما أعرفه حق المعرفة هو ما أتحدث به.

وذات مرة قال بيفوفاروف لبالويف:

– الانسان المثقف ليس هو ذلك الشخص الذي يسمي المرحاض بيت الخلاء ويطلق على الغائط تسمية الخروج، وانما هو ذلك الذي يهرع مع الناس في الهجوم عارفاً انه مثقف فلا يشهر مسدسه في أنف صاحبه ولا يصرخ عليه بل يتصرف وسط دوي الرصاص والقذائف بسكينة وبالشكل اللائق الجدير به كمثقف... شعبنا يحب أن يعامل بالاحترام، والحرب أيضاً عمل، ولكنه اشق بدرجات من العمل المدني، حيث القتل قائم دوار، لكن هذا لا يبرر فقدان الصواب فيها والتهارش على بعض كالكلاب! يجب في رأيي مخاطبة بعض بلفظ الجمع وباحترام خاص. اما الضابط فهو أساسا كالمهندس في الانتاج الصناعي، عليه أن يعامل الجندي ويخاطبه بكامل التهذيب.

– ما قصدك من هذا كله يا بيفوفاروف؟

– أنت على سبيل المثال وجهت الي الاهانة أمام جميع المحاربين. أنجزت تصليح المدفع وأحببت أن أصبغه طلباً للجمال فاذا بك تصرخ بي على مرأى ومسمع من الجميع: يا لك من صباغ!

– طيب، المعذرة.

– لقد قلت لك حينذاك ان الجندي هو عامل أيضاً، يجب أن تكون آلة المصنع أو المدفع سواء بسواء، على جانب من الجمال. عندئذ يعمل الانسان بها بتأنق ودقة. فتسديد المدفع يكون في هذه الحال أصوب وأحكم. ولكنك هزأت بي بهذا الشأن أمام أفراد المدفعية. وليس هذا بالصواب!

كان رئيس قسم الذخيرة، الميكانيكي ويلمان، الرجل الكبير السن، الوقور، ذو النظارات بماسكتين معدنيتين ملفوفتين بالقطن،

يظهر في الأوكار النارية للمدافع في أوج المعركة، ويقول مطالباً:

- ارجو تسليم جميع الظروف فهي من معدن لا حديدي نفيس، ولا موجب للتخلف في تسليم النفايات المعدنية هذه.

- أتريد أن يصيبوا مدافعنا؟

- لكنكم تصيبون شيئاً ما عندهم! أبعثوا رجال الاستطلاع وليجلبوا لكم الى هنا شيئاً.- ثم كان يصرخ غاضباً: - لعلكم تظنون ان الهجوم هو الأمر المهم الوحيد، فانظروا الى ما ورائكم، ماذا ترون؟ انها الساحة السابقة للمعركة. ركام كامل من الحديد الخردة! تقدموا من فضلكم الى موقع جديد، ولكن اجمعوا كل ما حطمتموه عندهم في ركام. المعادن غير الحديدية على حدة، والحديدية على حدة.

كان المستودع لدى ويلمان يسوده جو من النظام والنظافة. وكان حين يعطى ماسورة جديدة لمدفع، وينظر الى القديمة في الضوء، يتغضن وجهه بأسى. ويقول وقد رنا عبر الماسورة كأنها المنظار، متأففا:

- كان بوسعهم مواصلة الاطلاق بها أسبوعاً آخر. فهي ليست على ذلك المستوى من الاندثار بحيث يتحتم تبديلها بجديدة في التو.

وحين كان يعطي المتفجرات يكرر في كل مرة تحذيره:

- أرجوكم الامتناع عن اخراج المتفجرات من الورقة المزيتة الا في آخر لحظة لأنها تحفظها من الرطوبة.

وكان يسأل بقنوط:

- مرة اخرى لم ترجعوا صناديق القذائف؟ ما طول المعركة؟ فلنقل ساعة أو ساعتين أو يوماً بليلته على أكثر تقدير؟ فكيف الأمر بالنسبة للوقت الباقي؟ ينبغي أيها الرفاق الالتزام بالنظام. لا يجوز تبرير الاهمال ازاء القيم المادية بمقتضيات الحرب.

وجرب ويلمان حتى الزام رماة الرشاشات بوضع علب تحت الرشاشات لتسقط فيها الظروف الفارغة.

كان يحضر الاجتماعات التي يجري فيها تحليل العملية القتالية، وعند اختتام الاجتماع كان يطلب اعطاءه الكلمة. فيقول رافعاً عويناته الى جبينه ناظراً الى دفتر ملاحظاته:

– اعذروني، لست بالطبع القائد الروسي الشهير سفوروف، ولكن ينبغي لي توجيه عنايتكم الى ما يلي...

ثم يتلو قائمة اتهام طويلة، تتضمن كذلك ذكر الذخائر المهملة في ساحة الوغى، حتى انه كان يعرض عتلة مثلا كدليل عيني وجده هناك.

وكان يتساءل بصوته الشاكي الباكي:

– ما هذا؟ أهو اداة قتالية أم حاجة للمسرح؟ – ثم يتساءل بحدة. – هذا غير جائز ايها الرفاق. يجب المحاربة مع الاحتفاظ بحسن التدبير!

أفليس لقية محظوظة لمدير العمل؟ الحصول على مثل ويلمان هذا في المشروع الانشائي بصفة مشرف اقتصادي.

وقد وجد قسم الملاكات في خاتمة المطاف قسم لبالويف ويلمان أيضاً.

٨

تفادياً من شبهة التزلف ينبغي التحفظ في قول انه قد يندس بين هؤلاء الاقتصاديين الحريصين مواطنون غير جديرين بهذه المهمة، لا من حيث سماتهم العملية فحسب، بل وسجاياهم النفسية.

يخيل الي انني على يقين بان أكثر اللحظات أهمية ومسئولية في عمر المرء حينما يناط به فجأة حق سلطوي يخوله اصدار الأوامر الى امرىء آخر. ذلك أصعب اختبار، وما أقل الذين بوسعهم اجتيازه بنجاح.

كان لدي معارف تميزوا بذلاقة لسانهم وحضور اذهانهم وطيبة صحبتهم ولكن ما أن نالوا الحق في الامرة حتى بدوا فجأة للناس من اللائذين بالصمت، حتى ليخيل للغير انما هم يكتمون أسرار الدولة، وقد اكتست وجوههم بالرصانة والجد، حتى لو تفضلوا أحيانا بايراد النصائح المفيدة فانهم يفعلون ذلك بنبرة استعلاء حتى ليتكدر مزاج سامعها.

باختصار، أصبح معارفي هؤلاء، وقد تقلدوا هذه المناصب

الرفيعة أسوأ مما كانوا عليه وهم بسطاء كما عرفتهم، أصحاب قلوب طيبة ونفوس صافية وعقول ذكية، فاذا بهم يستهينون على حين غرة بسجاياهم هذه!

أجل، ان الرداء الروحي للرئيس لباس ثقيل، ومن يحمل هذا العبء خفيفاً، غير مرئي لمن حوله فهو قمين بأصدق الاحترام.

ان أداء وظيفة أصغر رئيس لهو أمر كبير على الأعصاب، وفي بلادنا الألوف المؤلفة من الناس ذوي المناصب العليا يوافقونني على الأرجح في هذا الرأي. وبين بعض معارفي الذين أصبحوا من الرؤساء أشخاص ذوي قدرات خاصة. عرفوا كل ما لا ينبغي لهم فعله أما ما ينبغي... فلقد أظهروا في هذا الشأن تواضعاً بطولياً، واذ بلغوا من العمر مرحلة النضج لم يحرجهم أن يظلوا فتياناً تساورهم لذة عجيبة في الاستفهام عن كل شيء من الأكبر سناً.

كان بينهم أيضاً من اعتراهم انتعاش ذهني خاص لدى اصدارهم الأوامر القيادية. فمثلا اذا تساءل شخص مقترحا: «ماذا لو استعضنا عن الحفارة بجاروفة في اعداد الاساس؟ ألن يكون ذلك أكثر توفيرا؟». لكنه بدلا من تناول القلم والورقة لاحتساب مقدار المنفعة او الخسارة في ذلك يسترسل بالمناقشة متلذذاً حول ماهية الصفات التي ينبغي التحلي بها عند اقرار أمثال هذه القضايا.

وكان الشخص المقترح يخرج مذهولا لغزارة العبارات التي رددت خلال هذه البرهة من الزمن، المصحوبة بالعديد من الايماءات بحيث غابت في زحمتها عن ذهنه ملامح وجه الرئيس. فما شكل هذا الوجه في الواقع والحالة العادية؟ رغم تنوع المعارف لدى الرئيس يظهر انه لا يعرف أبسط وأهم كلمتين، هما «نعم» و «لا». مثل هذا الرئيس جدير بالأسف عليه، ليس فقط لان وجهه ينضح حتى المساء بعد يوم العمل بالألم كله بسبب العديد من الابتسامات اللازمة لتخليف انطباع حسن لدى الغير. من المؤسف انه يشعر بالتضايق في منصبه الرفيع متصوراً ان مهمته الرئيسية في وظيفته هي استدرار الميل اليه.

بينما الناس عندنا لا يحبون الاشخاص المعتدلين الموزونين، ولا يوذون كذلك باردي الاعصاب الفاترين. ان شعبنا فائر الاعصاب، شجاع، ومتمتع بروح عملية صارمة.

قال اللحام بوسونوغوف ذات مرة عن بافل غفريلوفتش بالويف:

– انه لايبدو هادىء النفس الا حين يكون كل شيء على ما يرام. اما اذا حدث ما يعكر فسوف ترى العجائب! ذهنه قهار جبار. يخرج داخلك، ينظفه، ثم يعيده حيث كان. يعجبه التأمر على الناس، ولا يتملق الينا، ولا يتظاهر بانه أفضل مما هو عليه في الواقع، مدركاً ان كل انسان يرى الآخر كلوح شفاف. كأنما في رأسه ذرة من النظائر المشعة، فهو سرعان ما يلاحظ أي عيب في عملنا، وكيفما كان درز اللحام يستطيع في نظرة كشف أين النفطة وأين تسرب الخبث، لا شيء يخفى عليه، وهكذا حاله بين الناس. يصعب البقاء في المنصب الرفيع فوق الآخرين ما لم تكن مستحقاً له، فلنهبط الى الأرض، ولنجبر ارجلنا على السير كما ينبغي في ساحة العمل بشغلة محددة، من أجل عافية الذهن، القضية لا تحتمل التواني، وهي دوما بالغة الأهمية، فنحن نبني الشيوعية، وذلك أصبح من طبيعة الأشياء. انها لحظة على أكبر جانب من المسئولية...

ليس في العالم كله انسان أعصى على الانقياد، وأقدر على التفكير بروح مستقلة، غير صالحة بالمرة للخضوع الأعمى، من الانسان السوفييتى. فان لكل فرد من المواطنين السوفييت سجيته، حلمه الخاص، و شعوره العالي فوق العادة بالاحساس بالكرامة، في عينيه يشع بريق بالفخر لا ينطفىء. كل معتبراً نفسه صاحب المسئولية شخصياً عن تنفيذ الخطة، ليكن ذلك مقصوراً لمن يشاء على الجزء الخاص بالانتاج! كلا ثم كلا، لا بد أن يكون ذلك على مستوى سائر البلاد، علاوة على المسئولية تجاه مصير البشرية عموماً.

بالويف انسان متحمس، قليل الصبر، يعرف نواقصه ويخشاها جداً. لكن هذه الحماسة، وقلة الصبر هذه، سيطرتا عليه أحياناً كالسكرة المفاجئة فيرغم على القيام بتصرفات كان يقاومها، ويلوم نفسه، ومع ذلك كان يكررها.

ادرجت في اضبارة بالويف مكافآت الدولة وشهادات الشكران ومعها العقوبات الادارية والتوبيخات. فلو انه طالع على سبيل

المثال ملفته الشخصية قبيل النوم لاستخلاص العبر لكان ذلك مفيداً. لكن كل مشروع انشائي جديد هو أشبه ما يكون بمعركة، فمن المعتذر التنبؤ هنا سلفاً بكل شيء. ان المشروع الانشائي هو دوما منازلة بين التكنيك وبين القوى الفظة البدائية للطبيعة.

عدا ذلك طرأت الآن تغيرات عديدة على أساليب القيادة. بدأ عشرات الألوف من الأشخاص العمل في نصب خط الأنابيب الرئيسي الأول لنقل الغاز. ومع كل سنة جديدة يفد المزيد من المكائن الجديدة المستكملة، ويتناقص عدد الأشخاص العاملين في المشروع. واذا استحال في السابق تذكر وجه شخص واحد من كل مائة من أفراد أسرة العمل، فان الحاجة نشأت الآن اذ أصبح عدد العاملين قليلا جداً لمعرفة كل واحد، لا بوجهه حسب. ان العامل الواحد يدير جهازاً ميكانيكياً ضخماً وينجز ما كان ينجزه في السابق مائة عامل.

وانذاك، حين كان المشرف على العمل يرغب في مخاطبة العمال البالغ تعدادهم الألوف المؤلفة يرتقي صندوقاً من صناديق مسامير القلاووظ، ويلقي خطبة رنانة. والآن؟ وقد بات سائق الحفارة الدوارة ينفذ بمفرده برنامج مائتي عامل من حفاري الأرض، فما الداعي للوقوف على منبر من صندوق، والقاء خطبة حماسية عليه وكأن أمامك مئات الأشخاص.

مع شخص كسائق الحفارة هذا ينبغي الجلوس على سلم حفارته الدوارة لكي يكون كما يقال على نفس المستوى من الارتفاع عن الأرض، والمشاركة معه في التدخين، وتبادل أطراف الحديث، متمعناً في ناظريه، عينا بعين، وايجاد العبارات الودية الصريحة المتناسبة مع الظرف التأريخي الجديد وأساليب القيادة العصرية.

كان بافل غفريلوفتش يمتلك القدرة النفاذة على التحدث بكلام القلب مع الألوف من عمال البناء، وكأن الواقف أمامه شخص واحد فقط. لكنه ظل وقتاً طويلا لا يستطيع تعلم التكلم مع عامل واحد وكأن أمامه الألوف من الأشخاص.

وأخذ يشعر بأسى ان الناس يعاملونه بنوع من طيبة ممزوجة بالسخرية. كان ميكانيكي بوحدة الماكنات لتنظيف الأنابيب غفريلوف (في السابق يخف مئات العمال بالأنبوب ويجلفونه

بفرش معدنية خشنة وكأنه رقبة حذاء عملاق) يستمع بصبر منفرداً في السهب مع ماكناته الى بالويف، الا انه تساءل بتهكم عقب اختتام المحاورة كل مرة:

– وهل أنت تنشر أيها الرفيق الرئيس في الجرائد؟ يجب أن تفعل فانك تحسن الكلام!

كان غفريلوف في غنى عن المشورات الفنية التكنيكية لانه كان طالباً خارجياً للمعهد الدراسي الخاص ببناء المكائن. بينما لم يكن كل شيء لديه وفق المرام. كان عصبياً، سريع التهيج، قدم مراراً طلبات الاستقالة من العمل وسحبها. وكان متزوجاً، زوجته تعمل أيضاً فى مشروع البناء هنا، مسجلة. شوهدت بضع مرات في النادي، ولكن دون زوجها بل صحبة الغطاس الأقدم الاختصاصي كودرياشوف، وهو بحار سابق من البلطيق، كبير القيمة والخبرة في العمل، وكان بالويف يعتز به جداً.

ان بالويف لم يطلع كما ذكرنا آنفا على ملف اضبارته الشخصية، حيث سجلت كافة خدماته السابقة وهفواته. لكنه يتذكر حياته الماضية بشكل ثابت، واسترشاداً بهذه الذاكرة الحافظة استدعى كودرياشوف، واقترح عليه تقديم طلب بالاستقالة من العمل. أعلن بالويف بخشونة انه لا يصبر على تحطيم حياة الناس هنا في مشروع البناء تحت ادارته.

ومن المفهوم ان كودرياشوف رفض تقديم الاستقالة، وكذا قال انه سيرفع شكوى الى اللجنة الحزبية احتجاجاً على أساليب الادارة غير المقبولة الصادرة عن شخص بالويف

واحتدم بافل غفريلوفتش غيظاً وأصدر أمراً بفصل كودرياشوف من العمل، وعلق هذا الأمر على لوحة الاعلانات في ممر ادارة القطاع الانشائي.

ليس المهم. عرض التفاصيل عما جرى في جلسة اللجنة الحزبية حين نوقشت عريضة كودرياشوف، بل المهم هو انه بعد هذه القضية اتخذ العمال جميعاً موقفاً مغايراً تماماً ازاء بافل غفريليوفتش. كان الجميع في مشروع البناء على علم بخدمات بالويف وان الوزير الحالي كان قد اشتغل لديه رئيس عمال في مشروع كوزنيتسك، فكان يدعوه باسم التحبب باشا، رفعاً للكلفة

فيما بينهما، وان القائد العسكري السوفييتي مارشال القوات المدرعة ريبالكو أهداه شخصياً شبكة لصيد الأسماك لتشييده معبراً، وان بافل غفريلوفتش لديه من الأوسمة ما يملأ صدره من فوق الحزام بقليل الى عظم الترقوة، وانه يقف أمام أي مراجع عليا باستقلال وجرأة. كل هذا كان معلوماً لدى الناس، وحتى بشكل لا يخلو من بعض المبالغة.

وكان معروفاً جيداً كذلك ان بافل غفريلوفتش يحب جداً التسلط على الشخص المذنب، وكلما كان الشخص أسرع في الاعتراف بذنبه كلما اشتد احتدام بالويف، وتشدد في محاولة ايجاد عبارات ألذع وأشد ايلاماً.

ما كان يعجب بالويف أشد الاعجاب تذكر قراراته في حضوره، ذات الحكمة العالية، التي بفضلها وجد المخرج من الأوضاع العصيبة، أوكون بافل غفريلوفتش لا يخشى الاصابة بالاستبراد، أو انه يعرف العديد من مهن البناء، وبوسعه فضح أي واحد لانه تدرج في كل من هذه الأعمال وعرف بواطنها، وكونه يحب القاء الخطب الاحتفالية وعقد الاجتماعات الجماهيرية، رغم انه لا وقت للناس لذلك. هذا أيضاً كان معروفاً لدى الجميع.

وعرف عن بافل غفريلوفتش أيضاً انه يحب التشدق، متبجحاً بان زوجته امرأة من ذوات المستوى الثقافي الرفيع، تشتغل بالبحث العلمي، وانها خير من زوجات الآخرين، وسمع الكثيرون غير مرة انه «أسقط شجيرة في مثل طول قامته». وعرف الجميع كذلك انه قبل ذهابه الى بيته في موسكو يقصد حتما غرفة التجميل حيث يجري لنفسه حماماً بخارياً، وتدليكاً للوجه، وتخضيباً بالصبغ لشعر فوديه الاشيبين ولا بد من صقل الأظافر في أصابعه المرتطمة بكافة أنواع الحديد، المتورمة الملفوحة بالصقيع. هذا كله كان معروفا لدى هؤلاء الناس.

ولكن الناس لم يعرفوا انه سريع التأثر نفسياً، بل والوقوع لدى ذلك في حالة من فقدان السيطرة على النفس حينما لا يتعلق الأمر أصلا بالقضايا الانتاجية. كان أفراد أسرة العمل يعطفون على كودرياشوف، فقد كان معدودا له غير قليل من المآثر التي اجترحها في العمل تحت الماء. وقبل تعرفه على زوجة غفريلوف كان ملتزماً

في تعامله مع النساء بمنتهى التعالي، فكان يعد حتى مترفعاً من هذه الناحية. أما غفريلوف فلم يكن محبوباً لدى أسرة العمل. وكان قد طرد من المعهد الدراسي جزاء أمر ما غير لائق، وذهب بعضهم الى الزعم بانه جاء الى العمل الانتاجي بغية الحصول عن طريق صفة العامل على امكانية الدراسة كطالب خارجي. وقالوا انه أغرى زوجته لتترك زوجها الذي كان من رفاقه. وكان هذا كله حقيقة واقعة. ورغم ذلك أيدت اللجنة الحزبية بالويف ووقفت الى جانبه، مع ان بالويف نفسه قد اعترف بانه تسرع في حالة غضب، واستخدم صلاحيته كاداري بطريقة لا تغتفر.

اعترض على قول بالويف هذا عامل التركيبات بتوخوف الذي عرفناه سابقا، بقوله:

– كلا ان الرفيق بالويف لم يتجاوز صلاحيته كاداري بأي شيء. اذا أساء شخص ما صنعا في الانتاج وانتج ما لا يصلح أو أعطب المحرك هذه حادثة غير عادية، وعلى الادارة ان تعاقبه عليها! أما اذا افسدت حياة انسان، فهل لا دخل للادارة في هذا الأمر؟ أهذا ما تقصدونه أم ماذا؟ لسنا ننصب خط أنابيب رئيسياً لنقل الغاز وكفى، وان ساهم هذا في تشكيل القاعدة المادية للشيوعية، بل ويجب ان نتحلى نحن أيضاً بسجايا فردية متناسبة مع هذا. انني اؤيد دعم الأمر الصادر عن الادارة، – أعلن بتوخوف ثم تفوه وقد جلس في مكانه: – للانسان السوفييتي قدسية ملزمون بالحرص عليها بكل ما توفر لدينا من وسائل.

شد بافل غفريلوفتش بتأثير على يد بتوخوف مصافحاً، وقال له بهمس:

– شكرا على التأييد. والا أتعلم ان أحد الغيارى على الانتاج قد أطلق الرصاص من بندقيته ذات الفوهتين على غريمه أولا ثم على نفسه.

فاستدرك بتوخوف:

– لكن هذا الأمر جنائي صرف فما دخل الانتاج فيه؟ – ثم سأل جاره باهتمام. – ما رأيك؟ ألم أحد عن محجة الصواب بالمبالغة؟

– كلا، أصبت كبد الحقيقة.

تورد بتوخوف بفعل الاطراء وقال:

– رغم ان الضمير ليس خطيباً مفوهاً لكنه يسعف دوما بالكلمة اللازمة.

٩

أدى الاقتحام الحثيث من قبل التكنيك المعقد الغني للعمل الانشائي الى تبعية المشرف الكبيرة الى كل مرؤوس عنده. نكرر ان سبب ذلك هو ان انتاجية العمل في جهد شخص يدير وجها لوجه ماكنة جبارة قد أصبحت حالياً مساوية لعمل مائة شخص.

اثنان من الميكانيكيين في جهازين لنصب الانابيب، واثنان من الميكانيكيين أحدهما يعمل في ماكنة العزل باللف، والآخر على ماكنة التنظيف، وميكانيكي واحد في الحفارة الدوارة، عوضوا عن خمسمائة عامل. في السابق لم يكن المشرف ليستطيع «الولوج» الى نفس كل عامل، فكان يلجأ بغية ادارة الناس وفهمهم الى الاستعانة بقوة التخيل، خالقاً لنفسه صورة عامة فيها ملامح مئات الأشخاص الموحدين حسب مزايا أو نواقص ما مشتركة، مدروسة في المكتب الديواني لقطاع البناء، وفق قوائم الرواتب وجدول مواعيد انجاز الأعمال وتقارير رؤساء الفرق، أما الآن فان هذه الأساليب أصبحت عديمة الجدوى.

نشأت حاليا في القيادة ضرورة الاشراف وجها لوجه، وكلما زاد تمحص المشرف في خواص التكوين النفسي وتوسم صفات الاختلاف وتعرف على تفاصيل سيرة الأشخاص تسنى له ايجاد المدخل الى نفوسهم على نحو أفضل، فأحرز المكانة والاحترام عندهم.

ان كرامة الانسان السوفييتي متناسبة مع قدر العمل الذي يبذله في الانشاءات الكبرى لبناء الشيوعية.

لا يمكن الا لغبي بليد عدم ملاحظة الكيفية التي تنمو بها ثقة الانسان السوفييتي بنفسه بشكل حثيث من التعامل المسيطر مع أحدث المكائن وأكثرها استكمالا، تلك الثقة الفخور النامية معها

أيضاً حساسيته الحدية حين لا يفهم، وسطوع شخصيته المتفردة وصفاته الخاصة المتكاثرة كحصيلة ضرب بكمية قوى الجهاز الذي يديره. كلما قل عدد الأشخاص في القطاع الانشائي زاد احساسهم بصلتهم المتبادلة، وعرفوا بعضهم البعض أكثر، واتخذوا ازاء بعضهم البعض مواقف وفق أسمى الحساب الانساني.

واذا تحدثنا صراحة فان تلك الحدة التي أبداها بافل غفريلوفتش بالويف تجاه الغطاس الاقدم الاختصاصي كودرياشوف كانت وراءها خلفية شخصية.

لست أدري مدى انطباق ذلك على النمط العام للمواطنين من ذوي السن الكبيرة، ولكن بافل غفريلوفتش المبتعد عن أسرته راحت تخالجه خلال الأعوام الأخيرة مشاعر قلق وحنين. وحدثت له قصة عجيبة. فلقد أصبح فجأة يحلم بروح مرتفعة للغاية عن الحياة العائلية. وقد ساعد على هذا بالطبع الى حد ما كونه عاشر زوجته ندرة، ولفترة غير طويلة. كان يساوره القلق جداً عند كل لقاء، ويشغل باله موضوع: هل الشيخوخة قاربته وهل نالت منه الفظاظة أكثر من اللازم نتيجة الحياة المتنقلة الشاقة، وهل في الامكان أن يؤثر الفارق في المستوى الثقافي، الذي كان يحسه داخلياً بينه وبين زوجته في وقت ما بحسم قدري عليه؟

حتى لقد حاول بافل غفريلوفتش أن يواصل الدراسة العالية بالمراسلة في معهد البناء، ولكن طلبه رفض بسبب السن. ولكنه في الحق لم يسلم بالأمر وحصل على التمارين والواجبات الدراسية من الطالب بالمراسلة اللحام بوسونوغوف الذي كان يدرس في كلية الفيزياء والرياضيات. وعكف بافل غفريلوفتش على دراسة هذه الواجبات الدراسية باصرار حتى الصداع. بل ودرس حتى اللغة الانجليزية.

كلما زاد تفكير بالويف وهو في وحشته بعيدا عن قرينته متذكرا كم هي طيبة، زاد شعوره بمدى عجزه في مواجهة الويلات محتملة الوقوع.

ازداد قلقه بمطالعاته الروايات والقصص، التي زاول قراءتها رغم كثرة انشغاله، وأخذ الآن يلتهمها بكمية وافرة. وقد برهنت

معظمها بشكل مقنع على ان الحياة زاخرة بكل ما يخطر على بال، بل وحتى أخلص الزوجات قد تفلت زمام السيطرة على النفس.

مزقت الهواجس بافل غفريلوفتش، واذ كان يشعر بعجزه وقف ضد كودرياشوف، متخذاً ازاءه دور المحافظ على الهناء العائلي لدى مرؤوسيه.

لقد كان بالويف كما ذكرنا على استعداد للاعتراف بان تصرفه هذا غير صائب، واعتبره ظاهرة من ظواهر التعسف الاداري، ولكن ذلك أثار في أسرة العمل ميلا نحو بافل غفريلوفتش، ثم صار الناس بعد ذلك يتوجهون اليه بصدد أعز قضايا الحياة، طالبين المشورة منه. أحس بافل غفريلوفتش بوضوح مذهل ان الرئيس ليس مجرد آمر، بل انه شيء ما أكثر من ذلك.

وكشأن العديد من الآباء سلبت الحرب بالويف حلاوة البهجة الصافية في الرؤية والاحساس بكل الكيان، كيف ينتقل أطفاله من مرحلة الطفولة والمراهقة تدريجياً، الى مرحلة الفتوة والشباب حيث تصبح الحياة الكبرى للبلاد حياتهم الخاصة.

لقد ترك بنيه صغاراً تماماً، ثم التقى بهم بالغين تقريبا.

لقد تذكر بحنان، وهو في جبهة القتال، ليالا – وقد صارت الآن تدعى باسم يلينا – وكيف كانت تهرع اليه كل صباح، مرتدية ثوب النوم، لتصحيه قائلة بقلق:

– أتعلم كم الوقت متأخر في الساعة! – ثم تندس تحت اللحاف وتلتوى كالكرة، وتسأل مستغربة في التأمل: – رأيت أحلاما. ولكن من الذي يقوم بعرضها في النوم؟ – جلبت ذات مرة في راحة كفها ذبابة يابسة وهتفت متحسرة: – انظر لقد ماتت الذبابة! ماذا نستطيع فعله الآن؟!

كانت تعتبر أباها قادراً على كل شيء. تسأله:

– هل أنت نفسك بنيت موسكو كذلك؟ – ثم تقول له ناصحة: – ينبغي بدلا من انشاء البيوت البسيطة والمصانع بناء القصور لكي يعيش الناس جميعاً في قصور شأنهم شأن الأمراء والساحرات.

اما كوكا (وهو الاسم الذي أطلقه كوستيا على نفسه وقتاً ما)

فقد سعى دوما للاستقلالية. وذات مرة دفن قدميه، ووقف مدة طويلة تحت المطر في فناء الدار.

– ماذا بك؟ أتريد ان تصاب بالزكام؟

فقال كوستيا:

– انني بهذه الطريقة سوف أنمي نفسي.

ذات مرة سأله بالويف وهو يقوم باملاء نص عليه:

– اذن كيف، جاهز، انتهيت من الكتابة؟

أجاب كوستيا:

– هل تظنني كاتب اختزال؟ – وسرعان ما أضاف معلناً. – لقد وصلت الى ادراك طريقة لصنع ماء الحياة. ينبغي صنع نقيع من الزهرة الخالدة وتوزيعه على الناس ليشربوه، فلا يموت أحد بعد هذا مطلقاً. – ولامه بلهجة سخط: – لماذا لا تبني للناس كهوفاً؟ ان العيش فيها منتهى المتعة. فيها يمكن ايقاد النار على الأرض، اما في البيت فهذا متعذر. المترو كهف أيضاً الا انه طويل. ولا يسمحون بالعيش داخله، فلماذا؟

حين عاد بالويف عقب الحرب اضطر الى التعارف من جديد مع أطفاله.

وكشأن العديد من المواطنين السوفييت الصاعدين من «الحضيض» الذين جربوا الجوع والبرد والعمل الشاق أراد بالويف أن يقدم الى أولاده ما يعوض تلك الحرمانات التي عاناها هو نفسه حينا من الدهر. اشترى لهم بسخاء أشياء ثمينة، ولم يكتف بتلبية جميع طلباتهم بل وحتى فرض عليهم بالاكراه تذاكر المصائف، واجتهد لكي يجتازوا فترة التطبيق الدراسية في مؤسسات يشرف عليها أصحابه تتوفر لهم فيها ظروف طيبة. أدخل البهجة الى فؤاده تمكن اولاده من التمتع بخيرات الحياة ولكن الشعور بالمهانة خالجه سراً وأثار في نفسه الامتعاض لكونهم يتقبلون هذه الخيرات بهذه الخفة واللامبالاة كأنها ليس في الامكان الا أن يكون الأمر على هذه الشاكلة. ولم يستطع صبرا ذات مرة فلامهم على ذلك.

رد كوستيا بهدوء وسكينة هازاً كتفيه:

– في واقع الأمر انت على حق، ولكن ليس بوسعي أن أصطنع لنفسي حياة صعبة. لقد تسنت لي بفضلك فرصة الدراسة وصرف

الذهن عن أي أمور أخرى عدا الدراسة. ولو انني لم أعتبر من الحكمة تركيز كل طاقتي على تلقي التحصيل التعليمي لتوجهت كما يظهر منذ أمد بعيد الى مكان ما لأزاول عملا. وعلى وجه العموم لربما كان الأفضل لي لو انتقلت الى بيت الطلبة للسكنى و العيش بالراتب الدراسي وحده. ولكن لماذا ألقي نفسي عالة على الدولة وراتبك يكفي لاعاشتي والصرف علي؟ أليس هذا أيضاً واجبك حيال الدولة.

وأيدت يلينا كلام كوستيا:

– افهم يا أبي اننا مضطرون الى الافادة مما تقدمه لنا! وعند الاخلاء الى المؤخرة ابان الحرب حين كان الأمر صعبا اشتغلنا أنا وكوستيا في السوفخوز وأعطينا أجرنا من النقود الى ماما. أما الآن فما المبرر لهذا؟ ألسنا نعيش في كفاية؟!

– واذا أصبحتم ممن لا يستطيعون العمل بالمرة، أغراراً لا هم لكم ولا همة؟ بدون تقسي من الحياة؟ وماذا لو حدث ما تطلب شد العزم، ما الذي تصلحون له؟ ها أنا مثلا... – وأخذ بالويف يتحدث منفعلا، معيداً ذلك وكم من مرة عن طفولته الشاقة.

اعترضت يلينا قائلة:

– لكن هذا كله كان في الماضي! فلماذا تخشى المستقبل وتتصور ان في الامكان ان يتكرر شيء من هذا القبيل؟ هذه المصاعب باتت لا تهددنا، و الصعب الشاق أمر آخر مغاير بالمرة.

– وما هو بالذات؟

– الأمر الرئيسي بالنسبة لنا هو أن نصبح أناساً من ذوي الثقافة الروحية العالية.

فقال بالويف مغضباً:

– آه، آه، ما أبدعه من قول! الحياة لا تصنع بالكتب.

قال كوستيا برصانة:

– على رخام جدران معبد دلفي ببلاد الاغريق نقشت هذه العبارة: «الانسان مقياس الاشياء» أفهمت؟ الانسان!

فرح بالويف قائلا:

– أها، أتقول ان ذلك منقوش على جدران بناية؟ هذا هو اللب! – وأعلن بلهجة المنتصر: – في البداية شيد الانسان هذه

البناية، وعندئذ حسب أصبح مقياساً للشيء الذي خلقه. وهذا صحيح. أنا أوافق الاغريق. بدون العمل لا وجود للانسان ولا لحضارته. الصنع بداية كل شيء.

— في رأيك ان الانسان يمكن الحكم عليه بناء على الكيفية التي يعمل بها اذن؟

— كيف يكون الأمر على نحو مغاير! هذا أدق مقياس للمعايير الخلقية وغيرها في مجتمعنا. افهم انها قضية بسيطة، نحن جميعا نريد العيش على نحو أفضل وان توافق الظروف المادية متطلباتنا، مهما كانت لديك من «موهبة» في تدبير التوفيق الشخصي فانك لن تستطيع بدون نشاط الدولة العام، هذا ان لم تكن نصاباً وغشاشاً، تحسين ظروف معيشتك وحياتك بصورة مستقلة. نحن مرتبطون جميعا ببعضنا البعض ارتباطاً متبادلا، مصالحنا متبادلة، وكل شيء يجري من العمومي الى الخصوصي، ومن الخصوصي الى العمومي. ها نحن مثلا معشر العاملين في حقل نقل الغاز نعطي البلاد من المادة الخام والوقود حسب توفيراً يقدر بمائة وعشرين مليار روبل، وتلك هي أيضاً قيمة مجموع المساحة السكنية التي ستقدم الى المواطنين خلال فترة الأعوام الخمسة — السبعة. اذن يتوقف علي شخصياً، أنا بالويف، عدا كافة الأمور الأخرى، ما اذا كانت ستسلم أولا بضعة آلاف من الشقق، اضافياً، الى اناس لا معرفة لي بهم بالمرة. ذلك اذن هو الدولاب الدوار عندنا. وهذا ما ينبغي ان يدركه كل شخص عندنا ويصونه بقلبه، لأجل نفسه، لان الجميع يعملون من أجل الجميع ومن هنا تأتي العبرة بتوقف رخائي المادي والحياتي على اخلاقية كل. وهكذا اذن، جاهد من أجل كل فرد جهادك من أجل سعادتك الشخصية! — وضع بالويف كفه على كتف ولده. — لا تزعلا مني انت وليالكا حين اناكدكما فان عندي رغبة عارمة في جعلكما من الأناس الحقيقيين. لا أريد لكما الحياة السهلة كيلا تصبحا من ذوي الارتخاء والنفوس الضائعة. وفي نفس الوقت أدرك عبث هذا الفزع الذي يتملكني أحياناً، فما معنى الحياة السهلة الرخية؟ لا أثر لها لدينا. انني أعتبر ان الوقت هو قضية مادية. وهذه متوقفة كلياً على ما تخلقه الأيدي البشرية. والآن انظر ما أحلى الحياة في هذا العالم!

أيحصل أحياناً أن تراود انساناً سوفييتياً، وحتى عضواً في الحزب الشيوعي، الأحلام فجأة، لتكديس رأسمال نقدي خاص؟ بل لقد حصل هذا مع بافل غفريلوفتش بالويف.

مهما كان الرقم الفلكي لما تهيئه البلاد من أمتار المساحة السكنية عالياً فأن الحاجة لما تزل موجودة لتأمين الهناء العائلى الشامل العاجل لان كل أسرة عرضة دوما للزحف عليها من جانب وفقا لقوانين الطبيعة.

شقة آل بالويف ذات الغرفتين تعرضت كذلك للاحتلال. فقد تزوجت البنت، وجلبت الى البيت فتى حيياً متواضعاً بعوينات. وعقب مرور بعض الوقت أعلن هذا الفتى وقد خضبت وجنتيه حمرة الخجل:

– أرجو المعذرة، ولكن يخيل الي ان عددنا سيغدو قريباً ثلاثة.

وخيم خطر مماثل كذلك من جهة الابن فقد خاطب والديه محذراً:

– بيني وبين لوسيا علاقة رفاقية محض، وأنا أقدرها على ملكتها في الرياضيات، لولاها لكنت من أصحاب الدرجات الضعيفة منذ أمد بعيد.

قال بافل غفريلوفتش لزوجته بلهجة المتنبىء:

– قريبا سوف يطردوننا من البيت نهائياً.

– بافل، ولكن لماذا تتحدث عن الأمر بهذا الشكل الفظ؟

– طيب. بوسعي التعبير بشكل مهذب يجب على القديم التنازل لصالح الجديد والجميل، والبحث لنفسه عن ملاذ في مطبخ البيت.

– لماذا لا بد في المطبخ؟ سأنصب لك في الممشى سريراً سفرياً وأترك الباب نصف مفتوح، مشدوداً بسلسلة لتأمين الهواء النقي.

قال بافل غفريلوفتش:

– شكراً لك على العناية! ان الهواء النقي هو أهم ما أطلبه، فما أقله عندي هناك في المشروع.

في خاتمة المطاف انتسب بالويف عضوا في جمعية تعاونية لبناء المساكن، ولهذا احتاج الى نقود، فما كان أحوجه الآن الى الحصول

على المكافأة النقدية مقابل الانجاز قبل الموعد المحدد لتشييد المعبر المائي. ولدى قدومه الى البيت ظهرت على سيمائه أكثر فأكثر أمارات النرفزة. بعد الحنين الى قرينته لم يعد يلقى السكينة والراحة في منزله، فهو أشبه ما يكون بموظف موفد آواه أصدقاء، رضخوا تأدبا لفقدانهم الارتياح بسبب نزول الضيف عليهم. فصار يتشاكس مع زوجته، وليس نادراً ما سافر الى عمله في المشروع معصور القلب ألماً، بينما يزداد احساسه بوحشة الوحدة عقب توديع زوجته له باقتضاب نظراً لشعورها بالانزعاج منه جراء أقواله الساخرة.

عموماً أنا متيقن من ان للكتاب الكلاسيكيين مزية اسطورية خارقة على الكتاب المعاصرين في المادة المنتقاة لعرض المصادمات الدرامية، وذلك لأن العلاقات النقدية خلال العهد قبل السوفييتي شكلت أساس كافة العلاقات البشرية. واستغلالا لهذا الظرف كان بوسع الكتاب الكلاسيكيين تأمين النجاح لنتاجهم بخلق مصادمات تهز النفوس واثارة الشعور بالمشاركة الوجدانية العميقة حيال المساكين المحتاجين الى مثل هذا التعاطف. اما في مجتمعنا فلقد فقدت النقود عظمتها السابقة. وحتى العكس، فان تركيز كمية خارقة من النقود في يدي فرد ما قد يستدعي فقدان ثقة المجتمع به واحترامه له. ولهذا لست أدري هل سيكون بوسعي اثارة شعور المعاناة والمشاركة الوجدانية تجاه بافل غفريلوفتش بالويف حين غدا بحكم ظروف المعيشة في حاجة ماسة الى الرأسمال. رغم انه يتواجد لدينا غير قليل من المواطنين، تبدو لهم مصاعبه هذه مفهومة، وقريبة الى نفوسهم، ولكن ليس بوسعك حبك عقدة الصراع الدرامي من المصاعب وحدها. لا بد بغية ذلك من ايجاد الشريرين والضحايا...

ان المآثر الوطنية المفعمة بروح الوعي العالي والتفاني تجرى عادة في جو متوتر وصراع بطولي، وتشكل تعبيراً عن السمات الجميلة الفاتنة لدى السجية البشرية.

لكن بافل غفريلوفتش صار يتصرف على نحو غريب جداً عقب الكثرة الكاثرة من سياحاته وجولاته في المنخفض المخاضة.

من عادات البناة هجو مصممي المشاريع دوما. ومهما كان

المشروع موفقاً يعد من حسن التصرف التحامل عليه بغية انعاش الأسرة العاملة والتوصل الى خيرة الحلول أثناء سير الأعمال نفسه.

وعلى حين غرة أخذ بافل غفريلوفتش، خلافاً للتقاليد المرعية، يكيل المديح للتصميمات بالالتفاف. الا انه فعل ذلك على نحو فريد الطراز.

قال بافل غفريلوفتش:

— واذن، لقد علموني ان الخط المستقيم هو أقصر مسافة ما بين نقطتين. وأنا بالطبع من حملة التعليم العالي غير المنتهي، وثمة الكثير مما لا علم لي به، ولكني كنت من هذه الحقيقة على علم اليقين. فماذا ظهر؟ ظهر انني انسان ضيق لا من ذوي الاتساع. — ضيق عينيه بمكر في وجه محدثه وتلفظ باعجاب: — ما أكرم الحرص الذي أظهره واضعو التصاميم ازاءنا معشر البناة! وما أحقهم بالشكر البروليتاري من صميم القلب! — ثم أعلن بطيبة نفس مثيرة للارتياب: — انهم لطيفون، طيبون! بالفعل ما قيمة مجرد أربعة كيلومترات زائدة من أنابيب نقل الغاز؟ انها ألفان من أطنان الفولاذ من أجل تجنيبنا طمس أرجلنا في مياه المستنقعات والاصابة بالاستبراد. — تنهد بحسد: — أرأيتم انهم مصممو مشاريع بحق، لا مجرد أناس من حملة التحصيل الهندسي، وانما فهم أيضاً من ذوي التعليم الطبي كذلك!

— وماذا. هل من رأيك انه لا ضرورة لهذا الالتفاف؟

رنا بافل غفريلوفتش الى السماء في نظرة حالمة وقال:

— أظن أن المعدن لدينا الآن من الكثرة بحيث لا ندري الى أين نرميه، اذاً ليطرح على ظهر القمر. ذلك هو ما يتراءى لي.

— لا داعي الى المراوغة يا بافل غفريلوفتش وقل لنا بلا مواربة ما هو رأيك بصدد الالتفاف؟

زاغ بافل غفريلوفتش عن الجواب:

— ذلك يكلف أطناناً، بمزيد من الدقة أمتاراً طولية من الأنابيب. — وطبطب على كتف محدثه منشطا وأضاف واعداً: — أما الجائزة مقابل انجاز العمل قبل الموعد المقرر فسوف نقطفها، وأنا أعطي الضمانة التامة على ذلك. التربة هنا ليست مجرد تربة، انها من حكايات السحر!

— وماذا لو تم النصب عبر المستنقع؟
— ربما سنغرق تلك الجائزة. فسوف تسبح الآليات التكنيكية في الماء والوحل، ولكنها جبارة وسوف تتحمل ذلك — وأعقب بصرامة — لا أريد سوق الناس بتصرف كيفي نحو المستنقع. بالطبع لو انك مثلا تنهال علي أثناء الاجتماع الحزبي، واذن.. أنا شيوعي وارادة الأغلبية وفق النظام الداخلي للحزب. وأنا دوما مع الحزب.
— مالك تلف وتدور يا بافل غفريلوفتش!
— وماذا بشأنك، أليس في رأسك مخ؟ افهم وفك الطلاسم. — قال بالويف غاضباً. وختم كلامه بنبرة رسمية: — ان المشروع قد صودق عليه ومهمتي واضحة وهي الاشراف على تحقيق المشروع وكفى.

لكن أمثال هذه الأحاديث من بافل غفريلوفتش كانت قليلة. وكما لو كان ذلك بالصدفة قاد العاملين معه عفوياً الى خط الاتصال التلغرافي حيث غير عمال الاتصال في أعمدة التلغراف الدعامات القضبانية الى خرسانية.

وقال موضحا:
— كلما زاد عطاء البلاد من المعدن زاد الطلب عليه لكافة المنشآت الجدية. — ثم استعرض بنظرة عامة ساحة العمل الانشائي وقال: — هذا هو قطاع التفافنا. انه يكلف ألفي طن من الفولاذ اضافياً. وقد سمحوا لنا بذلك من أجل توفير الظروف الصحية في العمل تجنباً للمستنقع، ولهذا يصرف هذان الالفان من أطنان الفولاذ على الالتفاف.
— ولماذا يجري فعل ذلك اذن يا بافل غفريلوفتش؟
— هل أنا الذي أفعله؟ انهم واضعو التصاميم.
— بوسعك عدم الموافقة على المشروع.
— ولكنهم لم يفعلوا ذلك من أجلي، بل اجتهدوا من أجلكم فاعترضوا انتم!
— وهل تؤيدنا؟
— كلا، لا يخطر على بالي ارتكاب حماقة كبيرة الحد. ان المشروع بالنسبة لي وثيقة مقدسة لا تنتهك.
— اذن فالأمر مفهوم يا بافل غفريلوفتش!

– وفي هذا الكفاية، والا فانني من أهل الثقة بالناس، أعتقد بان لكل واحد مخاً يستخدمه في التفكير.

من الممكن طبعاً فهم السبب الذي جعل بافل غفريلوفتش يؤجج في نفوس البناة العاملين عنده هذه الروح من التفكير المستقل غير المنصاع، حداً من الحماوة الخطرة عليه نفسه. ولكن، كان بوسعه أيضاً استخدام أساليب أخرى مناسبة له أكثر، وحتى نافعة. التوجه مثلا الى المراجع العليا المعنية والتخلي عن تنفيذ الالتفاف في سبيل توفير الانابيب الغالية لهذا الحد. فلو قبل الاقتراح لمنحت له على الأرجح جائزة كبرى لقاء التوفير في صرف المعدن. وحتى لولم يقبل الاقتراح فان حماسه الوطني كان سيحظى على أي حال بالتقدير الرفيع. فما هو السبب اذن في تصرفه بمثل هذا الشكل غير الحكيم وغير المجدي لنفسه مضحياً بسمعته كمقتصد؟ أفلم يكن بالامكان تفادي تقديم هذه التضحية؟

بعد دراسته المستنقع الموحل بنباته الميت، والتخويض فيه غير مرة الى الحزام، توصل بافل عفريلوفتش الى اليقين الراسخ بان اجراء الأعمال هنا ممكن، ولكن بشرط واحد: ان يزن العمال أنفسهم كافة المصاعب ويرغبوا أنفسهم في تذليلها. ولهذا اقتصر كلامه أثناء كافة الاجتماعات على ذكر الصعاب التي سيتعين ملاقاتها بصوت متساوي النبرة، وبلا مبالاة وهدوء يبعثان القرف، موصلا الناس الى درجة عالية من الامتعاض ضده هو بالويف مخفياً بهجته بمهارة، حين رفضت حججه بحماس، رغم اضطراره لدى ذلك الى سماع عبارات مؤلمة وغير عادلة صادرة في الحظات التهيج.

وعلى وجه العموم، اضطرت مؤسسات التصاميم بناء على اصرار أسرة العمل، لا بالويف الى الموافقة على التخلي عن الالتفاف، مرفقة موافقتها بتحفظ ينص على ان كامل الذنب عن المتاعب المحتملة يقع على الرفيق بالويف رئيس قطاع الأعمال التكنيكية تحت الماء، وهو ما أيده الرفيق بالويف بامضائه في زاوية الورقة، المتضمنة للمخطط الجديد المنقح.

عقب هذا كله قال بافل غفريلوفتش لكبير المراقبين في محطة الغطاسين بوبنوف:

– أتتذكر نمرة حذائي؟ اطلب من المستودع أحذية مطاطية

طويلة الساق، فلقد أبليت حذائي لكثرة تجوالي في المستنقع. وأنت أيضاً انتعل حذاءاً من هذا النوع. سوف نذهب الى هناك للتنزه قبل النوم وتبادل المشورة.

١٠

كان المستنقع الضخم النتن يعمه العفن وضباب دخان رطيب، وقرص الشمس خلال عتمته الرطبة بقعة من شحم دبق. والوحل لزق أشبه بقار مائع. وسيقان الأشجار المطوحة بفعل الفيضان قد تحمضت في محلول الخث، فيما الأرجل تغوص عبر الخشب المتهرىء.

كان بالويف يتعثر متزلقا في حمأة الأوحال فينهال بالشتم تلقائياً على المصممين كالعادة:

– يظنون أنفسهم أصحاب ارادة مطلقة! استراتيجيو مكتب العمل، ذوو الأدراج على الجانبين! ها قد دسوا خطا مستقيما مثالياً هنا، فليتهم دسوا هم ههنا! هؤلاء الكهنة المتنبئون على الورق!

لبوبنوف صاحب الجسم البدين، الضخم، متين البنية، صوت ناعم رفيع كما لفتاة، قال بتردد:

– انها مبادرتك يا بافل غفريلوفتش.

استفسر بالويف بخبث، الذي أغضبه ذكر بوبنوف للحقيقة:

– ما الك يا سريوجا تسمن هكذا، ما السبب؟

دمدم بوبنوف شاكياً:

– لا أدري، حلفت يمينا أن أتجنب من الطعام كل دهين وطحين وحلو، لكن جسدي يمتد رغم ذلك في كل الجهات براحته.

– حسنا. سوف ينصاع لك هنا فتذيب شحمك.

– ينبغي الاعتقاد باني لست وحدي من سينهك، – ذكر بوبنوف ذلك مصححاً، ثم أضاف بمرح: – مقابل هذا سيكون الضمير نقيا لدى الجميع بشأن خط الأنابيب.

لدى التنقل بين النتوءات المتعفنة المنتفخة بالماء الآسن كان بالويف يتوازن فارداً يديه، باركاً متحفزاً للقفز، وبينما يقفز بخفة يصرخ في كل مرة، فيما تنبثق من تحت قدميه نافورات من الوحل

الكثيف. وقد تلقى معطفه الجلد الضيق، المتقشر من اليبوسة، على مر السنين دفقات من الوحل، أما الأرجل في الأحذية المطاطية فكانت تبقبق مثل مكابس المضخة.

لم تكن يسيرة مهمة جواب الأرض المقحام عليه. لقد هوى بجسمه الثقيل مراراً ساقطاً في المستنقع. واستطال وجهه مسترخياً، مكتسياً بقطرات غير صحية من العرق، وضاقت أنفاسه ففك أزرار المعطف، ثم حل زر ياقة القميص، وأرخى عقدة رباط العنق، ورغم هذا كله ظل يشعر بالاختناق والوعثاء

لكنه اجتهد في اخفاء حالته مغروراً، بشكل يثير الاعجاب، واستمر يتحدث دون توقف، متقافزاً من نتوء الى آخر. وبسبب هذه القفزات المتلاحقة اكتسب كلامه ايقاعاً معيناً، وكأنما أقر بهذا الايقاع واصل بعناد قفزاته على النتوءات، وكأنها كريات من اللباد، متجنبا الالتفاف لئلا يشاهد بوبنوف وجهه المتعب الهزيل فيلاحظ ما يلاقيه من عناء جراء هذه الجولة.

استفسر من بوبنوف:

– كيف حالك الآن يا سرغي بتروفتش. لعلك مشتاق الى زوجتك؟

– كيف لا. لقد تزوجتها بمحض ارادتي. – أجاب بوبنوف متملصا.

– عقب انتهائنا من هذا الموضع سوف نمد ممرات مائية عبر نهري اوب وارتيش، هما أيضاً نهران جليلان.

– انه عملنا، حيثما كان المكان والمناخ!

– كيف صحتك، ألا تسبب لك ازعاجاً؟

– انني لا ألقي لها بالا فهذا من عمل الأطباء.

قال بالويف بنبرة حزينة:

– لم يقدر لي النوم على أكاليل الغار، ها قد زلقت الى المستنقع فكيف أخرج...

قال بوبنوف منتعشاً:

– أحسنت صنعاً في حثك الفتيان على مواجهة الصعاب. البغل وحده يقبل بوضع عوينات خضراء على عينيه فيلتهم التبن ظاناً اياه عشباً أخضر. – توقف، وشخط عود الثقاب، ثم أحاطه

براحتيه كمغرفة، وانحنى ليشعل سيجارة، ثم أخذ يدخن نافثاً الدخان باستمتاع. وواصل كلامه: – أنا لست من المتضلعين في العلم بالطبع لكني أقول لنفسي ان شعبنا قد تهيج كثيرا للمعالي بالاقمار الصناعية والصواريخ وصورة القمر. حماسة الشعب في حماوة حداً لا يطاق. خلال فترة الحرب ارت «الكاتيوشا»* نفسها، فما شأن المحاربين في الصنوف الأخرى من القوات، أهم أسوأ؟ كل واحد قد وضع في حسبانه ان بوسعه اثبات جدارته، حسب الامكان.

– ولكن ها هو بتوخوف يريد الاحالة على المعاش.

– انه يفعل ذلك تهديداً، بسبب الحقد لعدم تزويده باللفائف الفولاذية، هو يخشى على الأنابيب من الانحناء لدى رفعها بواسطة الحبال وحدها. احالته على التقاعد غير ممكنة لانه سيموت على الفور بسبب الحياة الهادئة. انه يتولى هنا ضب براغيه بنفسه. ياله من رجل كثير الحركة، دافق الحماس! لقد أمضى كذلك يوم أمس هنا في المستنقع يتفحص ويقيس متنقلا هنا وهناك ولكنه نحيف، خفيف، كطائر، والمستنقع يتحمل ثقله. شأنه ليس مثلنا أنا وأنت. الشخص الثقيل الوزن هنا عقدة. أما الفتيان الميكانيكيون فانهم سوف يهيئون جنازير عريضة، انهم فاهمون. وسيقطعون أيضاً جذوع الأشجار كما ينبغي.

– هل تتذكر جزيرتنا تلك؟

– كيف لا. لقد عشنا هناك في جو دافيء ومودة!

– ما كان أصعب العمل هناك!

– هذا الأمر حسب ما ينظر اليه! العمل في قسم الغطس بالمحيط أكثر حرية والرؤية أفضل. وها هو ذا نهير عبرناه مؤخراً. انه نهير لطيف. لكن قعره مردوم بجذوع الأشجار كما تعرف. لقد تحملنا كثيراً حتى نظفناه. هناك أيضاً نضحنا عرقا تحت الماء، ولكن لا بأس فقد عبرناه. وليس من الصعب علينا الآن التعود على أن نكون حطابين تحت الماء.

---

* مدافع صاروخية شهيرة أطلقت عليها هذه التسمية الشعبية تحببا خلال الحرب الوطنية العظمى. **المترجم.**

وخرجا الى أكمة فجلسا وخلعا حذاءيهما، ثم انتعلاهما بعد طرح الماء العفن من الحذاء.

امتد أمامهما سهل منبسط ملفع بعتمة ضبابية فضية بلا انتهاء.

والى هنا في هذه الأرض الروسية القديمة العريقة الوديعة التي أرست أساس البداية للشعب الروسي، وفي هذه الربوع الروسية من حقول القمح والحبوب والمزارع الزرقاء للكتان سار قبل برهة وجيزة تماما على صواريه الفولاذية خط الكهرباء الرئيسي. وعلى دواليه الطويلة البيضاء للعوازل الشبيهة بالعناقيد مطلت الأسلاك الثقيلة المتدلية. وها هي أبراج فولاذية اخرى للاتصال السلكي، وعند أعتاب كل منها بيوت صغيرة بيض، لها نوافذ مضاءة سحريا بضوء أزرق أخاذ.

واذ يقطع المروج البيض من أشجار البتولا، والأحراش الحمر من أشجار الصنوبر، يعبد بألواح ضخمة من الخرسانة أطول طريق سيارات رئيسي في العالم عبر القارة. ربطت الى خطوط الأسلاك الكهربائية، عالية الفولتية، مدن كهربائية جديدة تنتج بلا نار ولا دخان أنواع الفولاذ الكهربائي، وكافة الأنواع الممكنة من المنتوجات العجيبة المصنوعة منه.

وها هي أكثر جدة أقسام المصانع الكيمياوية. وأنابيقها الملتوية الشبيهة بالأمعاء، المسبوكة من فولاذ عالي النوعية، محفوفة بالهواء من كل جانب.

وتنفث الدخان من أقماع مربعة المحطة المركزية الكهرحرارية الضخمة القائمة وسط السهل، وقد قذفت من أفرانها جبلا بحاله من الخبث.

والخط الرئيسي لأنابيب نقل الغاز ليس سوى جزء من المنشآت العملاقة التي ظهرت هنا، يوصل المادة الخام والوقود الى المصانع الكيمياوية. وسوف تصنع من الغاز منتوجات أنعم من الزغب، هي انواع الفرو والأقمشة الصناعية وقطع غيار امتن من الحديد للسيارات وهياكل للسفن والغواصات والسيارات، ومن يدري: ربما قمرات للمركبات الفضائية، مادتها تعجز الطبيعة عن صنعه بصورة مستقلة. ليست في الطبيعة مثل هذه المواد الصلبة فيبتكرها الناس أمتن من المواد المتواجدة في الأرض.

وهذه المحطة المركزية الكهرحرارية تنضم أيضاً بالربط الى خط أنابيب الغاز.

ويمد ناصبو الأنابيب الخط العام لأنابيب الغاز الى مئات عديدة من الكيلومترات ابتداءاً من خزان الغاز تحت الأرض في الاقيانوس. ولسوف يصل هؤلاء الناصبون قريبا الى النهر، وينبغي أن يسبقهم تشييد المعبر المائي، لكي يتم توصيله حالا بالخط العام. وعندئذ سوف يتدفق عبره بسرعة الطائرات تيار دافق تفوح منه رائحة حامضة وكاوية للمادة الخام غير المرئية بالعين والوقود، ما قادراً أن يكون خفيفاً حد انعدام الوزن تقريباً، أو ثقيلا صلباً كالفولاذ.

يا لروسيا العريقة هذه كيف هي الآن! نمت في أكواخها البسيطة المتواضعة هذه الأبراج الفولاذية الضخمة الشاهقة فوق مروجها وأحراشها وأحراجها وتلالها المكسوة بالأشجار.

قال بوبنوف بابتسامة حالمة:

- انني هنا أتطلع على أي حال الى الطبيعة يا بافل غفريلوفتش فأراها جميلة كلوحة مرسومة.

- أأنت تقصد بهذا التعبير المستنقع؟

قال بوبنوف بهدوء:

- انني أنظر الى المستنقع باعتباره احتياطيا. في أوقات الفراغ سوف يعمد الناس الى الاستحواذ عليه، وتجفيفه.

- لعلك تفكر في انه سيكون ممكناً آنذاك تشييد المعبر أيضاً.

- لماذا؟ اننا قوم سريعون. نرتب أولا الاستثمارة الرئيسية. اما التفاصيل الصغيرة فاننا ننجزها عرضياً، يقال انك وعدت الكولخوزيين بشق قناة بزل هدية لهم عقب انجاز مشروعنا. وعلى وجه العموم في حالة انجازنا العمل في الموعد المضروب فسوف نقيم خراعة من البرنز في الحديقة المربعة تذكاراً عنا.

- أجل خراعة بالذات، - قال بالويف بغضب ثم نهض ورفع الى حد خن الورك ساق الحذاء المطاطي. - هيا بنا نواصل السير والتخويض. فلنبحث عن موضع نقيم فيه المطعم بحيث لا يضطر الناس الذهاب اليه خبطا في الوحول.

تكنهما لم يكونا وحدهما في هذا التجوال بمنطقة المنخفض المتحول الى مستنقع. كان سواق الرافعات - ناصبات الأنابيب البولدوزرات وعمال التركيبات يحثون الخطى في المستنقع وفي أيديهم أعواد، باحثين عن مواضع ومسارات لآلياتهم الثقيلة. وكان كل واحد منهم يشعر بانه مذنب بعض الشيء ازاء الآخرين، وقد خيل له انه بالذات قد اقترح بحماس أكثر من غيره الاستغناء عن الالتفاف.

خلال المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي الذي انعقد عام ١٩٥٦ أقرت فكرة تزويد البلاد كلها بالغاز واتخذ المؤتمر الحادي والعشرون (١٩٥٩) برنامجاً ضخماً لتنفيذ هذه الفكرة. وهذا هو أحدث فرع في التصنيع. تحقق كل شيء هنا تقريباً لأول مرة. وقد زودت البلاد بناة خطوط الأنابيب الخاصة بنقل الغاز بالتكنيك المكتمل. الا انه ظهر ان طريقة تمرير المعابر خلال الحواجز المائية روسية محضة من حيث الجرأة والبساطة والتوفير في الحل.

اخترع هذه الطريقة بافل غفريلوفتش بالويف. ولكنه عدل عن المطالبة بنسب هذه الطريقة اليه لنفس تلك الغرائب في طبعه، التي لم يرد وفقها أن يغدو البطل الشخصي في توفير المعدن.

قال بالويف في الهيئة الادارية منزعجاً:

- طيب! انكم ببساطة تفرضون نفسي على نفسي ولكن الأسرة العاملة أين؟ انها غير ذات شأن كما يبدو؟ بينما أحتاجت الشغلة عمل أدمغة جميع الناس. ان طريقتنا هذه من استنباط قطاع العمل كله، فالجائزة يجب أن تقسم على الجميع.

- لكن الجائزة ستغدو تافهة نقداً في حالة توزيعها على الجميع، حتى يكون من المحرج تسليمها اليهم.

- ان الجانب المعنوي أغلى لدى الناس من نقودكم. ولي من ذلك جدوى اذ سيعتبر كل واحد منهم نفسه مخترعاً، وهذا اللقب ملزم بتبريره، وما أن يمر الوقت حتى يبتدعوا شيئاً آخر. وفي النتيجة يتحقق لي الربح. أي قطاع هو المتقدم؟ قطاعي، أي قطاع بالويف. وأنا كما تعلمون انسان ولوع بالشهرة.

وكان جوهر تمرير المعابر وفق طريقة قطاع البناء الذي

يشرف عليه بالويف محصوراً في ما يلي. يحفر خندق عميق كالقناة ويحشر فاصل ترابي فيه ثم يغمر بالماء. وبعد هذا يتم انزال المعبر الجاهز في هذه القناة، وقد لحمت الصمامات في نهايتيه فيطفو على الماء. ومن ضفة النهر المقابلة تقذف حبال من قافلة الجرارات، وتشد في حلقة رأس المعبر. وعند صدور الايعاز يكسر الفاصل الترابي ويسحب المعبر مع الماء المتدفق من القناة الى النهر.

انها طريقة رخيصة الكلفة، سريعة الانجاز، وغير مصحوبة باي أضرار ميكانيكية. وفي كل مرة يتم توفير مئات الألوف من الروبلات. فيما كفلت وحدها امكان تمرير المعبر خلال الأماكن المائية العريضة المتحولة الى مستنقعات.

ويشكل تمرير المعبر من حيث الجو الاحتفالي المهيب مشهداً نظيراً لتدشين سفينة جديدة عند انزالها من منصة حوض البناء، ولكنه أكثر بعثاً على القلق وانذاراً بالخطر، وينطوي على كافة المفاجآت المحتملة. اذ يتعذر التكهن سلفاً بكل الغدر الكامن في التربة ذات الطبقات المتعددة التي تقطعها القناة المحفورة لا سيما حيث يزحف خلالها المعبر بحجمه الهائل، مختضاً، متثنياً، بهيكله الفولاذي اللدن بقوة. أما وزن هذا المعبر مع كل الأثقال المطوقة له من كافة الجوانب فهو يقل قليلا عن ألف وخمسمائة طن.

وضع بافل غفريلوفتش لنفسه قاعدة، باجراء محادثة مع كل قادم جديد الى العمل، رغم ان ذلك لم يكن لازماً على الاطلاق حسب مستوى وظيفته. فقد كان ذلك من واجبات رئيس قسم الملاكات لكن بالويف أطلق عليه، اما على سبيل التبجيل واما من قبيل السخرية، لقب «المختص بعلم الملاكات». وقد قال له ذات مرة.

– انت تتصرف من الناحية الرسمية أما أنا فمن الناحية النفسية. بودي أن تعلم بان الناس الجذابين يعجبونني. – وأوضح، لئلا يسبب ازعاجاً بشعور عدم الثقة: – أتلقى مثلا آلية جديدة، فيهرع الجميع للتطلع والاختبار، لئلا يدس جهاز فيه عيب. فهم لا يمحضون وثيقة المصنع عن الجهاز ثقة عمياء، رغم ما شحنت به من أختام رسمية وتواقيع قسم الرقابة التكنيكية. ومثل هذا

الارتياب أرتضيه. أما اذا انتقي شخص جديد للعمل فانهم حتى لا يعنون بالنظر في وجهه كما ينبغي، ولكنهم يتفحصون الورقة الرسمية الواردة عنه بامعان شديد. بينما هذا الانسان أعلى مقاماً من الجهاز الميكانيكي، وعليه تتوقف صلاحيته وجدواه. وهكذا يتحصل أمر مضحك، فان الأشياء الخاضعة للانسان تحظى بالعناية القصوى، أما الانسان نفسه، وهو سيدها والمتصرف بها، فان الاهتمام اللازم ازاءه يبقى خارج القوس.

– وماذا تقترح، هل علي أزجاء التهاني الى كل قادم، أم لعلي يجب أن أتقدم اليه بباقة زهور؟

– باقة الزهور هي أيضاً رمز جميل! – قال بالويف وأردف محذراً:

– عندما يدخل الانسان العمل فهذا دوما حدث تاريخي في حياته، ونحن ملزمون بالتأكيد على ذلك من قبلنا.

– انني متلطف مع الجميع. – اعترض رئيس قسم الملاكات، ووعد: – سنآخذ بعين الاعتبار توجيهاتك هذه بصدد الاحتفال المهيب. ولسوف أفكر أثناء عملية تسجيل الالتحاق بالعمل في ابتداع طريقة مناسبة للتهنئة.

– هذا هو المطلوب بالذات. – وافق بافل غفريلوفتش وأضاف:

– من المفيد لكل شخص أن يفكر.

أثناء المحادثات مع أترابه من العمال القادمين حديثاً كشف بالويف عن اطلاع واسع بصدد كافة القضايا، ونفاذ رأي، مديراً هذه المحادثات بثقة وبشكل بديع.

لكن حينما جاء فتيان من خريجي المدارس حديثا تملك بافل غفريلوفتش حب استطلاع متعطش. ورغم كل حنكته من تجارب الحياة لم يتح له دوما فهمهم مباشرة، والتغلغل الى أعماق نفوسهم، واستخلاص تصور جلي لنفسه عنهم. بينما حافظ في مظهره الخارجي على الثقة بالنفس، اللائقة بمقام الرئاسة. الا انه كان كثيراً ما شعر بان هذه الثقة تفارقه.

فمثلا جاء فكتور زايتسيف الى بافل غفريلوفتش معتمراً بيرية، مرتدياً صدرية على آخر موضة، تشد يمناه على مقبض حقيبة محشوة بشدة، وتحمل يسراه رزمة كتب ملفوفة بحزام البنطلون.

فطلب بافل غفريلوفتش منه بلطف، كأنه يتهيأ للاستماع بمذاق محاورة شهية:

– دعني أرى أيها الصديق ماذا تحوي مكتبتك المتنقلة. ربما تسمح لي باستعارة بعض كتبها؟ – ومد يده الى رزمة الكتب.

بيد ان الفتى أبعدها سريعاً برجله، وقال رافعاً الكلفة:

– ليس بينها ما يجلب اهتمامك.

– وما السبب في هذا الظن يا ترى؟ – قال بافل غفريلوفتش مستغرباً.

أجاب زايتسيف:

– هو ذاك، ليس هذا شيقاً لك. – وأوضح برفق – انها تتعلق بعلم النبات الفلكي.

– هل تنوي التخصص في الفلك؟

قال زايتسيف مغضبا:

– لست أريد التخصص في أي شيء، كل ما في الأمر هو ان هذا شيق لي، ولا شيء غير ذلك.

تطلع بالويف بنظرة فاحصة الى زايتسيف من قمة رأسه حتى أخمص قدميه وسأله:

– ما الذي حدا بك للقدوم الى مشروع البناء بهذه الغندرة؟ أم ان بدلة العمل موضوعة في حقيبتك؟

أعلن زايتسيف بفخر:

– أعتقد ان المظهر الأنيق لدى العامل يجب أن يكون منسجما مع التكنيك الحديث الذي يستخدمه في العمل.

– وهل أنت قد أصبحت عاملا؟

– في حال قبولكم اياي في العمل معناه انني سأكون عاملا.

– قصدتنا بعد انهاء التعليم المدرسي مباشرة؟

– كلا.

– وأين ضيعت الوقت؟

– زاولت أعمال التدبير المنزلي، – تلفظ زايتسيف هذه العبارة همساً. أبيضت وجنتاه بغتة، بينما احمر جبينه وارتعشت شفتاه، وأضاف:

– توفيت والدتنا فتزوج أبونا غيرها على الأثر، وابتعدنا

عنه اعزازاً لذكرى أمنا، وصرنا نعيش بدونه لوحدنا. - فجأة تحسر وقد اختنق الهواء في صدره. فابتهل بالويف اليه:

- اغفر لي يا فيتيا، لم أكن أعلم هذا كله. ربما من الأفضل قطع الحديث لتنظيم معاملة التحاقك بالعمل، ولا شيء آخر.

واصل زايتسيف كلامه بعناد:

- كلا وما الداعي الى ذلك! ما دمت سألتني فأنا أجيب، انني لم أكتف بطبخ الطعام لاخوتي وكنس الشقة وانما ربيتهم كما ربتنا أمنا. وقد شغلني مدير عمارتنا السكنية وقاداً للتدفئة المركزية في وجبة العمل الليلية. ثم اشتغلت مصلح كهرباء في الشقق، وكنت في المدرسة قد شغفت بالفيزياء وصلحت المعدات والاجهزة الكهربائية للناس، وحتى الثلاجات.

- أحسنت!

قال زايتسيف فجأة بحرارة:

- ليس هذا بصحيح. اذ انني حقدا على أبي رفضت أخذ النقود منه ونهيت اخوتي عن الالتقاء به.

- هل والدك من الناس غير الطيبين؟

- كلا، انه ليس سيئاً، حتى انه انتظرني في الشارع ذات مرة ورمى النقود أمامي على الأرض عندما رفضت أخذها من يده.

- فلماذا اذن ضغطت عليه بهذا الشكل، ورفضته؟ الحياة عسيرة شاقة. ورغم كونه قد تزوج فانه بقي اباك على أي حال.

- كانت أمنا مريضة وعصبية طيلة الوقت. وكثيراً ما كانت تخاصمه. هذا حق. ولكن أتعلم لقد كانا معاً ضمن قوات أنصار المقاومة. وهي لم تغادر موضع وحدتها بالطائرة الا بسبب قرب وضعها لي، بل لهذا السبب لم تستلم كافة الأوسمة التي منحت لها. وحدث ان ضربني هو نفسه عندما كنت فظاً معها، وقال عنها انها الفضلى بين جميع النساء.

- وهذا عين الصواب.

- اذن فلماذا تزوج امرأة اخرى بعدها. وحتى دون تشاور معنا. أفلا يخرج تصرفه هذا المرء عن طوره؟

- ربما هذه الزوجة الاخرى انسانة طيبة.

- ما أبعدك عن فهم الأمور؟! - وحرك زايتسيف كتفيه

النحيلتين اليابستين بامتعاض وأضاف: – ان القضية هنا مبدئية. ونحن حتى بدونكم نفهم ان زوجة الأب تبدو في حكايات الأطفال القديمة امرأة شريرة تقليديا، اما زوجة أبينا فهي امرأة سوفييتية عادية وحتى متواضعة لقد طلبت منا العفو. ولكنا بالطبع رفضنا التحدث معها.

– ومن هم بالضبط هؤلاء الذين تدعوهم «نحن»؟

– انهم أنا وكوليا، الذي يوشك على الانتهاء من الدراسة الحرفية، وفوفكا في الصف الرابع في المدرسة.

– وأين اخوتك الآن؟

– كوليا يعيش في القسم الداخلي لمدرسته، أما فوفكا فقد أدخلته مدرسة داخلية بمساعدة لجنة الحي.

– فيتيا. أليس في قلبك أي عطف على أبيك بالمرة؟

– انني أعطف عليه.

– والآن ما الذي سيجري مستقبلا؟ لقد استخدمت ضده المدرسة الداخلية والقسم الداخلي. وساعدك مدير العمارة السكنية وأبوك كما يبدو يعاني من التأثر.

– أجل، يعاني.

– ما اختصاصه؟

– انه مدير مستودع.

– لا ينبغي ان تساورك الظنون. انني استفهم حبا للمعرفة شخصياً. وبالنسبة للقبول في العمل لا شأن لنا بحالة الوالدين وأوضاعهم. ينبغي اعداد استمارة لك، والمعلومات عنك فيها لحد الآن ضئيلة، ولد ودرس واشتغل وقاداً لدى الادارة المنزلية. هذا لا يستحق اعتباره سيرة حياة.

– لست مذنبا لكونها بهذا الشكل.

– لا بأس، ستكون فيما بعد سيرة حقيقية. والآن، – وهنا تحدث بالويف بلهجة صارمة وعملية، – سأجعلك تلميذاً لدى سائق البولدوزر درونين فيودر زخاروفتش. وسأدفع له مائة روبل شهرياً لقاء تدريبك. أرأيت كيف ان مشروع البناء لايجني منك حتى الآن سوى الخسارة.

– ولكنني لا أريد أن تدفع عني نقود أجراً، وأنا موافق على الاشتغال كعامل تحت التدريب، بلا مهارة، وسوف أدفع بنفسي أجر تدريبي.

– عامل بلا مهارة؟ وأين رأيت عندنا عمالا غير مهرة؟ لقد تخلفت عن اللحاق بركب المعرفة يا فتى. ليس لدينا شخص يعمل بدون جهاز ميكانيكي. يحتاج الشخص الآن كي يغدو من العمال الحقيقيين الى معرفة لا تقل عما لدى أصحابك الفلكيين، الذين يتولون دراسة العشب النابت في كوكب المريخ.

– لكن ليس في المريخ نبات مثل نباتات الأرض، – قال زايتسيف متنشطا.

– ما علينا من ذلك. لسوف نرسل من يزرعون هناك المطلوب. ولكن هذه القضية ليست قضية الساعة حالياً، الأراضي كافية للجميع وفيها من الأعمال ما يكفى أيضاً. اذهب انت الى قسم الملاكات، وقل لهم ان بالويف قد درسك من كافة النواحي. املأ ما ينبغي من القوائم والاستمارات وتنزه حتى نهاية اليوم. وفي المساء عرج علي، ولكن ليس الى هنا، وانما في العزبة الاخيرة. أنا أشغل غرفة هناك عند المشرف الاقتصادي للكولخوز. وسوف نتلذذ بتناول عجة البيض. وفي الصباح سأنتقي لك سريراً في المسكن العام.

– لكني أرجوك، – تلفظ زايتسيف بصوت مرتعش، – الا تحرجني بعد الآن بحملي على التحدث في المواضيع الخصوصية. انني لست ملزماً بالمرة بالتحدث اليك عن هذه الأمور.

وقال بالويف مبتسماً:

– أتظن نفسك شخصية! أما أنا فشخصية! وسوف احدثك عن نفسي، سيرتي تستحق الذكر! هل ستسمعها؟

– حسنا اذا كنت مصراً على ذلك، – طاوع زايتسيف متكرماً.

– اذن تعال الي هناك. اذا احترمت شخصاً فتكرم عليه بسماع نواحي ضعفه والا فليس عندي هنا من افتح قلبي اليه، فهؤلاء الناس جميعا مشغولون منهمكون.

– طيب سأمر عليك. – وافق زايتسيف دون حماس خاص، وبعد تناوله رزمة الكتب وحقيبته من المشمع المنتفخة توجه عبر الممر الى الغرفة المجاورة حيث قسم الملاكات.

١٢

اشتغلت عاملة المختبر ايزولدا بزوغلوفا بقسم العزل، بعد أن عينها بافل غفريلوفتش دون تفحص، وبلا أي وثائق، في الظروف التالي ذكرها. سمعت على حين غرة لدى عبور نهر الفولغا بعبارة وصلت الى منتصف النهر طرطشة، وتعالى صراخ مذعور:

– فتاة هوت الى النهر!

خلع بوبنوف حذاءه ونزع سترته ورمى طاقيته مودعا لدى بافل غفريلوفتش، ونط الى الماء.

كان مجرى الماء هنا بسرعة القطار. وأوضح بافل غفريلوفتش للركاب:

– لا تقلقوا أيها الرفاق، فانه غطاس.

وجر بوبنوف الغريقة الى موضع ضحل، وشكا مستغربا:

– وجدتها أسفل القعر، كأنها ثقل ما لا بشر! وهذا حتى مضحك، فهل الثقل من عظامها؟

ظهر ان الفتاة قد دست تحت الحزام المشدود بقوة حول فستانها الرمل والحصى، في كيس شدت عليه بيدها وفيه آجرة ضخمة ملفوفة بورقة مكرمشة. وحينما اعيدت الى وعيها قال بافل غفريلوفتش لبوبنوف بصرامة:

– اياك أن تخبر أحدا بأي شيء!

وقال بوبنوف:

– مفهوم. ينبغي أولا تمحيص الأمر بأنفسنا انسانياً.

– ولسوف نتمحصه. – قال بالويف واعداً.

لكن لم يتح تمحيص أمر الفتاة رغم كافة محاولاته معها. أولا، انها لم تشعر لا بالخجل، ولا بالاضطراب، ومع أن عينيها الزرقاوين المتسعتين شعتا ببريق القلق والفزع، فانها حافظت على هدوئها

حد التحدي، وظلت محافظة على جرأتها، حتى أمكن القول انها لا تخلو من الوقاحة.

سألت بالويف:

– ماذا تبتغي مني؟ لعلك تريد كتابة محضر بالحادث؟

– أريد أن أشرب معك شاياً حاراً ثقيلا. تفضلي فهذه المربى.

– الى الجحيم أنت وشايك!

– هكذا اذن، – قال بافل غفريلوفتش محاولا كظم غيظه، ولكنه لشدة سخطه لم يطق كتم غضبه فانفجر:

– من يغرق لا يطلب الشرب بالطبع. ونفورك من الماء مفهوم.

– انني أشعر بالاشمئزاز منك لا من الماء. خل عني واطلق سراحي، انك لست من رجال المليشيا، ولا يحق لك احتجازي.

– وأي حق لك في فعل هذا بنفسك؟

– انني لم أفعل شيئاً. سقطت في الماء لا غير.

قال بافل غفريلوفتش:

– لعل الأفضل أن تشربي قليلا من الفودكا.

– ماذا تقول؟!

– أنت ترتعشين من البرد، شفتاك زرقاوان، وأخشى عليك الاستبراد. أو فابلعي ولو قرصا ضد الصداع.

– ابلعها أنت رغم انك لم تسبح معي في النهر.

– بالفعل لم أسبح، اذا كنت تسمين ما حدث سباحة. ها هو الرفيق بوبنوف من قرر السباحة سوية معك. والطقس خير ما يكون، حرارة الماء عشر درجات فوق الصفر، فيا للانتعاش!

– هل بوسعي الذهاب الى البيت؟

– أين تسكنين؟

– ما شأنك في هذا الأمر؟

– اسمعي. دعينا نظل بشراً لماذا تشاكسين؟ – وبعد التفكير ملياً قرر اللجوء الى الكذب:

– حدث معي في حياتي أمر مشابه ربما. كادت زوجتي

تهجرني. وتبادلنا توجيه الاهانات الى بعضنا البعض الى أقصى حد، وخرجت الى الشارع. كان الوقت ليلا، والمطر ينهمر، وكانت الظلمة تغمرني في الداخل ومن الخارج...

تناولت الفتاة من المنضدة مجلة «أغنيوك» وأخذت تتصفحها متظاهرة بالاستغراق في الاهتمام. كان وجهها نحيلا وأنفها مدبباً، غير بارزة القسمات، وشعرها الفاتح متجعد اللمة. نحيفة مسحاء ناتئة الترقوة كالمشجب الذي تعلق عليه الفساتين. نحت المجلة دون اكتراث وتثاءبت، مستلقية برأسها على ظهر المقعد، وتمطت مشبكة يديها تحت قفاها وسرعان ما شعرت بان ذلك الوضع قد حفز نهديها على البروز بشكل حاد، فارتبكت مضطربة وحشرت رجليها تحت المنضدة مغطية ركبتيها بكفيها، وبدت أظافرها مكسرة مقضومة. وقالت في الحال بانفعال مشوب بالسخرية:

- هيا، هيا، انني أسمع فتحدث ما شئت...

ولكن بريق عينيها انطفأ كآبة، وتجمعت متكورة وقد نط في جيدها عرق مزرق.

وقرر بافل غفريلوفتش على أي حال محاولة ايجاد مدخل الى نفسها.

- لا تظني رجاءاً انك تثيرين في نفسي شفقة عليك. انني اذا أردت المعرفة أحس الاستنكار نحوك. يعوزني الناس في مشروع البناء وهناك من يلقي نفسه الى الفولغا. وهنا لجأ الى المداعبة - لقد انتشلناك من الماء فأنت الآن اذن غنيمة من غنائمنا. وفي هذا اليوم بالذات سوف نعين لك عملا عندنا.

تطلعت الفتاة الى بالويف بنظرة زائغة، وكانت شفتاها مزمومتين بصرامة. كانت في هذه اللحظة ترى أمامها وجه ايغور، في ذلك الصباح، حين قال وهو يتوجه الى العمل: «لا داعي منذ الآن الى وضع المفتاح على افريز الباب العلوي». - «ولماذا هذا؟» - «لا حاجة الى ذلك - وركز طرفه على حذاءيه الملطخين بالكلس - لن أعود اليك بعد الآن، اعذريني، أو بالأحرى ينبغي أن أقول: اغفري لي - ثم تابع كلامه بوقار النفس البسيطة - ليس بوسعي الزواج بك. وهل من الممكن القاء النفس هكذا بعجلة على أول من يصادفك! رغم كوني الرجل الأول في حياتك.

انك لم تسألي حتى ان كان هذا يريد الزواج بك أو لا يريد...»
– «اذن فلقد كذبت حين زعمت انك تحبني، كذبت؟ اذن فأنت وغد سافل أليس كذلك؟» – أرأيت كيف انك تسبين، بينما تظاهرت دوما بانك مهذبة ورقيقة». و بعد برهة صمت، عاد يتكلم: «حتى انني أشعر بالرضا لانك وجهت الي الشتم. يبدو انك بهذا تظهرين على حقيقتك، كما أنت بالفعل. – وقال متضاحكا: – وربما أنا في هذا كله انما كنت أمزح ببساطة. أردت معرفة مدى اخلاصك لي. وبما انك تستجيبين على هذا النحو، اذن فمن الأفضل أن أبعد عنك، والآن فعلياً، والى الأبد». وتمهل واقفاً عند الباب كأنما ينتظر شيئاً ما. وقالت له راجية: «اذهب. اذهب عني» – «سأذهب، وبناء على مبادرتك. مفهوم؟»– قال ايغور وضيق عينيه متهكما، وأضاف: – فأبوك من حملة لقب بطل الاتحاد السوفييتي!. وسأل بحقد شرير: – ربما عينوك رئيسة لفرقة عملنا في التجصيص والتلبيس لهذا السبب، اذ ما أكثر ما تبجحت أمامي متشدقة بمجد أبيك. أما أنا فلقيت أمامك العذاب بسبب أبي. ولكني كنت قد ذكرت لك في الحال أن أبي شخص سيىء... ولم أقل ذلك لأي أحد سواك، ولكنني قلته لك وانخرطت في البكاء. أتذكرين كيف بكيت؟» – «أجل بكيت». – «أما أنت فقد مسحت برفق على قفاي وقلت تعزية ان الأبناء غير مسؤولين عن ذنوب الآباء. لقد فعلت ذلك من علو مقامك الرفيع بحنان. أما أنا فكنت أفكر: كيف أتسلل الى عائلتكم ولي مثل هذا الأب، وشعرت بوخز الضمير حيال والدك. هل تتذكرين؟ وهذا يعني انني تعذبت أمامك ولكنني لم أخف من ذكر الحقيقة، وذلك لانني أحببتك. أما أنت فيظهر انك ضحكت علي بتعازيك. وأنا كتبت رسالة الى أبيك صاحب لقب البطل وأطلعته على كل شيء بشأن أبي ليكون على علم. لم أرد أن أبدو له جباناً. وأجابني عليها مبديا الثقة. غدا كل شيء واضحاً، ماذا، وكيف. والأمر بالنسبة لي حتى سواء أي شخص هو أبوك في واقع الأمر. ولكن بما أنك أحببتني كان بوسعك القول صراحة، لو كنت تحبين كما ينبغي، ولكنك حتى آخر ثانية التزمت الصمت. والآن شتمت. اذن صدقت بانني يمكنني أن أكون وغداً سافلا كما تظاهرت. ولكنني لست كذلك.

انني الآن أتعس الناس، فانني أحبك! واذن فقد خدعتني اذا كنت لا تثقين بي. فأي حب هذا؟ وأنا الذي وضعت ثقتي فيك، ولم أخف أن حبنا قد يتأثر جراء حقيقة أبي. فمن منا هو الأسوأ، ومن هو الأفضل؟» – «اعذرني يا ايغور، – اعتذرت بصوت مبحوح. – اعذرني».

استند ايغور الى الجدار وقال وهو ينظر الى قدميه كأنه لم يسمع ما قالت متحدثا بحرقة وقنوط: «ولكن لماذا هرب أبي من جبهة القتال؟ هل خاف الموت؟ انني أفكر طيلة الوقت: لماذا؟ وماذا لو انني أيضاً هربت في وقت ما، من شيء ما خوفاً؟ وصرت أنا كذلك أخشى من نفسي. أردت التحقق مم أخاف ومم لا أخاف. هل تتذكرين عندما توقف الحبل في الرافعة؟ وزحفت أنا على ذراع الرافعة لفك الحبل؟ فكر الجميع ان دافعي الى ذلك كان الحرص على المصلحة الانتاجية لئلا يضيع الوقت سدى في استدعاء المختص يتسلق الأعالي. بينما فعلت هذا لأجل نفسي وحدها لمجرد فحص نفسي والتحقق من أهليتي. وحين هبطت الى الأرض هنأوني أما أنا فقد كنت أفكر في أمر واحد فقط: عسى الا يلاحظوا كيف ارتعش جسمي كله. أتعرفين مدى الفزع الذي خالجني وأنا فوق ذراع الرافعة! لقد ساورني احساس شعور سحبني الى تحت. تملكتني رغبة في قذف نفسي الى الأسفل. ربما يكون أبي قد هرب من الميدان مدفوعا بمثل هذه الرغبة في قذف النفس الى أسفل. لقد فهمته هناك وأنا في الأعلى، وأدركت السبب الذي جعله يصبح جباناً. وهكذا لم يقتلوه وانما هو الذي قتل نفسه، حين لاذ بالفرار. أما أنا فلم أنكص وقد تذكرته، بل زحفت حتى نهاية ذراع الرافعة، وكانت الرياح تتلاعب في كل ناحية، وأنا أواصل الزحف مفكراً في أبي... – رفع وجهه الطافح بالتعاسة، وأخذ ينظر في عينيها متفرساً وقال: – لقد سبق لي أن قلت لك. حتى ليس من اللازم أن تكوني على هذا القدر من الجمال. أتدرين ما السبب الذي حدا بي الى أن أحبك؟ لقد بدوت لي مستقيمة. درسنا في مدرسة الشبيبة العاملة علم الفيزياء وعلمنا ان الشعاع الضوئي لا ينكسر ولا ينحني. وليس بوسع أي شيء التأثير عليه. ان الجزيآت الشعاعية تنطلق باستقامة

شأن الرصاصة وعندئذ تذكرتك، فأنت أيضاً وضاءة مستقيمة. ولكن يظهر انك كنت تحتالين علي وليس بوسعي تحمل هذا. ها هو كل شيء». - «أنت تكذب في كل شيء، تكذب! - صرخت فيه. - كل ما في الأمر انك شعرت بالخجل حيالي حينما عرفت كل شيء». - «يا لك من مخلوق، - نبر ايغور باحتقار، - والآن بات حتى فهمك لي انسانيا فوق طاقتك! انني أتحدث معك بشكل انساني، وأنا ضد أي دناءة. سأتزوجك بسبب وازع الضمير. لقد فهمتك، أما غيري فربما ان يفهمك. ولو انك كنت قد قلت لي رأساً لما كنت قد رثيت لك لان ذلك لا أثر له من الأهمية بالنسبة لنا. أما الآن فانني أرثي لك. انك لضعيفة هذا هو الأمر! - اعتمر طاقيته، وأعلن برأفة قائلا: - اذن ضعي المفتاح خلف افريز الباب العلوي، كما هو الحال دوما. سوف أعود. في المنهاج الدراسي المسائي اليوم خمسة دروس. - وبعد تردد رجاها: - لكن لا تستسلمي هنا وأنت وحدك بدوني الى الهواجس، ولا تقلقي جداً... ربما أعود مبكراً من المدرسة، وعندئذ نذهب للتنزه. ثم نتحدث مرة أخرى، لنغلق بعدها هذا الموضوع نهائياً». - «كلا، - قالت بيأس وقنوط، - كلا، لا تأت الي بعد الآن! ولا تبحث وراء افريز الباب العلوي، فلن يكون هناك المفتاح...». - «حسنا، - قال ايغور، - سوف نرى هل سيكون المفتاح هناك أم لا». وذهب دون أن يلتفت. وكان وجهه صارماً مهموماً...

- ها هما فردتا حذائك قد جفتا، - قال بافل غفريلوفتش ووضع عند قدميها حذاءها الأحمر، صغير الكعب، هدية ايغور.

سألته بلهجة شاكية:

- اذن فأنت تطلق سراحي؟

قال بافل غفريلوفتش مبتسماً:

- ايه، كلا، فانني لم أتعارف معك تماماً بعد. أمن الممكن أن تكوني بهذه الدرجة من عدم التأدب؟

- ممكن، - قالت وقد عادت بشكل ملحوظ الى الشكاسة.

تمشى بافل غفريلوفتش في الغرفة جيئة وذهاباً ثم توقف وقال:

– أبوسعي أن أقص عليك حادثاً واحداً من وقائع الجبهة؟
– حدثني فلا فرق عندي مادمت لا تريد تركي لحالي.
قال بالويف:
– اذن. هكذا، حدث ذلك في الشمال شتاءاً زحفنا على الثلج. ودسسنا رؤوسنا فيه، ليس لان الثلج دريئة لنا، ولكن من الرعب، فقد تعرضنا لزحف الدبابات وانقضاض الطائرات كذلك. ومن كل ضربة قصف كانت الأرض ترتفع تارة تحت قدميك وتنخفض أخرى، وكأنها كرش ضخم. وكما يحدث في لحظات كهذه فان المرء يصلي طالباً أمراً واحداً فقط، اي كانت الجهة التي يصلي اليها، الا وهو البقاء حسب على قيد الحياة! وعدا هذا لا تفكر في أي شيء آخر. لأن الرجفة تكتسحك فكراً وجسماً. حتى ليخيل اليك انك الأضخم والأوحد على الأرض كلها. وكأنما القصف بالقنابل والقذائف مسلط عليك وحدك. زحف غير بعيد عني زيلينتسوف، وهو جندي مطيع، قد انتقل من المدرسة رأساً الى الجيش، فكان يطيع العريف كما المعلم في المدرسة. وها قد هوت قنبلة فاكتنفتنا الحرارة وقذفني عصفها بعيداً. أفقت. جلست وأخذت أتحسس جسمي، يبدو اني سليم، بيد ان رجلي بلا حراك، كأنهما من قطن، اما زيلينتسوف فكان يواصل زحفه، وفي وجهه بدل العينين جروح دامية، فعينيه فقأتهما موجة الانفجار، وكان يزحف على جنبه معتمدا على المرفق، وقد وضع اثنين من أصابعه في فمه وأخذ يصفر، انت تعرفين كيف يصفر الفتيان لسرب الحمام؟ فهل جن جنونه؟ كلا، انه فعل ذلك ليجلب نحوه الانتباه. ودنا اليه جندي آخر ورأيت كيف أراد تضميده، لكن زيلينتسوف دفعه عنه وقال له شيئا ما، ثم سل حزامه وربط الرمانات، التي أخذها من الجندي، مع رماناته في ربطة واحدة، وزحف لاحقاً وحده لملاقاة دبابة. ولم أشاهد كيف قذف الرمانات، فقد طوح بي عصف انفجار، وهذه المرة كما يجب. ولكني سأظل أتذكر حتى آخر عمري صفير هذا الفتى المصاب بالعمى داعياً اليه الرفاق. لم يصفر لكي يقدم له من يقترب منه المساعدة. فقد اتخذ قراره رأساً فهو في حاجة الى الرمانات لكي ينسف الدبابة كما يجب، ونسفها فعلا. وهناك الآن على ضفة الخزان

المائي يرتفع نصب تذكاري نقش عليه لقب زيلينتسوف وكذلك لقبي.

– وأنت كيف تطفلت على قائمة القتلى؟

– حسبني جندي الوحدة الطبية قتيلا وأخذ هويتي. أما أنا فقد أفقت ليلا، وساعدني على الزحف جندي آخر مصاب بجراح بليغة أيضاً، ثم التقطنا الأنصار.

– وأنت لم تمسح اسمك من النصب؟ لماذا تخدع الناس؟ لعل الناس الذين يقفون عند النصب حداداً على أرواح الشهداء يرددون اسمك ولقبك باجلال كشهيد، بينما أنت حي.

– هذا حق. لقد أردت مسحه ولكني عدلت عن ذلك.

– غريب. انسان رصين كهذا ويقدم على خداع الناس.

قال بافل غفريلوفتش:

– نحن الأحياء جميعاً مدينون بحياتنا الى أولئك الشهداء لو عرفت. لولم ينسف زيلينتسوف الدبابة لزحفت علي وداست أيضاً على آخرين فسحقتهم. مفهوم؟

– انه أنقذك. وهذا أوضح من شمس النهار.

– ولهذا لم أمسح اسمي من النصب التذكاري لأظل أشعر طول الوقت بصلة التبعية له، أعني زيلينتسوف. وبودي أن أقول لك اننا جميعاً، أعني المواطنين السوفييت، في صلة تبعية الى بعضنا البعض. ولا يحق لنا مطلقا وفي أي ظروف أن نشعر باننا مستقلون عن بعض. هذا ما أود قوله لك. ولهذا دعك من التظاهر بالشجاعة. انني لن أخلي سبيلك. استغرقي في الرقاد، واليك هذا الفراش. وفي الغد سوف تقررين بنفسك ماهو الأفضل لك، البقاء هنا أو ايجاد حل مغاير آخر على شكل ما. سوف تقررين بنفسك. مفهوم؟

وارتدى بالويف ملابسه، وتوجه نحو المعبر المائي.

١٣

وفي اليوم التالي طلبت بزوغلوفا من بافل غفريلوفتش ابقاءها في مشروع البناء. أدخلها بالويف الى دورة عاملي المختبر ثم جاءت اليه وتحدثت عن نفسها مفصلا وبلا رحمة.

والدتها نساجة في معمل الغزل والنسيج بمدينة يارسيفسك. وحين احتل الألمان هذه المدينة ابان الحرب كانت الوالدة مصابة بالتيفوئيد، ولم تستطع مغادرة المدينة. وعقب تفتيش البيت اغتصب المريضة رجل الاس اس. أحرقت مستودعاً للألمان والتحقت بقوات الأنصار. وهناك أدركت بانها حامل، أرادت طرح الجنين ولكن المنكلين الجلاوزة كانوا يلاحقون فصيلة الأنصار في الحاح ولم تتح لها حتى فرصة بضع ساعات للرقاد وتنفيذ قصدها. ثم بدا ان الوقت قد فات لهذا. ووضعت بنتاً كانت ترضعها شاعرة بالاشمئزاز، حين حررت المدينة من الاحتلال عادت الوالدة الى المعمل. وهنا تلقت «اشعار النعي» عن زوجها الذي قتل في معركة بضواحي مدينة كنيغزبيرغ. كانت الوالدة امرأة فخور. ونظرا لعدم رغبتها في اخفاء شيء عن الناس أطلقت على ابنتها اسم ايزولدا. لكنها كانت تنفر منها، ولم تستطع ان تنتزع من نفسها الشعور بالتقزز منها. ولشعورها بالظلم كانت تنخرط في النحيب، وانفقت كل نقودها تقريباً على ابنتها اطعاماً وكسوة، كأنما كانت تسعى الى التكفير عن ذنبها الدائم تجاه طفلتها. أما ايزولدا فقد عاشت طيلة الوقت تعاني جريرة الذنب حيال الام، بل وازاء الجميع. ثم قدم الى المدينة صديق الزوج، وهو المصلح السابق في المعمل فيودر فوميتش بزوغلوف حامل لقب بطل الاتحاد السوفييتي. وقد لقى أفراد أسرته جميعاً مصرعهم أثناء غارة قصف على المدينة. وكان يكثر من زياراته الى أم ايزولدا ولكنه لم يتحدث مطلقاً مع ابنتها، يكتفي بالتطلع اليها صامتاً بعينيه الكثيبتين ذات النظرات الثقيلة الوقع.

وذات مرة قال للوالدة:

– أتعلمين يا غلاشا سوف أرحل غداً. أشعر بوطأة ثقيلة من البقاء هنا. – ثم فرك براحة كفه ركبته واقترح في مفاجأة: – أعطني ايزولدا لأتبناها. الصلة بينكما مستعصية.

– وهل تظن ان الصلة بينكما ستكون منسجمة؟ – سألته الوالدة بصوت أجش عميق.

قال بزوغلوف:

– سوف تنسجم، لقد فكرت كثيراً في شأنها وقررت بقوة.

وأرجو أن تكوني رؤوفة بي. انني في حاجة اليها، لسوف تكون لروحي عوناً، بايجاز اعطنيها وسأكون لها أباً. وسأحرص على التصرف حيالها كما ينبغي بكامل النفس. أما أنت فلا تزالين في طور الشباب، بوسعك الزواج. فكيف سيكون شأنها؟ انها يا غلاشا منا، من ناسنا... أودت الحرب بأرواح وكم أفسدت، فهل ننحني لها هذه الحرب؟ الوقت الآن لدى الناس نهار لا ليل. فهيا قومي بتصرف انساني ها؟ وشعت عينا بزوغلوف بالرقة والحنان والكآبة وبالتوسل الوديع والاستحياء.

وعلى هذا النحو كان دوما مع ايزولدا ابنته المتبناة مقتصدا في الكلام حيياً محباً حريصاً بقلق.

اشتغل بزوغلوف ميكانيكياً في العديد من المشاريع الانشائية بالبلاد. وقد صاحبته ايزولدا في حياة التَرحال هذه متنقلة معه. ورجاها أن تتعلم اللغة الألمانية. – كان يقول لها بلطف:

– مالك يا حمقاء تخجلين؟ اننا ندعو ألماننا الديمقراطيين اخوتنا، انهم أقرباء لنا بالاشتراكية. اذن فماذا في الأمر؟ وأنت من حيث الأساس روسية. وهذا هو الأمر الرئيسي. والانسان الروسي صاحب روح رحبة بوسعه معانقة الجميع، وان يفهم. انه يتقدم نحو الشيوعية برأسه، ويتطلع من هناك الى الجميع. الرأس في الانسان أعلى ما فيه. ولقد أحسنت والدتك في انتقاء اسم لك من الحكايات، يقابل اسمك في اللغة الروسية اسم زولوشكا، كما ألبسك انا، مثل أميرة! لكنني أخشى، – قال بقلق – أن أدللك اسعاداً لنفسي، وأي حق لي أنا في نسيان الضمير الأبوي؟ ليس لي مثل هذا الحق. وعليك تنظيم حياتك على منوال حياة أبيك، ولقد كانت حياتي قاسية فخرجتني انساناً. ورقمي في الحزب ليس بالأخير. أنا عضو فيه منذ سنة العشرين، حاربت أولا في صفوف الحرس الأحمر ثم انتميت الى الحزب.

وعندما قبلت ايزولدا عضواً في منظمة الكومسمول حضر أبوها بالتبني جلسات المكتب والاجتماع العام ولجنة المنطقة. وعندما استمع اليها وهي تتحدث مطرقة الرأس عن سيرتها هز رأسه موافقاً. ثم قال بعدئذ، وهما وحدهما، بلهجة حالمة:

– لك الشكر الجزيل. لقد كنت وضاءة مشعة، وعرضت سيرة

لائقة. لقد رفعت في نفسي الفخر الأبوي عالياً، اذ انني أتحمل المسئولية عنك أمام شعبين، أمام شعبي والآخر. مفهوم؟ وينبغي الحكم على الشعب وفق ذروته. عندنا في القمة لينين. وعندهم كارل ماركس. واذا كنت قد نشأت في ظروف عصيبة فلا بأس عليك الآن، ولا شيء يخاف عليك منه. اكتبي في الاستمارة دون وجل: روسية. وسيكون هذا صحيحاً.

وحين مطالعة الجرائد كان بزوغلوف يقطب جبينه ويتدبر:

– مالهم يحاولون التلويح أمام أنفنا بقنبلتهم. لماذا؟ اننا بالحرب عارفون... وكل واحد يفكر في نفسه متأملا: أفليس سواء لدى الاصابة بأي شيء تموت، ما الفرق ان يكون ذلك برصاصة أو قذيفة أو قنبلة ذرية. المفعول واحد بالنسبة للشخص، بل اذا لحقته اصابة قوية فهو اذن مرحوم. غير ان الحرب قضية متبادلة ذات طرفين. وعقب الحرب بردنا. ولكن اذا مسنا أحد فاننا سوف نستشيط حدة الى حد لا يمكن وصفه. اما بمساعدة المستوى الرفيع من العلم والتكنيك فان من الفظيع التفكير في مدى ما يمكن فعله. وفي الحرب الختامية سوف نتصرف أيضاً بشكل نهائي. في هذا الشأن لدينا لولب مشدود في اثنتين وأربعين لفة وفقا لعدد أعوام السلطة السوفييتية كل عام بلفة مثل شجرة. ومع كل لفة نزداد قوة ومتانة. فاذا أطلق هذا اللولب في حالة الحرب فانه سوف يضرب بقوة تفوق كل تصور، انها لن تكون مجرد حرب، بل كارثة من كوارث الطبيعة. – وبعد استغراق في الصمت أتم كلامه في حماس ملتهب: – كل شيء مفهوم جداً، ومن العبث سعيهم هناك الى التمعج. نحن انما نفكر في عافيتهم كبشر وجيران.

ولدى تصليحه رافعة برجية في طقس بارد بدرجة عشرين تحت الصفر، وفي مهب الريح، استبرد الأب ورقد مريضاً. فارسلت من نقطة العيادة الطبية الممرضة اولغا ايفانوفنا كوليسين لعيادته. وهي بدينة ذات وجه رقيق، لطيفة المعاملة، تولت رعاية بزوغلوف بحيوية دون أن تفقد لدى ذلك جاذبيتها الانثوية. وحين تعافى الأب واصلت زيارته وعيادته مستعلمة عن حالته الصحية، ثم صارت تمر عليه كضيفة. وقد عرفت خلال فترة مرض

بزوغلوف أنحاء المنزل وما فيها وكانت تتصرف لا كضيف بل كربة بيت فكانت تتولى اعداد المائدة وتطبخ الطعام، مما اعجب بزوغلوف حين كان مريضاً، وذات مرة لامت ايزولدا:

– كيف تهملين العناية الى هذا الحد بأبيك بالتبني؟ انه يغسل ملابسه بنفسه . فهل هذا ممكن؟

كان بزوغلوف لا يسمح لايزولدا بغسل ثيابه ولم يسمح كذلك لأي أحد باعتباره أباً بالتبني، ولم ترد ايزولدا بأي شيء على اولغا ايفانوفنا. بل أجاب بزوغلوف بقوله :

– اعذرينا يا اولغا ايفانوفنا، ولكن بما انني الآن معافى فانني لست في حاجة بعد الآن الى العناية الصحية.

– ماذا يفهم من هذا؟ – سألت اولغا ايفانوفنا شاحبة.

– افهمي الأمر على وجهه ، – قال بزوغلوف، وبدأ يوضح لايزولدا واجبها المنزلي بدرس الكيمياء المدرسي كأن أحداً في الغرفة عداهما، لم يكن.

خرجت كوليسين مهانة، وقد اغرورقت عيناها بالدموع. سألته ايزولدا:

– بابا لماذا لا تتزوج؟ أذلك بسببي؟ أم انك كنت تحب جدا زوجتك، فعزفت بسبب ذكراها؟

أجاب بزوغلوف عابساً:

– دعيني. انه حديث فارغ.

– كلا. اذا كنت ابنتك فهذا يعني انني أملك الحق في توجيه هذا السؤال.

ضحك بزوغلوف:

– اذن فأنت تريدين الامساك بخناقي بهذه العبارات. فليكن، خذي بخناقي.

– انك وحيد فريد وأنا أشعر بهذا جيداً.

ابتسم:

– يتيم لطيم، وليس حولي أحد من الناس.

– انني أتكلم بجد. ألم تر كيف تميل اليك اولغا ايفانوفنا؟ انها حتى بكت. ألم تلاحظ؟

فغضب بزوغلوف:

- اسمعي، لست من المعنيين بمشاعر النسوان. ولا تربطيني بهذا، وانتهى الأمر. مفهوم؟ لا أريد بحث أمثال هذه المواضيع معك وانت الصبية الغرة. - ارتعشت أصابعه حين شخط عود الثقاب ليدخن. وبعد التدخين قال محذراً وغضبه لم يركد بعد: - اني لك الأب والأم. مفهوم؟ - وابتسم قد أعجبه التعبير بهاتين الكلمتين فكرر قائلا: - بما اني أمثل لك الأب والأم فما الذي تريدينه فوق ذلك؟ أتريدين زوجة أب أم ماذا؟ في هذه الحالة بوسعي جلب فقمة كهذه الى البيت لكي نهرب منها بعد ذلك أنا وأنت. أعرف هذه الشبكة من الخيوط الذهبية حين يتزوج أشخاص طعنوا في السن بمن هن أصغر منهم سناً بكثير، فلا تنبسي بحرف بعد الآن حول هذا الأمر. ليس من عمل البنت ان تكون خطابة لأبيها.

مرت بضعة أشهر وعرفت ايزولدا ان أباها قد عاشر كوليسين فهي تنتظر مولوداً، ولكنه لا يريد التزوج بها.

وأخذت كوليسين تلاحق ايزولدا. وتوسلت الى الفتاة أن تحاول التأثير على أبيها وأكدت لها أنه يحبها ولكنه لا يريد أن يتزوجها لكونه يخشى التضييق على ابنته.

وقالت ايزولدا لأبيها انها تلقت من لجنة المنطقة لمنظمة الكومسمول ورقة توجيه للعمل في انشاء مصنع كيمياء، وانها سترحل قريباً.

مطط بزوغلوف كلامه بحزن وارتباك:

- هكذا، مادامت منظمة الكومسمول قد قررت ارسالك، فهذه القضية نهائية ولا مراجعة فيها! فافعلي ما تشائين! - ثم التفت وسألها: - هل تعرفين كل شيء عن ورطتي؟.

هزت رأسها بصمت.

- ظهر اني انسان غير جميل العمل. كنت أظن انني حديدي في كل شيء وها قد اكتشفت عندي رخاوة. لست أريد، ولكني سوف أتزوج بما انه ستكون لي ذرية وأنا حيالها مسؤول. ولقد انغمست في غمرة الأحداث. ها اشتريت حوض غسيل لتحميم الوليد. - تلفظ بكآبة مع شعور بالذنب: - اعذريني يا ايزولدا. لم أستطع ايصالك الى النقطة المرسومة. فكرت في تقديم طلب

الى المعهد الدراسي العالي وهناك سوف تنفسح رحاب كاملة. لم أوصلك لقد تعثرت. - ولأول مرة دعا ايزولدا لا باسم زولوشكا وانما باسمها الحقيقي الذي تمقته، وحتى لم يلاحظ نفسه كيف دعاها هو بهذا الاسم. وأفظع ما في الأمر: انه لم يلاحظ ذلك. وكان في هذا الألم الذي بقى في نفسها مدة طويلة. ولئلا تلهب هذا الألم لم تتحدث عن نفسها بعدئذ الى أي أحد. ولم يعد بوسعها أن تفعل ذلك بتلك البساطة والكبرياء، كما كانت تفعل عندما كان بجوارها أبوها الفخور ببسالتها، فرحاً مغتبطاً.

واذ أحست الوحدة باتت تخشى وحشة الوحدة...

ذهب بالويف الى مشروع بناء المصنع الكيمياوي، ونظم جميع الوثائق لألحاق بزوغلوفا بالعمل عنده، وعقب هذا لم يرجع بكل دماثة خلق رفيعة في أحاديثه معها الى الحدث الدرامي الذي بدأ به تعارفهما.

بحث بافل غفريلوفتش كذلك عن ايغور وتحادث معه. ولكنه أخذ عنه انطباعاً غير حسن. كانت لدى هذا الفتى كبرياء متهيجة أكثر من اللازم. وتحدث ايغور عن نفسه كثيرا حداً جعل بافل غفريلوفتش يقطع عليه الحديث بنبرة آمرة باردة:

- اسمع أيها الفتى. لقد أرسلت بزوغلوفا الى سيبيريا. ونحن هناك ننصب خطاً من أنابيب نقل الغاز، فان شئت فسيكون بوسعك اللحاق بها غداً بالطائرة لان المشرف الاقتصادي ذاهب الى هناك بالذات في ايفاد.

سأل ايغور:

- لكن لماذا غداً بالذات؟ ليس بوسعي تدبير حالي بمثل هذه العجلة.

قال بافل غفريلوفتش:

- لا تستطيع؟... لا داعي اذن الى ذلك.

- من الأفضل تزويدي بعنوان بزوغلوفا.

- بوسعي ذلك. اكتب: الكرة الأرضية. يسلم حين الطلب، الى انسان.

- طلبته بجد!

قاطعه بالويف بفظاظة:

- أنت نفسك لست انساناً ولا جاداً حتى الآن، وعندما تصبح انساناً وجاداً ابعث لي رسالة. ولكن بشرف، عم نعرفه أنا وانت، وعندئذ ساقرر هل أعطيك عنوانها أم لا. وسيكون كل شيء متوقفاً على حججك. - وتركه بعد توديع مقتضب غير ودود.

واخبر بزوغلوفا عن لقائه مع ايغور بايجاز ودون رغبة.

- هذا الفتى كأنما ولد بهذا الوجه الوقور. لم يجرؤ على القيام بتصرف مندفع كالطيران اليك في سيبيريا.

- أي سيبيريا؟ لا يبعد مصنع الكيمياء سوى عشرين كيلومتراً.

أظهر بالويف استغرابه متصنعاً:

- ماذا تقولين! اذن فقد التبس علي الأمر، وبعثت بفتاة أخرى الى سيبيريا بدلا منك. فما العمل؟ هل أبلغه بصدد السهو؟ وأخبره بانك والحال هذه قريبة منه اكثر؟

رجته بزوغلوفا:

- لا داعي الى ذلك.

- لكن عندما سيكون لازما سوف تقولين لي؟ هل تعدين؟

- أعدك.

قال بافل غفريلوفتش ناصحاً:

- هو سيفكر وأنت أيضاً فكري، وفي ساعات الفراغ سأفكر أنا بشأنكما انتما الاثنان. أليس لديك اعتراض على ذلك؟

تلفظت ايزولدا بصوت خافت، وغضت طرفها:

- كما تشاء، لقد بعثت رسالة الى أبي وكتبت له ان أموري على ما يرام.

قال بالويف مسروراً:

- حسنا فعلت. ان أسرة العمل عندنا اكثر الاسر العاملة طليعية في الخط كله . فليعلم ذلك.

قال بافل غفريلوفتش ذات مرة لقرينته ضاحكاً:

– كنت أسير بشارع غوركي في موسكو، واذا أحدهم يطبطب على كتفي. التفت واذا بشيخ عجوز، ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه، قال: «مرحباً يا باشكا». تفرست فيه. كان بمعطف فرو ياقته من فراء القندس، وقبعة على هيئة الفطيرة من الكراكول الرمادي. حدقت فيه متسائلا في نفسي: أي مخلوق هذا؟ أما هو: «ماذا حل بك يا لعين، أنسيت كيف أعرتك سراويلي الزاهية عندما غازلت دوسكا؟» انه كولكا سنيغيريف! وأتطلع نحوه وأفكر: ألسنا من عمر واحد، يا له كم طعن في السن! وقد عرفت أنفه فقط، فلقد كان ضخماً دوما.

– وما الذي يفعله الآن يا ترى؟

– انه يتمتع بشهرة في مجال الالكترونيك. كانت فيوز كهرباء المسكن العام تحترق بسببه دوما. وكان يصنع اجهزة من المهملات. فكنا نجلس بسببه في الظلام بدون كهرباء. وهو الآن مرح مختال، يقول مازحاً: «لقد أتلفت ياباشكا سراويلي تلك فاخلع سراويلك الآن لآخذها تعويضا والا فسوف استنجد برجل المليشيا». دخلنا مطعما وهو يتساءل: «ما عندكم هنا لذوي البهريز؟» فيا للزمن!

– مالك تتحدث عنه بلهجة سيئة كهذه؟

– لان محياه هرم، بينما نحن واياه من مواليد نفس السنة. يا للأسف. فهو من اقراني! ومعنى ذلك ان أبناء جيلنا منتهون مرشحون لاعتزال مسرح العالم!

ولكن اذا ذكرنا الحق فان بافل غفريلوفتش كان في هذا مرائياً. كل ما في الأمر انه ود لو اعترضت زوجته على ذلك وقالت مستنكرة: «ليس هذا بصحيح يا بافل. انت عندي قوي ولا يزال كر السنين عاجزاً عن النيل منك. صحتك قوية كصحة الغطاسين، كل هذا لكونك تعمل في الهواء الطلق».

وبالفعل فان بافل غفريلوفتش يسلك السبيل الأقوم في مشروع البناء. فهو بخفيف الملابس مهما برد الجو، ويحب حسب

الذكرى القديمة ان يبين للجميع انه ماهر في كل صنعة. وحين كان يقف أحياناً جوار عمال التركيبات، لم يكن يقل عنهم مهارة. وكان العمال القدامى يعجبون بهذه السجية في الرئيس، وجلبت له بينهم ثقة عمالية خاصة. أما العمال الشبان فانهم على العكس نظروا اليه بتهكم، واعتبروا ان الرئيس يريد مجرد التقرب اليهم بهذا الاسلوب الساذج.

وعلى وجه العموم كان كل شيء مع العمال الشبان بعيداً عن كونه أمراً بسيطاً. هذه الشبيبة، ومعظم أفرادها من حملة التعليم الثانوي المنتهي، لم تكن في جبهة القتال ولكنها عرفت المصائب والفواجع التي جلبتها الحرب. لقد أفقرت الحرب العوائل البشرية، وخلفت وراءها ذكرى لا تطمس الألم في القلوب، ولكن هذه الحرب نفسها ساعدت على بلورة سجايا هؤلاء الفتيان سواء في الطفولة العسيرة أو برؤية أفظع وأعظم ما يستطيعه الانسان الذي وقف مواجهاً الموت في سبيل الدفاع عن الوطن. هم بمستواهم الثقافي يتميزون كثيراً عن عمال البناء القدامى، بحيث بدوا أناساً جاءوا الى هنا من المستقبل. بيد أن المدرسة لم تسلحهم بالمعارف والمهارات المهنية، فيعانون خلال الأشهر الأولى في العمل بشدة جراء شعورهم بالذل اذ يجدون أنفسهم مضطرين الى التعلم من جديد أمام أنظار الجميع، لكي يكتسبوا لقب العامل. وهم ذوو كبرياء، وحساسية من المس بكرامتهم الشخصية، شعروا بالأهانة لكون تحرقهم الى تكليفهم سريعاً بالعمل المستقل يرفض بابتسامة اشفاق، ولعدم وجود محل هنا للعمل اليدوي. ان المكائن ذات التراكيب المعقدة والادارة الصعبة تعهد فقط الى الميكانيكيين — سواق مكائن الديزل، وهم المحافظون على مهابتهم، الذين يتصرفون حتى مع بالويف نفسه وكأنهم أبطال رياضيون يتحدثون مع مدربهم ملتزمين بواجب التبجيل، غير انهم لدى ذلك حريصون على تأكيد الشعور بانهم هم الذين يحققون المجد الانتاجي لقطاع العمل.

ولكن أكثر ما يقلق بالويف هو ان هؤلاء العمال الشبان الجدد في الوضع الصارم والشاق لن يتخلوا عن تلك الأحلام التي أشعلتها المدرسة بنفس كل واحد منهم بصدد الحياة الساطعة

العريضة والسعي والولع الذي لا يكل بالمعارف. ربما يكون هذا غير نافع لهم بشكل مباشر في العمل، ولكن الانسان بدونه يبدو قليل القدرة روحياً. وكان بافل غفريلوفتش يبتهج فرحاً حين يلاحظ شبانه وقد استطاعوا خلال فترة قصيرة مذهلة اتقان أدارة التكنيك، فيما قدرتهم على التعلم كانت عوناً مثمراً. لكن ما بعث الأسف تلك الخفة التي اكتسب بها تلامذة الأمس الشعور الرصين بسكينة النفس، واحساس الرضا بالمتوصل اليه، وذابوا منصهرين في الجيل القديم من العمال وكأنهم لا يتميزون عن ذلك الجيل بأي شيء من حيث النوعية.

ولم يفوت بافل غفريلوفتش حتى ولا اجتماعاً واحداً من اجتماعات منظمة الكومسمول، وكثيراً ما قصد متفقدا المسكن العام المخصص للشبيبة، وزار كذلك أولئك الفتيان الذين سكنوا في العزب.

أعجبه كثيراً فكتور زايتسيف، وهو مهذب، أنيق، يتحلى بروح عملية، وقد انتخب سكرتيراً لمنظمة الكومسمول في مشروع الانشاء.

ذات مرة تساءل زايتسيف بقلق:

– يا بافل غفريلوفتش هذه الفتاة الجديدة ايزولدا بزوغلوفا غريبة الأطوار. تعتزل الجميع، ورفضت الاقامة في المسكن العام، مستأجرة لنفسها سريراً لدى عائلة...

وقاطعه بالويف بنفاد صبر قائلا:

– فليكن. ان بزوغلوفا ليست بسيطة الشأن، وحياتها ليست عادية. فلتتعود في البداية على الفتيان وتتأقلم. ان روحها الآن أشبه ما تكون بوتر مشدود بقوة ما أن تمس مساً خفيفاً حتى يحدث الألم الشديد. بدوني لا حاجة الى التصرف حيالها بأي شيء. مفهوم؟

وبسبب القلق بشأن الكيفية التي ستكون عليها علاقة السكرتير الكومسمولي مع بزوغلوفا استدعى بالويف مرة أخرى زايتسيف وقال له:

– اسمع يافكتور. تجاذب معها بحذر أطراف الحديث وساعدها في ملء الاستمارة بشكل صحيح.

– وهل هي أمية؟ – قال زايتسيف مستغرباً.
تغضن وجه بالويف مقطباً وقال بحدة:

– حلل الأمر. تبناها شخص وهو بطل الاتحاد السوفييتي. ولقي زوج أمها مصرعه في جبهة القتال، ومن هو والدها؟

– لكنها غير مذنبة في ذلك. فلتكتب في الاستمارة اسم بطل الاتحاد السوفييتي.

– وهل فكرت ملياً لماذا تحمل الاسم الالماني ايزولدا؟

– هذا خطأ و حماقة! أين هي من اسم ايزولدا؟

– ان أمها معتزة بنفسها وقد قررت عدم اخفاء الأمر ولهذا أطلقت عليها هذا الاسم. وهي كذلك قررت حمل هذا الاسم طيلة العمر، ولم تتخل عنه، ولم تستبدله بغيره.

– ولماذا تعذب نفسها بنفسها؟

– هذا صحيح! انها انسان يتعذب.

صرخ زايتسيف بمرارة:

– لكني يا بافل غفريلوفتش لم يكن لدي علم في البداية بهذا، حتى لقد تولد في نفسي انطباع خاطىء عنها. جاءت مدنفشة بعينيها، شفتها ممطوطة، تهنف لكل ما تسمع من كلام. وهي تتصرف بعجرفة متعالية، ثم يظهر ان هذا كله يعود لكونها تتعذب ولكنها لا تريد الاعتراف بذلك.

– صحيح. انها تتعذب. اما قولك بانها لا تريد الاعتراف بذلك فهو مجانب للصواب. وهي تسرد كل شيء عن نفسها رأساً لأول من يصادفها. لم تفعل ذلك مرة واحدة فقط. – وأضاف في الحال على عجل: – بل لنصرف النظر عن هذا. انني لانبهك سلفاً: سوف تتحدث.

واعترف زايتسيف بقوله:

– لقد فعلت ذلك، وتحدثت الي بذلك مباشرة، شأنها مع الجميع لاحظت ان عينيها مضطربتان، طيلة الوقت حتى حين تضحك، وهي تفعل ذلك بقهقهة عالية. سألتها مرة: – «لعلك راغبة في العمل بمكتب الديوان؟» وكان ذلك حين نظرت الى تسريحتها، وكان

شعرها مكورا في لفة ضخمة يمكن احتضانها، جميل اللون حتى كأنه يضيىء، لجلوسها على الارجح مقابل النافذة. وأوردت لها اشارتي الى المكتب الديواني. بيد انها مدت لي كفيها لحد أنفي قائلة: «انظر. هاهي أظافري مزينة بالمانيكور على أنسب ما يكون للعمل في مكتب الديوان». وتطلعت الى كفيها الجاسيين المليئين بتورمات وأخاديد الاصابات.

- عملت من قبل في التلبيس.

- مفهوم، انه عمل يدوي. العامل الذي يشتغل في ظروف المكننة لا تكون كفاه على هذه الهيئة.

- أفهمت ما قلته لك عنها؟ - سأله بالويف وهو لا يزال قلقاً من كون زايتسيف لن يكون بوسعه التغلغل بالعمق الكافي الى كنه فاجعة الفتاة.

قال زايتسيف:

- فهمت ولست أرى في هذا شيئاً خاصاً. - وارتبك ثم أضاف مصححاً: - أعني أن أي أحد لا ينبغي أن يرى في هذا أي شيء خاص. - تباطأ اذ افصح في اضطراب: - والأمر الرئيسي هو انها لابد أن تكف عن سوم نفسها بهذا العذاب. ما اكثر ما فعلت الحرب بالناس! وما شأنها هي بالنسبة لذلك كله؟

- ذلك مايقوله الكثيرون.

- وما النتيجة؟

- ان قول العبارات الصائبة وحده ليس كل شيء في الأمر. بالكلمات وحدها لا تبرأ نفس الانسان.

- وما العمل؟

- أنت تتساءل مني وانا منك. فهل نستمر في التخمينات؟ في رأيي لا داعي الآن لفعل أي شيء. ولكن احاطتها بالعطف واجبة، واننداك يتم التوصل الى ما ينبغي فعله.

- وهل اعترى نفسك ذلك العطف؟

فقال بالويف بائتمان:

- أجل. بل وخالجني الألم الشديد. حين كان يجري اختبار المعبر المائي بالضغط، وتلك مرحلة كبيرة المسئولية كانت واقفة تتحدث مع عاملات العزل، أما أنا فيساورني القلق لا على المعبر

المائي وانما عليها. وبغتة سألت احدى الفتيات حديثات العهد: من، وماذا، ومن أين؟ وهي سرعان ما ترد على السؤال. وأنت تعلم ما هن عليه من حدة الطبع، بوسعهن القيام باي حماقة في حالة الحماوة. – وبعد تأمل استأنف الكلام – لقد تحدثت عن يديها. ولكنهما على هذه الحال ليس جراء العمل. بل هما مصابتان بمرض الاكزما لحالتها العصبية، وهو من العلل المستعصية على العلاج.

واعترض زايتسيف:

– لماذا الاستعصاء في العلاج؟. اذا كانت عصبية فان هذا متوقف علينا جميعا في تهيئة فرص المعالجة لها حتى تصبح يداها نظيفتين من المرض نهائياً.

وقال بالويف:

– اذن سوف أحكم على أعضاء منظمة الكومسمول بدلالة حالة يديها! واعلم ان حكمي سيكون صارماً.

هب زايتسيف واقفا، وشد سترته من المخمل القطني، ذات العديد من السحابات، وقال متطلعاً بنظرات ثابتة الى عيني بالويف:

– أقسم يا بافل غفريلوفتش، لسوف تستعيد ايزولدا عافيتها، وأنا أحلف لك على ذلك بما تشاء.

١٥

زينا بنوتشكينا وكابا بودغورنايا «كوكبان» لامعان. وهما تشتغلان في قسم الاشعة، وكلتاهما فخوران بمهنتهما على حد سواء.

النظائر الذرية المشعة ليست مما يستهان به، والمشتغلون بالاشعة يحبون التحدث بلهجة مبهمة احساساً منهم بالدنو الى مثل هذه القوى الجبارة للطبيعة عن التأثير الفتاك للاشعاعات الذرية.

وهذا يتجلى بشكل خاص في كلام كابا على نحو مؤثر. لها عينان سوداوان كثيبتان مستطيلتان، ويكتنف رأسها اكليل من الضفائر الحالكة اللامعة، وصوتها عميق صدري.

زينا بنوتشكينا بدينة، شقراء، ضحاكة. وصوتها رقيق مواء،

تفسد دوما الجو المأساوي لحديث كابا بملاحظاتها الدالة على خفة التفكير، متميزة بحيوية الطبع والميل الى اختراع المواقف المضحكة حول شخصيتها.

قالت متحدثة باستخفاف:

– كفى مبالغة. ما شأن هذه الذرة! حتى المتعفنات يصدر عنها اشعاع. – وهزت كتفيها المدورتين وأعلنت بحزم: – بما ان الرصاص لا يسمح بمرور الاشعة عبره اذن فالذرة أيضاً عاجزة. وبوسع الناس أن يتحكموا في كل شيء. الاكاديمي السوفييتي المختص بالكيمياء العضوية الرفيق نيسميانوف كتب في الجريدة واعداً: بعد تمكن العلماء من السيطرة على التفاعلات الحرارية النووية سوف يزول عندنا الهم بصدد مصادر الطاقة. سيبقى لدينا فقط هم الحرص على الأخلاق... أما القضايا المادية لدى الناس فانها سوف تحل رأساً ونهائياً. الذرات تستخدم حالياً وقوداً للمراجل في المحطات الكهربائية وفي كاسحة الجليد«لينين» كذلك. – وتنهدت حالمة: – اذا ضجرت من العمل في هذا المشروع سوف انتقل للعمل على متن كاسحة الجليد بصفة بحارة. سوف يقبلونني بلا جدال. ولدي من مدة الخدمة ما يزيد لدى جميع البحارة الذين فهموا منذ أمد غير بعيد بان استخدام الذرات وقوداً سيكون أفضل من استخدام الفحم وأرخص كلفة...

كابا وزينا تستأجران سريرين في عزبة أسرة فلاحية بشرط ان يقدم لهما صاحب الدار أيضاً صريفة الاحطاب. وقد حفرتا ثمة حفرتين عميقتين وحفظتا فيها الصناديق الحاوية على امبولات الكوبالت المشع.

هذه الصناديق من سبائك رصاصية اسطوانية مزودة بحلقات حديدية ملحومة كيفما اتفق، تولج فيها عصا فيتسنى للفتاتين حمل الصناديق الى الشاحنة واحداً فواحداً.

نظمتا في هذا المستودع حجرة للتصوير الفوتوغرافي حيث تقومان بتظهير الصور الملتقطة لدروز اللحام.

لدى كل واحدة منهما كيس من المشمع لحفظ شرائط التصوير التي تلف على ملتقى الأنابيب للحصول على اللقطات.

ولئلا تؤثر التفاعلات الكيمياوية في اتلاف المانيكور وتسويد

الاظافر اشترت الفتاتان قفازات مطاطية للاستعمال أثناء اعداد الافلام.

وفي اليوم الأول من التعارف سأل صاحب العزبة:

– هل تشتغلان بالتصوير الفوتوغرافي؟ ربما تلتقطان لي صورة فوتوغرافية؟

وعندما علم ان هذه الصناديق الرصاصية المدورة تحفظ فيها امبولات النظائر الذرية المشعة علق بارتياح:

– أوخ! حشروا الذرة كالفأر في جحره، ونجحوا في تسخيرها للخدمة. بأي شيء بدأت هذه الذرة؟ حولت الناس الى رماد في هيروشيما! ونحن أجبرنا بنت الكلب هذه على العمل لخير الناس. سلطت القوة على القوة وكما يبدو فان الغلبة في جانبنا. – وقال ناصحاً: – ولكن أيتها الفتاتان كونا منها على حذر. أفلا ينبغي بناء حجرة آجرية لها؟ اذا كان ذلك لازما فقولا بلا تحرج. فنعرض الأمر على رئيس الكولخوز ويعطينا الطابوق ودلوين من السمنت. وهو عالي التفكير. وهو يريد اقامة دفيئات كبيرة تهيأ لها التدفئة من أنبوب غازكم. وسيكون الربح وفيراً من زراعة الخضار فقط على مدار السنة.

ولو ان أصحاب البيت قبل تأجير الغرفة كانوا قد ساوموا بعناد ومهارةٍ لكنهم لدى معرفتهم مهنة الفتاتين امتنعوا بحزم عن تسلم النقود وقالوا بعتاب:

– لا تهينوننا بالنقود. سيكون لبيتنا الشرف بحفظ الذرة فيه، ويأتي الينا الجيران في جولة للتفرج. الكولخوز عين على حسابه حارساً للبيت يرابط عنده حتى مطلع الفجر، ولعله يظل يفكر طيلة الليل في الذرة. يقال انها تستطيع أيضاً التأثير على غلة المحاصيل اذا تلقاها النبات بتعقل...

لكن اللحامين لم يتخذوا موقف التوقير ازاء هاتين المختصتين بالاشعاع. وسموهما بالمستبدتين. ووجهوا اليهما التحية بسخرية:

– تحية الى المخبرتين صاحبتي الضوء. – وكانوا يتذكرون حالمين: – في السابق كانوا يحزون قطعة خط اللحام ويقومون بالاختبار الميكانيكي فقط. مط وضغط وخلاص! أما الآن فان الضوء يسلط باهرا على نفسك ذاتها، ويبحث في كل الجهات

بتفتيش دقيق. - وطالبوا باستنكار هازل: - فليخترعوا لنا كذلك جهاز لحام يعمل على الذرة بحيث يلحم لي في لحظة خاطفة أي شيء كان. لمسة خفيفة فاذا اللحام جاهز!

- يجري الفحص الاشعاعي لعمل ناصبي خط الغاز، العاملين بأجهزة اللحام الاوتوماتيكية بشكل انتقائي. أما لدى العاملين تحت الماء فيفحص بالاشعاع كل درز اللحام للمعبر المائي ويسجل عن كل درز لحام منه محضر للاختبارات المختبرية.

يعترف الناس الكاتبون عادة طائعين بالتفوق العقلي للنقاد، واذا تذمروا فبصمت ومع أنفسهم لا بسبب ضعف السجية وانما لان الناقد بوسعه دوما أن يدير لك انتقاماً علمياً مؤدباً.

تنشأ مشاعر شبيهة بمشاعرنا المرة هذه أيضاً لدى اللحامين المنتقدين حين يكتشف في عملهم نقص لحامهم عن الحد المطلوب من الكفاءة بوجود جسيمات غير متجانسة ومسامية وكل أمثال هذا من العيوب والمثالب.

يوجد في الحزام المشمع للفاحصين بالاشعاع موازين هي صفائح معدنية لقياسات العيب. وبواسطتها يعين حجم وعمق وموضع العيب المكتشف.

وللنقاد كذلك مجموعة من الموازين. انهم «يلصقونك» الى الحائط الضخم فيشعر الأديب «الملصوق» كأنه حشرة مقصوعة، وعندئذ يمكنهم ان يفعلوا به أي شيء يحلو لهم وترويضه كما يريدون، من قبيل تعليمه عبارة فخمة من الألفاظ المتأنقة الدلالة أو الحوار الجاف.

ان المؤلف المتردد هو ألذ غنيمة للناقدين بلا شفقة. وهم سوف يوحون اليه بان المساحة السكنية للأدب والشقة المجاورة لها فيهما الكفاية التامة لوضع مؤلف في موضوع من مواضيع الحياة.

تجمع المختصتين بالاشعاع مع نقاد الأدب صلة قربى، مطلوب منهما المبدئية العالية، وكذلك الأخلاقية العالية مثلها، لان المفضوحين من قبلهما يتعطشون ثأراً وانتقاماً أن يكونوا هم أنفسهم فاضحين.

ان تعلم التسجيل الاشعاعي في الدورات القصيرة ليس كبير التعقيد. ولكن لكي تصبح مسجلا شعاعياً وتحس بانه يتوقف عليك

الى حد ما مصير العمل للألوف من الناس ومنشآت تبلغ قيمتها عشرات الملايين من الروبلات، فان ذلك يتطلب امتلاك ملامح وسمات استقامة الفرسان.

اما كابا وزينا فقد كانتا من الفتيات العاديات جدا، انهتا المدرسة الثانوية، احداهما في مدينة فولوغدا، و هذه مركز اقليمي بشمال الاتحاد السوفييتي، والاخرى في مدينة ريزان المركز الاقليمى بالقسم الاوربي من الاتحاد السوفييتي في السنة ١٩٥٨ نفسها.

يتضمن قطاع الانشاء للأعمال التكنيكية تحت الماء كما ذكرنا اقامة خمسة أو ستة من المعابر المائية الضخمة بنفس الوقت، دون اعتبار نصب المعابر خلال الكثرة الكاثرة من النهيرات الصغيرة.

ويقوم رئيس القطاع بمناورة التوزيع بين الناس والتكنيك. وهو بهذا يشبه قائد فرقة محمولة عصرية حيث تقر المساواة الديمقراطية بين كمية التكنيك وتعداد الأشخاص الذين يتولون ادارته.

تملك الآليات العصرية الجبارة ذات التحرك الذاتي تعالي المترفين. ولا يمكن حملها على السياحات التنقلية. وهي توضع بتوقير بواسطة الرافعات على قواعد معدنية ضخمة للجرارة القاطرة التي تشبه قوائمها أطراف جهاز الدلفنة العملاق.

وهكذا تتنقل الأرتال المحمولة لاعمال البناء بسرعة قطار السكك الحديد واذا صادفتها في الطريق لدى اجتيازها الامكنة عقبات هبطت الجرافات من قواعدها وعبدت لها درباً بسكاكينها الفولاذية.

وأنا على يقين عميق بانه لو شاهد مارشال قوات الدبابات أعمال الرتل الميكانيكي المحمول للبناء لشعر بالحيرة العميقة جراء الدقة المتناهية لانتشارها رأساً من حركة المسيرة الى مهاجمة الموانع الأرضية الصلبة فهي تهجم على هذه الحواجز لا في البر فحسب وانما أيضاً تحت الماء، ومن يدري فلعل المارشال حتى سيشعر بالاسى حين يتأمل مفكراً في حاجات الانسان السلمية الى القوة الاسطورية لتكنيكه الرهيب المركون. اذ كان بوسعه كذلك

بأتباعه وتكنيكه أن يصبح بانياً مدنياً مثلا لسد في مضيق بيرنغوف لتدفئة الكرة الأرضية وقمتها القطبية بالتيار الحراري لغولفستريم.

لكن مع الأسف فان الكثرة الكاثرة من الاجتماعات على أوطأ مستوى بشري لحلف الناتو والسياتو وغيرها من الأحلاف العسكرية المتآمرة ضد السلم تعرقل تحقيق أحلام مارشالاتنا باعادة تخصصهم الى البناة السلميين للمنشآت التعاونية الدولية الكوكبية الضخمة. ولا يزال متعيناً عليهم الاكتفاء بوعي فخور وحيد بانهم يخدمون السلم باعتبارهم حملة دروع لايقهرون.

كان عمل زينا بنوتشكينا وكابا بودغورنايا مصحوباً لا بالمصاعب الأخلاقية فحسب بأن تكونا من «النقاد» لجهد مئات الأشخاص، بل وبمصاعب من نوع آخر فان حياتهما جرت في تنقل، اذ ان هناك مئات الكيلومترات تفصل معبراً مائياً عن الآخر. وحتى يتم انجاز الفحص الشعاعي لخط لحام المعبر المائي لا يجوز البدء في أعمال العزل، وكذا نصب الأنابيب في الخندق.

فيأيام معينة تصبح المسجلتان الشعاعيتان الشخصيتين الرئيسيتين في مشروع البناء.

كانت كابا بودغورنايا موافقة تماماً على تأكيد بوسونوغوف بان الانسان صاحب السجية الرديئة لا يسعه مطلقاً أن يغدو لحاماً جيداً. ولكنها أدخلت على هذا التأكيد تعديلها بان السجايا لا تولد مع الانسان، وانما سجية الانسان تصاغ وتتكون. وينبغي فقط لهذا انتقاء مثل أعلى.

كانت أحكام كابا وزينا على الناس مختلفة.

رسمت كابا لنفسها مثلا أعلى للانسان، وتمسكت به بقوة، وقد صاغت هذا المثل الأعلى من عدة عناصر.

المهارة الأنيقة لدى بوريس شباكوفسكي، زائداً الحماس الملهم لدى فاسيلي مارتشنكو، ممزوجاً بشخصية بوسونوغوف الجذابة – كل هذا مجتمعاً أثار في نفسها حتى الشغف. ولكنها اتخذت حيال كل واحدة من هذه الشخصيات موقف التباعد الانتقادي. وكانت تستطيع بمنطق لا يدحض البرهنة لجميع هؤلاء اللحامين

الثلاثة على ان العيوب المكتشفة في عملهم ليست فقط حصيلة الهفوات التكنيكية بل ان سببها أيضاً هو عدم الكمال الخلقي

ولم تستطع زينا التغلب على الموقف الذاتي ازاء الناس. كان يعجبها كل من كانت تعجبه. ولم تكن زينا قادرة على تعليم الناس حين كانت تكتشف العيب في عملهم. وصرفت كل طاقتها النفسية في الاعراب عن تعزيتها «للمنكوب». وسرعان ما كانت تشغف به لا لكون هذا الشخص قد أعجبها اكثر من الآخرين بل لأنه أصبح ممتنا على الشعور الذي أبدته نحوه، وبدا لها انهما قريبان روحياً الى بعضهما البعض. وكانت تشرح الأمر لكابا بدهشة اعجاب:

– أتعرفين يا كابكا ان جميع هؤلاء الفتيان يصبحون عند التألم لطيفين حتى ليتعذر القول أيهم أفضل من الآخر.

سألت كابا بارتياب:

– حتى شباكوفسكي؟ انه ليس بانسان بل هو جامد متعجرف.

تلقت كابا بودغورنايا دروساً في صنعة اللحام على يد بوسونوغوف لكي تكون قادرة على المجادلة مع اللحامين بعد التسلح بكل دقائق مهنتهم.

وأصبح باستطاعتها ان تغدو لحامة وتكسب أكثر بكثير من عملها كمسجلة اشعاعية. ولكنها فضلت وضع اللحامة المتوسطة على سمعة احدى أفضل المسجلات الاشعاعية، التي باستطاعتها عند الضرورة. تناول لحام الغاز، ونفخه على درز اللحام لكي تقنع اللحام رؤية العين وتبين العيب في عمله على الطبيعة.

ولقد كسبت لنفسها السمعة الموقرة، لا عن طريق الالمام بجوانب صنعة اللحام ولا حتى بالمهارة غير المشكوك فيها بالتقاط الصور لملتقى الأنابيب. انها جعلت نفسها جديرة بالحق الرفيع في كشف معايب الآخرين بالسلوك النزيه في كل معيشتها بالمشروع.

قالت لها زينا لائمة:

– انك يا كابا لست انساناً بل صيغة. انتبهي الى نفسك لئلا يعتريك الذبول والعنوس.

بأمثال هذه العبارات القاسية حاولت زينا حملها على الذهاب الأمسيات.

كانت كابا تجيب بازدراء، والبريق يشع في عينيها الكحيلتين ...لونتين بغضب:

– لكني لا أريد تخطي العلاقات الرسمية مع اتباعي اللحامين.

– ولكن الحاضرين في تلك الأمسيات ليسوا اللحامين وحدهم بل معهم الغطاسون كذلك. وما أدراك ما الغطاسون؟! قاماتهم شبيهة بقامات أبطال العالم الرياضيين، ويكسبون اكثر من المهندسين.

– ليس لي معهم موضوع للحديث. بوبنوف وحده عليم باللحام تحت الماء، ولكنه متأهل ورب أسرة منذ ما قبل الثورة تقريباً.

– لا تحسبي ان الأمسية حلقة تدريبية لرفع مستوى التخصص.

– قاطعتها زينا بقولها هذا ثم أخبرتها بمكر: – سيكون هناك بوركا شباكوفسكي. وهو يعجبك. وأنا ألاحظ كيف تخفق رموش عينيك له عندما تفحصين دروز لحامه وتصبغين من أجله شفتيك بأحمر الشفاه.

وقالت كابا بهدوء وسكينة:

– هذا لاني معجبة به.

– وهل هو لك من كواكب الاوبرا مثل كوزلوفسكي ونيميشيف؟

– بمثابة ذلك.

وأعلنت بنوتشكينا بحزم:

– اذن سأقول له اليوم بنفسي انك مشغوفة به حباً. ينبغي ايضاح الأمر رأساً ما دام ذلك سيؤثر على نفسيتك.

ابتسمت بودغورنايا بحزن واستسلام وقالت بلطف:

– وهل أنا حمقاء حتى أقع في هوى رجل كهذا؟ انه متغطرس، يتصور نفسه فوق الجميع. وهو يحب الاطراء عليه. فاذا قلت له ان درز اللحام الأساسي عنده ليس كاملا سلط عليك حالا نظرات حداذا من فوق لتحت كما ينظر المرء الى حشرة.

– اذن فانت ممتنعة عن الاعتراف له بسبب الكبرياء فقط؟

– كلا بل لمجرد ان مثلي الأعلى أفضل بمائة مرة.
– اذن فثمة رفيق معين؟ – استفهمت بنوتشكينا بروح عملية.
– أجل.
وبعد معانقتها صديقتها وتطلعها في وجهها بتفرس، استفسرت منها زينا:
– هيا قولي من هو؟
خفقت عينا بودغورنايا بأسى. ونحت عنها بنوتشكينا متلفظة ببطء واحتراس وبشيء من التردد، وكأنها ليست واثقة جدا:
– القضية هي انني أريد في البداية ان أعجب نفسي وأحوز احترامها غير المشكوك فيه. وحين أشعر بهذا في نفسي سأقف عندئذ حسب بجوار من سيغدو لي هو الأفضل وطيلة العمر.
وافقت بنوتشكينا:
– هذا هو الحق، لا داعي لقذف النفس قذفا. أتعرفين كم يحترم الفتيان الآن الفتيات ذوات المستوى الأخلاقي الرفيع؟ قال فيتكا زايتسيف: مطروحة أمامنا حالياً مهمة عاجلة هي ان نربي في أنفسنا سمات انسان المستقبل.
– وكيف تتصورين ذلك الانسان؟
هزت زينا كتفيها الممتلئتين.
– أما أنا فيعجبني الناس الحاليون. وأنا مثلا اؤكد دوما لفيتكا زايتسيف كم هو يعجبني اعجاباً قوياً. أما هو فبدلا من كل شيء آخر يوجه لي الانتقاد على طريقة تصفيف شعري. ولكن هل أنا مذنبة اذا كانت هذه التسريحة تناسبني؟ – وتلفظت في تأمل.
– بالطبع لو أنه قال لي بشكل محدد: «احلقي شعرك بالماكنة كدليل على كوني اعجبك» فلعلي على استعداد للاقدام على هذه التضحية، ولسوف أحلق شعر رأسي دون تردد. وسوف أعصب رأسي بمنديل حتى ينمو شعري مجددا. ولكنه لا يطالبني بأي شيء! أما فاسيا مارتشنكو فهو على نحو مغاير تماماً. انه يقول «ان الضفائر ستكون ملائمة لوجهك. الضفائر فيها انوثة بالغة». اذا كان الانسان يطلب راجياً بهذا الشكل فعلى الرحب والسعة سوف انمي الضفائر.

– وهل سواء لديك زايتسيف أو مارتشنكو؟

قالت بنوتشكينا بحسرة:

– انني أريد ان أكون زوجة لدى ذلك الذي سيحبني اكثر مما سوف أحبه. لكي أستطيع بعد هذا أن أحبه بكل قواي. – وأضافت بحزن، – ولكن الأمر عندي حتى الآن يحصل بالعكس. بيد اني أعتبر على أي حال ان الحب يجب أن يكون مقابل الحب نحوك، وليس لأي شيء آخر.

– اذن فقد فكرت في كل شيء.

– انني لا أفكر في أي شيء بهذا الصدد. – وقد استاءت بنوتشكينا لسبب ما. – انني أتعذب، هذا صحيح ولكني لا أفكر وانما أحلم فقط. بالطبع أحاول شأن الجميع ان أحلم على أصح وجه مع اعتبار كافة نواقصي. انني لست جدية فينبغي أن يكون زوجي جدياً مثل بوريا شباكوفسكي. وعندئذ يتحقق عندنا الانسجام. ولكن شباكوفسكي لا يعجبني ولا قطرة واحدة. – وفجأة أعلنت بقلق: – أما مارتشنكو فهل تعرفين لماذا يعجبني بفظاعة؟ انه مرح وجريىء ولا يبالي بأي شيء! خرجنا ذات مرة من الاجتماع وكان الجليد صقيلا وشفافا وكأنه من اللدائن. وأخذت أركض فوقه وهو يتهشم تحت أقدامي. وبلغني فاسيا طامساً في الجليد حد الحزام، وحملني على يديه وأوصلني الى الشاطىء وهمس في أذني... ولكن هذا الذي قاله لي هو سر بيننا. وحين كان يحملني على يديه نفث أنفاسه على وجهي بمنتهى الرقة والحنو، ومست شفتاه ليس الا خدي برفق دون أن يقبلني.

– ولكن ما الذي قاله لك حينئذ؟

– ليس هذا مهماً. دعاني «حمقاء» جزافاً. ولكني فهمت من عينيه انه يكن لي تقديراً عالياً. لقد أعجبته بسبب اندفاعي لانه هو نفسه مندفع حد الاستماتة. احترق في المختبر صندوق يحتوي على أفلام، فخطف الصندوق المحترق اللاهب وحمله الى الشارع مشيحاً بوجهه عن لهيب النار، ماداً ذراعيه بالصندوق بعيداً عنه بينما كان ممكناً أن تنفجر الأفلام في أي لحظة! ياله من جسور! وفيما بعد دهنت له يديه بالمعاجين مفرغة العلبة حتى

آخرها، وهو معجون لازالة النمش ولم أخش أن أبقى بعد ذلك دون حماية من النمش.

– لا بأس في ذلك، ويلمان سيقصد المدينة فاطلبي منه أن يشتري لك علبة جديدة.

– واذا نسي؟ يجب استخدام هذا المعجون بانتظام. قد يكون مارتشنكو ممن ينفرون من النمشاء، فيا ويلي اذا انتشرت على بشرتي. حين يتمعن أحد وجهي يعتريني الارتباك الشديد ويخيل الي في أمثال هذه اللحظات انه يعد مقدار النمش في صفحة وجهي. ولست أدري لماذا يعتبر الناس ان النمش أمر يبعث على الضحك، وما هو أصلا من المضحكات. ان الشخص المتهيب لا مهرب له من المتاعب والهموم...

١٦

شاقة حياة الترحل والانتقال. تكيفت لها بودغورنايا وبنوتشكينا كلا على طريقتها.

ترتدي كابا عند الانتقال الى موقع جديد للعمل بدلة قديمة من بدلات التزلج. وتملأ كيساً من المشمع ذا أحزمة ظهرية بالكتب وتمضي به.

وكانت زينا ترتدي أيضاً بدلة تزلج. ولكنها تحمل حقيبة، بدلا من الكيس فيها فستان للحفلات ورداء أزرق اللون، و أحذية أنيقة حديثة ومرآة كبيرة ملفوفة تلافيا للكسر بالملابس الداخلية. فيما وضعت الترموس معززاً بالشاي، وعلب المحفوظات، والطعام في الطناجير في سلة كبيرة، وكذا الصابون وليفة الغسل وقطع السبرتو الجاف.

تعتقد زينا ان طعاماً يابساً يفسد لون بشرة الوجه فكانت تحضر لنفسها دوما في الليل قبل السفر طعاما مطبوخا يكفي ليومين، تسخنه في الطريق على نار السبرتو الجاف.

وعندما كانت كابا تسافر وحدها تكتفي بالخبز مع الشحم. ولم يكن ليمنعها أحد طوال الطريق من مواصلة المطالعة التي

تستغرق فيها غافلة مرور الزمن. ولهذا فانها حين تسافر صحبة زينا يخيل اليها ان الطريق تصبح أطول لسبب ما. وما ان تجلس زينا في السيارة حتى تبدأ بالثرثرة دون كلل. واذا غضبت كابا جراء هذا أجابتها دون استياء:

– بوسعك عدم الاستماع الى كلامي. فانني انما أسلي نفسي، التفكير لا يطيب لي في صمت. حينما يفكر المرء صامتاً تخطر على باله دوما لسبب ما خواطر باعثة على الحزن. وقد لاحظت ان جميع الناس الصموتين يصبحون حتما متشائمين. وأنا على يقين من انني سوف اكون سعيدة لا محالة في وقت من الاوقات.

– وهل أنت الآن شقية؟

قالت زينا بعتاب:

– لست قلقة بشأن نفسي، أنت مثلا بلا افق أصلا، بل حتى لا تأخذين معك فستاناً جديداً في رحلة الايفاد. فماذا لو قابلت بغتة انساناً من طراز خاص؟ ليس لك من الثياب ما تقابلينه به!

– وعدت برحابة نفس. – بالطبع في هذه الحالة سوف أعيرك فستاني الأزرق. ولكنه لا يبدي قوامك كما ينبغي، فهو واسع عليك جداً.

ولامت بودغورنايا صديقتها زينا: – مالرأسك لايملؤه الا الشيء نفسه؟

والتصقت زينا بكابا ونظرت في عينيها بحنو قائلة:

– ولكنني أتحدث عن هذا كله عمداً فقط. اذا حدث هذا لك أو لي بشكل حقيقي... فهل يمكن حينئذ أن يكون الأمر موضع دعابة، آن يبدأ تقرير مصير العمر كله؟..

وكثيراً مايحدث حين تتوقف السيارة دون حراك في الوحل بدرب ريفي، أو طامسة في ثلج بلا قرار خلال فترة الشتاء أن يتعين عليهما المبيت والسائق ثالثهما في قمرة الشاحنة. ثم يتوجب بعد ذلك حمل الصناديق الرصاصية معلقة بقضيب الى أقرب موضع مأهول، وطلب عربة بحصان للوصول الى المعبر المائي، حيث يكون بانتظارهما مئات الأشخاص.

قبل ارسال المسجلتين بالاشعاع الى أحد مواقع العمل كان

بالويف يستدعيهما الى مكتب الادارة. ولكنه كان يتجاذب أطراف الحديث مع كل واحدة منهما على حدة. تطلع بالويف، ممعناً في التفكير، الى شعر بنوتشكينا الأشقر الأجعد والى قرطين من النحاس الأصفر على اذنيها المتوردتين السمينتين، وسألها موبخاً:
– ماهذا القلق الكبير على مظهرك الخارجي؟ وهذا القرطان الصارخان.
– عم تكلمت يا بافل غفريلوفتش؟ – استفسرت بنوتشكينا بسذاجة مصطنعة.
– ما معنى «عم تكلمت»؟
– أقصد، هل يصرخ قرطاي هذان بأي شيء؟
وأخذ بالويف يوحي اليها ملقنا:
– افهمي. قد تقعين في الخطأ مع أحد ما فتفسدين حياتك.
وقالت بنوتشكينا باستنكار:
– لم تتحدث معي كأنني ابنتك؟ وأخذت علي عهداً لدى قبولي في العمل بالتشاور معك حول أموري الشخصية. ان هذا لمزعج. ما ذنبي اذا كان مظهري خداعاً لهذا الحد، يوحي بانني خفيفة السلوك.
– وأنت تزيدين هذا تأكيداً بالتسريحة والأقراط.
– اذا وجهت الي أمراً رسمياً بهذا الصدد فانني لا أمانع في خلع القرطين ولف رأسي بعصبة. ولكن لن يكون من الصواب ان يتدخل رئيس المشروع الانشائي في أمثال هذه الأمور.
– ولماذا ليس من الصواب؟ – ثم اعترف متنهداً: – انني أرى فيك يا زينائيدا نفسي أيضاً. قبل ثلاثين عاماً كنت كذلك بهذا الشكل. كنت أعتقد بانكل شيء بسيط وواضح. أفهل تعرفين كم من رفاقي حطموا حياتهم بمثل هذا الموقف ازاء الحياة الشخصية؟
قالت بنوتشكينا هازة كتفيها:
– لست أدري ما الشيء الملموس الذي تشير اليه تلميحاً؟
– ليس في نيتي التلميح الى أي شيء. انني أقول صراحة: صوني في نفسك كرامة الانثى. افهمي انني أود أن تكونوا جميعاً أيها الشباب أفضل منا ومما كنا عليه. – وأعلن مبتسما بحماس:

– انني كرئيس للعمل أعتبر ان الانسان الطيب هو عامل جيد اما الانسان الرديء فهو عامل سيىء. وكلما كثرعندنا الاناس الطيبون أصبحت الحياة أفضل. مفهوم؟

– ولكنني موافقة على أن أكون طيبة! ولا داعي بالمرة الى حثي على ذلك. ولكن من الصعب جعلي شبيهة بشخصية رحمتوف الثوري المتميز بالارادة القوية فوق المألوف في رواية تشرنشيفسكي «ما العمل». كابا تعتبره النموذج الادبي الجدير بالتقليد. أما أنا فأفكر بيني وبين نفسي بانني لا ينبغي أن اتظاهر بمحاكاة أي أحد كان.

– لا حاجة الى التظاهر ولكن ينبغي على المرء دوما ان يحلم في نفسه بأنه حسن.

واستفسرت زينا بدلال:

– وأنت كذلك تحلم في نفسك؟

وافق بالويف بحيوية:

– وكيف لا؟ أحلم وكأنني انسان حسن. ولهذا يجب أن يكون جميع الفتيان في مشروع البناء على هذا النحو حتما، طيبين بشكل خاص.

وافقت زينا:

– حسناً، سوف أحلم وهذا ليس من صعاب الأمور مطلقاً.

ولدى خروجها من المكتب خلعت القرطين من اذنيها بغضب، وحشرت بشدة شعرها الأشقر الأشعث بشكل جميل في منديل الشعر.

وقال بالويف ملاحظا بصرامة لكابا بودغورنايا:

– أما أنت فاسمعي: لا يجوز التحدث مع كل لحام بنبرة المدعي العام. ثم ما لك تخشين على خديك من التكرمش؟ تكرمي على الناس بابتسامة! على الأقل علامة عن حسن الطوية! اجعلي الانسان يقبل عليك في ثقة. ان درز اللحام السيىء يحصل ليس فقط بسبب مخالفة أصول التكنولوجيا، بل حتى بسبب تشاجر اللحام مع زوجته مثلا، ذلك يظهر جليا في درزه، فهو مهزوز مرجرج. أنت تشرحين له ما في عمله من حركة غير متزنة للالكترود، أما هو

فيفكر في وسيلة لمصالحة زوجته. اعلمي اذن ان تنفيذ الخطة الانتاجية يبدأ من الحياة المعاشية والحالة المنزلية. فكيف يكون بوسعك جذب اهتمام اللحام ان لم يكن معك حتى فستان؟ فانت تجلسين هكذا مرتدية بدلة التزحلق الرياضية المبقعة بالزيوت خلف الخوان تحتسين الشاي مع الناس، بم تجيبين اذا سألوك عن هذا؟ – ثمقال بسخط وبنبرة الآمر: – دعي الخوف عنك من كونك حسناء! ان الجمال يوجه الانسان نحو كرم الخلق والنبل. انه ينظر اليك ثم الى درز اللحام ويرى التناقض الصارخ، فتتولد في نفسه الرغبة في لحم الدرز بشكل جميل... ثم اسمعي. – وقال بالويف بشيء من التحرج – لاتخافي أن تعجبي الفتيان، دعيهم يقولون انك تعجبينهم. اسمعي وانظري بعناية لتعرفي ايهم أفضل الجميع واعقدي معه بالذات عرى الود... مدى العمر كله.

وسألت كابا بصوت مرتجف:

– يظهر انك تريد ان تجعلني اتزوج هنا؟

ووافق بالويف برحابة صدر قائلا:

– كيف لا. بالتأكيد! العامل الجيد ينبغي تثبيته. والا فما الذي يحدث: أنهيت الدراسة في الدورة عندنا وتعهدناك بالتربية ثم يظهر بغتة «بطل» ما من احدى الجهات ويأخذك معه في اتجاه مجهول. وأنت فتاة جادة وذكية وبوسعك انتقاء فتى لنفسك لا يخلو حتى من نواقص، ثم تتولين بنفسك بعدئذ تكميل تربيته. وهاهي صاحبتك زينائيدا، انها نسخة مغايرة بالمرة. راقبيها كشقيقة كبرى.

– ولكنني لست أكبر بل أصغر منها بنصف سنة!

قال ناصحاً:

– ثمة اناس يظلون مراهقين حتى وقد بلغوا الخمسين. كوني أكثر رقة في عباراتك. قد تطلقين عبثاً كلمة «سيىء العمل» بينما هي تعبير قاتل. من أسهل الأمور انزال العقاب. ولكن الأهم: عدم جعل الأمور تتطور الى هذا الحد، هذا متعب بالطبع ولكنه ممتع، لانه يجعلك تشعرين كأنك انقذت انساناً.

– ولكن يقال انك كنت بالغ الصرامة.

قال بالويف منزعجاً:

– ما معنى: كنت؟ انا كذلك الآن أيضاً!
– اذن فقد كنت دوما على هذا النحو؟
– لماذا؟ كل شيء ينمو ويتغير. وأنا مثلا صغت لنفسي كمشرف اقتصادي هذه الحكمة: أبحث في الانسان قبل كل شيء عن أحسن ما فيه وليس عن الأسوأ، فاذا وجدته فشدد عليه وجد في استغلاله لصالح الدولة.
وسألت بودغورنايا بهمس مغضة طرفها:
– وهل وجدت في شيئاً ما حسناً؟
ورد بالويف بمرح:
– وكيف لا! ان أحسن ما وجدته فيك هو انك تبحثين في نفسك عن خير ما فيها. اما غير الحسن في نفسك فهو انك حتى الآن قليلا ما تبحثين عن الحسن في نفوس الآخرين.
– سوف أجتهد في ذلك يا بافل غفريلوفتش.
– أعرف هذا. – قال بالويف بمرح، ثم حذر من جديد بلهجة صارمة قائلا: – اذن فتذكري انك قد وضعت في منصب مهمتك فيه فضح عيوب الناس في عملهم. ولكن ليس كل واحد منا قد نمت نفسه بحيث يملأ منصبه. اذن ينبغي الارتفاع الى الحد المطلوب. وعندئذ سوف يطلبون منك حتى ارشادهم في كل خط حياتهم، وليس وفق سلم الوظيفة فقط، ومن هو الذي فوق الآخر في المقام...
وبعد أمثال هذه الأحاديث أخذت بودغورنايا، عند التهيؤ للسفر، تضع في كيس سفرها فستان الخروج. ولاحظت ذلك بنوتشكينا فصرخت بلهجة انتصار:
– أها... وقعت في لجة الغرام! اذن فقد أحببت كذلك أحداً ما؟
قالت كابا: – أجل انني عاشقة بالذات.
– فقولي لي كابوتشكا يا عزيزتي من الذي تحبين؟
– ان اردت معرفته فهو بالويف!
– ماذا تقولين! – قالت زينا مفزوعة، حتى لقد شحب وجهها، وبرز حالا كل نمشها. – انه متزوج وله أطفال! ما أفظع ما قد يحدث! – وفرقعت أصابع يديها الممتلئتين القصيرتين، وصرخت بفزع مر: – وأنا التي كنت أعتبرك أفضل مني!

عانقت كابيتولينا صديقتها وهمست في اذنها:

— يا حمقاء لقد كنت أمزح. انني مغرمة به على نحو مغاير تماما.

أصرت بنوتشكينا بغضب: — على أي حال هذا لا يجوز ما دام الشخص متزوجاً. لايجوز أبداً. كان عندنا في المدرسة مدرس التربية البدنية، ضابط أصيب في الحرب بجراح. وقد كتبت له رسالة باعتباره بطلا ليس الا. ولكنه عزرني أشد مما فعل اونيغن*. لا تظني انني لا أفقه الحياة. انني أتذكر جميع أخطائي فيها. وأحذرك بكل بساطة: اياك ان تفعلي!

لكن بال بنوتشكينا لم يهدأ بهذا. وجمعت بشكل ما معلومات عن سيرة بالويف، وأخبرت بودغورنايا كما لوكان ذلك بصورة عرضية:

— اما رئيسنا فانه ينافق أمام زوجته. ارسلت ذات مرة الى موسكو لغرض التصليح مضخات الغطاسين فأرسل معها باقة زهور اليها. في مثل هذه الأحوال يرسل الآخرون سمكاً طازجاً،اما هو فيرسل الزهور، فهي عالمة. أما هو فليس غير مطبق عملي لم يكمل تحصيله العلمي.

وذات مرة اخرى قالت بغير اعتناء:

— بالويف يربينا طول الوقت بينما ابنته جاءت الى الشقة تقود معها فتى وقالت لوالديها: «تعرفوا على زوجي». ليس بوسعه ضبط النظام اللازم داخل بيته، بينما يعتبرنا هنا ملزمين بطاعته على نحو الاتباع. وميكانيكي الخط سيفولوبوف، الذي كان صديقاً له في جبهة القتال، أتدرين كيف عرضه للمذلة حين عين له الركن السكني؟ جاء سيفولوبوف الى مكتب الادارة مع كرينكينا معلنين زواجهما، فاذا بيافل غفريلوفتش يقول: «طيب. سأسعى لتخصيص شقة لكما. ولكن الأمر الاداري بمنحها لكما سيكون باسم كرينكينا». وهي تعمل عندنا في الانتاج أقل من سنة واحدة. وبالطبع أحس الميكانيكي بالحرج. اما بالويف فقال له بشكل بعيد عن اللياقة: «لقد تزوجت مرة بشكل غير صحيح فانعدمت الثقة فيك. ولهذا

---

* شخصية من رائعة بوشكين الشهيرة «يفغيني اونيغن». **الناشر**

أسجلك في مسكن يعود الى زوجتك». انه شخص فظ الطبع الى أبعد حد، غير ملتزم بأصول اللياقة. فهل يجوز معاملة الناس كما فعل؟

– ولكن ماذا كان جواب سيفولوبوف؟

– ظهر انه شخص مجرد بالمرة من الشعور بالكرامة فأخذ يعتذر مجدداً الى كرينكينا عما ارتكب في حياته من هفوات. وحتى وجه الشكر الى بالويف على التحذير الصارم. اما مع بزوغلوفا فان بافل غفريلوفتش يتصرف وكأنها ليست من البشر بل هي زهرة ما من نوع خاص. ايزولدا حتى بدونه محترمة من قبل الجميع. وانا بنفسي كنت البادئة بمحاولة عقد أواصر الصداقة معها، ولكنها أعرضت عن ذلك.

سألت بودغورنايا وقد برقت عيناها السوداوان البنفسجيتان بغضب:

– وعم تحدثت معها؟

قاطعتها بنوتشكينا: – لا تنفعلي من فضلك، ولا تحدقي في بعينيك ولا تكشري في وجهي. أنا نفسي مثل الجميع مرهفة الاحساس. تصورت أن سوف يضاف لدينا سرير ثالث فأخذت اتبجح بان عمل المسجلات بالاشعاع نظيف والراتب كبير.

– وماذا قلت أيضاً؟

– عنك فقط. قلت انك خير صديقة عندي، والصداقة معك مبعث ارتياح وانها تعجبك اكثر مني.

– اذن تنازلت لها عن صديقتك؟

– كيف لا! انا أيضاً مستعدة للتضحية، فليس من الجائز ان يشعر المرء بانه وحيد فريد.

– وأنت، ألا تشعرين مطلقا بوحشة الوحدة؟

وقالت بنوتشكينا مبتسمة برفق: – ماذا تقولين يا كابوتشكا! ما اكثر الناس الطيبين عندنا! وهل انا غبية حتى أتنحى عنهم على حين غرة جانباً! ان الجميع يبتسمون لي، وأنا أبتسم لهم كذلك. وهل يمكن في وضع كهذا الشعور بوحشة الوحدة؟ وحتى لو أردت ذلك فانه لايحصل على أية حال.

ولكن مهما حاولت بودغورنايا اتباع نصائح بالويف وتبسيط علاقاتها مع اللحامين لم يتحقق لها ذلك بشكل حسن.

وفي كل مرة كانت تشرع فيها بفحص درز اللحام بالشعاع كان فاسيلي مارتشنكو يتصنع بانه من المغفلين الفارغين ويصرخ:

– تحية لحاملة الضوء! – ويتصنع من حركات الترحيب ما يضحك، وينحني متظاهراً على سبيل الهزء انه يكنس الأرض تحت قدميها، ويقول: – هاتي قدرك لو سمحت!

ويتناول الصندوق الرصاصي ويحمله الى الأنبوب. ويقول في لهجة مهيبة:

– أحلف اليمين على ان كافة الدروز لا شائبة فيها، شأنها شأني أنا شخصياً. أنت لا تصدقين كلامي وتريدين التحقق بالفحص؟ أحذرك، لا أصبر على التصرف غير الشريف، فاطلقي النار على صدغي بخيارة مخللة! – ويتساءل بمداهنة: – مالك هكذا يا كابوتشكا مركزة الانتباه! أتعبتك الوحدة؟ ان شئت استطعت بدافع طيبة النفس أن أتزوجك! فأقدم لك زوجاً من الايدي وفلقة من القلب ولقب زوجة لحام من الدرجة السابعة!

– كف عن المضايقة! – قالت بودغورنايا وهي تبتعد عنه بغضب.

وتضاحك مارتشنكو قائلا: – لا أضايق بل أبدي الخضوع.

ونصحته بودغورنايا بحدة: – احتفظ بمرحك. سأفحص درز اللحام بالشعاع، وعندها ماذا سيكون عندك من القول؟

– ولكن عضلات وجهي قوية للغاية. ولدي القدرة على ستر أية حالة نفسية. انظري: هو هو! انني أضحك بينما لا شيء في نفسي الآن سوى الحزن والقنوط.

وفيما عكفت بودغورنايا على فحص درز اللحام بالشعاع لم يبتعد مارتشنكو عنها. وكان يمد رقبته الطويلة كما يفعل الوز مراقباً كل حركة من حركاتها. وقال مازحا:

– أنا انسان طيب النفس ولا تساورني الظنون عن كل واحد بانه أهل لفعل العمل السيىء. أما أنت فلا تبحثين في الناس الا عن الرذالات، جعلت من نفسك منقبة في سجايا الناس، ورحت تتشامخين.

عرا الشحوب أنف كابا وخديها فرط الاحساس بالاساءة. فتلفظت بصوت معدني الرنين:

– مرة اخرى! انظر: هذه شروخ في اللحام. انك تشتغل بقوة تيار عالية، ولقد سبق لي في المرة الماضية تنبيهك.

قال مارتشنكو متساخراً:

– أزجو العفو والمغفرة فلقد غفلت ذاكرتي عن حفظ عبارتك وكل ما بقي في الحافظة هو عيونك الساحرة الساخطة المازوتية. – وهنا عجز عن المتابعة بتلك اللهجة فتلفظ بقنوط: – وماذا اذا كنت أسعى في نفس الوقت من أجل سرعة اللحام خلافاً لتأنقات شباكوفسكي الفنية؟! فهل بوسعك ادراك هذا.

– وجودة العمل؟

– انني ألتزم بقواعد النسق الرسمي القياسية.

فرجته بودغورنايا:

– مالك تقف بجنبي كحارس؟ اذهب واشتغل.

– لكنني بسببك أفقد الثقة بنفسي. ليس بوسعي لحام دروز جديدة طالما لم تفحصي بعد بالشعاع الدروز القديمة. وهكذا وضع جميع الفتيان. انك تؤثرين على أعصابنا.

– أنتم جبناء.

– اسمعي، يا أنت! ما تقولك هذا علينا؟ – ودنا اليها مارتشنكو مهدداً وقطب حتى استوى حاجباه الحالكان على خط نقرة أنفه. وبغتة أعلن قائلا في استهانة: – كفى لا وقت عندي لصرفه معك. أنت باردة في التعامل مع الناس.

وابتعد دون ان يلتفت نحوها مودعاً بنظرة كئيبة قلقة من بودغورنايا.

أجل كان الأمر صعباً عليها في العلاقات مع اللحامين.

استمع بوريس شباكوفسكي الى ملاحظاتها وعلى وجهه أمارات الضجر والاشمئزاز وقال بمنتهى الاستهانة كأنه يخاطب الفراغ:

– بعض المواطنات لهن المام قوي بالالبسة اما في التكنيك فيفهمن ما يفهمه الصرصار بشأن جهاز التلفزيون.

– يا لك من مغتر بنفسك!

وأعلن شباكوفسكي قائلا: - انني أنجز اللحام مضمون الجودة. ولم يلحظ علي بعد أي أحد سمة التواضع. - ثم قال ناصحاً: - ما أحسن لو قللت من القاء المحاضرات المرهقة على الناس، لكانوا اتخذوا ازاءك موقفاً أفضل.

وصرخت بودغورنايا بقنوط: - انني لا أريد التقرب الى أي أحد كان!

- يعوزك أهم أمر رئيسي لكي تكوني معتدة بالنفس مثلي.

- وما ذاك بالذات؟

- انني صاحب موهبة. - قال شباكوفسكي بسكينة - وأنا فخور بها لا بنفسي مطلقاً. ان الموهبة فوقي ولست فوقها. أتفهمين؟

وحافظ كوليا سيميتشكين حيال بودغورنايا على التصرف بتوقير. وكانت شفتاه الغليظتان نصف مفتوحتين دوما شأن صبي. وهمس في اذنها بقلق وقد اعتوره الارتباك:

- قولي لي من فضلك كل الملاحظات رأسا. ولكن ليس بحضور الآخرين، وانما على ناحية. ما هي الحماقات والهفوات التي وقعت فيها. ان مارتشنكو وشباكوفسكي في الصنعة كالنسور. اما انا فلست سوى مبتدىء! وأي شيء تقولينه لي عائد علي بالنفع.

أنصت بتبجيل وطرفت عينه من الانفعال حرصاً على تذكر كل شيء. ولدى ذلك نشق بأنفه المتبرد. ثم نصحها صادقاً من الصميم، وهو غارق في شعور الامتنان قائلا:

- أتعرفين يا كابا لماذا يتحاشاك الفتيان؟ انت معهم رسمية بشكل ما ولكن لماذا هذا؟ انت تعرفين انك حسناء! وكل الناس يجتذبهم الجمال. وانه بالطبع لمؤسف ان تكوني مع كل واحد متعالية. - وقال معترفا: - صدقيني انني اذ أقول لك ذلك فلأني لا آمل مطلقاً بفتاة مثلك. وأنت تركزين عينيك على كل فورة سخط جهنمية. وهذا ليس من الصواب.

توجهت كابا الى المختبر. وكانت الأشجار تنفض عنها قطرات الماء غب المطر وهي تتمايل بفعل الريح كالكلاب. كان الجو رطباً وبارداً. وكان اللحامون متجمهرين عند أنابيب المعبر حيث كانت

بنوتشكينا عاكفة على فحص دروز اللحام بالشعاع، فيما الضحك الصاخب والقهقهات والنكات تتعالى.

وقال مارتشنكو بصوت مرتفع:

– ما ان يقع نظري عليك يا زينوتشكا حتى أتجمد اندهاشاً، متسائلا كيف تجمعت في شخص واحد كل هذه الأشياء الباهرة: قرطان وقلادة وسوار! بوسعك وأنت شاكية السلاح طرح أي واحد منا عند قدميك! بوركا شباكوفسكي مغرم باختصاصه حسب، ولكنه بتأثير صليلك المعدني قد يحلم بأن تكون لديه فاحصة شعاعية خصوصية.

رجته زينا: – لا تقبع قريباً هكذا.

وقال كوليا سيميتشكين بصوته الأجش:

– انها اللهفة، ما العمل!

وقالت زينا واعدة: – انتظر، اذا اكتشفت في عملك موضعاً في درز اللحام لم يتم لحمه كما ينبغي فلسوف تنسى عندئذ كل ما تمزح به.

وقال سيميتشكين: – ولكنني لن أزعل. انني لست شباكوفسكي. انه شديد الاعتداد بنفسه. اذا قيل له ان ظله رمادي فاستشاط غضباً.

ولكن حتى شباكوفسكي المتغطرس يتحدث معها بطيبة نفس قائلا:

– أنت يا زينائيدا عندنا انسان ذو حساسية. فاذا لمت فعلت ذلك بصوت يخنقه البكاء وعيون يغرقها الدمع. فتساورنا الرغبة في التخفيف من تأثرك لغلطتنا رأساً، وبأقرب الوسائل، باليدين والشفتين. اما صاحبتك كابيتولينا فهي كالجلاد. ما ان تبدأ بالشد والعصر حتى يحس المرء انه يسمع عظامه تتهشم.

وقالت زينا: – انها عادلة. لا يحق لهم التجرؤ عليها في القول!

قال مارتشنكو بصرامة: – انها هيابة. وهي تبث في نفسها الوجل. وتخشى انها اذا بدأت في عقد أواصر الود معنا فانها ستفقد شعورها هذا بتقدير المبدئية. وهكذا تصنع من نفسها ملكة صقيع.

وافق سيميتشكين: – هذا صحيح، ما أجملها!

وحينما مرت كابا قرب المعبر المائى ورأوها، لاذ الجميع بالصمت. واندفع سيميتشكين وحده نحوها ليساعدها في حمل الصندوق الى المختبر، وصرخ مارتشنكو له في الأثر:

– هيا، هيا، يا حمال بين اجتهادك! ولسوف تزجي لك بعد هذا آيات الشكر فتهز نفسك حتى تخرج كل ما فيها وتجعلك ماثلا أمام محكمة الرأي العام.

لقد وقع حدث كهذا فعلا. عقب التخرج من الدورة مباشرة عمدت بودغورنايا لدى فحصها بالشعاع دروز لحام مارتشنكو، واكتشافها في أحدها موضعاً رقيقاً لم يتم لحمه كما ينبغي، الى رفع مطلب ليكف مارتشنكو عن تجاربه في تحقيق اللحام السريع في أنابيب المعبر، حيث يمكن أن يفضي أضأل خلل الى أوخم العواقب.

خلفت هذه الادانة المتعجلة لواحد من خيرة اللحامين في نفوس الجميع انطباعاً غير طيب. ورغم ان بودغورنايا كانت من حيث الجوهر على حق، ولم يعترض عليها أحد، الا ان الجميع اعتبروا ان الواجب كان يحتم عليها في البداية التحدث مع مارتشنكو واقناعه بالاعتراف شخصياً أثناء الاجتماع بالهفوة التي اقترفها، فالقصد من ذلك مساعدته، لا وصمه بتعال وأمام الملأ كما فعلت. ولم يشأ أحد أن يغفر لها هذه الغلطة رغم ان أي أحد لم يقل لها انها قد ارتكبت هفوة، وذلك لانها كانت تتجنب العمال حد الاغتراب عنهم.

ولكن بالرغم من ان بودغورنايا قد عانت جراء ذلك، شاعرة بهذا الاغتراب، فانها لم تجد في نفسها ما يكفي من القوة لتجاوز ذلك.

وحينما اشتكى رئيس اللحامين بوسونوغوف الى بافل غفريلوفتش لكون بودغورنايا «تثير ضجة كبرى عن كل نقص صغير» قال بالويف غاضباً:

-- ما انتم الا ضعاف أعصاب! كل لحام يظن أنه يحمل لقب فنان الجمهورية الشعبي. ولكنهم أيضاً عرضة للانتقاد وبلا حق. قرأت ذكريات مغني الاوبرا الروسي العظيم شليابين وكيف

ضايقه بالنقد الكاتب الشهير مكسيم غوركي، ولم يحدث شيء، استمر شليابين طول عمره يشنف الاسماع بصوته الجهوري الأفضل!

اعترض بوسونوغوف:

— ذلك كان غوركي! أما هنا فها هي صبية تعليمها ثانوي، تريد تعليم الناس أساليب الخط الرقيقة من منصة.

— حسناً تفعل، ان علمت الناس!

— فلتفعل ذلك وجهاً لوجه. أما هي فتعقد كل مرة جمعية عمومية وتحط من منزلة الناس أمام الملأ.

— وهل تريد أن تنظم عندنا عمليات خفية.

— انسانيا ممكن أيضاً، لو جرى ذلك بروح طيبة!

وقاطعه بالويف بدون احتشام: — انها تتصرف معكم مبدئيا. يجب التحدث عن النواقص بصوت عال ليسمع الناس جميعاً، وليس مطلقاً في زاوية وبهمس.

ونصح بالويف مهدئاً:

— من الأفضل لو تأملت انت أيضاً، وألقيت نظرة الى دخيلة بودغورنايا، لوقعت عيناك على ما يصلح للتفكير.

قال بوسونوغوف بشيء من القلق:

— وماذا بالضبط؟ مظهرها يدل على السعادة فهي حسناء! وهذه هبة الطبيعة. ترنو الى المرء بنظرة لا تدوم الا لحظة فاذا هو متهيىء للسباحة جهة مجهولة بكل سمع وطاعة. بمظهر كهذا هي مكفولة السعادة مع أي انسان تشاء.

قال بالويف شاعرا بالضجر:

— أنت انسان غير عميق في التفكير، ألم تكن حينا من الدهر في تلك الجزيرة أعمى. ألا تعرف ما معنى معاناة الويلات.

— أجل كنت كذلك، ولقد عانيت في أسرة عملنا كل شيء. ان أسرة العمل عندنا طيبة النفس.

— ومن أنت؟

— جزء منها، طبعاً.

— اذن فكر بجزئك الذي تغطي به طاقيتك. — ثم قال بالويف

ناصحاً. – الناس في حاجة لا الى التحدث معهم بطيبة نفس عن الانتاج فحسب، وانما أيضاً الى التحدث معهم عن أنفسهم.

– أنا موافق. ينبغي التوجه نحوهم من مختلف الجوانب.

– اذن فحاول أن تجد مدخلا الى نفس بودغورنايا. بينما جئت تشتكي وكأن الصغار قد تعرضوا للاذى!

– ولكن، ألا تذكر لي ماذا حدث لها؟

أعلن بالويف حازماً:

– كلا، فكر انت واعرف الأمر بنفسك.

– معنى ذلك أن في الأمر سراً مكتوماً. أليس كذلك؟

– هو ذاك بالذات. ولهذا ينبغي المساس بنفوس الآخرين بكل رفق. وليس لان الرئيس أمر، وانما لان ضميرك هو الذي يطلب منك هذا. ان الضمير في هذه الأمور لنا هو الرئيس الأعلى.

١٧

في مركز المنطقة غريبيشكي تحول الطابق الأسفل، من عمارة جديدة ذات أربعة طوابق، الى مطعم.

فرشت جميع الموائد فيه بمشمع جديد، وعلى كل مائدة أصيص خزفي، زرع فيه نبات العتر، ملفوف بورق ملون. وتطل حزم الورق المخصص لمسح الفم بعد الطعام من أوعية زجاجية ثقيلة صنعت خصيصاً بطلب في المصنع المحلي. وفي الجهة المقابلة لرواق المدخل ترتفع منصة للجوقة الموسيقية عليها كرسي مشبك مخصص للعازف على الاكورديون. وعند المدخل قرب منزع المعاطف ألصق بالجدار رأس محنط لذئب، وتتدلى من وسط السقف ثريا بلور ضخمة.

في أماسي السبوت تكون جميع الموائد في هذا المطعم مشغولة. وكان المواطنون، رواد المطعم، ومعظمهم من بناة المشروع يتصرفون بتأدب ووقار، متأنقين بحرص عند تسجيل الطلبيات من ألوان الطعام التي يطيلون في انتقائها بمنتهى التأني.

وتجاذب الجلاس أطراف الأحاديث بصوت خفيض بصدد مواضيع تتعلق بالشئون الانتاجية في الغالب. واذا أخذ بعضهم يتكلم بصوت مرتفع اكثر من اللزوم تطلع نحوه الجميع متفرسين، وانتظروا حتى يدرك ذلك المتكلم انه ليس في مقصف «على الناصية» وانما يجلس في مطعم محترم.

أشرف على المطعم مدير، محارب سابق برتبة مقدم، محال على التقاعد بسبب اصابته بعاهة مستديمة بعد خدمته عامين عقب انتهاء الحرب في وحداتنا بألمانيا، انسان يدرك فائدة الانضباط.

كان الرواد جميعاً يشعرون بالامتنان حيال مدير المطعم على تلك الروح الصارمة من اللياقة، التي حرص على اشاعتها في مؤسسة التغذية العمومية المعهودة اليه ادارتها.

وبما ان مدير المطعم كان، اضافة الى وظيفته، رئيساً للفرع المحلي من جمعية الدوساف (الطوعية للمتدربين رياضياً وعسكرياً)، فانه ثبت الى جدران المطعم ملصقات برسوم عن الأسلحة الأثرية العائدة الى فترة الحرب الوطنية الروسية ضد جيش نابليون، مما له الآن قيمة متحفية لا غير.

راقب نصب خط الأنابيب لنقل الغاز ممثلو العديد من المنظمات والمؤسسات، نيابة عن ادارة خط انابيب المستقبل، وعن المحطة التكنيكية، وعن الادارة الحوضية للاسطول النهري، وعن المتعهد الرئيسي، وعن البنك الصناعي، وكان ثمة كذلك ممثل عن هيئة مراقبة الأفران، تولى أداء وظيفته شاب لقبه كروخوليف، ذو سجايا رصينة بشكل غير طبيعي، يتكلم بفترات توقف مصطنعة، ما ان عين في هذا المنصب حتى فارق عهده بالابتسام، وأصبح عبوساً.

راقب كروخوليف عمل اللحامين ومن في المختبر بحكم وظيفته، مركزاً اهتمامه على زينا بنوتشكينا. ولكونه انساناً شريفاً بطريقته أعلن كروخوليف رأساً انه أعزب مبدئي. ولكن زينوتشكا فهمت هذا بسذاجتها على انه اعتراف عاطفي يبشر بمستقبل.

أعجبها كروخوليف برصانته ومظهره الصارم وتأدبه المهذب وحتى كثرة مطالعاته، أي بما كان ينقصها من الصفات والسمات.

وقبلت دون تردد دعوة كروخوليف قبل أحد أيام الراحة من العمل لارتياد ذلك المطعم.

وفي المطعم كان سلوك كروخوليف مع زينا بمنتهى اللياقة والتأدب، تحدث بشكل ممل وبلا طرافة شيقة رافضاً مراقصتها على أنغام الاكورديون. كانت زينا ترغب في تناول طعام بيد انه اكتفى بطلب بسكويت وقطع من فاكهة الأناناس مع قنينة شمبانيا، وقد ترشفت الشمبانيا وأكلت البسكويت الذي طلبه ووزعت نظراتها بحزن ذات اليمين وذات الشمال منتظرة ان يتقدم واحد من معارفها الغطاسين فيدعوها الى المراقصة. ولكن، كان بين هؤلاء وكروخوليف حب مفقود، وقد اكتفوا بالقاء نظرات غير ودية على زينا، وخاضوا حول مائدتهم في مناقشة موضوعها: أية بدلة عمل خاصة أفضل: أهي ذات اثنا عشر مسماراً أم ستة مسامير.

لكن كروخوليف بعدئذ أشفق على زينا فوافق على مراقصتها، معانقاً اياها بشدة. وارتبكت زينا وتملصت من ملامسة يديه واختلت حركة قدميها عن ايقاع الموسيقى، وأعلنت انها تشعر بالصداع ولا تريد مواصلة الرقص.

في ساحة السوق أوقف كروخوليف سيارة وطلب من سائقها ايصالهما الى مشروع البناء. وفي السيارة كان سلوكه في منتهى اللياقة وحتى قال لبنوتشكينا انه يعتبر التقبيل داخل التاكسي هبوطاً أخلاقياً.

كانت زينوتشكا جائعة، وبحالة سيئة جراء الشمبانيا مع البسكويت والرجرجة في السيارة، فاقترحت بنفسها على كروخوليف قبل الوصول الى مشروع البناء التمشي اليه على الأقدام.

سارا عبر الحرج الأبيض من أشجار البتولا، والأوراق الساقطة الصفراء تفرش الأرض كسجادة ذهبية، وشعت السماء وضاءة خلف الأغصان العارية النحيفة كأسلاك. وكان الحرج نظيفاً، يابساً، تفوح منه نكهة الجليد الجديد. تحسنت حالة زينوتشكا بفعل الهواء الطري النقي. وقالت بدهشة الاعجاب:

— أتعرف، حين تتطلع طويلا الى السماء يخال لك انك خفيف رهيف كما في طيف! يمكن حتى الشعور كأنك تطير في الجو ولا أحد في العالم بأسره سواك والسماء. مثل هذا الاحساس بالسعادة

يذيبك في السماء، فلا يعود لك وجود، واذا كل شيء كما تشاء!..

وأسندت ظهرها الى جذع شجرة ورفعت وجهها، ودنا كروخوليف مقترباً اليها، وعانقها هي والشجرة معاً، ضاغطاً اياها والجذع حد الألم. ونظرت اليه بفزع، كان يبتسم، وقد رنا الى شفتيها الدانيتين، وسكت عن خبرة، خشية ترويعها بكلمة لها وقع غير ملائم...

تهربت زينا بعد هذا من اللقاء مع كروخوليف، فاستوقفها هو نفسه ذات مرة، وكانت عابرة بالقرب، ولا أحد حولهما. – أعلن باستحسان، مبتسماً بلطف:

– ظهر انك فتاة ذات لباقة، لم تعيري اهتماماً خاصاً. حتى لم اكن أتوقع انك ذكية الى هذا الحد. – صمت، ثم أضاف: – اما بشأن العاقبة فلا داعي للقلق. أعتقد ان اختصاصك يتيح لك امكانية الضمان التام في حالة بعض المخالفة لقواعد أمن العمل.

وسألته بنوتشكينا مفزوعة:

– ماذا؟ ما الذي قلته؟

وأعلن كروخوليف بصرامة:

– أحذرك، اني لم أنصحك بشيء. تلك قضيتك الشخصية. كل ما في الأمر انني كانسان متعلم، أعتبر ان للتعرض للاشعاع مغزى طبياً معيناً لا بالنسبة للمعبر المائي طبعاً، وانما للجسد البشري أيضاً.

وذهبت زينا بعينين زائغتين منطفئتين كعيون الموتى لا الى بودغورنايا بل الى فكتور زايتسيف. ورجته بصوت شبه منطفىء:

– فيتيا لا تنظر اليّ والا غلبني الحياء مما سأتحدث به عن نفسي...

شحب وجه زايتسيف وارتعشت كفاه، وسألها يائساً:

– ولكن لماذا تذكرين هذا لي؟! انك تعرفين ما كنت أشعر به ازاءك!

– لكنني لا أتوجه بهذا الحديث اليك. – همست زينا بعجز وصرخت بقنوط: – أنى بوسعي ان اولي وجهي بعد هذا كله؟!

– وهل ذكرت هذا لبودغورنايا؟

– كلا.
– لماذا؟
– ليس بوسعها فهمه.
– وأنا لماذا ينبغي أن أكون ممن يفهمونه؟!
– لا ينبغي عليك فهمه حسب، بل أنت ملزم بذلك. – قالت بنوتشكينا ذلك بصرامة. وبعد ان لوت أصابعها اضطراباً تلفظت بلهجة شديدة: – فكر في الأمر: ذرتنا هذه طيبة لكونها مسخرة في خدمة الناس بينما كان بوسعي الاقدام...
قال زايتسيف:
– حسناً، اجلسي عندي فيما أمر على بافل غفريلوفتش.
كان لدى بالويف في هذا الحين أقدم الغطاسين في المحطة، بوبنوف. وقال بالويف لزايتسيف:
– تحدث بحضوره.
وبعد السماع قال لبوبنوف آمراً:
– اذهب للتفتيش عنه واحضاره.
وقال بوبنوف محذراً وهو يتهيأ للخروج:
– ولكن يا بافل غفريلوفتش، أرجوك تولي الأمر دون انفعالات مفرطة بل بسكينة وهدوء، دون تجاوز السلطة الادارية. – وخرج دافعاً كتفيه الثقيلتين.
عثر بوبنوف على كروخوليف عند الخندق العميق المليىء بالماء، الذي أعد لانزال المعبر المائي فيه.
وخطا الغطاس القديم نحو كروخوليف وحدق في عينيه تحديقاً جعله يشعر كأن قامته قصرت رأساً، قائلا له ممعناً في التفكير:
– انني اتطلع الى سحنتك وأفكر: لعلها شبيهة بجهامة الجرثومة، اعلم انني رجل من غير أهل الاتزان وضبط الاعصاب واذا هويت بضربة فربما أخلف عاهة مستديمة. – ثم صرخ آمراً: – صه واخرس! هيا امض على أعقابك الى الرئيس، لسوف يتحدث معك بلغة مهذبة.
– دعني. خل عني. – طلب كروخوليف شاكياً بتذمر، ثم صرخ بصوت مرتفع: – كفى وقاحة!
وحصر بوبنوف كروخوليف عند أقصى حافة الخندق وأوقفه

عند شفا هوته حيث كانت ممدودة عليه جسور صغيرة من جذوع الأشجار.

– امض بنا، هيا تحرك، – قال الغطاس ملتقطا أنفاسه. – هلم والا فلن أمنع نفسي من توجيه الضربة.

وخطا كروخوليف على أعواد الجسير التي ناءت تحت ثقل بدنه البدين. ووقعت احدى رجليه في فجوة ما بين جذعين، فهوى وانحصر ما بينهما حد الورك، وتشبث بالجذع بيديه وأصابعه طامسة في الوحل منزلقة فيما الجذوع تتفرق منفرجة، وتعلق في الهواء متشبثاً بذراعيه المبسوطين على الجانبين كصليب. وتلوح رأسه فوق أرضية الجسر فاغر الفم، مشدوهاً من الفزع.

وقف الغطاس عند حافة الأرضية وتطلع الى رأس كروخوليف. مد يده بحذر، وعدل وضع القبعة الزاحفة حتى العينين، وأخذ يتطلع من جديد – بعناية وسكينة ولا مبالاة. بينما زحفت في الوحل يدا كروخوليف المتسلختان، وسقط بضجة الى الخندق المليىء بالماء الأسود، المغطى بغشاوة رقيقة من الجليد.

تنحى بوبنوف، وجلس على أنبوب المعبر المائي ونظر الى ساعة يده ذات الأرقام الفسفورية، دخن سيجارة، ومشى متماهلا نحو كشك المستودع. نزع من المشجب الخشبي بدلة الغطس، وارتداها على مهل، ثم دنا الى الخندق ونط في الماء قافزاً الى الخلف.

ثم قاد الغطاس كروخوليف الى حجرة الادارة، وهذا يلقي عليه ثقله طوال الطريق بعجز، وقال بوبنوف لباقل غفريلوفتش:

– لا تحتد عليه جدا، كاد يقضي غرقاً، ينبغي الاشفاق عليه. القضية واضحة. لسوف يطلب بنفسه أن يطرد من هنا بهدوء. أما العاملون في هيئة مراقبة الأفران فانهم لن يفتقدوا شخصاً كهذا. ينبغي ابلاغهم بالخبر والأمر لئلا يرسلوا بعد الآن الينا أمثال هذا من الناظرين.

وصرخ كروخوليف متهجما باندفاع:

– لقد أراد قتلي، كاد يقتلني!

ورجاه بوبنوف بتأدب قائلا:

– حافظ على أعصابك من التهيج فلقد عملت بشكل ما على

انقاذك. وربما أستحق مدالية على هذا العمل. ولكن المداليات لا تمنح مقابل كل من هب ودب. وهكذا خسرت بسببك مدالية الانقاذ.

أخذ بافل غفريلوفتش تعهداً من بوبنوف وزايتسيف بالتزام جانب الصمت المطبق بخصوص قضية بنوتشكينا، ولام زايتسيف على تركه الفتاة لوحدها في المسكن العام.

وحين عاد زايتسيف وجد بنوتشكينا نائمة على سريره وقد انتفخت عيونها بكاء. وكان بجوار الوسادة كتاب زايتسيف المفضل، وهو الكتاب الدراسي للتعليم العالي في موضوع علم النبات الفلكي.

لكن زينا بنوتشكينا طلبت في أول اجتماع لمنظمة الكومسمول اعطاءها حق الكلام، وتحدثت بصوت متقطع من التأثر عن كل ما حدث لها. واستمع الفتيان حيارى مقهورين لمرارة فاجعتها وصراحتها المستميتة.

– هل من راغب في طلب الكلام وطرح الرأي؟ – سأل زايتسيف متطلعاً نحو المجتمعين بنظرة متهيبة وأعلن على عجل: – اذن نأخذ علماً بهذا وننتقل الى البند التالي من المدرج في جدول أعمال الاجتماع.

وتساءلت بنوتشكينا:

– وكيف سيكون الأمر معي؟

– ماذا؟ انت؟ كفاك انت، لقد أخذنا بذلك علما.

– كلا، لست موافقة. – قالت زينا بعناد وتوجهت مجدداً الى الاجتماع مخاطبة: – فكروا، أكان يسيراً علي التحدث عن هذا؟ وهل تعرفونكم تعذبت قبل هذا؟ وكم مرة بكيت أمام بافل غفريلوفتش وطلبت السماح لي بالانتقال الى مشروع انشائي آخر والآن أيضاً أنا معذبة. لقد نحل جسمي كثيراً حتى غدا الجلوس على المصطبة لي مصدراً للألم.

وانفجرت قهقهة من أحدهم. فقرع زايتسيف بكعب القلم على المنضدة، قائلا بتعزيز:

– ألا تخجل؟ هذا انسان يعاني من الصميم ولا يخفي هذا. وذلك أقوى حين يكون أمام اسرة العمل. – ثم تلفظ بتردد: – والآن ماذا تريدين يا زويا؟ ها نحن كما ترين قد أخذنا الانفعال كل

مأخذ. ولهذا لا يسع الرفاق قول شيء لان هذه القضية ليست بالنسبة لك وحدك مؤلمة الى حدكبير. وأرى هنا مخرجاً واحداً، هو اننا لاينبغي علينا الخشية من أمثال هذه القضايا. هذا الموضوع لا تتناوله الكتب او الكراريس. وهل من الممكن الاحاطة قولا بكل شيء، والكتابة عن كافة الأمور؟ بوسعي التوصل الى أمر واحد هو: هلموا بنا نتبادل النصح بيننا في كل شئون الحياة دون تحرج، فليس في هذا ما يخجل أو يسيىء، فعندئذ يكون الرديء بيننا قليلا. — وقال بغتة مضطرباً بفعل الصميمية: — لقد أعجبتني زينا في السابق ولكني تهيبت حياءاً من الادلاء بهذا.

— والآن؟ — سألت بنوتشكينا بشكوى.

— أما الآن فلا. — قال زايتسيف غارقاً في مشاعره، مطرقاً، ثم رفع رأسه وقال بقوة متطلعاً في وجوه الفتيان: — قد يكون هذا غير صحيح ولكن ليس بوسعي الشعور نحوها كما في السابق رغم كونها قد ضربت نموذجاً رفيعاً جداً على الصدق أمام اسرة العمل. هذا هو الأمر!

طفحت عينا زايتسيف كآبة، وأطلق زفرة عميقة، ثم أعلن:

— اذن فقد انتهينا من هذه القضية، وننتقل الى التالية. اعطي الكلمة الى الرفيقة بودغورنايا.

ومهما كان ذلك غريبا فان بودغورنايا لم تتحدث قط مع بنوتشكينا حول هذه القضية وقطعت في كل مرة باشمئزاز دابر محاولات زينا لتناول هذا الموضوع.

عقب مرور بضعة أشهر خلدت زينا نفسها أيضاً الى السكينة، ولكنها بعد التعارف مع الفتيان الجدد أخبرت عن نفسها بشكل مبهم:

— لا تظنوا انني مرحة الى هذا الحد فانني امرأة اخرى على طول الخط ولقد عانيت الكثير ومررت بالتجارب والمحن.

ان نقاوة النفس والثقة بالناس لدى بنوتشكينا قد أعادتا اليها مشاعرها الطيبة السابقة ازاء أسرة العمل وليس غير بافل غفريلوفتش قد شكا بمرارة الى بوبنوف قائلا: يستطيع أي شخص من أصحاب الشهادات اقامة خط انابيب نقل الغاز، اما جعل الفتيان

مستحقين صفة «انسان» فهذا من أعسر الأمور وأكثر مسئولية من أي أمر آخر تفكر فيه.

ثم قال وهو يباعد ما بين يديه بحيرة:

– كيف فاتني فهم كنه كروخوليف هذا رأساً! كلا حان الاوان لاحالتي على التقاعد ما دمت فقدت حدة البصر النفسية. – وقال شاكياً: – من العسير الآن أن يغدو المرء انساناً بحق. دون ذلك الوظيفة والتخصص ينبغي توفر الكثير من المستلزمات الروحية فيه، غير المكتوبة.

لقد قال بالويف مبالغا بالطبع بعض الشيء في مواصفات الانسان على الأرض. ولكن لو فكر المزيد من الناس عن انفسهم على هذا النحو، وتشددوا في مطالبهم الروحية، اذن لكانت الحياة في العالم على الجميع أخف وطأة بكثير.

١٨

حين عرف عاملو الخط «بمأثرة» العاملين تحت الماء، الذين قرروا اقتصاداً في المعدن نصب الخط عبر المستنقع باستقامة، تملكتهم رغبة عارمة في التميز بدورهم، وقرروا مد المعبر تحت السد، الذي يحجز مياه المستنقع، قبل الموعد المحدد.

وبالفعل حشروا قبل الموعد بواسطة الرافعات الهدروليكية الانبوب المدسوس البالغ طوله ستين مترا والمسمى بالظرف، فوضعوا بهذا البناء السريع كما يقال «خازوقا» للعاملين تحت الماء.

ولكن الذي لم يأخذه «عاملو الخط» بعين الاعتبار هو ان الأنبوب المدسوس كان ينبغي أيضاً أن يلضم فيه خط أنبوب نقل الغاز وقد تهاونوا في هذا الأمر مبطئين. بدأت الرياح تهب من أسافل النهر، عاتية تدفع الأمواج بقوة، فهاج النهر وطغى على جانبيه غامراً الوهاد، ناشراً حواليه زرقة ماء البحر وقد انعكست عليه قبة السماء، فتحول السد الى شبه جزيرة مستطيلة، وامتلأ الأنبوب المدسوس حد النصف بالماء. واضطر «عاملو الخط» الى ايقاف العمل.

الغيرة بين العاملين في نصب الخط والعاملين تحت الماء تقليد قديم للعاملين في الخط.

اذا أنجز العاملون تحت الماء قبل الموعد المعبر المائي أخذ العاملون في نصب الخط متعذبين ينجزون من مقاييس العمل في الحفر والمد حدا يجعلهم يندهشون فيما بعد من سرعتهم هذه.

وان دنا خط انابيب نقل الغاز الى شاطىء بدأ العاملون تحت الماء محثوثين بالتهديد من جانب العاملين في نصب الخط «يشتغلون بقوة عارمة». يرافق هذا كله تبادل عبارات الاستهزاء والاقتراحات الساخرة بتقديم المساعدة بالناس والآليات والادلاء بالخبرة.

اهتبل بافل غفريلوفتش الوضع البائس للعاملين في نصب الخط فعرض عليهم هذه المرة أيضاً المساعدة، التي تقبلوها على مضض.

ورغم ان الوضع كان سيئا في ساحة الأعمال الانشائية لدى بالويف نفسه فقد انغرزت الآليات في الارض المغمورة بالمياه، وتوقفت المكائن على قواعد من جذوع الأشجار، وخوض العمال في الماء ليصلوا اليها غاطسين حتى الركب في الوحل، بينما تعين بغية انجاز أعمال اللحام نصب مصاطب عالية، وخيم طيلة الوقت فوق المستنقع ضباب رطيب نتن توجب بسببه العمل مع أضواء الكشافات حتى في ساعات النهار. وكان الخندق المحفور لتمرير المعبر المائي مغمورا طيلة الوقت بالماء الطاغي، فكل امرىء في ظروف كهذه غالي القيمة بخاصة. ورغم هذا كله كان تقديم المساعدة الى المجاورين بالنسبة الى بالويف لا مجرد واجب بل نشوة مشفوعة بالشماتة، مرسلا غطاسيه للمعونة دون أن يطلب لدى ذلك تنظيم فاتورة حساب مقابل الخدمات.

بيد انه لم يقدر الغطاسين ببدلاتهم الثقيلة الولوج الى الانبوب المدسوس لتمرير المرس عبره، وهو الذي كان ينبغى بعدئذ أن يسحب بواسطته الى داخل الانبوب خط انابيب نقل الغاز. وبهذا فقد جلل الفشل لا العاملين في نصب خط لا الانابيب وحدهم بل ومعهم بالويف.

وفي هذه الأثناء حلت موجة البرد واكتسى الماء قشرة من الجليد. واذا استمرت درجات الحرارة في الانخفاض فقد تتكون داخل الانبوب المدسوس كتلة جليدية بوسعها فلق الأنبوب.

وكما هو المعتاد، حين جرى كل شيء على ما يرام كان الناس يقبلون راغبين كل واحد على قدر استطاعته متندرين على عمال نصب الخط المرتبكين وعلى العاملين تحت الماء غير المتمكنين. ولكن حين ظهر الخطر على القضيه توحد قادة القطاعين للعمل تحت الماء ونصب الخط بغية انجاز المهمة المعقدة. ونقلت الى السد كافة وسائل امتصاص الماء التي كانت متوفرة لدى العاملين تحت الماء.

لم يعد بالويف الآن حتى يفكر في وضع كشف تقديري للعاملين في نصب الخط عن أعمال التصليح او الاشارة ولو تلميحا الى ان قطاعه الخاص لولا الوسائل الماصة سوف يتشبع اكثر بالماء. خلال أمثال هذه اللحظات يتخلى المنظمون الاقتصاديون الاداريون عن عادتهم العملية ومرونة التفكير الاقتصادي ويصبحون شأن الناس كافة خاضعين لهدف واحد هو الصد بالجهود المشتركة للهجمة الغادرة من الطبيعة. وفيما بعد فقط سوف تنظم قائمة الكشف التقديري ومن كل رقم فيها يبدأ ذلك الاقتصادي الدفع عن نفسه محاولا التملص بعد الانقاذ. لا لكونه انساناً رديئاً ولكن لان جميع الاقتصاديين سواسية فيما بينهم، متساوون في البخل والتقتير حين يتعلق الأمر بكوبيك واحد للدولة، حتى ليبدو أحياناً ان انتزاع هذه النقود عقب تقديم المساعدة أصعب من اغاثة المنكوب بكارثة الطبيعة.

قرر بالويف ان يشكل لنفسه «هيئة أركان» في هذا المعبر المائي. وقد سأله صاحب العزبة فاسيلي كرناووخوف مستعلماً قبل السماح له بالنزول عنده:

وهل لديك جهاز تلفزيون؟ — ثم قال لائما: — اذن فانت غير مكفول ثقافياً. — وأضاف: — في هذا البيت نفسه سكن عندي عضو مراسل في اكاديمية العلوم. وكان لديه من المرؤوسين فوج كامل من الرؤساء أمثالك. ولكنه كان يزاول عندي صباحاً تقطيع الحطب.

— حسناً. — وافق بالويف، — هذه الرياضة نافعة لي كذلك.

— وأمر آخر، — قال صاحب العزبة محذرا بصرامة، — انني

انسان كثير الكلام، واذا كنت قد طلبت أجراً رخيصاً كايجار فذلك لانه ليس جميع الساكنين النزلاء يتحملون ذلك.

— في هذه الحال عليك انت الدفع لا أنا اذن.

— اذا انت كبير المعرفة، فلا بأس. وبوسعي وضع زجاجة نصية من الفودكا. وان كان المرح الناجم من الخمرة موهوما...

وضع بافل غفريلوفتش السرير الالمنيوم المتنقل بعيداً عن الموقد ونظم الفراش بنظام الجندية. وأخرج من الحقيبة أدوات الحلاقة والنعال المنزلي وبجامة من قماش قطني وكتب استعلامات تكنيكية رصفها على الرف بجانب كتب صاحب الدار. ودفع الحقيبة تحت السرير وبهذا انتهت عملية سكناه.

وراقب كرناووخوف بالويف أثناء هذا وقال ملاحظا:

— يبدو انك معتاد على حياة التنقل. اليوم هنا وغداً هناك. — واستفهم بحذر: — هل قطعتك الوظيفة عن الأسرة أم انك واصلت حياة العزوبة الى مرحلة الشيب؟ — وبعد معرفته بان بالويف متأهل قال باحترام: — اذن فأنت بطل! لا يستطيع العيش حياة الجبهة في وقت السلم سوى انسان قدير. — ثم أوضح قائلا: — ثمة اناس يعتقدون بان الحياة منحت لهم لأجل متعتهم الشخصية وثمة آخرون، لا يرون لانفسهم مكانا الا في العمل. — وسأل وهو يضيق عينيه مقطبا: — وهل عرفت لماذا صارت فتياتنا في أيام السبت يتنزهن متبرجات وبكامل زينتهن قرب مشروعكم؟ — وبعد مهلة انتظار قال وهو يبتسم بلطف: — اذن فانت لا تزال ضعيفاً من حيث التحليل والتركيب. وفي حالة التحليل ينبغي تقليب الأمر على الوجه التالي: من هم البناة في كل وقت وأوان؟ اناس بلا بيوت وموسميون. يحلون كالسرب الغريب وليس من ورائهم لسكان الكولخوز غير الهلع والقلق. اما الآن وقد وضع كل شخص الى جانب ماكنة فقد أصبح الجميع ميكانيكيين. وأنا نفسي أخترت بعلا لابنتي فتى من مشروع بناء المصنع الكيمياوي. وهما الآن يعيشان لوحدهما. وقد غير اختصاصه الى سائق حصادة — دراسة.

وقلق بالويف بجد وقال بغضب:

— دعكم من هذا وكفوا عن أخذ الشبيبة مني.

وتضاحك كرناووخوف قائلا:

ولكن هذا غير متوقف عليك رغم كونك رئيساً فانت لا تستطيع الوقوف ضد الظرف الموضوعي.

وقال بالويف متبرما:

– ولكنني انما أعطيت رأساً لكي أفكر بها. لقد شاهدت استثمارتكم. وسبق لي أن رأيت خيراً منها بكثير. ولسوف أجمع الفتيان وأفهمهم بشأن ما لا يزال لديكم من نواقص ولسوف تندب فتياتكم حظهن.

وقال كرناووخوف موافقاً:

– انك قوي في الحفاظ على مصالحك. ولكن اذا كنت تخشى من كولخوزنا وتتهيأ للافتراء عليه فمعنى ذلك تحقق نظرتي في الأمور تحليلا وتركيبا. لقد سارت الحياة نحو التحسين من جانبيها. وأنت ضد الحقيقة التي ذكرتها لك الآن بلا حول. من الذي قام بتزويد موقع عملكم بالراديو؟ انه نحن أهل الكولخوز وبوازع من أنفسنا وحدها. وهن فتياتنا اللواتي قررن مزاح فتيانكم لكي لا يتشامخون. وعلى سبيل الاشراف الثقافي سوف نكفل لكم ذلك بمناهجنا الاذاعية. أما أهل الكيمياء فقد ضحكنا عليهم: استدعونا لعرض السينما النقالة وعندنا في النادي جهازان لعرض السينما. وما ان أخذ ميكانيكي العرض بانقطاع لتغيير شريط حتى تعالى ويا للعار صوت القهقهات وضجيج دبك الأقدام. – وهنا سأل بصرامة: – كم قبضت من الثمن مقابل حفر قناة الري لنا؟ لقد سجلت علينا حتى المصاريف الاضافية. بينما قد نقلنا لك الأخشاب من الغابة على جراراتنا. وقدرنا ان آلياتنا التكنيكية تتوقف عن العمل على أية حال أواخر الخريف فلم نأخذ منكم أجراً على سبيل الصداقة سوى النزر.

وقال بالويف مسالماً:

– ولكننا سوف نؤمن تزويدكم بالغاز الطبيعي. وستكون لديكم في كل عزبة موقد غازي. فكم التوفير من الاستغناء عن اشعال الحطب والخشب وحده. ثم الدفيئات الزراعية في فصل الشتاء والثلج. الخضار الطازجة الطرية وهذا ربح يقدر بالملايين.

– ولكن انظر الى هنا، – أشار كرناووخوف باصبعه الى

النافذة، وكانت ترى عبرها الصواري الحديدية لخط الاسلاك الكهربائية. ثم ربت بكفه على كتف صاحبه برفق، وهو يقول:

– لسوف نقدر أوجه التوفير في الاستعمال يا أيها المحسن المفضال، ولا تحسبن اننا سننحني حتى الحزام، ولا تخف على شبانك لدينا ما يكفي من الفتيان الميكانيكيين، ولسوف يتقاطر علينا غيرهم بعد التسريح من الخدمة في الجيش. – ثم قال وهو يبتسم ضاحكاً في طيبة نفس: – لقد كان قولي هذا لمجرد المناكفة فلقد كان من الطريف لي أن أعرف أي انسان أنت عند التضييق عليك.

كان بالويف يحب في الليالي قبيل الرقاد مطارحة كرناووخوف الحكمة في شتى المواضيع الشيقة.

وقد قال كرناووخوف عن نفسه في اكرام:

– لقد تصرم من عمري نصف قرن. وانا أتذكر عن ظهر غيب مجمل عهدنا السوفييتي. وبي دوما توق الى الجديد. أرأيت كيف أستنبت شجيرات الليمون داخل الشقة؟ فلماذا هذا؟ فألحت على رئيس الكولخوز أن يخصص لها دفيئة بكاملها، لا طلباً للدخل وانما نشراً للامكانيات الكامنة. لدى توفر وسائل العلم والتكنيك لن يظل الطقس هو الآمر الناهي. يجب ان نتخذ من الليمون ما هو بمثابة الهجمة السيكولوجية. والا فاننا تعودنا ان نقيس المحصول بمعيار الطقس ونتخذ من الطقس خير مبرر في حالتي القصور والتقصير.

وسرح بافل غفريلوفتش بدوره في التأملات وقال ان استعمال جذوع الأشجار والفحم كمادة وقودية هو بمثابة الطبر الحجري في يد النجار، والغاز الطبيعي هو خطنا المستقيم. وانه بعد نصبه أنابيب نقل البترول والغاز سوف يتعين عليه نصب انابيب نقل المواد الغذائية كالحليب والزيت النباتي أو عصير الفواكه والخضار بل وكافة المحاصيل النثارية كالحبوب ونحوها. واذا صنعت الانابيب من زجاج له متانة خاصة فانها ستبقى تحت الأرض بشكل دائم. وهذه مادة تتمشى مع الشروط الصحية فهي ليست عرضة لتأثير أية أحماض. ومثل هذه الأنابيب لن تكون وسيلة للنقل فحسب وانما ستكون بنفس الوقت خزانات تحت الأرض.

وكل ما يتطلبه ذلك سحب الهواء منها فاذا هي جاهزة! بمثابة وعاء زجاجي من المعلبات طوله عدة مئات من الكيلومترات. وسيكون ممكناً كذلك نصب أنابيب تعمل بقوة الهواء المضغوط، فتدفع عبرها بسرعة فضائية، في معزل عن الرحاب الهوائية، صناديق البضاعة والمواد الغذائية. وعلى هذا يمكن جعل نقليات الحمولة كلها تجري تحت الأرض. وهذا كله قضية ممكنة تكنيكيا ومن قضايا المرحلة الراهنة تماما. ويمكن بناء هذه الانشاءات في طول القطر وعرضها وبسرعة جداً.

– وأنا شخصيا، – قال بالويف، – آمل ان تكون لي مع هذه الأنابيب الزجاجية متاعب جمة. مهما كان من أمر فان الزجاج على اية حال هو الزجاج وهو مادة عرضة للتهشم والكسر وسوف يتطلب العمل دقة خاصة.

وبالويف المتميز بعقل عملي أوحى الى كرناووخوف باسلوب خفي ان الغدير المستنقعي مصدر دخل للكولخوز.

– ان الخث سماد ممتاز. وفي حالة تجفيف منطقة المستنقع ستكون هذه خير أرض لزراعة الخضار، اذ سيكون الحد الأدنى من الربح خلال السنة الأولى فقط من استثمارها مائة ألف روبل.

وأعلن في الحال استعداده، لصالح الكولخوز ليس الا على حد زعمه، لأن يضيف الى جرارات الكولخوز جراراته، اذا شاء الكولخوزيون شق قنوات تجفيف على الفور.

وتحمس كرناووخوف الذي هو عضو في هيئة الكولخوز الادارية للفكرة التي اوحيت اليه، وتوصل في الهيئة الادارية الى اتخاذ القرار. وفي غضون اسبوعين قوطع الغدير المستنقعي بقنوات الري وأضحت تربته في متناول يد الانسان تماما. وحصل الكولخوز على قطعة أرض اضافية ستكون في المستقبل حقلا، أما بالويف فقد استطاع بدون نفقات اضافية فوق الحصة المخصصة تجفيف ساحة للعمل.

لم يتهيب بالويف قط المجازفة التكنيكية وأقدم عليها دوما بجرأة. وحتى لو وقع في الاخفاق لأسباب تكنيكية عند انشاء المعبر فان سمعته كبان جريء في الاقبال على الجديد لا تتضرر. وعلى كاهليه احتياطي من النجاحات في المعابر الاخرى. ولكنه أخذ على

نفسه المسئولية المعنوية عن اسرة العمل حين قرر في سبيل توفير اربعة كيلومترات من الانابيب لاستثمارة البلاد الكبيرة المجازفة بالنقود التي سيحصل عليها في حالة استحقاق المكافأة، لقد عرف بالويف انه في حالة حدوث أمر ما سوف يكون حيال الناس العاملين معه في دين غير مسدد. وليس من المسموح به لرئيس ان يستدين مأثرة اخرى بدون دفع الحساب اذا كان سيبقى رئيسا.

ولكي يكافأ جهد العمال مكافأة عالية تتركب من مؤشرات عديدة ينبغي انجازها جميعاً حتى آخرها والا فان المكافأة تطير من اليد. بينما قد وضع مجمل جدول الاعمال والمواعيد محسوبة على اساس طبقات التربة القوية مع تجاوز المستنقع. وقد كان تغيير المواعيد متعذراً. كان الخط الرئيسي لانابيب نقل الغاز يزداد اقتراباً الى موضع المعبر المائي.

أمضى بالويف كافة الأيام عند هذا المعبر المائي العسير منتقلا ليلا فقط الى القطاعات الأخرى ليكون بعد انقضاء الليل من جديد هنا. وبعد تعيين يوم سحب المعبر، حسب نشرات التنبؤ بالأنواء الجوية، وهي العملية التي ينجز بها العمل خلق بتوتر كبير لكل قواه الذهنية والبدنية وضعاً في ساحة العمل الانشائي بحيث تضمن معه كافة مؤشرات الخطة بشكل متين المكافأة لأسرة العمل. بينما أصبح شحيحاً حداً أثار القرف والاشمئزاز معه لدى أقرب مساعديه. وبغية انجاز العمل الخاص بلف الانابيب بالعوازل وتغليفها أعلن تنظيم يوم سبتي للعمل التطوعي، ودعا المستخدمين وسواق السيارات والعاملين في المختبر، ووقف هو نفسه سوية معهم بجوار المعبر. وفي المساء كافأ بالويف المشاركين في اليوم السبتي بتقديم حفلة فنية استقدم لها الفنانين من الفيلهارمونيا المحلية، ودفع بسخاء الى الرسام لقاء رسمه أصحاب اقتراحات التحسين، وقد رصت رسومهم على ألواح خشبية تواجه النهر لكي يشاهدها جيدا ركاب البواخر.

وبدلا من صرف النقود على العبارة لنقل الآليات التكنيكية صمم من الانابيب بعد لحام طرفيها طوافة فولاذية. وأقنع الغطاسين الذين أنجزوا العمل الخاص بشق الخندق تحت الماء بأن يرفعوا

في ساعات الفراغ الصندل الطواف الذي اغرق ابان أعوام الحرب، وبعد تقطيعه بجهاز لحام الاوكسجين سلمه أوصالا الى قسم كسارات المعدن. وتولى تصليح بكرة ثلاثية للمنظمة المحلية. واحتفظ بها عنده بعد التصليح مدة أسبوع مستخدما اياها لتقوية شد الخندق. وجلب اسطوانات غاز ومواقد وأقام هنا وسط المستنقع مباشرة في خيمة شتوية مطعماً وحجرة دافئة للاستحمام تحت الدوش. أحضر بالجرارات جراً حوانيت متنقلة. ونظم تجارة التقسيط للأشياء غالية الأثمان، معلناً لممثل المؤسسة التجارية:

– يكسب عندنا هنا رواتب حسنة حتى الفتيات العاملات في الضخ، والناس مضمونون. بوسع الغطاسين وحدهم شراء كل سلعكم الكمالية. هم لا يحملون سوى الساعات اليدوية الذهبية، غيرها يصدأ في الماء.

كان المستنقع يفوح نهاراً بالحموضة وفي الليل يكبت البرد الأوحال. نصب بالويف في ساحة العمل مصابيح كشافة، واستطاع عمال التركيبات ملاصقة الانابيب دون الخوض في الوحل. وعثر في مزبلة النفايات على عجلات سيارات قديمة غير صالحة، وجلبها الى ساحة العمل لتسخين صهاريج القار، مبدياً لدى ذلك بعض التبذير اذ أفرد شاحنة خاصة ذات غطاء من المشمع ووضع داخلها مصاطب، مرسلا كل مساء هذه الشاحنة الى المدينة على مسافة خمسين كيلومترا، لكي تتاح الفرصة للعمال عقب الجهد الشاق في وحل المستنقع، بعد تغيير وتحسين مظهرهم، لقضاء الوقت في المدينة كل حسب مشيئته وهواه.

وقال لمشرف الأعمال فيرسوف:

– لا يجوز ان يتعود الفتيان على الحياة في المستنقع. وليس من الصواب أن يعتادوا على ذلك. يجب التأكيد طوال الوقت وبكل ما يمكن ان الناس هنا يشتغلون في ظروف استثنائية طارئة. وأنا نفسي أحب أن يقال لي ان عملي ليس كتابة أوراق. بدون معرفة علم النفس من السهل تبديد همة الناس في السفاسف. وأنا سأبني لهم مجداً، حين نبدأ في سحب المعبر، بتوجيه الدعوة الى الصحافة والسينما الأخبارية والاذاعة. ببطولة العمل سوف نؤمن تنفيذ الخطة تماما. وما أن تقع أعينهم على سلسلة صور أصحاب

اقتراحات التحسين عندنا حتى يركبهم العجب. لسوف نلصق تحت كل صورة النصوص الجاهزة، ينبغي توفير ظروف العمل الجيدة للصحافة أيضاً.

ورغم ان بالويف قد نحف بشدة في هذه الأيام وضمر وجهه فان عينيه أخذتا تشعان ببريق الشباب والفتوة طافحتين بالصحة والعافية. وحرص على مظهره اكثر من أي وقت مضى وتجنب ارتداء السترة الجلدية القديمة والاحذية المطاطية والقبعة بآذان الباقية لديه منذ أيام الجيش، تأنق كما لو كان في المدينة ساعياً بكل السبل أن يبين انه في المستنقع يشعر بنفسه «على خير ما يرام».

ومع ذلك كان بالويف يعرف انه يحرم نفسه حين يبقى طيلة الوقت في موضع هذا المعبر من تلك المزايا التي استطاع التمتع بها متوجهاً سلفاً الى الطريق التالي لكي يجري هناك كل الاستطلاع بشأن الأعمال المرتقبة قبل التصديق النهائي على المشروع، وبهذا يتحقق ربح الوقت. ولكنه الآن، لم يستطع ترك المعبر الذي لم يسحب بعد حارما نفسه الاجازة التي يتعين عليه الآن استغلالها في دراسة الطريق المطلوب انجازه مستقبلا. ولم يكن ثمة من مخرج آخر. وهذا معناه انه حرم نفسه هذا العام من سعادة العيش شهراً كاملا في البيت مع الاسرة.

وبغية تنفيذ كافة بنود الخطة الانتاجية – المالية هيأ الناس مكدسات احتياطية.

اقترح طاقم الخدمة الأرضية الاستغناء عن الحفارة لدى حفر الخندق وحفره جرفاً بواسطة خرطوم مطول. وقررت مجموعة الغطاسين القيام بتنظيف الخنادق تحت الماء بحيث يمكن استخدام التربة من الخندق الثاني لردم الخندق الاول بعد مد الانبوب فيه.

قرر عمال التركيبات تركيب كلتا الشعبتين من خط الانابيب بنفس الوقت والاكتفاء لدى الانزال في الخندق بثلاث روافع لنصب الانابيب، بحيث تمسكها الامراس بواسطة بلدوزرين لكل رافعة منها عند حافة الخندق. ولأجل صقل الانابيب صنعوا ملحقا مكيفا، هو طوق متناوب لطواقم من الشرائح، وكان في السابق ستة

صقالين يعطون مائة متر أما الآن فان صقالين اثنين يعطيان ثلاثمائة متر.

ومهما كان ذلك غريباً فان مثل هذا التمرس الابداعي العالي لدى الناس نشأ من كونهم اقتنعوا بمدى صعوبة عملهم في وهدة المنخفض حيث لم تقاوم في تبخر المستنقع حتى في وقت البرد القشرة الجليدية الرقيقة.

وطيلة فترة ممارسته لم يحدث لبالويف بعد اجراء البناء للمعبر المائي في مثل هذه المصاعب. ولكن الغريب انه شعر بنفسه وكأنه زائد عن الحاجة طيلة الوقت الذي استغرقته الاعمال التحضيرية. ولم يتوجه اليه أي واحد لا بشكوى ولا طلباً للمشورة في الرأي، حتى بتوخوف الذي التزم دوما بمراعاة مراسيم تقديم التقارير اليومية أولا بأول لم يقصده ولم يأت اليه. فأخذ على عاتقه كامل المسئولية، وغضب حانقاً حين سألوه: «وهل يوجد على هذا تخويل من بالويف؟»».

وكان يقول مغضباً:

- أنا نفسي صاحب المقام الرفيع! فمثلا غرزت ناصبة الانابيب في الوحل حتى ذراع المرفاع. وهذا في الظروف العادية حادث، وأنا ملزم بالابلاغ عنه. أما هنا فهو أمر طبيعي. وأنا أترك لكل واحد رأسه فوق كتفيه لكي يفكر ويبتدع للتوصل الى كيفية انتشالها من الوحل وانتزاعها كرأس لفت.

اما الميكانيكيون وسواق الماكنات فقد أصبحوا عند اللزوم نجارين، وصنعوا من جذوع الأشجار أرماثاً وضعوا عليها المكائن، ولم يسمحوا لمسجلي مقادير العمل تسجيل أعمالهم في النجارة وصنع الأرماث خشية ان ينتهز بالويف هذا كحقيقة واقعة تؤكد ارتفاع كلفة البناء بدون تجاوز المستنقع. وساعد الغطاسون عمال التركيبات خلال ساعات الفراغ من الأعمال تحت الماء.

وأعلن بوبنوف قائلا لمسجل مقادير العمل:

- لا تسجلنا، تعرفتنا أعلى التعرفات، وهذا سيكون بمثابة نهب. كل ما في الأمر هو اننا نعجل في الأمر. اما لان الذي فوق رؤوسنا هنا هو الهواء النقي لا الماء فاننا لن نأخذ من الدولة نقوداً

مقابل ذلك، حسابنا معها يجري حصراً عن الفترة التي نقضيها تحت الماء...

وكان يطيب لهؤلاء الناس التحرش بالكلام مداعبين بالويف:

– نحن هنا جميعاً يا بافل غفريلوفتش أصبحنا أشباه عيسى بن مريم. تحت أرجلنا زلق ووحل. ولكن انظر فنحن لا نغرق!

– ألا ما غرقتم ناصبة الانابيب؟

– ماذا تقول. انظر اليها واقفة كأنها جديدة، حتى الوحل قد غسلناه كله عنها بخرطوم المياه.

– انها تقف على رمث. وهذا يعني اتلافكم عشرين متراً مكعباً من الأخشاب.

– وأين الاتلاف؟ سوف نفك فيما بعد جذوع الأشجار ونغسلها في النهر ثم ننشرها فيمكن بيعها الى السكان كحطب، وعليه لن يتحمل مشروع البناء اي خسران.

– ما اكثر ما تقطعون من الأمراس!

– هذا صحيح، ونحن موافقون على هذه الملاحظة. ولقد فكرنا تلافياً لذلك أن نصنع بدلا من الأمراس وصلة من قضبان كما لعربة جر، وبواسطتها نسحب المكائن والآليات الغرقة.

– وما هذا الكشك؟

– انه حجرة التجفيف للأشخاص الذين يغطسون بالصدفة في الوحول حد الحزام. ومكان مخصص لتبديل الملابس بسرعة. هي كبيرة الجدوى للأغراض الطبية لئلا يصاب الناس بالبرد. والا كثر المرضى وتعطل العمل.

– وهل ثمة الآن كثير من المرضى؟

– يمكن القول بانه يتفشى عندنا ما يشبه الوباء! يعانون مرضى الشهية. لقد اتفقنا بشكل مستقل مع الكولخوز على تحضير الطعام بصورة جماعية على العادة القديمة. ولقد أكلوا حتى الآن ثورين وخمسة خنازير، والأسماك أيضاً طعام لنا. تمرن الرفيق بوبنوف في بزة الغطس على صيد أنواع جيدة من الأسماك النهرية في حفرة النهر العميقة بالحربة الحادة. ومن بين هذه الأسماك ما يستحق العرض. هو يجتذب الأسماك مخادعاً بضوء المصباح الكهربائي. والسمك يقبل على الضوء خيراً من تهالكه على الدود.

انه يستخدم كافة الامكانات والفرص التي يتيحها التكنيك لصيد الأسماك. ويمكن القول باننا نعيش بفضل التكنيك عيشة فاخرة. صنعنا سخانة كهربائية بلف الطابوق بسلك كهربائي، ووصلناه بالتيار من المحطة الكهربائية النقالة. وهي تعمل كالسخانة الكهربائية في شقق البيوت.

– وفيض الماء يغرق الخندق ويطمه.

– أجل يفعل ذلك، ولا معدى عن قول ذلك. ولكننا سمحنا لأنفسنا بالآتي: شغلنا المونيطور في ضخ الماء اما الجرافة ففي مص الوحل أيضاً.

– ولكن الفيض رغم ذلك يضغط.

– أجل يضغط اما نحن فنكافح ضده.

– وربما هو بالجوار في مكان ما تحت الأرض كالبحر الزاخر؟

– الناس يصارعون حتى البحار، ويتغلبون عليها.

– ومن يتحمل المسئولية عن زيادة صرف الوقود؟

– ولكننا اقتصدنا في صرف الوقود على الحفارات وناصبات الانابيب بالاستغناء عنها. ومن رقم هذا التوفير نغطي المصروف. ولقد حسب الفتيان بالقلم هذه الأرقام والأعداد. ويبدو ان الموازنة حاصلة لتراً بلتر.

– والقلم في اليد. لم يبق سوى اسبوع على الموعد المقرر في الخطة.

– لقد أخطأنا الحساب في هذا أثناء الهرج والمرج. ظننا ان الأمر يحتاج الى خمسة أيام فقط. يا لها من مفاجأة غير طيبة! ينبغي الذهاب الى الفتيان وأخبارهم لبعث البهجة في نفوسهم.

شعر بالويف بالفرحة طيلة هذه الأيام وحتى بشيء من التلذذ بطعم الانتصار الذي احرز بالمجازفة والتضحية بصيته كرئيس من أجل ان يحس كل عامل برئاسته في ساحة العمل الانشائي.

الخريف هو الخريف، الموسم المفروض للتعبير عن الحزن والكآبة وحتى معاناة العواطف الشاعرية. انها تلك الفترة التي يسمح فيها القاملون، أصحاب المسئولية الكبيرة، لانفسهم ان يقطعوا على حين غرة المحادثة الرسمية في شئون العمل لكي

يتابعوا بنظرة كئيبة زائغة، عبر زجاج النافذة، ورقة صفراء سقطت من شجرة فتأرجحت في الهواء متداعية الى أسفل...

ولكن بافل غفريلوفتش اعتبر الخريف والربيع (شأنه في ذلك على فكرة شأن جميع البناة) فترة شقاء شخصية له. المكائن غارزة في الوحل، كثيرا ما تلف عجلاتها في المكان، ويجري صرف المزيد من الوقود بلا نفع ويتعين طرح جذوع الاشجار تحت عجلاتها بمصاريف لا تنص عليها الحصة المالية.

الغطاسون وحدهم يتخذون حيال الطقس موقف اللامبالاة التامة. في أعماق الماء والرطوبة في كل حين، وقيعان الأنهار والترع مكسوة دوما بطبقة ثخينة من الأطيان. أليس سواء بسواء عليهم الخوض فيه حتى الركب أو حتى الحزام؟

برهن علماء النفس باقناع في مؤلفاتهم ان الطقس يمكنه مزاولة تأثير بالغ على حالة الانسان الروحية. وهو يؤثر بشكل حاد على طبيعة العصبيين المتأثرين ذوي القدرة على معاناة أدق العواطف والمشاعر. ويبدو انه على أساس هذا الظرف يحفل الشعر العالمي بوصف الطبيعة في شتى أوقات السنة وليس مصادفة بالمرة انه في مؤلفات الأدب الكلاسيكي الوطني والاجنبي تدور أعلى الصراعات الدرامية بمصاحبة أعتى الظروف المناخية من الأنواء الجوية. وترافق الزوابع في الطبيعة بجو رهيب الانثيالات النفسية الناجمة عن أسباب شخصية واجتماعية.

وبغية التعبير بمزيد من الانطباع عن الحالة التي تمثل منتهى فقدان الحول للروح البشرية يقع اختيار التفضيل من بين جميع الفصول على الخريف باعتباره الفترة الرسمية المعترف بها من قبل الجميع كفترة ذبول وأمطار طويلة والسماء كالحة باهتة بالغبش الكدر، اما الغيوم المنتفخة كالأورام ذات اللون الشبيه بلون العفن فتفوح منها رائحة تزكم الانوف من النتانة الوخمة والرطوبة الكريهة.

مثل هذا الطقس التعيس المقيت بالذات، الخليط من المطر والثلج، سيطر الآن فوق طريق انشاء الخط الرئيسي من أنابيب نقل الغاز.

صب بالويف أقذع اللعنات والسباب على الطقس في هذه الأيام، حيث الأرض والسماء قد تماسا كأنما وتماسكا بالضباب المائي الرخو ما بينهما. ولكنه لكونه قد زج بنفسه في المستنقع خلال فترة الخريف لم ينعكس بالمرة على حالته العصبية ومزاجه. بل حتى على العكس فان بافل غفريلوفتش كان يبدو جم النشاط.

– الوضع عندنا هنا من أحسن ما يكون، – قال بالويف وهو يفرك يديه مخاطبا فيرسوف. – هذه همة عالية في نفوس الناس! ينبغي انتهاز هذه الفرصة. الغطاسون من ذوي الدم البارد والاعصاب الجامدة، مهنتهم تلزمهم بذلك. ولكن جاءني أمس بوبنوف صحبة غطاسيه مطالبا: «هيا بنا نضبط الحساب، كم وفرنا من الأموال بعملنا تحت الماء». وكانت مؤشرة في رسوم المشروع مواضع وصل الانابيب بالمعبر وفق المنحنى الطبيعي أخذا بعين الاعتبار انحناءات الشاطىء والتواءاته ومقطع القاع النهري. هذه القطعة مكلفة وسحبها من الامور المعقدة. وهكذا تولى الغطاسون تنظيف المخرج العميق الرئيسي وهو أشبه ما يكون بفج كهفي تحت الماء. ولم يعد الأمر الآن في حاجة الى اية اعوجاجات. وقال بوبنوف: «ينبغي يا بافل غفريلوفتش بعد أن نسحب المعبر من الخندق الأول صب الماء الباقي الى الخندق الثاني. أتعرف كم يكلفنا من العناء عند الضخ كل متر مكعب من الماء؟» أرأيت كيف يفكر الانسان وهو واضح الرؤية نير الذهن! – قال بالويف متهلل الوجه في جذل. – وكل واحد يأتي ومعه أمثال هذه الاقتراحات، بل انه يغضب ويرعد اذا واجه شكا في مدى عقلانية اقتراحه. وهذا يجب ان يسمى الوضع الطيب الملائم الى أقصى حد للعمل. وقل لي بأي شيء نحن ملزمون أن نأخذه بعين الاعتبار اكثر – أهو مزاج الناس الحسن أم الطقس السيىء. – وبعد هنيهة تفكير تلفظ بحبور: – مزاج اسرة العمل. انها هي الاحتياطي الرئيسي للقدرات الكامنة.

واعترض فيرسوف متخوفا بقوله:

– رغم هذا على أية حال قد تزحف التربة وزحفها نكبة من الطبيعة...

نظم فكتور زايتسيف جولة ثقافية الى مركز المنطقة لسماع محاضرة عامة. ولكن لم يستجب لدعوته الى الذهاب في هذه السفرة سوى أربعة أشخاص وبودغورنايا لانها اعتبرت ذلك ضروريا لبنوتشكينا. اما زينا نفسها فقد قالت لها:

– ما دمت انا على هذا النحو خذيني معك اذن.

وذهب مارتشنكو لانه مستعد للسير وراء كابا الى حيث ذهبت. ووافقت ايزولدا بزوغلوفا لأن زايتسيف طلب منها ذلك قائلا:

– انك من نشطاء منظمتي وعليك دعم تدابيرنا.

تلا عليهم رجل بدين الجسم، عريض الأرداف، مقتطفات من الجرائد تضمنت حقائق شتى تؤكد صواب اطروحاته. وأفاد بان أحد المواطنين من مدينة زرايسك وجد في دار السينما حقيبة يد للسيدات ولم يستحوذ عليها بل سلمها الى الادارة. ورأى أحد رجال الميليشيا تلميذاً يغرق فانتشل الصبي من الماء. وتبنت المواطنة اسحاقوفا فتاة من الميتم وهي تحسن تربيتها.

وبعد انتهاء المحاضرة اقترح مارتشنكو تناول وجبة العشاء في مطعم بالمدينة. وصرخت بنوتشكينا باشمئزاز:

– كلا لن أذهب الى هناك مهما كان من أمر.

وأعلنت كابا بفخر:

– لقد أرسلت الى والدتي كل راتبي تقريبا ولا أريد تناول الطعام على حساب الآخرين.

واقترحت ايزولدا:

– بوسعي اقراضك النقود.

وقال زايتسيف ان تناول الكثير من الطعام ليلا يضر الصحة.

– يا لك من حريص على تطبيق القواعد الصحية! – قال مارتشنكو مغضبا.

وقال زايتسيف: – كل ما في الأمر هو انني أعتقد بان الانسان ملزم باطالة عمره، من الطبيعي تماما انه سوف يعيش في المستقبل الى سن المائة والخمسين عاما.

وصرخت زينا:

– وماذا في ذلك. يتكاثر عدد الشيوخ الطاعنين في السن ويا له من انجاز عظيم!

وتلفظ زايتسيف بلهجة جافة:

– وصف هوميروس كيف استطاع شيخ عجوز ان يقفز عبر الحصان مرتكزا على رمح.

– لعله كان في السابق بطلا رياضيا والحصان من النوع القزم غير العادي المسمى بوني. من عادة الكتاب دوما المبالغة في شيء ما مما يذكرون.

– ان الكلاسيكيين لا يحرفون الحقائق.

– ولكنه كان أعمى فكيف شاهد ذلك؟

– اصيب بالعمى فيما بعد، وفي أعوام النضج استخدم المادة القديمة عن الواقع الذي مر به حينما كان مبصراً.

– فيتكا! – قهقهت بنوتشكينا. – ما أنت الا بمثابة الحاكي وأنتما من حيث الصوت مع هذا المحاضر سواء بسواء.

واستاء زايتسيف ولزم الصمت. وتلفظ مارتشنكو بتأمل:

– بالطبع من الممكن تعلم حسن الادب واللطف والصيرورة على غرار شباكوفسكي. ولكن هل هذا وحده هو الأمر الرئيسي في الانسان؟

واهتمت كابا مستفسرة:

–وما هو المؤشر الذي تعتبره الرئيسي؟

– البطولة، – أعلن مارتشنكو متجهما.

وأعلنت بنوتشكينا قائلة:

– ان الموت ليس مخوفاً بالمرة اذا كان ذلك لازماً من أجل الآخرين.

وقالت ايزولدا:

– كلا بل هو رهيب.

وفزع زايتسيف على بزوغلوفا وقال قطعاً للحوار في هذا الموضوع:

– المؤشر الرئيسي بالنسبة لي انما هو استعداد الانسان لان يهب نفسه كليا في خدمة الوطن.

وقال مارتشنكو لائما بغضب:
- انت يا فيتكا تتكلم وكأنك وحدك تقف مدافعاً عن السلطة السوفييتية!
تدخلت بودغورنايا مدافعة بقولها:
- أما أنا فيعجبني حين يتكلم الناس بلهجة رفيعة. لا ينبغي علينا التحرج من الكلام العالي.
وتدخلت ايزولدا قائلة:
- أعتبر فكتور محقاً. يجب أن يكون كل شخص في عمله شعلة تلتهب حماساً بالضبط شأن القمر الصناعي الأول الذي احترق ليضيىء الطريق أمام البشرية جمعاء.
وتحرش مارتشنكو قائلا:
- انك تختارين التعابير الجميلة شأن فكتور.
وتلفظت ايزولدا عبارتها بصوت خافت:
- الكلام الجميل يسير، بينما البسيط أصعب.
- ما الذي يجعل عينيك بهذه الكآبة التي تكاد تفطر القلب؟
-لا أدري.
وأعلن مارتشنكو بحماس:
- ها أنا أنظر اليك والى كابتولينا ولا أدري أيكما ينبغي الوقوع في غرامها قبل الاخرى.
- يمكنك التشاور بصدد هذا الأمر مع زايتسيف فانه بيننا أذكى الجميع!
- عدنا الى الهذر. - كان رده ساخطاً.
وهدد مارتشنكو قائلا:
- سأكشف النقاب الآن عن أحد الاسرار. لقد رأيتك ذات مرة حاملا باقة زهور، ثم رأيت تلك الباقة نفسها عند كابوتشكا وزينوتشكا. وهي موضوعة في ماء آسن، والزهور ذابلة لان صاحبتي الدار كانتا في رحلة ايفاد. ولكن اللغز الكبير هو انهما اثنتان اما باقة الزهور فواحدة. وأنت انسان لا تحيد عن الهدف فلمن منهما شخصياً قدمت باقة الزهور؟
- ما لك وقعت على فكتور بالحاجك. - قالت كابا ممتعضة.

– اها... وقعت اذن! – صرخ مارتشنكو بلهجة المنتصر وسأل زينا:
– وما لك تقهقهين؟ ليس في الأمر ما يضحك.
وقالت زينوتشكا بحزن:
– لا أضحك لشعوري بالمرح وانما لكوني عصبية الى حد فظيع. ليس عندي حيال أي شيء سوى الضحك.
وخلعت ايزولدا من رأسها المنديل، فأخذ نديف الثلج يتساقط على اللمة الكثة من شعرها اللماع.
وقال لها مارتشنكو:
– تعصبي بالمنديل والا استبردت.
واستدارت نحوه وسألته:
– لماذا قلت حين جئنا الى هنا انك تسير على هدى آثاري الدافئة وتأخرت عمداً الى الخلف لكي تخطو على الآثار، وقلت انك تشعر من هذا بمزيد من الدفء.
قال مارتشنكو مرتبكا:
– لكي ننشط في السير مرحاً بكل بساطة.
وافصحت ايزولدا بهدوء:
– أما أنا فلقد ظننت انك قد حرصت على انتقاء هذا التعبير الحسن خصيصاً من أجلي. ولكن يبدو انك مجرد رفيق ظريف.
وزاد ارتباك مارتشنكو وأخذ يطرف بعينه ثم رنا الى كابا ولكنها استدارت. وتجاوزوا حرش أشجار البتولا المغمور بالنور الأبيض. ولمعت في العتمة جذوع الأشجار ذات اللون الباهت.
تأبطت زينا ذراع كابا وسارت مغمضة العينين، متعثرة في مشيتها. وسألتها كابا:
– ما لك تتهاوين علي بكل ثقلك؟
– لقد تعبت، – قالت زينا شاكية، – درجة يخيل لي اني سارقد معها للنوم حالا.
ثم ساروا طويلا على السكة الريفية للبلدة التي لحقها التشويه جراء مرور الجرارات، واكتنفتها أشجار البلوط الملتوية المعمرة مئات السنين، عاوية بوجه الريح. بينما طارت الغربان السود من فوق الأغصان المتعكرفة.

همى نديف الثلج بطيئا خفراً على الارض الوحلة المبللة. وتبجح مارتشنكو قائلا:

– انظروا كيف يذوب الثلج رأساً عقب سقوطه على وجهي، كأنما يسقط على موقد ساخن!

– صحيح. – قالت زينوتشكا باستغراب ومست بكفها جبينه وصرخت. – ان حرارتك مرتفعة الى حد فظيع!

وتطلع مارتشنكو نحو كابا.

– جئت مستبرداً اما الآن فاني ملتهب سخونة. انتم يا مغفلون تشعرون بالبرد أما أنا فأشعر بالدفء حتى لتساورني الرغبة الشديدة في فك أزرار معطفي.

وقبضت زينا على يده:

– اياك ان تفعل.

– توجه على الفور الى نقطة العيادة الطبية! – أمرته كابا.

واقترح زايتسيف:

– دعني ارافقك.

– وكيف؟ – قال مارتشنكو. – ليس من أصول اللياقة ترك الفتيات لوحدهن ينبغي ايصالهن حتى المسكن. – ودفع طاقيته نحو قفاه بلا تهيب.

٢٠

شهق السد العالي الضخم مرتفعا كأنه سور حصن عظيم. وعند اعتابه توهجت نار الموقد المشتعل في العراء ساطعة صفراء.

وجلس قرب نار الموقد ميكانيكي المحرك المناوب، وهو قصير القامة، نحيف القوام، أحمر الانف.

كانت المضخات تطقطق دون رتابة. وأنبوب نقل الغاز يتمدد بجسمه الأسود نصف مغمور بمياه الغدران. وفي منحدر السد لمعت فوهة الأنبوب المدسوس فيه وقد تدلت منها المياه المتجمدة كالحبال.

وقال ميكانيكي المحرك وهو يشعر بالغبطة لانقطاع وحدته الموحشة:

– اسمع يا فيتكا أسباب عدم ارتياحي. تجمهر هنا طيلة اليوم جميع الرؤساء ومشوا مثل الديوك في خيلاء ولكنهم لم يستطيعوا اعطاء اية فكرة نافعة. وذهبوا سائرين في الدرب دون تطلع الى الجانبين أو التفات الى الخلف وكأنهم شارلي شابلن في مشيته الحزينة. حشر الغطاسون أنفسهم في الأنبوب الا انهم لم يستطيعوا فيه حراكا. انهم قادرون على السير والعمل بين الاشنات والطحالب المائية المتشابكة في ظلام دامس أما هنا فلا حول لهم ولا طول. الصدرية النحاسية وحدها تكاد تسد عرض الأنبوب. وأي فائدة لنا من الغطاسين بينما الماء في الانبوب الى حد النصف فقط! كان الأفضل لو بحثوا عن شخص صغير الجسم قصير الأطراف ووعدوه بألف روبل على سبيل المكافأة، فربما أمكن العثور على شخص ما مستميت. فيغدو ممكناً ادخاله الى الأنبوب. لقد جربت الولوج الى الأنبوب بنفسي ولكن كدت أختنق هناك ولم اوفق الى العودة والخروج الا بالكاد.

– وهل زحفت مسافة طويلة؟ – سأله مارتشنكو.

– مالا يقل عن عشرة أمتار – ورفع قبعته عن رأسه كاشفاً عن يافوخه. – كاد رأسي يتهشم، ولكن لا بأس، مر الأمر بسلام. ان شعر رأسي كثيف لا ينبت عند الآخرين الا في موضع الشاربين. وبالطبع يعم البلل داخل الأنبوب.وقد أمر بالويف باعطاء من السبرتو المخصص للغطاسين. وقد شربته محلولا بدمعي نفسي، وسرعان ما تدفأت.

وخلع مارتشنكو المعطف وقال ميكانيكي المحرك بلهجة أمر:

– هيا امسكه. وحث خطاه نحو الأنبوب.

وأعلن ميكانيكي المحرك بفرح محتضناً المعطف بين ذراعيه:

– هذا صحيح. انت على هذا قادر لانك مستميت، ولا تزال أعزب!

– والتفت نحو الفتيات سائلا: – أصحيح ما أقول ايتها الفتيات من كونه في وضع عزوبية موقت؟ – ثم قال بقلق: – هذا الامر لا يمكن انجازه بدون بطولة. الراديو انبأ ان الطقس سيميل نحو انخفاض الحرارة، فان لم يمر أحد عبر الانبوب قبل يوم الغد فلن يكون بالوسع بعدئذ كسر الجليد حتى بقذائف المدافع اذ ان

الماء سوف يتحجر حتى الصباح وليس بوسع المضخات سحب الماء كله، وبايجاز فانها تسحبه قطرة فقطرة بينما هو هناك فيض لا غيض.

ودنا زايتسيف الى فوهة الأنبوب المدسوس وقال بحزم:

– أنت يا فاسيلي مستبرد وليس من الحكمة ولوجك في الانبوب.

وأراد مارتشنكو دفع زايتسيف ولكن الميكانيكي تدخل قائلا:

– ما دمت مزودا بتقرير طبي عن وعكة مرضية فلا داعي للولوج. – ولكنه سرعان ما أوضح قائلا: – ارى من وجهك دون استخدام محرار، ان درجة حرارتك لا تقل عن الثماني والثلاثين درجة. وانا هنا نيابة عن المسؤول فلا أسمح لك، وهذا آخر الكلام. – وألقى المعطف على كتفي مارتشنكو وقال آمرا: – أدخل يديك في الردنين وزرر جميع الازرار وابتعد عن هنا. فاذا شاكست فسوف استدعي العمال ونأخذك بشكل جماعي الى الرئيس.– ثم تطلع بعناية الى زايتسيف وقال: – وانت من حيث التركيب الجسدي أصغر منه حجماً فاذا كانت الصحة تسمح والضمير يرضى فاني لا أعترض على ذلك.

– شكراً. – قال زايتسيف وأخذ يخلع ملابسه.

وحين لاحظ ميكانيكي المحرك كثرة السحابات في صدرية زايتسيف من المخمل القطني سأله مستريباً:

– لعلك تريد فقط التباهي أمام الفتيات بالولوج الى الانبوب؟ اذا كان ذلك وحده هو السبب فانني أمنعك كذلك.

فكر زايتسيف عندها بالفعل في ايزولدا. هو واياها بنفس الطول ولمة الشعر فقط جعلتها أعلى منه قامة. ولكن خيل اليه انه حتى حين كانت عيناها عند مستوى عينيه فانما هي على أية حال أعلى. وهو حين كان يلتقي بايزولدا يخاطبها بلهجة رسمية شاعراً رغم ذلك بانه لا يحق له ان يتصور نفسه حيالها رئيساً. وخطرت على ذاكرته عبارة بالويف «الرؤساء يعينون اما القادة المشرفون فانهم ينتخبون. ان المشرف هو الانسان الذي يفوق الآخرين لا من حيث المعارف فحسب وانما أيضاً من حيث المزايا النفسية النفيسة».

هذا حق فان زايتسيف قرر الولوج في الانبوب لان ايزولدا كانت حاضرة هنا. ولكنه قال لميكانيكي المحرك بصرامة:

– انني منظم كومسمولي. مفهوم؟ وأتحمل على عاتقي كامل المسئولية.

– على هذا لك ان تدخل بالطبع. – وافق ميكانيكي المحرك وطلب قائلا: – انتظر سانادي الناس، فهذا الأمر يستحق الاحتفال به على رؤوس الأشهاد، وليأخذ الآخرون منه قدوة.

وعاد ميكانيكي المحرك مع اثنين من العمال وقال لهما مهيبا وهو يشير الى زايتسيف:

– انظرا هذا عضو الكومسمول سيزحف الى داخل الأنبوب. انتما هناك تنعمان بلذة الدفء أما هو فقد قرر القيام بهذا بدلا عنا جميعاً. – وقال مقترحاً: – هلموا نوجه التحية للرفيق. – وطفق يصفق.

وخلع أحد هذين العاملين قفازيه من المشمع اما الآخر فأخذ بالتصفيق وكفاه في القفازين.

وقال ميكانيكي المحرك بلهجة عملية:

– والآن هاتوا الحبل.

ومرر العاملان عبر البكرة مرساً سميكا ملفوفا من الخيوط الفولاذية الدقيقة. وأعطيا طرفه الى ميكانيكي المحرك الذي قاس على جسم فكتور انشوطة المرس ولف الطرف من الاسلاك الحادة المضفورة بمنديل نزعه من رقبته وقال موضحاً:

– هذا لئلا تحز النهايات الحادة عبثاً. – وأدخل الانشوطة بشكل مائل عبر كتفي زايتسيف. وتطلع اليه من أخمص قدميه الى قمة رأسه وقال: – لا تخلع الكالوش من الحذاء فان المَطاط أثبت في التشبث، وعندما ستزحف داخل الانبوب سيكون أروح لك عند الدفع بالقدمين. والآن هات كفك او كما يقال هات خمسك وفي الطريق الميمون. – وصافحه.

كما شد العاملان أيضاً على يد زايتسيف وقال مارتشنكو مقطباً:

– سدى تفعل هذا يا فيتكا فانني على أية حال أمهر منك.

وضغطت كابتولينا أصابعها بقوة على كفه وهمست:

– انني احترمك جداً يافكتور، جداً.

وصرخت زينا بقنوط:
– اخرج بسرعة سأكون قلقة عليك جدا.
وسألته ايزولدا بصوت خافت:
– ولكن أفلا تختنق هناك داخل الانبوب؟ ربما ينبغي ارتداء القناع المضاد للغازات؟
وقال فكتور صارخاً بشطارة:
– والآن لكم التحية وسوف نلتقي عند الطرف الثاني من السد.
– اسمع! – توجهت ايزولدا مخاطبة ميكانيكي المحرك. – وماذا اذا بدأت تختنق أنفاسه هناك؟
– لن ندعه يموت. – قال ميكانيكي المحرك، – سوف نسحبه بالمرس كما تسحب الفلينة من القنينة. – وأوضح متجهما: – حينما جبنت عن مواصلة الزحف جررت الى الخلف بالمرس. فان لدينا الخبرة في هذا الأمر مكدسة.
ركع زايتسيف على الركبتين عند الفوهة المتجمدة للأنبوب المدسوس ودس رأسه في الظلمة الوخمة.
واصطف الآخرون في خط مستقيم قابضين بأيديهم على المرس لشده حين يبدأ زايتسيف بالزحف داخل الأنبوب.
وأعطى ميكانيكي المحرك الى زايتسيف مصباح جيب كهربائياً وقال موضحاً:
– في حالة شعورك بسوء الحال أو مواجهتك كتلة جليد يتعذر عليك الزحف خلالها اعط الاشارة بالوميض فسرعان ما نسحبك الى الخلف. فاذا جبنت فأشر كذلك بالوميض ولا تخش شيئاً من العاقبة. في هذا لست وحدي بل لقد أخفق الكثيرون ولم يوفق الجميع. اذن فلا بأس اذا جمدت نفس الانسان جبناً. وينبغي الفهم.– وهنا تلفظ العبارة بصرامة – انها ليست الحرب، هذه قضية سلم ولا تتطلب التضحية بالنفس، وهكذا لا تكن أحمق ولا تتمسك بالعناد الأخرق. – وسأله : – ألا تريد تناول القليل من السبرتو طلباً للانتعاش والحصول على الدفء؟
– كلا، – قال فكتور.
– اذن هيا. – وأعطى ميكانيكي المحرك الى زايتسيف قفازيه من المشمع.

مر على السد في هذا الوقت قطار بضاعة طويل. وشعر زايتسيف بالترجرج الاصم للتربة وجسمه ممدد في الأنبوب الى النصف الذي امتلأ بالدوي الشديد للعجلات. وبدا كما لو ان الأنبوب قد أصبح من وقع هذا الصوت الداوي اكثر ضيقاً وجهامة. وفكر زايتسيف فزعاً «كأنني أنزل الى قبر طويل ضيق لانهاية له». وتشجيعاً لنفسه هتف بصوت مرتفع:

– «الجثة التي تخلفها بعدك ليست انت بل حقارة».

– ماذا قلت؟ – سأله ميكانيكي المحرك قلقاً.

– هذا مقطع من قصيدة للشاعر الامريكي ويثمان. – أوضح زايتسيف عبارته.

– لا ينبغي التحدث عن الموتى بدون احترام. – قال ميكانيكي المحرك في شيء من الاستياء. وأضاف بحزن: – لقد كنت في جبهة القتال ثابت الجنان، يبدو أن أعصابي هنا قد أصبحت أضعف. كنت اندفع في الهجوم راكضاً غير هياب دون ان يطرف لي جفن، أما هنا فقد أطبقت جفوني ونكصت القهقري. والآن هيا، هيا أصلح الحال!

تمدد زايتسيف بصعوبة خلال مجرى الانبوب المتجمد. وأخذ ميكانيكي المحرك يمسك من رجله ويدفع الى الداخل. وكان سمك الماء المتجمد أقل على قدر الابتعاد، ولكن الماء خفق تحت الصدر والبطن وتبللت الملابس وثقلت.

زحف زايتسيف دافعاً بالمرفقين والقدمين وانزلق الكالوش على الخثارة الجليدية التي تكسو الجدار الداخلي للأنبوب.

ودوى الانبوب وسرت فيه أصوات مدمدمة كئيبة.

عندما مر في الأعلى قطار معدني العربات وأخذت تدوي بصوت يصك الأسماع جعجعة عجلاته التي لا تحصى، ضاغطاً بثقله الذي يفوق التصور على جسم السد، الذي يتلقى الحمل، خيل ان الانبوب المدسوس لغرض التمرير وهو مستقر في جوف الأرض يوشك على الانفلاق.

واذ استحوذ على الفتيان شعور الخضوع لهذا الضغط المهول سارعوا لا ارادياً نحو الجحر الحديدي المستدير.

ودوى الانبوب بصوت داو مخيف ورهيف وكأنه قد امتص كل الدوي الذي أحدثه القطار العابر.

كان القطار قد اختفى وغاب ضجيجه في لجة الضباب الرمادية ولكن الأنبوب واصل زمجرته المتموجة في قلق وكأنما يذيع عبر مكبرة الصوت شريط مسجل لدوي قطار منطلق في اندفاع سريع.

وانتظر الفتيان جالسين القرفصاء قرب فوهة الأنبوب الفاغرة حتى تنتهى الأصوات التي يتردد رجعها بين جنبات الأنبوب.

وصرخ مارتشنكو في فتحة الأنبوب منادياً:

– يا فكتور!

وجاء الرد من الأنبوب مدوياً:

– ماذا تريد؟

– كيف حالك هناك؟

ودوى صوت فكتور:

– أشعر ببرد خفيف.

– وكيف تشعر؟

– لا بأس علي، أواصل الزحف قليلا قليلا.

– وهل الضغط عليك قوي؟

– كان المجال ضيقا في البداية، تجمد داخله حيث يخرج الأنبوب الى الخارج وهو دافىء الى حدما تحت السد، ولكن الماء كثير.

سقط ثلج لزج. وألقت بثقلها أيضاً على الأنبوب السماء الواطئة المشحونة بركام من الغيوم الرطبة المترهلة. وكانت المضخات تلقف الماء بصوت مرتفع. وشغل ميكانيكي المحرك مكائن الديزل الى آخر قدرتها. وقاس بقلق مستوى الماء بعود يابس.

وشد الفتيان المصطفون في خط مستقيم المرس المقبوض بأيديهم وهم يسحبونه ببطء من الملف الحديدي للبكرة.

وعندما عثر فجأة منحنيا بعقبة غير مرئية تجمد الجميع في أماكنهم قلقين وخطا ميكانيكي المحرك نحو فوهة الأنبوب ومد رأسه ونفسه اليها وصرخ فيها. وجاء الجواب من الانبوب بصوت زايتسيف الضعيف الواهن الذي يتردد متموجاً طويلا.

وعندما عاد ميكانيكي المحرك أعلن قائلا:

- قريبا لا تعود تكفي مكبرة الصوت ذات الست عشرة بوصة للتحدث معه. الصوت يخشخش فلا يفهم شيء، معنى ذلك انه بعد في زحفه كثيراً... ألم أطلب منكم أن تسحبوا... ان المرس يزداد عليه ثقلا بعد كل متر. دفعوا له المرس بالرمح تسهيلا عليه للتحرك قدماً.

وقالت كابا لزينا ناصحة:

- لو ذهبت طلباً للدفء الى الموقد فان وجهك قد أصبح بلون الاشعة فوق البنفسجية تماما.

وأجابت زينا بلهجة عملية:

- اذهبي انت أولا أما أنا فسوف أذهب بعدك قبل ظهور فيتيا من جديد. والا فسوف يزرق مرة اخرى. ويغدو مقرفاً له بالمرة رؤية وجهي. - ثم تلفظت بلهجة حالمة: - لقد وقعت في غرامه الآن من العنف بحيث ترتعد كل فرائصي!

- ولكن فكري ماذا تقولين؟ زايتسيف في اية حالة وأنت تتفوهين بالحماقات والترهات.

وقالت زينا باقتضاب:

- كل ما في الأمر هو انني صريحة جداً، والا فان شعوري يخلو من كل أمل، هذا واضح تماما.

وقال فجأة عامل طويل نحيف مخاطبا ايزولدا، هو نفسه الذي صفق لزايتسيف دون ان يخلع قفازيه :

- لا تنظري الي نظرتك الى وغد لانني لم ألج الأنبوب وأنا جواره. كنت سأفعل ذلك لولا وجيب قلبي فانني حين دخلته أخذ القلب يخفق بشدة. لقد ردمت علي التربة في خندق ابان الحرب فمددت البندقية من خلال التراب ونزعت منها الترباس وظللت مدة يومين أتنفس عبر البندقية حتى ازيح عني التراب. ولو كنت قد دخلت الى الانبوب لمر علي ذلك كله مجددا كما حصل لي حينئذ ولم أطق.

- انني لا أفكر عنك بأي شيء من هذا القبيل. يبدو ان عيني غير طيبتين، فأنا أنظر دون قصد ولكن الناس كثيرا ما يتصورون من نظرتي شيئاً ما يدعو الى استيائهم.

- أرجو المعذرة، - قال متدخلا عامل قصير القامة أجعد

الشعر، – ولكن يغوروف صادق في اخبارك عن نفسه. وأنا أيضاً أجد لزاما علي القول انني عشت في ضواحي مدينة فيلنوس بساحل بحر البلطيق تحت الارض مدة ثمانية أشهر في سرداب. وكان ذلك من أفظع ما يكون. وقد دفنت ابنتي وزوجتي هناك في التراب تحت الأرض. وقد دخلت أنا أيضاً الى الأنبوب، ولكن عرتني القشعريرة وخرجت منه. ولكنك تفهمين ما معنى الاصابة بعاهة نفسية! الحرب سافلة! يقف أمام ناظريك رجل طبيعي في الظاهر ولكنه في الداخل مصاب بصدمة. وهل تعرفين ما اكثر عدد هؤلاء!

– أعرف، – همست ايزولدا واستدارت ملتفتة لئلا تقول. ولكنها لم تستطع كبت ما فيها وقالت على اية حال بصوت مرتفع: – أنا مولودة من ألماني. – وأمسكت بقبضة من الثلج مسحت بها وجهها وسألت بصوت لا يكاد يسمع: – هذا أنا كما أنا، مفهوم؟

وقال ذو الشعر الأجعد مستنكراً:

– ولكن أما هذا فأرجو المعذرة! لست على حقيقتك الا انساناً طيباً لا غير. وانه ليس صحيحاً بالمرة حين تريدين الايحاء الى من حولك عن نفسك بشيء ما يخالف المألوف. وماذا في الأمر؟ وهل من حاجة الى تعذيب النفس؟ – قال في لوم وعتاب. – ليست كل حقيقة بحقيقة. وما ذنبك في هذا؟ لا شأن لك به. وما ذنبنا نحن جميعاً فيه؟ أكرر قائلا: الحرب سافلة. كل واحد موافق على انها سافلة.

– انك في كلامك هذا تعند الحق يا ماتفي، – أيده الطويل النحيل. – لو راح كل واحد منا يفتل حبلا طيلة عمره من شقائه في الحرب اذن لغدت النفس فارغة ولم يكن بوسعك ان تقف معتدل القامة. – ثم سأل ايزولدا: – ما رأيك بشأن الجبنة المسخونة؟ تفضلي بتناوله، عندي منه علبة كاملة. وقد اشتريتها بعد أن أعجبني غلافها ثم جربته فاذا مذاقه في الطعم أشبه ما يكون بالصابون! فكلي منه ما شئت. اما الفتى فسيظل طويلا يزحف داخل الانبوب فلماذا تظلين تنتظرينه على الريق؟

– شكرا جزيلا، – قالت ايزولدا، – انني أحب الجبنة المسخونة حباً جماً!

– يا لعينيك من وقاعتين! – قال لايزولدا أجعد الشعر وغمز

بطرفه الى جهة الأنبوب. – أراهن على انهما تنيران هناك لهذا الفتى في الظلمة كالفنار. وأنت بالطبع قد لاحظت كيف نظر في آخر لحظة اليك بالذات؟

– أنت مرح! – قالت ايزولدا وهي تبتسم.

– بالفعل، – وافق ذو الشعر الأجعد، – المزاح من طبعي. ولماذا أنصرف عنه مادام يهيىء للناس بهجة؟

٢١

أخذ فكتور زايتسيف يشعر بثقل المرس أقوى فأقوى، وشد ملابسه المبللة، ومختنق الأنفاس في الجو الخانق الرطب متحركاً لا زحفاً وانما متقرفصاً بكل بدنه. تمزق قفازاه وتخرقت سراويله عند الركبتين جراء الاحتكاك بمحاز لحام الانابيب، ولنفس السبب أيضاً تخرق الحذاء.

وشج جبينه بنتوءات اللحام الحادة، ولزق الدم السائل متخثراً بالعين. ولكن الرؤية هنا كانت على أية حال متعذرة ولم يكن ثمة من سبيل الى القاء نظرة على أي شيء في هذه العتمة. فهو في دائرة مغلقة على نفسه محصور في حيز ضيق داخل هذه القصبة الفولاذية الممتدة بلانهاية، وبسبب الاختناق شعر بالغثيان والدوخة. وخيل اليه أحياناً وكأن الأنبوب يأخذ بالدوران وهو في داخله يدور معه حيثما دار. ابترد جسده في الثياب المبللة واكتسى وجهه بحبات العرق البارد. وتعالى صرير المرس وهو يصطدم بالجدار الداخلي للانبوب وتضاعفت زمجرة الصدى بشكل شرير وتردد في السمع ما يشبه صوت انهيار.

وعرضت لحظة حين صار زايتسيف يتقهقر بسرعة راجعا على أعقابه وظل يتراجع حتى التف في حلزون من المرس المتلفف مما أوقفه. وفزع فكتور في البداية لظنه انه قد ختم عليه مقيدا في الانبوب ولكن بعد ذلك فقط حين عاد اليه وعيه ببطء وقد عرته روعة الفزع في ذعر مدركا ماكان ينوي فعله لتوه. وحينئذ استلقى

متمددا وتمطى مستجما حتى خفتت دقات قلبه التي تضرب حتى الألم في الصدغين.

ولئلا تعظم رهبة التفكير في الموت حمل نفسه على التفكير بصوت مرتفع. وعندما كان يسمع كلماته وهو يتحدث مع نفسه ورجعها يضخمه الصدى بشكل رهيب أخذ يتكلم معهن مع هذه الكلمات التي انطلقت منه.

– أشعر بالألم عند التنفس. – قال زايتسيف الأول شاكيا.

– لعلك تريد ان تنصب لك هنا مروحة لتبديل الهواء؟ – قال له زايتسيف الثاني متهكما في سخرية.

– يجب علي رمي هذه الانشوطة والزحف للخلف عائداً، اذ لم تعد لدي القوة الكافية للتملص.

– اذن فسيكون أول ما يشاهدونه منك في هذه الحالة هو مؤخرتك المبللة وأنت تسقط بها مرتمياً من الأنبوب الى الأرض!

– يكفي أن تستلقي مضطجعاً على ظهرك وتضع المصباح الكشاف على صدرك ثم تضغط على زره لتصدر عنه ومضات الضوء ليسحبوك بالمرس الى الوراء. وتزحف على ظهرك ورجلاك ممدودتان الى الأمام. ثم تقول لهم معترفاً بشرف الصراحة: «لم أستطع».

أما والدتي فلقد زحفت ساحبة والدي الجريح فاقداً وعيه! ثم فيما بعد عندما خارت قواها وغابت عن الوعي حملها الوالد بدوره... وقد استلقت عليه ببطنها المرتفع كالمنفوخ بالهواء حيث كنت مستقرا وأنت جنين في بيت رحمها متقرفصاً كما أنت عليه الآن هنا... لتخرج مستقبلا منه وليداً ينمو منه فكتور زايتسيف الذي هو أنت. لقد زحفا عبر المستنقع. وكانت ترن في الهواء طلقات الرصاص. أما في قاعدة أنصار المقاومة فقد كان الفاشيون يجهزون على الجرحى. وكان سطح المستنقع مكسواً بالثلج الأسود الهش وكانا يتساقطان في هذا الثلج. ولكنهما يواصلان الزحف ويواصلان. وقال لها الوالد آمراً: «ازحفي انت لوحدك فانك يمكن ان تسقطي وأما أنا فسوف أستلقي قليلا وأستجم مستجمعاً قواي ثم أزحف على اثركما». وقد خاطبها وكأنه يعتبرها لم تعد امرأة وحدها بل نحن أنا واياها. ولكنها قالت له: «وما الذي سأقوله فيما بعد حين

يسألني طفلنا عندما يكبر؟ أ أقول له انني تخليت عن أبيه وتركته يموت وحيداً فريداً؟ انني لا أريد أن يشعر نحوي بالازدراء».

لقد تجادلا وهما نصف ميتين بصدد الموقف الذي سيتخذه ازاءهما طفلهما المنتظر حين يبلغ سن الادراك. وزحفا من جديد ساحبين أو حاملين بعضهما البعض بالدور. وقد حدثته عن هذا كله أمه. وحدثه به أيضاً أبوه حين انتقلت الأم الى العالم الآخر. وقال له: «لقد ولدتك وهي لا تزال في صحة وعافية ثم اصيبت بالبرداء التي حطمتها. وأصبحت من شدة الألم نصف مجنونة. وكانت تحقن بابرة الدواء كل يوم. ثم فقدت هذه الحقن مفعولها وتأثيرها حتى النهاية. وكنت أكوي مواضع الألم من جسدها بالمكواة الساخنة عبر الشال الصوف. وسخنت جسمها ليل نهار بضوء المصباح الأزرق لكنها ظلت طيلة الوقت تتألم حتى تعبت من الصراخ فكفت عنه لذلك». وقال راجياً: «اغفر لي يا فكتور لقد تعذبت معها كثيرا ولكني لم أظهر لها ذلك مطلقاً. كم من السنين كنت لكم فيها بمثابة خادمة البيت. لقد عشنا على معاش التقاعد بينما أنا رجل معافى. وتخليت عن كل شيء فهل بوسعك فهمي؟»».

ولكن فكتور لم يستطع على أي حال منح ابيه الغفران وحتى كف عن مناداته بأبتاه. وهو الآن محبوس في الأنبوب. خائر القوى، صرخ لأول مرة منذ عامين بصوت مرتفع ورقة:

– أبي، يا أبي العزيز الحبيب! – وعاد يقول على عادة الصغار: – لن أكرر هذا معك يا بابا. سأكتب لك اليوم رسالة أرجو فيها منك المغفرة. اليوم رأساً حالما أخرج من هنا سأكتب الرسالة!

وأخذ يتحرك بسرعة داخل الأنبوب متشبثاً بجداره الداخلي بكل جسده ساحباً خلفه المرس بثقله البالغ.

وحين استلقى فكتور متمدداً لم يكن ليعرف على وجه التحديد ما الذي يفعله وما القصد منه أهو يستريح ويستجمع القوى أم انه قد استرخى مستسلماً، وتدلى المرس بلا حراك من فوهة الأنبوب.

وبقي عند هذا الجانب من السد عاملان ثم بنوتشكينا

وبودغورنايا. اما ميكانيكي المحرك ومارتشنكو وبزوغلوفا فقد انتقلوا الى الجانب المقابل من السد.

كف الثلج عن السقوط ولم يعد الهواء رطباً، وانكشفت السماء الصافية الوضاءة غير الرخية. وقال ميكانيكي المحرك في قلق:

– أخشى أن يتجمد الأنبوب عند المخرج وعندئذ يتعذر على الفتى شق طريقه الى الخارج. وينبغي تنظيف المنفذ من الأنبوب.

وتناول قضيباً حديدياً ومرزبة قصيرة اليد وأخذ يرتقي علوة قرب الأنبوب وتبعه كل من مارتشنكو وايزولدا بصمت.

ظهر ان ميكانيكي المحرك كان على حق. كان الأنبوب المدسوس المطل من تحت السد قد تجمد.

في البداية أخذ ميكانيكي المحرك يكسر الجليد ثم مارتشنكو، ثم ايزولدا. وتعمقوا جميعاً الى داخل الأنبوب. وقد ربطوا أنفسهم بحبل واحد وتناوبوا العمل بالدور حين كان يشعر كل واحد منهم بان يده لم تعد تطيق رفع المرزبة من جراء التعب.

تعلق المرس متدليا من الأنبوب في عجز وبلا حراك، ولم يأت من الأنبوب أي صوت ولم تسمع نأمة مهما صرخت في الفوهة بنوتشكينا وقد بلغ بها التأثر والانفعال حد الهياج الجنوني التام.

رمت زينا الى الأرض معطفها القصير، واذ بقيت في فستانها الخفيف وحده زحفت بعزم الى داخل الأنبوب. والتفتت الى الخلف لهنيهة وصرخت:

– سأنظر فقط ما الذي حصل لفيتيا وسأرجع في الحال! – واختفت في الثغرة الحالكة.

واندفع العامل الأجعد الذي كان واقفاً قرب الأنبوب في فوهته. وصرخ بشيء ما من هناك، ولكن لم يكن ممكنا فهم فحوى ماقال.

لحق العامل الطويل النحيل في الامساك بكابا بودغورنايا لمنعها من الاندفاع بدورها الى هناك وطوقها من الظهر بيديه وحين حاولت الافلات رفساً بالقدمين اكتفى بقوله راجياً:

– أرجوك فقط عدم الضرب في الركبة لانها عندي مكسورة وقد نمت بشكل ما. لا تكسريها رجاءاً والا فسأعود مرة اخرى الى العرج.

– دعني أرجوك. – توسلت كابا.

- كلا، ذلك غير ممكن. بدونك غص الأنبوب الى أقصى حد. ما أكثر ما فعلنا من الأفعال! ولماذا كل هذا؟ لان للبطولة عدوى كالوباء... - وطلب راجياً: - كوني عاقلة وعندئذ أطلق سراحك. أركضي الى بالويف وأخبريه بالورطة التي وقعت. ينبغي انقاذ الناس. انهما الآن فقط مزدحمان في الأنبوب وهما يخنقان بعضهما بعضاً بهذا الازدحام. كان الفتى يتنفس من تيار الهواء الدافق في الأنبوب. اركضي الى بالويف وقولي له: نزلت مصيبة!

كان قد تقرر أثناء الاجتماع التكنيكي الموحد «لناصبي الخط على البر» و «ناصبي الخط تحت الماء» تمرير المرس عبر الأنبوب المدسوس بواسطة المضخة الكابسة. وذلك بادخال حشوة خشبية يتناسب قطرها مع قطر الأنبوب ويشد اليها طرف المرس ثم ينفخ في الانبوب الهواء المضغوط كما يفعل عندما تدفع عبر فجوة أنابيب نقل الغاز الفرشاة المعدنية لتنظيفها من الوسخ.

وبعد أن تم التوصل الى القرار المطلوب اندفعت الى حجرة المكتب للهيئة الادارية بودغورنايا وأخبرت بان ثمة أناساً يواجهون الموت داخل الأنبوب المدسوس.

ربى بافل غفريلوفتش بالويف على مدى الأعوام العديدة في نفسه رد الفعل الدفاعي، فكان يكتسب في أحرج الاوقات الرهيبة، وفي لحظة، سكينة غير منفعلة وكسولة بشكل ما وربما غير مبالية، عارفاً بأنه لا أخطر على المرء من الانفعال الحار المتهيج المتشنج.

ابتسم بلطف ورجا بودغورنايا أن تهدأ. وحين كان يرتدي معطفه ويعتمر قبعته أخذ يستفسر، ووجه أوامره بصوت غير مرتفع، وحتى تهيأ له ان يتبجح أمام جاركوف رئيس قطاع أعمال البناء والتركيبات المسمى اختصارا س م و - رقم ثمانية، قائلا:

- أرأيت، أي فتيان عندي كالنسور!

ولكنه أمر السائق بقوله:

- ساشا. طر بالسرعة النفاثة. لقد وقعت علينا واقعة. ثمة أشخاص يواجهون الموت.

ومرقت «سيارة الغاز» كسهم انطلق من قوسه.

وفي السيارة خلع بالويف حذاءه وانتعل الأحذية الطويلة

الساق التي يحتفظ بها دوما في السيارة ملفوفة في قماش مشمع وبجوارها كيس مشمع يحتوي على قرصة خبز وطعام معلب.

واسترجع بالويف في ذاكرته جميع الحوادث غير السارة التي وقعت للناس في أي وقت سبق في مشاريع البناء.

خلال الأعوام السابقة كان اكثر ما يكون السبب في حدوثها روح اللامبالاة ازاء التكنيك. ولكن الحرب علمت على العناية الحاذقة وبلا كلل. ان شجاعة الجندي هي من حيث الجوهر القدرة الأريبة على عدم التخلي حتى ولا ثانية عن الاحتراس الفطن الهادىء المطمئن. وكان الشبان الذين أقبلوا الآن على أعمال التشييد قد تلقوا التربية وفق روح التبجيل العميق حيال الأجهزة الميكانيكية. ولكن ماكان بالنسبة للمشرف الاقتصادي ورئيس المشروع خطراً حقاً هو روح لبطولة الباسلة في العمل. وكان من المتعذر تقريباً الحيلولة دون وقوع مظاهرها، وهنا لا تساعد حتى أصرم قواعد الأمن الصناعي. استدراك وابعاد بطولة كهذه، مهمة يعجز عن انجازها حتى أمهر وأحذق الرؤساء وأكثرهم حنكة ودراية في أعمال البناء والذين عرفوا واشتهروا بالمهارة العالية في فن الادارة والتنظيم.

لا يحب هؤلاء الرؤساء وقائع البطولة حين تظهر في مشاريعهم. ويفكرون على هذا النحو: اذا كان الأمر قد تطلب البطولة فمعنى هذا اذن هو انني قد أغفلت النظر ولم أدرس الأمر حتى نهايته وأقتله بحثا ولم اكمل التفكير فيه من كافة الجوانب.

ولكن ليس عبثاً وجود مصطلح «جبهة الأعمال» في أعمال البناء أنه ليس مفهوماً طبوغرافياً حسب. فهو مفعم بروح النضال، تتردد موسيقاه كألحان المارش العسكري العنيف المؤثر بانفعال. ومهما تماكر بعض الرؤساء وأكدوا ان البطولة هي مصادفة، اندفاع متبجح، حادث عارض، متولدة عن اغفال النظر وعدم التحوط من قبل الادارة فان الجرأة والبسالة تتغلبان عليهم.

وكثيراً ما يندفع الرؤساء انفسهم لا يلوون على شيء وقد ركبوا رؤوسهم حد الطيش مقابلين الخطر وجها لوجه غير هيابين.

وحصل نفس الأمر مع بالويف. لقد قرر بحزم أن يلج بنفسه الأنبوب لكي ينتشل من داخله البناة المحصورين فيه. لقد كانت

لديه خبرة سابقة في هذا الأمر فانه تسلل في ستالينغراد عبر أنفاق مجاري المياه القذرة ونسف مرابض اطلاق النار لدى العدو.

قال بالويف ملتفتاً نحو الغطاس كوتشتكوف:

— سوف أتسلل الأول وستكون خلفي وتنير لي المكان بضوء الكشاف.

صمت الغطاس، ثم قال بشكل مبهم:

— طيب هناك في المكان سيتضح اكثر من الآن من الذي سينور ولمن ومن أين.

وثب بالويف من السيارة وهي لا تزال تسير وقفز مندفعاً الى الأنبوب.

كانت زينا بنوتشكينا مرتمية على الأرض في فستان ممزق. وكان الأجعد جالساً قربها يفرك بالثلج ذراعيه ملطخين بالكدمات والجروح ومضرجين بالدم.

وقال العامل الطويل النحيل بصوت أجش:

— لقد سحبته من رجليه وهو أمسك برجليها وهكذا جررتهما من الأنبوب. والحمد لله انهما لم يزحفا مسافة بعيدة والا لما كان بوسعي سحبهما واخراجهما.

وبعد الافاقة اجتهدت بنوتشكينا بحياء في تغطية جسدها بيديها. كانت كلها ملتوية على نفسها وبدت سراويلها الداخلية بلون أزرق فاتح من قماش التريكو وقد تمزقت من الجانب وحاولت جر أذيال التنورة الى الركبتين وسد خروقها.

خلع بالويف معطفه وأنهض بنوتشكينا ولفها بالمعطف وحملها الى السيارة. وعندما كان يحملها تناثرت ساقطة الى الأرض حبات عقدها الوردية.

نزع الغطاس كوتشتكوف ملابسه وبقي في البياضات الداخلية الصوفية للغوص وتوجه نحو الأنبوب بخطى نشيطة. ولكن العامل الطويل النحيل أوقفه قائلا:

— انتظر ولا تندفع بلا عقل. من قدر المرس المسحوب يستدل على ان الفتى قد سار مسافة طويلة والطريق اليه من الجهة الأخرى أقصر.

وتسلق الغطاس بصمت على منحدر السد. وصرخ العامل في اثره مازحاً:

— انكم تسيرون هناك بين الأشنات الكثيفة والطحالب المائية في العتمات الرطبة كأنكم قياصرة الماء أما الولوج في الأنابيب فقد عزفتم عنه مستنكفين. وحتى لوكانت من أنابيب المجارير للمياه القذرة مادام مشروع البناء يتطلب ذلك فينبغي نسيان انك مائي وادخل فيه. —ثم قال متوعدا. — انتظروا سوف اعريكم امام الانظار أثناء الاجتماع العام. تذكر وجهي فانني رجل ثابت العزم. — وتسلق على السد هو أيضاً.

وتسلق بالويف المرتقى على اثرهما...

ذهبت بودغورنايا معانقة رفيقتها بنوتشكينا الى نقطة العيادة الطبية.

وقالت زينا بتأثر وانفعال:

— كل ما كنت أسميه أجهزتي قد ذهب سدى فالعقد قد انفرط ولا أثر للقرطين. بل ان أحد القرطين شرخ الخد كله. — وقالت أيضاً: — سأطلب في العيادة رأساً عقاراً لازالة الشعور بالألم. — وتطلعت الى محياها وهي تنحني على المرآة الصغيرة فقالت: — ياله من بوز! حتى مجرد النظر اليه فظيع.

واتضح في النقطة الطبية انه فضلا عن الاصابات الاخرى كان أنف زينا مصاباً بكسر. وتوسلت في قنوط:

— دكتور. من فضلك. ان الانف ليس لمجرد التنفس منه! انه زينة الوجه الرئيسية!

وقال الدكتور راجياً:

— اسمعي! ليكن بكاؤنا خافتاً واما ضحكنا فليكن عالياً.

واستفسرت زينا شاعرة بالثقة والاطمئنان:

— اذن سيبقى أنفي كما كان؟

— بالتمام والكمال. — قال الطبيب مؤكداً.

وقالت زينا واثقة وهي راقدة على السرير النقال في العيادة الطبية وشاش الضماد ملفوف على وجهها وبعد أن هدأت نفسها:

— أتعلمين يا كابا أشعر بجوع شديد. عندما أصبحت بسبب عنف الانفعالات نحيلة القوام تضاعفت شهيتي للطعام. وبوسعي

الآن الاكتفاء من الطعام والشراب طيلة العمر بالسجق والليمونادا.

واستنكرت بودغورنايا:

– ماذا تقولين؟ ما الذي تقولينه؟

أصبحت عيناها مفزوعتين وأنت في يأس:

– ولكن يا كابوتشكا لا تحزني. ليس مصابا فادحا أن أكون وحدي بين الجميع من أهل الغباء!

واستفسرت بودغورنايا مفصلا من الطبيب عن حالة زينا، وبعد علمها بانها غير مهددة بأي خطر يذكر، قالت محذرة من قبيل الاحتراس:

– ان رفيقتنا بنوتشكينا قد اجترحت مأثرة بطولية وانقذت انسانا حصر في الأنبوب المدسوس.

وقال الطبيب مستغرباً:

– صحيح! ما أعجب ذلك. بينما هي من حيث المظهر ضئيلة كعصفورة!

وحينما تهيأت بودغورنايا للذهاب قالت لها زينا شاكية:

– انني يا كابوتشكا لا أحب تحمل أي معاناة وعذاب، لا البدنية منها ولا المعنوية. ولكنها لسبب مالا أدريه تكون من نصيبي.

– وتساءلت بفزع: – ألا تعلمين، هل ستجري لي عملية جراحية؟ ربما أصبت برجة في المخ؟ أتدرين بأي قوة سحبوني من رجلي؟

وقالت لها كابا:

– نامي يا عزيزتي نامي. غداً سوف يسمحون لك بالخروج من العيادة والذهاب الى البيت.

وتعلقت بنوتشكينا برقبة صديقتها معانقة وهمست في اذنها بصوت خافت متوسلة في رجاء:

– كم أود لو جاء فيتيا لعيادتي في مرضي لكي يراني راقدة هنا أتعذب ملفوفة بالضماد. فلقد سود صفحتي دوما، أما أنا فقد بيضت صفحته على الدوام. – ثم قالت بذات الهمس: – أو لعل فاسيا مارتشنكو سيعودني؟ هو أيضاً انسان طيب.

وتنهدت كابا بحسرة حارة واغلقت خلفها الباب المكسوة بلوحة رقيقة من الخشب المعاكس مصبوغة ملصقة عليها من الخارج

صورة وليد سمين، أصفر، يطفح وجهه بالرضا، على كفة ميزان أبيض الطلاء.

وخطر لكابا بغتة:

– «اذا رزقت يوما ما بطفل فسوف أشتري حتما مثل هذا الميزان الجميل المطلي بالميناء ولسوف أسجل وزنه كل يوم».

... زحف بالويف على ظهره منحدراً من أعلى السد حث خطاه وهو يعرج نحو الفوهة البارزة من الأنبوب المدسوس.

كان ميكانيكي المحرك ومارتشنكو قد وضعا المرس على كتفيهما يشدانه سحباً من الأنبوب. وكان بالجوار يحترق في برميل حديدي مموج مطروح بالعرض زيت التشحيم متصاعداً بعمود من الدخان. وكان فكتور زايتسيف في مزق ملابسه السوداء المبللة التي ملأها البخار ثقوبا يستدير نحو النار تارة بظهره واخرى بجنبه. وكان السخام الكثيف قد لطخ وجهه وبقي يلمع فيه فقط بياض عينيه كأنه أزرار من الصدف.

دنت ايزولدا نحو زايتسيف وفجأة طبعت على وجهه قبلة. وقال زايتسيف وقد تملكه الذهول:

– ولكني وسخ، لسوف تتلوثين!

حين وقع نظر مارتشنكو على بالويف ألقى المرس وأخبره بالوضع قائلا:

– الأمر على ما يرام أيها الرفيق الرئيس. وفي الامكان تمرير خط الأنبوب عبر الأنبوب المدسوس وفق جدول المواعيد المتأخرة لناصبي الخط على البر.

– ولكن من الذي سمح لكم بهذا؟! – صرخ بالويف فجأة زاعقاً وهو يشعر بنشوة السعادة التي تشمله وتفيض طافحة بها نفسه: – فظاعة! – واستغرب هو نفسه حين سمع صوته الجهوري الرئاسي ولكنه اذ لم يقو على ضبط نفسه ضرب بقدمه الارض صارخاً من جديد: – انني أسأل من الذي سمح بهذا؟

واقترب متهادياً ميكانيكي المحرك. وقال وهو يفرك ماسحاً راحة كفه بسرواله:

– تحية لك يا بافل غفريلوفتش. ينبغي توجيه الادانة الي فأنا الذي سمحت... – وأضاف مبتسماً، – بهذا الأمر الفظيع.

ومد بالويف يده الى ميكانيكي المحرك وهزه من كتفه ثم عانق مارتشنكو وزايتسيف قائلا:

– فيتنكا، أيها الانسان العزيز!

وجر اليه زايتسيف وأهوى عليه في عناق شديد، ومسح على رأسه برفق وهمس في تقطع بأرق الالفاظ. ثم أبعده عن البرميل اللاهب وأعلن فجأة بعزم:

– سأبعث فوراً الى أبيك برقية. مفهوم؟

وقال زايتسيف هامساً:

– سوف أكلم أبي بنفسي هاتفياً.

– سيكون هذا يافكتور انسانياً... وهو قرار حقيقي.

اقتربت جرارات «ناصبي الخط في البر» لتسحب خط أنبوب الغاز عبر الانبوب المدسوس.

• بأمر من رئيس قطاع أعمال البناء والتركيبات جاركوف ركبت على كلا جانبي السد أعمدة دقت عليها يافطات من الخشب المعاكس خطت فيها التسمية المختصرة: «س م و – ٨».

وبعد التطلع حواليه قال بالويف بكآبة:

– لقد سبقنا «ناصبو الخط في البر» وخلقوا لنا ورطة من صنع أيدينا.

ولم يعد بالويف يفكر الآن، وقد أخذ يعنف نفسه نتيجة الشعور بالغيرة الانتاجية، سوى بكيفية انزال خندق المعبر المائي من المنحدرات الرملية العالية والرخوة لكي يكتفي بناصبات الانابيب التي هي لديه دون «الاستدانة» من «ناصبي الخط في البر» وهم بالطبع «سوف يستجيبون للرجاء» وحتى بسرور، ولكنهم سوف يرسلون فيما بعد فاتورة الحساب وعليها عنوان «نفقات اضافية».

كان جاركوف يحب تقديم نفسه بهذه العبارة الفخور: «في الشئون الاقتصادية أنا نمر مفترس لا أشفق على أحد».

وككل انسان طيب النفس كان يبدي أحياناً حتى الشحة المفرطة حين يتعلق الأمر بأموال الدولة. ولكنه في هذه الحالة قرر ان يكون سخياً. واقترح بسماحة وهو يدنو الى بالويف قائلا:

– هات قائمة بأسماء فتيانك لمنحهم المكافآت النقدية من الرصيد الموضوع تحت امرتي كمدير.

وقال بالويف مقطباً في انزعاج:

– لسنا معوزين. لا تحاول مسايرة مجد الغير. اما فتياني فلسوف أحسن مكافأتهم بنفسي. وأما بشأن الحضور لدى اجراء مراسيم دفع المكافأة فتفضل على الرحب والسعة. بوسعك حتى التصفيق ما طاوعتك كفاك. – ثم أضاف: – طبعاً مع عموم الجمهور.

واقتربوا الى السيارة. وكان يخطو في المقدمة بالويف وزايتسيف. وسارت بزوغلوفا متخلفة عنهما رويداً محاولة ان يمس ظلها ظل فكتور وشخصه.

قال ميكانيكي المحرك مودعاً مارتشنكو مومئاً برأسه نحو ايزولدا:

– انها فتاة غير متهيبة. لم تكن أقل شأنا من عامل المنجم في تكسير الجليد داخل الأنبوب.. أما أنا ففكرت: انها امرأة ذات أظافر مشذبة بالمانيكور، وأين هي من مثل هذا العمل.

التزم مارتشنكو الصمت. كان الألم سارياً في كل بدنه وأعضائه وعلى عينيه غشاوة وفي فمه يبوسة. وقال بامتعاض لا لشيء سوى الرغبة في قول شيء ما تملصا من ميكانيكي المحرك:

– منذ عامين وأنا ألحم المفاصل في الانابيب وها هي أول مرة ولجت فيها كما ينبغي.

– هذا صحيح. – وتنهد ميكانيكي المحرك متحسراً. – انه محل غير مريح. لماذا تجعلون في داخلها مثل هذا العدد العديد من الأطواق الناتئة فلقد شرخت جلدنا حد الادماء.

– بدون طوق التبطين يتعذر لحام المفصل.

– وانا كنت أظن انكم تفعلون ذلك لتأمين المزيد من المتانة. اذن بسببكم انتم معشر اللحامين تبعثر عبثا مثل هذه الكمية الكبيرة من المعدن!

– أجل بسببنا، – وافق مارتشنكو طائعاً بينما كان يفكر في أمر مغاير تماما: ما حمل ايزولدا على عدم التطلع اليه رأساً. لقد خطا نحوها وتناول مرفقها برفق، وسألها ناظراً الى وجهها:

– أما على أي حال فانتشلنا بحذق فيتكا من الأنبوب. وهي أنت التي كنت أول من زحف اليه كأنه الغريق وأمسكت به من شعره لكي تجريه جراً.

كانت شفتا ايزولدا مزمومتين بصرامة وفكر مارتشنكو: «لو انها في أي وقت ما سوف تقبل شخصا فستكون شفتاها عند ذاك مزمومتين هكذا. مثل هاتين الشفتين الصارمتين لدى بودغورنايا أيضاً. ولكنهما عند بنوتشكينا طيبتان وناعمتان». واستعاد في ذاكرته كيف قالت له زينا ذات مرة: «انني يا فاسيا لا أحب معاناة أي نوع من العذاب، لا البدنية ولا المعنوية. وقد تحدثت عن نفسي أثناء الاجتماع لا لكوني مبدئية جداً وانما لاني لا أستطيع معاناة العذاب لوحدي، بيني وبين نفسي...»

قالت ايزولدا لميكانيكي المحرك:

– سأغسل في البيت بدلة العمل التي أخذتها منك وأجلبها لك.

وأعلن ميكانيكي المحرك في تظرف:

– سيكون ارتدائي لها من بعدك مبعث ارتياح لا حد له.

وخاطبت ايزولدا مارتشنكو قائلة:

– لا تغفل زيارة زينا في نقطة العيادة الطبية. انك حتى لا تستطيع ان تعرف مدى طيبتها.

أومأ مارتشنكو برأسه موافقا ولم يجب بشيء. كانت حالته جراء الحرارة في منتهى السوء، وشعر بالرغبة في التقيؤ، وكان كل شيء أمام عينيه يتميع.

٢٢

اللحام من الدرجة الأولى بوريس شباكوفسكي أشقر الشعر، فارع القوام، ذو عينين زرقاوين متعاليتين تشعان ببريق الالمنيوم وبسبب غطرسته منحته الفتاتان الفاحصتان بالاشعاع لقب «الكونت شباكوفسكي». وكانت لديه الدمغة الخاصة التي نقش عليها بالحرفين الاولين اسمه الثنائي كالخاتم العائلي لدى الاسر

الارستقراطية في قديم الزمان. وكان يأتي الى العمل في بدلة عمل زرقاء مكوية دوما وفيها العديد من الجيوب مخيطة بدرزين من الخيوط البيض. وكان الاعتداد المهني والفخر لدى شباكوفسكي متطورين فوق الحد المعهود. وكان يراسل الاكاديمي باتون، العالم المعروف في مجال علم التعدين، معتبرا انه بهذا يسدي اليه فضلا كبيراً. وكما يزدري الادباء الذين يؤلفون كتابة بالقلم من يطبعون مؤلفاتهم بالآلة الكاتبة يزدري شباكوفسكي باعتباره لحاما «يدويا» اولئك اللحامين الذين يستخدمون الجهاز الاتوماتيكي.

لكل أسطى من الدرجة الأولى خطه الفني الناري الخاص. وبهذا الخط المتجمد في المعدن يعرف اللحامون بعضهم البعض على وجه الضبط وبدون اشتباه.

تعرض في المتاحف نماذج خطوط أمهر قدامى الخطاطين الشرقيين. ويفتخر بها، وهي محط التبجيل، وتكرس لها دراسات مطولة ثقيلة كشواهد القبور.

بوسع حشرة اليعسوب الطيارة ان تحمل بيسر كالطائرة العمودية الريشة القصبية المستعملة في الكتابة الصينية. يتناول الخطاط الماهر الريشة من طرفها العلوي وبدقة القناص وبحركة خفية يرسم على الورق الاشكال الهيروغليفية وهي أنيقة وغريبة الشكل كأنما تدب فيها الحياة وكأنها زهرة من أشنات الاقيانوس. ولقد شاهدت بام عيني وهم يفعلون هذا فتجمدت متسمرا من الاعجاب والانبهار.

يزن ماسك الالكترودات زهاء نصف كيلوغرام اما المحور المعدني للالكترود والمكسو بالطلاء بشكل متين فانه أطول بكثير من ريشة الكتابة. والقطرات الشمسية للمعدن المصهور والهالة البيضاء الحادة الساطعة لقوس الكهرباء تعشي العيون كشعلة الأنوار الكشافة حين تضرب الوجه مباشرة بالضوء الباهر.

وقبل شروع الخطاط في كتابة نفائسه يغسل كفيه ويفركهما بالحجرالخفاف لكي ترهف حاسة لمسه عند التحسس بالريشة القصبية ويجلس القرفصاء مغمض العينين لكي يهيىء لهما الراحة. ويرتدي ثيابا خفيفة لئلا يعرقل شيء حرية حركاته. ويشتغل اللحام مرتديا صدرية من المشمع وقفازات منه أيضاً. وتتولد في

يديه الفورة اللاهبة الناجمة عن الشرارات النارية بنشيش النافورة الضئيلة.

يحرص الخطاطون على صيانة عيونهم الثمينة ويعملون عادة عند مطالع الفجر أو وقت غروب الشمس، حتى الاهتزاز الخفيف لهواء الغرفة قد يؤدي الى تذبذب حركات ريشتهم وارتعاشاتها... ويستطيع الخطاط أن يرفع ريشته عن الورق ليرنو متطلعاً الى عمله بنظرة تقييم قبل أن يواصل جهده بالهام جديد. وحين ترتعش يده بحركة مرتبكة يحت من الورقة أثر الحركة غير الصائبة أو حتى يأخذ ورقة اخرى جديدة ولا يفكر أحد في لومه على ما أتلف من ورق.

اما بالنسبة الى اللحام فكل شيء على نحو مغاير. فان السطر الناري الذي يخطه لا ينبغي ان يبترد حتى ولا لجزء من اللحظة العابرة حتى يكمله الى النهاية. حركة واحدة غير صائبة، عيب واحد لا تلحظه العين، يعتبران مأساة قد يروح ضحية لها جهد الالوف من الناس.

ما تدبجه ايدي الخطاطين يدرسه الخبراء حابسين أنفاسهم في اجلال، وهم مزودون بعدسات مكبرة، اما ما يفعله اللحامون فيدرس بواسطة النظائر المشعة والتساجيل المغناطيسية وأجهزة الأصوات فوق السمعية. وفي المختبرات المتنقلة تدرس بتفنن محنك دروز اللحام وتعرض لأعقد الأجهزة، حتى يتم الاقتناع الكامل بمتانتها الصامدة بوجه الزمن. ان الجمال المتأنق للسطر الناري السيال بيد اللحام مستقيم ومعتدل شأن الخطوط المكتوبة بالحبر الصيني. ولكن الفرق الوحيد هو ان ابداع الرسام الخطاط يسمى فنا اما ابداع اللحام فيسمى عملا.

لقد شاهدت عمل بوريس شباكوفسكي وسحر لبي وشعرت نحوه بمثل ذلك الاعجاب والانبهار حين أتيح لي شرف التطلع الى الخطاطين الصينيين وهم يكتبون نفائسهم البديعة.

ان عازفي البيانو الشهيرين يصونون ايديهم. وحين استأجر شباكوفسكي سريراً عند الأرملة زلوبينا امتنع في الصباح – قبيل الذهاب للعمل – عن تقطيع أو حمل الحطب. ولم يقع رغم طول قامته في اغراء التمتع بمزاولة لعبة الكرة الطائرة خشية اضرار

الكرة بأصابعه اليابسة الطويلة. فلم يزاول في الصباح سوى التمارين الرياضية الخفيفة.

وحين الذهاب الى العمل كان يتفادى اللقاءات والأحاديث المزعجة للاعصاب. والقول الاثير لديه: «اللحام كالقناص يجب أن يكون هادىء الاعصاب والنفس لا اباليا، مركز الانتباه، وحتى منقطع الانفاس كالمتوفي لئلا تسبب دقات القلب اضطراب يديه». كان مشهورا بأدبه الجم وتهذيبه البارد ولقد كان مهذبا لئلا يهيجه الامتعاض ولكي تسترخي أعصابه دون تشنج لاعتقاده بان أي اضطراب في أعصابه سيخلف أثره على درز لحامه.

كان شباكوفسكي عاكفاً على لحام ملتقى أنابيب المعبر المائي في خور المستنقع حين أخذ يرتفع فيه على حين غرة منسوب الماء مدفوعاً بالريح الثقيلة القوية الشمالية - الشرقية. ودنا الماء مقتربا الى الدعائم التي اسند اليها الانبوب.

وأثناء حمايته درز اللحام من الثلج الذائب والريح القذرة العنيفة احتمى شباكوفسكي خلف قطعة من القماش المشمع فوق رأسه. ورغم اندفاع الريح مرتطمة بهذا المشمع وكأنه شراع منشور فقد تكيف بالانقباض متجمعاً وفق ايقاع منتظم على ضربات الهواء المضغوط والمندفع في زوبعة عاصفة.

وأنهى العمل طامساً الى الركبة في الماء وتحرر من المشمع المضغوط وحملت دفقة عاصفة من الريح هذا المشمع بعيداً كالخرقة وعندئذ فقط وجه سؤاله الى ميكانيكي المحرك:

- ما هذا يا فاسيا؟ لعله الطوفان...

وقال ميكانيكي المحرك موافقاً:

- هذا صحيح، لقد هب الماء من البحر.

- ولكن ما سكوتك عن الأمر؟

- لقد حذرتك، - قال ميكانيكي المحرك باحترام، - ولكنك أمرتني بالكف عن مشاغلتك وانما زيادة قوة التيار الكهربائي نظراً لأن الأنبوب يبترد سريعاً من أثر الريح والثلج وبناءاً على ذلك تطلب موضع الانصهار للحام درجات عالية من الحرارة.

- لا بأس فلنذهب الى البيت.

- في بعض المواضع ينبغي الخوض في الماء.

... وانتشلهما من الماء زورق بخاري مزود بكشاف أنوار.
وقال شباكوفسكي متأملا وهو جالس على طوق نجاة:
- بالي مشغول بشأن درز اللحام الأخير فلقد برد الأنبوب في الريح بشكل غير متماثل وربما يحصل فيه شرخ.
- لقد كدت تغرق لتوك وانتشلتك من خصلة شعرك. بينما يشغل بالك درز اللحام. - واعلن في قنوط: - علينا تناول الفودكا كما ينبغي لكي لا نصاب باستبراد.
- كلا، - قال شباكوفسكي بحسم، - لن أشرب الفودكا. لا حق لي في اراحة جهاز المنظومة العصبية بالارتخاء. ربما يتعين علي غداً فتح درز اللحام ذلك ومعاودة لحامه. ومعنى ذلك انني أتلفت سيرتي الحسنة بعيب في العمل!
وقال ميكانيكي المحرك معترضاً بغضب:
- لو كنت قد غرقت فلا سيرة لك ولا سريرة. من الافضل لك ان تفرح لكونك لم تكن من الغارقين.
- اذا ظهر ان درز اللحام المقصود ليس به خرق سأشعر آنذاك بالفرح، - وعد شباكوفسكي وسأل متعاليا وهو يتطلع في وجه ميكانيكي المحرك بنظرات حادة من عينين جليدتي اللون: - لقد أعطيت قوة التيار بشكل جيد. وعليه فان الذنب المطلق سيقع على عاتقي ولا داعي لقلقك.
- وما الداعي لقلقي وانا الآن حي ولست ميتا! - اعترض ميكانيكي المحرك بغضب. - بالنسبة لي هذا هو الأمر الرئيسي الآن.
واستدار عنه شباكوفسكي مزموم الشفتين.
يبدو لي ان الانسان اذا استطاع العمل مستمداً من ذلك لنفسه الارتياح، مستشعرا لذة التفاني في جهده، فانه يمكن القول بان احدى قدميه قد دخلت الى عالم الشيوعية وهو واقف على عتبتها ويوشك على الولوج الى عهدها السعيد. اما بشأن طبعه وميوله، فكلما أصبحنا أقرب الى عهد الشيوعية بات الناس أسطع نوراً واكثر تنوعاً وأصالة. وكان من دواعي السرور التطلع الى اشراقة خواص كل فرد، هذه الخواص التي ينبغي تعلم فهمها واحترامها ومنحها الحدب لا بمنتهى اللطف وكذا من يسعى بحماس لأن يغدو أفضل مما هو عليه.

بغية تصوير الانسان حتى ولو فوتوغرافيا يتطلب الامر منه التجمد كالحجر امامك لكي تصنع منه تلك الصورة. ولكن مهما كان الشبه متوفرا بينه وبين صورته فان التشابه البدني ليس كافياً. اما الحالة النفسية فكيف ينبغي نقلها وتصويرها؟ اذ من المتعذر ان تقول للشخص: «اجمد!» مثلا في لحظة أسمى تجليه الروحي ثم الاعلان للجميع بعدئذ انه في هذه الصورة على حقيقته من الناحية النفسية وهو على هذه الحال في كل وقت. أما هو فليس بالمرة كهذا. انه متساوي المظهر اما سرعة التغيرات في خلجاته النفسية فانها تسبق تحرك الأدب الذي يحاول حشره تحت تصميم البطل الذي يصوره في عذابات الأرق.

ولكن فلنحاول تمحيص شخصية شباكوفسكي باسلوب المقارنات المتوازية. يلحم شباكوفسكي اثناء نوبة العمل في الانبوب البالغ قطره سبعمائة ملمتر ثلاثة ملتقيات. اما مارتشنكو فيلحم ثمانية الى عشرة.

لا ينظف شباكوفسكي بنفسه أبدا حواشي الأنابيب. بل يتولى ذلك ميكانيكي المحرك الذي يعمل معه. ويطلب شباكوفسكي ان تكون الحواشي بعد التنظيف لماعة كمرآة. وهو صعب الارضاء متقلب الاهواء يصون يديه عن الارهاق والايذاء وحتى لوكان غير مشغول فانه يمتنع عن مساعدة عاملي التركيبات. ويحظر على ميكانيكي المحرك اعطاء تيار الكهرباء عالي التوتر فوق الحد لئلا يجازف باحراق المعدن. وهو لا عهد له بالتعجل ويعمل في جمال متأنق. درز لحامه ناعم كالحرير وكأنه شريط أسود مطلي بالورنيش.

وهو يبدو اثر الانتهاء من العمل في حالة النشاط والطراوة، التي بدأ بها عمله. وهو واثق بالنفس بحيث لا يهرع مطلقا الى المختبر الميداني المتنقل للتحقق من عدم اكتشاف عيب في لحامه.

وهو يدرس الرقوق الفوتوغرافية والصوتية التي تسجل التركيب الداخلي لدرز اللحام أيام الآحاد حين يخلو بنفسه في المختبر. ويستسلم مختليا للتأملات، بينما يمنحه درس هذه الشرائط لذة ممتعة تشبه ما يساور الرسام الفنان حين يتطلع الى لوحة رسمها منذ أمد بعيد متذكراً الظروف التي تسنى له فيها

التوفيق في وضع أنسب صبغة من الزيت لكي يضفي على التعبير في التصوير مثل هذه الجدة والحيوية.

يشتغل مارتشنكو بدون ميكانيكي المحرك، متولياً بنفسه على عجل تنظيف الحواشي بالمبرد والفرشة الفولاذية. وهو يعمل في العادة بأعلى توتر كهربائي ويشعل على الحواف كل ما يبدو غير محترق بما فيه الكفاية. واذا أحس فجأة بان اللحام في نقطة ما من الدرز ليس متيناً تماماً الى حد مأمون، فانه يؤشر بنفسه على ذلك الموضع بقطعة الطباشير بغية جلب انتباه المراقب اليه. وتبقى بقايا الالكترودات في لحام مارتشنكو ضئيلة جداً. أما في لحام شباكوفسكي فهي أطول. يشتغل شباكوفسكي متفانيا، ناسياً نفسه في العمل، ولكن بدون تهيج. ومارتشنكو حين لا يكون مشغولا يساعد عمال التركيبات في تعليق الأثقال على المعبر المائي وشدها بالبراغي. وهو مرح المزاج، اجتماعي المعشر، يداه قصيرتان قويتان. ويعجبه ان يستدعي اعجاب الناس بقوته.

واذا كان الانبوب مبعوج المقطع فانه يتولى بمهارة تعديله بالمطرقة. اما شباكوفسكي فيطالب بتسجيل محضر اثبات بهذا وبعد ذلك فقط يسمح بتعديل شكل الانبوب. ولكن اذا بدا له ان الشكل الاسطواني المطلق فاسد فلن يكون بوسع أي رؤساء في العمل حمله على لحام أنبوب كهذا مع أنبوب آخر. وعند مركزة الانابيب من قبل عمال التركيبات يتنحى شباكوفسكي جانباً في كل حين، واذ يتفحص دقة المركزة وقدر الفرجة لا يبدي سخطه لو اكتشف خطأ باي بادرة نقمة. ويطلب بصوت خافت هادىء غير مكثر من الكلام تصحيح وضع الأنبوب غير ناس لدى ذلك توجيه الشكر بشكل لائق الى عمال التركيبات على تصحيحهم للخطأ الذي هو من صنع ايديهم.

أما مارتشنكو فيقف بجوار سائق ناصبة الأنبوب ويصرخ عليه بانفعال ان لم يتلاصق الأنبوب رأسا، او لم يكن ذلك بدقة. وهو طيلة الوقت يركض من الأنبوب الى الرافعة – ناصبة الأنبوب متهيجا، ملوحاً بقبضته الثقيلة، وحين يستقر الأنبوب أخيراً في مكانه المناسب المطلوب يكتسب وجهه تعبير الارتياح طافحاً بالرضا والبهجة وتعود اليه سكينته. بيد أنه لدى ذلك لا يلبث

أن يذكر عمال التركيبات بان تصرفهم كان غير سديد عند نصب الانبوب.

يستخدم مارتشنكو كراشح للضوء زجاجة غير غامقة اللون لأنه يعتمد عينيه أكثر من يده. ويستعمل شباكوفسكي أحلك زجاجات الرشح حرصاً على العناية بعينيه. ولكنه بدل ذلك تعلم عن طريق المران الطويل العمل بنفس الدقة والضبط مستخدما يده اليسرى كاليمنى. ودائما حين يعمل تكون احدى يديه في حالة راحة. ومارتشنكو يستطيع العمل باحدى يديه فقط. وبعد انتهاء العمل يسير مائلا قليلا الى أحد الجانبين وهو يشعر بان يده متنملة من الانهاك.

يكسب مارتشنكو اجور عمل ضعف مكسب شباكوفسكي ويعتبر ضارب الرقم القياسي. وكثيرا ما تذكر اسمه الجرائد. وصورته الفوتوغرافية ملصوقة على لوحة الشرف. ولكن الأسطى الأفضل والأمهر بين اللحامين يعتبر شباكوفسكي، رغم ان طبعه المتعالي لا يروق لأحد منهم. ويستدعي عمل شباكوفسكي لدى اللحامين شعور الاعجاب ممزوجاً بالزهو والاجلال. اما عمل مارتشنكو فيستدعي دهشة التقدير للحذق والمهارة.

لم يحدث عند شباكوفسكي اكتشاف عيب في العمل مرة واحدة. اما مارتشنكو فقد حدث مراراً أن راح يذرع الساحة جيئة وذهوبا وهو يرزح تحت حمل ثقيل وعلى وجهه سيماء القنوط. وبعد العمل يهرع الى المختبر الميداني المتنقل ويجلس هناك على درجات سلم الدخول منتظرا في صبر مرهق نتائج التحليل. وهو يتخذ ازاء الفاحصين بواسطة التسجيل الشعاعي والمغناطيسى موقف التملق الخانع الذي يحسه العليل في حضرة الطبيب. وفي كل مرة ينحني شاكراً وهو يحك الأرض بقدمه، ويصافح حين لايكتشف في درز لحامه تراكم خبث المعادن أو مسامية او عدم اكمال اللحام. ويخرج سعيداً ويخبر كل من يصادفه وكأن هذا يهم الجميع بان «الاشعاعيين» لم يكتشفوا في لحامه اي موضع يعاب عليه.

وفي هذا الصيف اقتنى دراجة نارية. وهو عازب، يشعر بالقلق الشديد لئلا ترتمي عليه بسبب مكسبه العالي فتاة ما غير جديرة توقعه في أسر اغرائها. ولهذا يتصرف مع الفتيات بشكل فظ

وبعجرفة واستهزاء. ويخالجه التوق الشديد الى الحب ألصادق. وشاعره المفضل هو ستيبان شيباتشيوف المعاصر الوجداني.

اغري شباكوفسكي غير مرة بالعمل بواسطة الاجهزة الاتوماتيكية. وكان يستطيع بكفاءته العالية ان يكسب في نصب الخط البري للانابيب ضعفين او ثلاثة أضعاف اكثر منه هنا باللحام اليدوي. ولكنه رفض. ان العمل في المعابر المائية حيث يقرر كل درز لحام نجاح جهد العديد من الناس وينبغي انجازه بمنتهى الدقة يعجبه اكثر لانه يستطيع في عمل كهذا ان يبدي بالشكل الكامل مهارته القصوى. والناس يعرفون أي أسطى ماهر هو ويسلمون احتراماً بسجيته المتغطرسة، واللحامون الآخرون يقدرون مهارته حق قدرها ويمتعون انظارهم معجبين باسلوبه في اللحام وهذا لديه أعز من كل شيء عداه في الدنيا.

أحلى مكافأة للانسان ان يمتلك ناصية العمل بثقة وولع، مدركا مكانه الراسخ في الحياة. اما اذا كان يسعى أيضاً بحماس الى الالمام بكل شيء يخص عمله وحتى النهاية فان الاحساس بخلود المهارة يخلع على الانسان جناحين يعينانه على التحليق ويبث في نفسه فرحة الجرأة في الاقدام على مواصلة البحوث.

وكلما زاد تعززاً في نفس الانسان يقينه بمهارته ونما فيه بشكل أقوى الشعور بكرامته ازداد حرصه على صيانة ذلك فيه.

ان شموخ الماهرين المتشدد هو ما يستطيع به الناس الولوج بجرأة عبر باب الدخول الى مرحلة الشيوعية دون أن يعشو أبصارهم ألق هالتها الباهر، ودون احناء هاماتهم أمام عظمتها.

ولكن كلما كان التلذذ بالمهارة أتم زادت حدة العذاب والمرارة لدى الاسطى الماهر، حين يمنى باخفاق.

٢٣

حلقة التبطين عبارة عن طوق حديدي لوقاية المعدن المصهور من السيلان عبر فرجة الشق ومن الجدائل المعدنية المعلقة داخل الانبوب حين يتولى اللحام صياغة اكليل المفصل.

اكتشفت زينا بنوتشكينا شرخاً في الدرز الذي لحمه بوريس شباكوفسكي. وحملت اليه رق التصوير بالاشعة وهو لا يزال رطيباً عقب التظهير وكانت عينا زينوتشكا مبلولتين أيضاً ولامعتين مثل هذا الرق التصويري، وارتعشت أصابعها الغلاظ ذات الأظافر المسودة بفعل الكواشف الكيمياوية. وقالت بقنوط:

– هاك انظر يا بوريا ما أفظع الأمر.

وتناول شباكوفسكي الرق ورفعه مقرباً الى المصباح وصدم عينه الخط المتعرج للشرخ وكأنه برق أسود تجمد. وضيق عينيه وهوى جالساً على المقعد المربع وأطرق برأسه وانتفخ عنقه وانحدرت على صدغيه قطرات من العرق. وأخذت زينا تبحث بأصابعها في حقيبة يدها دون أن تنظر اليه. ثم أعلنت قائلة:

– ها هما تذكرتان لمشاهدة فيلم في دار السينما، ولكن لست أدري مع من أذهب. ستذهب أنت معي. ما رأيك؟

– كلا، – قال شباكوفسكي وقد علت وجهه اللامبالاة. – كلا، – قالها بصوت لا حياة فيه – ليس هذا الشرخ من صنع يدي.

ورجته زينوتشكا وهي تشعر بالحزن:

– بورنكا. أرجوك. لا تتأثر.

وقال شباكوفسكي:

– انك أنت المتأثرة أما أنا فلا شأن لي بذلك. – وكرر بعناد: – ليس هذا شرخي. كلا ثم كلا. – وأشر بيديه باشارة ابعاد.

ونظرت زينا الى يده براحتها المكشوفة وهي يد اللحام المسمرة الملفوحة بالنار قليلا نظرة اختلطت فيها الشفقة بالرقة. وفجأة دست وجهها في بدلة عمل شباكوفسكي المعلقة على الحائط وانخرطت في النشيج. وانتظر شباكوفسكي بصبر. وصرخت الفتاة في عنف ومرارة وهي تنشج:

– يا لي من رذيلة. بسبب كوني مشغوفة حباً بمارتشنكو أردت أن أجلب السعادة له وابعث في نفسه السرور فدعوته

للحضور الى المختبر وهناك عرضت عليه الرق الذي صور عليه عملك.

– وما الذي قاله بهذا الصدد؟

وأدارت بنوتشكينا وجهها المبلول بالدموع نحو بوريس وأعلنت باعتداد:

– لقد قال انه صحيح، اني رذيلة.

– ثم ماذا قال؟

– قال انني أيضاً قذرة. ولكن هذا ليس بصحيح. كل ما في الأمر هو انني غدوت مخبولة العقل لوقوعي في هواه.

وقال شباكوفسكي ممعناً في التفكير:

– اسمعي. لا ترتبكي فانني أصدقك وهذا شرخي.

وتطلع الى وجه بنوتشكينا بعينين مثبتتين وقام بحركة ازدراد للريق بجهد، طالباً في رجاء:

– أعطيني شربة ماء. – وقال بصوت أجش وأسنانه تصطك بحافة الكوز وهو يتحدث في داخل القدح: – لقد اعترفت باقترافك عملا رذيلا أما أنا فلم أستطع حتى الاعتراف لنفسي. اذن فأنت أفضل مما يظنون فيك، أما أنا فأسوأ. اذهبي في حالك، لك الشكر على ما قلت، اذهبي.

وأبقى الكوز قرب وجهه كأنما لشعوره بالخجل يستر وجهه به استحياء.

وتلفظت الفتاة بلهجة متوسلة:

– سأظل قليلا بصحبتك. لا تطردني فأنا أيضاً بعد هذا كله ليس من اليسير علي البقاء وحدي. لقد قال لي مارتشنكو انه بعد الآن سوف يظل يزدريني شاعراً لدى ذلك بسرور. أتفهم لقد قال: «بسرور».

وحين ارتدى شباكوفسكي بزة العمل الخاصة لم يكن سهلا عليه ادخال يده في ردنها وساعدته الفتاة، ولكنه حتى لم يلاحظ ذلك.

كان الليل قد حل ومطر أسود يتهاطل. والشآبيب الثقال تسوط الأرض الموحلة.

أخذ شباكوفسكي يخطو نحو النهر حيث يجثو على شاطئه المعبر المائي. وسارت زينا بجواره بخطواتها القصار ولكنه لم يلاحظ وجودها بقربه.

وعند المعبر المائي قرب المفصل المعيب المؤشر عليه بصبغة حمراء اللون وقعت أنظار بوريس على مارتشنكو.

اشتغلت ماكنة الديزل لآلات لحام مارتشنكو، كان هو يتفحص درز اللحام على ضوء الأنوار الكاشفة. وحين رأى بوريس قال له ببساطة وصميمية:

– لا أكاد اصدق. كم درت حوله وفكرت فيه ولكنه استعصى على فهمي. – ثم قال مقترحاً: – هيا بنا نكشفه.

وقال شباكوفسكي:

– ابتعد. امض عن المكان.

وألقى مارتشنكو نظرة ازدراء على زينا بنوتشكينا وجر شباكوفسكي من ردنه سائلا اياه:

– أتريد أن أريك مثال النذالة؟

– احذر أن تتحدث عنها بمثل هذه الأوصاف والا فستعلم! – ودفع شباكوفسكي عنه بقوة يد مارتشنكو.

وتلفظ مارتشنكو بصوت محشرج:

– لست أعني بذلك بنوتشكينا وانما أقصد به نفسي. من أي كومة اخذت حلقات التبطين؟

– وما شأنك في هذا الأمر؟

– كانت هناك حلقة تستدعي الريب ولقد قذفتها ولكني لم أؤشر عليها لاني كنت على عجلة من أمري لكي أكمل الرقم التاسع. هلم ننفخ النار على درز اللحام فننفصل الحلقة وسوف ترى بنفسك.

ظهر ان مارتشنكو كان مصيباً. واكتشف شرخ في حلقة التبطين التي فحصتها بالشعاع زينا بنوتشكينا في المختبر. اذن فالدرز الذي لحمه شباكوفسكي كان سليماً من العيب ولا غبار عليه.

وقرب شباكوفسكي الى وجهه الرق الفوتوغرافي وفي بداية الأمر ظل طويلا يضحك ثم انخرط في البكاء.

وانسحب مارتشنكو وبنوتشكينا بادب من العربة – المختبر، ليتركاه منفردا مع نفسه.

وقال مارتشنكو لبنوتشكينا متجهم الوجه:

– لم أتعمد ترك الحلقة دون تأشير ولم أشأ أصلا حدوث ما حدث. ولكنني حين شتمتك خالجني على أي حال شعور بالفرح لان بوريس سيفقد الآن شممه العالي ومعنى ذلك اذن انني كذلك لو فحصت تحت ضوء الشعاع لبان في نفسي ما يشبه الخبث المتراكم الذي لم يصهر كما ينبغي. – وتنهد متطلعا الى وجه بنوتشكينا الضامر من عذاب الأرق وقال: – كنت أظن انني قد أصبحت انساناً جديراً وها أنا كما يبدو لم أبلغ حتى الحد المطلوب للانسان. اعتقدت بانني أعلى فاذا بي في الواقع من نفس طينتك.

قالت زينا بجد:

– ولكنني ارتكبت الحماقة من حبي لك. أما في واقع الأمر فانني أفضل من هذا.

– عليك التخلي عن الحماقة، – قال لها مارتشنكو ناصحاً، ولمعت ببريق الغضب عيناه بلونهما البني الذي يكاد يكون بلون البرونز.

– أفليس سواءاً عليك، – سألت بنوتشكينا بتردد، – ما اذا كنت حمقاء أو ذات ذكاء؟

– هذا يعني ان الأمر ليس على حد سواء.

وانتفضت بنوتشكينا مرتعشة واحمرت. ورفع مارتشنكو يده المحذرة.

– ولكن افهمي انك يجب أن تكوني معي أهدأ فاني لا أحب العصبيين. – وتلفظ بلهجة الحالم: – حين كنت صبياً اختلقت لكي أحظي بالاعجاب انني أستطيع النوم مفتوح العينين. – ثم طرف برموشه الوطفاء القصيرة الصهباء وقال بحزن: – والآن أيضاً بودي دوما لو حزت الاعجاب بي على شيء ما مهما كان.

وقالت بنوتشكينا في همة:

– أتدري، انك على الأرجح انسان طيب لكونك تستطيع اكتناه الأمر الحسن في الانسان السيىء.

– ومن هذا الذي حزرت فيه ما حزرت؟

–ذلك هو أنا، – قالت بنوتشكينا وارتعشت من الشعور بالبرد ودنت مقتربة الى مارتشنكو.
ولكنه تنحى بحزم وقال هذه المرة بامتعاض:
– اسمعي يا هذه! ان فوق رأسك الكون كله! واحترمي نفسك كما ينبغي!
واختلجت بنوتشكينا مقشعرة من ضربة الايذاء التي انزلت بها ووعدت بحنق:
– لن يحدث أبداً بعد الآن أن يجري اقتراب مني نحوك... وحتى لو قضيت ثلاث ساعات تقول فيها انك تهواني!
وقال مارتشنكو متهكما بسخرية:
– لن أخرق نظام الاجراءات. سوف أسأل أولا: أأنت موافقة؟
– فلنقل اني موافقة. – قالت بنوتشكينا متوجلة.
– ولكنني لم أسأل بعد.
– ولكن اسأل!
– اذن فأنا أسأل!
– وأنا أقول لك: كلا. – قالت بنوتشكينا بسخط. – يكفي. لقد كدت أغدو بسببك رذيلة. اذهب لا رغبة لي في رؤيتك بعد الآن. لا أريد اذلال نفسي جراء الشعور الحقير بغرامي فيك.
وارتقت درجات السلم بعزم واطبقت خلفها الباب بقوة...
في اليوم التالي انجز شباكوفسكي لحام ثلاثة دروز بدون استخدام حلقات التبطين. وكان هذا العمل نموذجياً بحق. وخلع مارتشنكو بدلة العمل ودخل في فوهة الأنبوب. وبعد خروجه أعلن باعجاب:
– ما من جدائل ولا أهداب، مثل القيطان المضفور. – وخطف شباكوفسكي من كتفيه وجره الى نفسه وقبله في وجنتيه وأبعده عنه قائلا: – أتفهم ما حققته؟
وقال شباكوفسكي وقد لاحت على شفتيه ابتسامة بطيئة الانفتاح:
– اللحام من الدرجة الأولى.
– أحمق! – صرخ مارتشنكو باعجاب. – نذل! افهم يا هذا انه اذا جرى اللحام بدون حلقات التبطين فذلك معناه توفير

ألوف الأطنان من المعدن على طول خط الأنابيب. هذا أولا. ثم المزيد من التوفير ثانيا لان القطر الداخلي للانبوب لن يتقلص بسبب حلقات التبطين. ان هذا توفير يدير الرأس! وأما ثالثاً فهو أن الغاز اذ يرتطم بعوائق حلقات التبطين يلصق عليها كل الأوساخ العالقة فيه وهذه الرواسب بدورها تقلص كذلك قطر الانبوب. - وتقهقر خطوة الى الخلف وأعلن: - أنت يا بوركا عبقري!

وفكر شباكوفسكي ملياً ثم سأله:

- وهل باستطاعتك اللحام دون حلقة التبطين؟

- كلا، - قال مارتشنكو.

- اذن فاني وغد لا غير، - تلفظ شباكوفسكي بهدوء، - أنت قد فكرت بما يعود به هذا على الخط كله أما أنا فلم أفكر الا بان أي أحد سواي ليس بوسعه لحام المفصل بدون حلقة التبطين.

- صحيح، - قال مارتشنكو موافقاً، - لا أحد.

- اذن فأنا من سقط المتاع، - أصدر شباكوفسكي الحكم الصارم على نفسه وانطلق ينطق بحرارة: - اذ ان الفتيان جميعاً طالبوا بغية توفير ألفي طن من المعدن لدى تفادي القيام بالالتفاف حول الموضع بتمرير خط الانابيب عبر المستنقع مكلفين أنفسهم في المستنقع عذاب المشقة. أما أنا فماذا أفعل؟ لا شيء يشغل بالي سوى الازدهاء.

وقال مارتشنكو بفرح:

- هذا ليس ازدهاء.

وقال شباكوفسكي بصوت رصين تجلت فيه الصرامة:

- أنت ملزم بتعزيري. وان لم تفعل فلن احترمك مستقبلا.

ووضع مارتشنكو كفه على قفا شباكوفسكي وجعله ينحني الى فوهة الأنبوب وقال له بلهجة الأمر:

- انظر وفكر.

- في أي موضوع. - سأله شباكوفسكي.

- بصدد حلقة التبطين. هيا. فكر. - وأمره مارتشنكو.

- دع رأسي.

- كلا. لن أفعل ذلك مادمت لم تتوصل بعد الى ثمرة للتفكير.

وأخذ يملي عليه الرأي - اذن فأنت تستطيع اللحام بدون حلقة التبطين أما أنا فلا أستطيع. ولكن الأمر الرئيسي ليس ماهو الذي تستطيعه وانما هو انه كان ممكنا الاستغناء عن حلقات التبطين. وبهذا يوفر المعدن من حيث الحلقات ومن حيث قطر الانبوب. اسمع، ماذا لو جعلنا فرجة الشق متناهية في الصغر؟

- دعني!
- لن أدعك.
- سوف يسيل المعدن على أي حال.
- وفي حالة جعل الواجهة بزاوية انحناء كبيرة؟
- تبقى فرجة الشق.

تخلى مارتشنكو عن شباكوفسكي مطلقاً سراحه واعترف بمرارة:

- لا يتحقق الأمر ولكن حبذا لو تحقق لدى الجميع.

رفع شباكوفسكي من الأرض الطوق الثقيل لِحلقة التبطين وأخذ يلصقها بالفوهة مستغرقاً في التفكير، يدفعها الى الداخل بتركيز تارة واخرى يسحبها.

وتابعه بالنظر مارتشنكو متوترا وقال بغتة بهمس:

- بوريس. انك قد وجدتها! نجعل حلقة التبطين قابلة للخلع. أليس كذلك؟

- أجل، - قال شباكوفسكي - ولكنك انت الذي توصلت الى هذا أما أنا فكنت حتى لم أفكر بعد بان حلقة التبطين يمكن جعلها قابلة للخلع. ولكن خطرت على بالي فكرة امكان تحريكها بمثابة الدرع الواقي... ينبغي الآن التوصل الى طريقة في العمل لئلا تلتصق حلقة التبطين بالمعدن.

وتساءل مارتشنكو:

- ربما ينبغي اجراء تغطيتها بالخليط المانع للحرارة؟

- لعل هذه التغطية تنفع. - وافق شباكوفسكي حائراً وهو يواصل تحريك الحلقة داخل الأنبوب. وأخذ يفكر عاضاً على شفته في أمر شغله.

وحتى منتصف النهار عند الظهيرة شاعت بين جميع العاملين

في نصب الانابيب فكرة شباكوفسكي. وكان وهو يتلقى التهاني يصحح القول لمخاطبه تنبيها:

– انها ليست فكرتي وحدي وانما هي فكرة شباكوفسكي – مارتشنكو أو بالاحرى على العكس فكرة مارتشنكو – شباكوفسكي.

– كفى. دع عنك هذا التواضع المصطنع.

– لقد كنت دوما بعيداً عن التواضع، فهو غريب عن طبعي. – أعاد شباكوفسكي الى الأذهان في اعتداد بالنفس.

– هذا صحيح ايها الفخور!

– ثم ماذا أنا في رأيكم؟

– نرى فيك أسطى في الصنعة لا يجاري. – يقولها مخاطبه بعد امعان في التفكير.

– لعلك تلقي نظرة على اللحام الذي أنجزته بدون حلقة التبطين؟ – ورن في العبارة التي تلفظ بها شباكوفسكي توسل اشبه ما يكون بصلاة ضارعة مرتبكة.

وماذا يمكن ان يقال. لا جدال في ان لحام شباكوفسكي بدون حلقة التبطين كان محط الاعجاب. خلع كثيرون ملابسهم الخارجية ودسوا اجسامهم في فوهة الانبوب وصرخوا من هناك بأصوات يضخمها الدوي الأنبوبي للصدى الرنان بدهشة واعجاب. ولكن هؤلاء الناس أعربوا عن استحسانهم اكثر من مهارة شباكوفسكي الخارقة بفكرته حول لحام مفصل الانابيب بوساطة حلقة التبطين المتحركة.

ولكن شباكوفسكي استمع بهدوء الى عبارات الاطراء المغالى فيها وقال موضحا مومئا برأسه نحو مارتشنكو:

– الحق يقال، لو لم يعط الاسس لمبدأ اللحام بدون حلقات التبطين الثابتة لما خطرت هذه الفكرة على بالي أصلا من نفسي، وذلك لانني وضعت نصب عيني المهمة الشخصية لا غير.

– يكفي لا تجعل نفسك صغيراً كالعصفور. أحسنت صنعا يا بوركا فما أمهرك!

ولكن وجه شباكوفسكي تهلل وشعشع بالنور حين أخذ اللحام الشهير بوسونوغوف يتطلع الى درز لحامه متفحصاً، ومعرباً عن اعجابه بالدقة غير المعهودة التي استطاع بها بوريس ضبط المعدن

المنصهر، فلم يدعه يسيل الى فرجة الشق، ورص الدرز لا قطرة فقطرة وانما في خصل مجدولة كضفيرة. وأوضح شباكوفسكي بصوت فاتر يعروه الانهاك، ولم يعد لديه الآن سوى هاجس واحد: أن ينصت اليه هذا اللحام الشهير ويومىء برأسه ايماءة الفاهم.

وحين قال بوسونوغوف بيقين: «لحام متحفي يستحق العرض في المتاحف كقطعة فنية» لمعت عينا شباكوفسكي بفرح. وشد على يد بوسونوغوف بيده الملفعة بكي النار.

– أتعرف، انني الآن سعيد كبوشكين حين نوه ديرجافين بشعره.

اعترى الارتباك بوسونوغوف وقال:

– ولكن أي استاذ في الصنعة أنا. ما أنا سوى أحد الهواة. أفهم الجمال، هذا صحيح. – ثم أضاف بحرارة: – سوف يعرض لي لحامك منذ الآن في الأحلام. انه ليس شيئاً من صنع يد انسان! هذا ما أقوله لك دون مواربة.

٢٤

المشرف على الاعمال اليكسي ايغناتيفتش فيرسبوف هو انسان تعود طيلة حياته ان يكون كثير الحذر، بدين، بطيىء الحركة، ثقيل الخطو، حسن الالمام بكل لولب وبأصغر جزء من كل الجهاز المادي كثير التشعب الموضوع تحت امرته. ملكاته في الرياضيات متطورة أيضاً ولكنه كان ضعيفاً في تذكر الناس، اتخذ ازاءهم اللامبالاة شأنه حيال نفسه. اشتهر بحسن تنفيذه للواجبات فهو لم «يشتغل» في العمل الانشائي وانما عاش فيه وبه، دون أن يخلد الى الراحة، كما ان الانسان ليس بوسعه ان يستريح من الحياة. لم يكن يعنيه الناس خارج نطاق العمل، فكأنهم بلا وجود. لم يذهب أبداً في اجازة. اما أيام العطل فقد انهكته اكثر من أيام الأعمال المستعجلة، محافظا أثناءها على نفس وتيرته الهادئة كما هو أثناء نوبة العمل. هو من البناة المحنكين ذوي الخبرة والدراية

وبحار سابق، صحته كصحة الغواص، وزنه يزيد على المائة كيلوغرام وبم بدأ تقريره الى بالويف؟

— القلب أخذ يتلعب! — ووضع الى صدره باطن كفه الضخمة السمينة وتسمر متجمداً وهو يتسمع بقلق متمتماً: — وهو الآن أيضاً يدق. وحتى في الليل أستيقظ من جرائه وأدخن ولكن ذلك لا يجدي. أدخن نصف علبة سجائر ولكن النوم لا يأتيني. ومن هنا سر اضطراب الأعصاب. — وطرفت عيناه متأملا في التفكير حين قال: — الخندق ذو تعريجة. وسوف تضغط على الأنبوب عندما نسحبه، سوف تضغط عليه لا محالة.

— وأنت، لم غفلت عن ذلك في حينه؟

— هناك حوض رواسب كيماوي. لقد جبته قليلا. تتعرض فيه حتى الأحذية المطاطية للتحمض. — ورفع عينيه نحو السقف، وتلفظ بانتعاشة مفاجئة: — لن تخر القطرات من السقف بعد الآن. العزبة قديمة وقد اكتريتها بايجار رخيص. وبسبب الأرق غطيت السطح أمس بالورق القطراني. والآن فالأمر حسن.

— وهل أصبحت سقافاً؟

وأطرق فيرسوف برأسه الأصلع المحاط من جانبيه باكليل من الشعر وقال بصوت جاف:

— انني يا بافل غفريلوفتش اهدىء نفسي بأداء مثل هذا العمل لئلا انهيل على الناس. ان واضعي التصاميم كتبوا لنا ما كتبوا دون التزحزح عن المنضدة حسب وثائق. ولن تستطيع الآن استدعاءهم الى ساحة التشييد لكي يشاهدوا ولو من خلال المنظار المقرب على الأقل كيف يبدو هنا كل شيء على الطبيعة في المستنقع.

— تحدث على نحو محدد.

— وما الذي يمكن قوله؟ — قال فيرسوف مكتئباً. — لم يكن من معبر شر من هذا. فالأنبوب قطره ثلاثمائة ملم اما صفحة الماء فكيلومتران، والتربة في الخندق منجرفة وعساء بينما هي في مشروع التصميم طفال رملي صلب.

— اذن غير جاهزين؟

— وما معنى غير جاهزين هذه؟ — ذهل فيرسوف ونهض

واعتدل كأنما وجهت اليه اهانة. - ان صدر الايعاز بدأنا، قل غداً!

- لا بأس، سأرى الحاصل.

- اذن، الايعاز جاهز؟ - واتضح رأساً من تلك الحيوية التي تلفظ بها فيرسوف هذه العبارة، ومن وجهه الذي تبدل في لحظة، من الحالة الباكية شعوراً بالاهانة، فانتعاشه ونشاطه معبراً عن الاستعداد التام للتصرف بحزم وعلى الفور، ان فيرسوف انما كان مرائياً لدى تشكيه من الصعاب والأخطار، تحدوه رغبة وحيدة، هي الحصول على أمر الموافقة من رئيس العمل.

بيد ان بالويف قد ألف منذ عهد بعيد أساليب فيرسوف الدبلوماسية. ولم تكن تثير في نفسه الامتعاض بل على العكس كان يعتبرها حتى طبيعية. وقال بافل غفريلوفتش بلطف وطيبة نفس:

- هل تعلم يا اليكسي ايغناتيفتش ان هذه العادة المترسبة استحكمت فينا، نقل المسئولية من درجة الى اخرى، ينبغي التخلص من هذه العادة. لقد أنبتت روح المبادرة لدى كل واحد أجنحة بامكانه ان يطير بها. - وأحنى ظهره وأخذ يربت على عظم اللوح.

ورنا فيرسوف كأنما أراد رؤية الجناح النابت فعلا، ووافقه:

- صحيح. تعلمنا كيف نخلق من أنفسنا فنانين في اللعب والتمثيل. ولا نستطيع باي حال التخلي عن هذا الذي تعلمناه، والآن سأذهب اذن لكي أصدر الأوامر من ذاتي.

كان الطيار السابق سيفولوبوف، وهو حاليا ميكانيكي على خط الأنابيب، يعتبر بين العاملين القياديين في مشروع التشييد انساناً صاحب أفكار خطرة، يوحي الى السواق الميكانيكيين لرافعات نصب الانابيب وسواق الجرافات بالفكرة التالية: «ما الذي تظنون. هل سجية تشكالوف* اكتسبت من الطيران؟ لا شيء من هذا القبيل. كل شخص يدير جهازاً اتوماتيكياً يجب عليه ادراك ان قدرات التصاميم

---

* الطيار السوفييتي الجرىء الذى كان اول من حقق الطيران بغير توقف الى امريكا عبر القطب الشمالي. **الناشر.**

تنطوي على قدرات فعلية. وسجية تشكالوف هي بالذات الكشف عنها بشكل كامل». كان سيفولوبوف معجباً ومفتوناً بشخصية غريغوري لوبانين خير ميكانيكي نصب الانابيب في المشروع، وقد قال له: «انك في ذروة ازدهار العمر. في مثل اعوامك هذه لم اخش الموت في جبهة القتال وذلك بسبب حب الاستطلاع الفضولي وحده. كنت أحلق بطائرات الالمان الاستطلاعية بعد تصليحها من طراز «فوكيه - فولف» في رحلات استطلاعية. وكنت مهتماً في معرفة التكنيك الأجنبي». وقال مرشداً: «قد يكون الانسان في عوز، فيجب احترامه للانسان الذي فيه. لا تجوز مطالبة كل شخص ان يكون الأفضل. اما بالنسبة الى التكنيك فالأمر على العكس تماماً. ولست ملزماً باحترام الآليات التكنيكية لمجرد كونها تشتغل. بل اني ملزم بجعلها الفضلى في العالم من حيث العمل وهذا هو مطلبي منها. يجب عصر امكاناتها حتى آخر قطرة. وهنا ينبغي ان يكون في دماغك حتماً المثل الأعلى للماكنة، ولا مهادنة في سبيل بلوغه.

وأثناء الاجتماع الذي عقده بالويف أعلن سيفولوبوف بحزم:

- آلياتنا التكنيكية غير مكيفة للعمل في أمثال هذا المستنقع.

- اذن، لن تستطيع المرور فيه؟

- انها لا تستطيع العبور، ولكن رجالي سوف يعبرون المستنقع على متونها، - قال سيفولوبوف بلهجة ذات مغزى، وأضاف متبجحاً:

- من المفهوم ان الناس هم الذين يديرونها ويتحكمون فيها وليس العكس، مثلا غريشكا لوبانين يستوي على مقعد الرافعة - ناصبة الانابيب وكأنه على عرش، فيعمل على نحو يجعلني مستعدا في كل مرة أراه فيها أن أبتهل خاشعا اليه.

أعلن المشرف الاقتصادي ويلمان بلهجة مهيبة:

- لقد اكتريت رمثاً من العيدان سوف نرصفها في المستنقع لتعبيده، ثم نجمع هذه الأعواد ونربطها من جديد رمثاً. - وانحنى الى جهة بالويف وهمس في اذنه: - أنا أيضاً صرت أجاهد في سبيل التوفير. الخشب طبعاً ليس كالمعدن ولكنه من حيث القيمة قريب كذلك الى المعدن، وبالاكتراء تكون الكلفة أرخص بكثير.

وجه ويلمان بنفسجي اللون ملفوح بالشمس والريح، غير حليق، تنتشر فيه العروق كما في الرخام، يرتدي دوما معطفاً من المشمع، ويحمل حقيبة يد كبيرة، فيها طقم من الملابس الداخلية، وقطعة من شحم الخنزير ملفوفة في ورقة جريدة، ومطارية، وهو لا يتحدث بشكل عادي وانما يلقي الكلام مفخماً:

- ما معنى مورد مواد؟ أهو مجرد جلاب أشياء؟ كلا. انه الشخص الذي يتولى تنسيق القيم المادية. وهل أنا شحيح؟ كلا. ولكنت شخصياً أقسى وأشد ما يكون ازاء من يراكم احتياطي الأجهزة، حتى حين لا يكون ذلك لازماً بالمرة. - ورنا بهياج نحو فيرسوف.

بينما تلفظ فيرسوف مراوغاً:

- اما الذين يعيشون بدون احتياطيات فاني أزدريهم لما فيهم من غباء...

بالامكان ان يعد ضمن قيادة العمل الانشائي أيضاً اثنان من المهندسين الشبان هما قسطنطين رازوفايف المتخصص في التركيبات وفلاديمير غوليكوف المتخصص بأعمال العزل.

ولكن العمال لم يخاطبوهما مطلقا باللقب وانما هم يدعونهما بالاسمين المصغرين: كوستيا وفلوديا.

وأولهما كوستيا فارع القامة، نحيل أما فلوديا فهو بدين أشقر.

يحظى كوستيا بالاحترام لكونه لاعباً متميزاً في الكرة الطائرة.

ولقد عانى فلوديا مصاعب جمة حين كان مشرفاً على مجموعة الفتيات اللواتي يزاولن أعمال العزل. كن ينادينه باسم فلوديتشكا، ويسألنه من هي أجملهن، واستفسرن منه عن أحدث موضة شائعة حاليا في لينينغراد في تصفيف الشعر وأي كتب حديثة هي الاكثر امتاعاً. ولكنهن تهربن بكل السبل من المحادثات حول المواضيع الانتاجية.

ولاطفنه:

- رئيسة فرقتنا كلافا أنهت دراستها في المدرسة الثانوية ثم الدورة الخاصة. ولقبها العائلي بوسونوغوفا. أبوها هو اللحام

الشهير وهي أيضاً تدرس في معهد البناء خارجياً. وهذا كله يعني ان لديها ماهو فوق المطلوب من مستلزمات الثقافة التكنيكية.

وبعد انتقال بافل غفريلوفتش للسكنى في عزبة كرناووخوف كثيرا ما غادر «مقره» هذا، تنقل بين المواضع، ونام على السرير الموقت في غرف ادارات أعمال البناء، وأيقظته ليلا دقات جرس الهاتف. وحين كان يعود مرتدياً سترته الجلد يقعد القرفصاء وقدماه حافيتان وهو يتحادث مع المشرفين على اعمال البناء في شتى الاقسام.

واذا بقي الوضع عقب انتهاء المحاورة غير واضح قال:

– انتظر سآتي حالا. – ويرتدي ملابسه ويركب السيارة الى منطقة المعبر على مسافة مائتي كيلومتر الى ثلاثمائة كيلومتر عن موضع المبيت.

أمضى بالويف قسماً كبيراً من حياته البنائية جالساً في السيارة. ولو حسب مجموع الكيلومترات التي قطعها بالسيارة لتجاوز المليون. وعند الاستيقاظ ليلا والتذكر انه في أحد المعابر المائية الكثيرة التي أشرف على تشييدها معا في آن واحد كان من الأفضل مثلا تجربة العدول عن غسل الخندق وانما الحفر بالمغرفة، التي سوف تجرها الجرارات، وكأنها فك فولاذي، يوقظ السائق ساشا آنذاك ويظل عند المعبر حتى مطلع الصبح يناقش الاقتراح، ويندفع سريعاً نحو معبر آخر، حيث أرسل آلة التجريف، ويعرج في الطريق على مسافة مائتي كيلومتر في ناحية الى محطة السكك الحديد محاولا هناك طويلا اقناع ممثل «دولة» السكك بالموافقة على اكرائه شعبة من سكة مقطوعة لان ذلك يكلف أقل من دفع غرامات تأخير العربات.

هو لم ينفرد وحيدا بنفسه طيلة الوقت تقريباً، فقد كان دوما مع غيره من الناس. والشيء الذي لم يكن بوسعه التغلب عليه هو وحشة الانفراد. وحين تعين عليه الانفراد بنفسه في العزبة او في غرفة ادارة البناء شعر بالقلق المؤلم، وحتى الرعب، والكآبة الثقيلة. واستغرق في الأفكار حول بيته وزوجته وأطفاله والسبل والوسائل للراحة في الحياة وهو ما حرم منه على مدى أعوام عديدة. لقد عاش صحبة النصاب الأقل من الأشياء مجموعة أدوات

كافية كلوازم جندي، وليس في الحقيبة أي شيء زيادة عن الحاجة الماسة. ولقد قال ذات مرة مازحاً في اكتئاب:

– حين أموت ينبغي احتراماً للفقيد الذي هوأنا أن تحفر له القبر الحفارة. أما التابوت الذي ساقبر فيه والحقيبة تحت قدمي فلتنزله الى القبر الرافعة – ناصبة الانابيب وتهيل علي التراب فيه البولدوزر.

ليس من المعتاد التحدث عن حياة البناة بعيداً عن الاسرة باعتبارها مأثرة حقة. وفي جبهة القتال لم أسمع بالمناسبة مطلقا من رجالنا شكوى بسبب قرب الموت ولكن التوق الى الاقربين كان مصدر عذاب للملايين من المحاربين، لم يستطع تذليله من استطاع قهر الخوف في نفسه ازاء الموت.

ان حياة الرحل التي يعيشها بناة الخطوط الرئيسية لأنابيب نقل الغاز قد حكمت بالفراق الدائم عن الاسرة، ولكنني لم أسمع منهم مرة شكوى من هذا. وعلى فكرة لم أشاهد في أي مكان محلا خلواً من الناس مثل محل نصب الخط من انابيب نقل الغاز، ومثل هذه الوحدة للانسان اذ يبقى مع الماكنة وجهاً لوجه. ولعل عدد المكائن هنا بعدد الأشخاص.

وكان ثمة نصيب غير قليل من الحق في اعتبار بافل غفريلوفتش رئيس العمل في أوقاتنا هذه مسئولا عن حالة الناس النفسية لا أقل من مسئوليته حيال التكنيك. وبالفعل، فان الماكنة لدى الناس الطيبين تكون دوما في حالة حسنة. أما اذا وقعت الماكنة في حالة سيئة فاصلاحها ينبغي أن يكون بادىء ذي بدء باصلاح الانسان.

ولهذا السبب عرف بالويف عن ظهر غيب جميع الناس العاملين عنده، وطلب الأمر نفسه من اتباعه ومرؤوسيه. وكان يقول:

– ينبغي أن نكون هنا جميعاً أنقياء كما ينبغي ان يكون عليه الانسان عموماً. نحن جميعاً نعيش هنا كما لو في بيت واحد، وليس لدينا مانخفيه عن بعضنا البعض. ومكانة الرئيس لا تقتصر على وظيفته وانما هي أيضاً كل ما يساعد في أن يجعل الانسان انساناً بحق.

رئيسة المختبر التكنيكي اولغا دميتريفنا تيريخوفا امرأة سمراء، لون شعرها برونزي، كانت ابان الحرب سائقة طائرة، وهي

أعوام وهو على قدر من البسالة والشجاعة بحيث اعتبرت كثرة من العمليات التي خاضها وأنجزها اسطورية. ولكن سماته الرائعة كقائد خمدت حين كان يختلي بزوجته. لم يكن يعنى بشيء عدا شئونه العسكرية وكان يزدري بكل ما لم يتعلق بالجيش.

رغم ان بافل غفريلوفتش وصف براعته في استمالة الناس اليه بانها صفة من لوازم وظيفته، الزامية لكل رئيس عمل يفهم ما عليه، فان اولغا دميتريبفنا اتخذت ازاء سمته هذه موقفاً مغايراً تماما، وأخذت تسعى لعقد اللقاءات معه. ولم يتهرب هو نفسه من هذه اللقاءات فلقد أعجبه تجاذب أطراف الحديث مع امرأة ذكية شيقة. واعترف على سبيل المزاح انه كجندي مشاة يشعر بميل كبير اليها واذا كان سلاح الطيران قد ساند المشاة خلال العام الأول من أعوام الحرب بشكل غير حسن فان اولغا دميتريبفنا باعتبارها رئيسة المختبر بوسعها ان تمحو تماما ذنبها هذا وتغطي بعض الهنات في الأعمال بصدد عزل الأنابيب.

وبالويف الذي ازيح من البيت بالعائلة المتوسعة كان مضطرا للقدوم الى موسكو أندر فأندر، والنزول في الفندق للالتقاء بزوجته الشرعية وكأنها عشيقته -لم يبق الا هذا!-فامتنع بافل غفريلوفتش حتى عن التمتع بالاجازة الاعتيادية مفضلا الحصول على الراتب الاضافي عن الاجازة السنوية نقداً. زد على ذلك انه كان قلقا للغاية على هذا المعبر المائي. ولكنه لم يحسب حساب مقدار الاحتياطي من قواه النفسية والشوق الى البيت أخذ يثقل عليه أكثر فأكثر. والحق يقال ان فيرسوف وسيفولوبوف وويلمان كانوا يقدمون اليه في الأيام التى تسبق العطلة بالتأكيد ومعهم أكياس ملأى بما لذ وطاب، فيطبخون طعام الغداء والعشاء وكل واحد منهم تساوره الرغبة في التميز عن الآخرين بالمواهب في اجادة فن الطبخ. وقد تخصص ويلمان في الأشربة ناسباً اليها خواص علاجية، ورغم ان الجميع اتفقوا سلفاً على انهم أصدقاء يجتمعون في وليمة. ليس الا ولن يتحدثوا عن الانتاج ولا بكلمة واحدة فان هذه الأيمان كانت دون جدوى.

ولكن سرعان ما يخرق أحدما منهم الوعد الذي قطع، فاذا

الموضوع الذي لا يموت، حفر طبقات التربة من أضعف المواضع في سطح الارض، يدور ويفور على المائدة. فتتحول المأدبة الى اجتماع انتاجي عادي مع الملاحظات الحادة والمؤاخذات والسخريات اللاذعة.

هرع فيرسوف الى غرفة الادارة وعاد من هناك حاملا اضبارة للوثائق التكنيكية، واذا به يشهد هذا المنظر: ويلمان يصرخ في سيفولوبوف:

– لقد تعودت على النظر الى الأرض من فوق الى تحت ولكن موضع تراكم الأخشاب فظيع. لسوف يلتهم كل مالديك من موارد آلية عندما ستوضع فيه.

وصرخ سيفولوبوف مهتاجاً:

– ان اجراء الصيانة الكلية ميدانياً هو أسلوب وحشي في التعامل مع التكنيك. من الأرخص شراء ماكنة جديدة بدلا من تصليح القديمة بهذا الشكل.

وقاطعه ويلمان بازدراء قائلا:

– يا لك من رسام للخطط الفارغة! أنظر أي آليات حصلت عليها بغية اجراء أعمال التصليح الخاطفة، أمثالها لا تتوفر في كل مصنع، وكل ماهو مطلوب أن يكون لدى من يتولى أمرها رأس فوق منكبيه!

وقال بالويف لائماً:

– بسبب هذه الآليات يتعين علي الآن زيادة خطة التصليح – أترى. وسيأتي الآن الينا ناصبو الخط على البر طلباً لتصليح آلياتهم.

وردد ويلمان ناقماً:

– وهكذا فانني بهذا ذو ذنب؟ لقد جلبتها لكم من ستالينغراد وكم ألححت في طلبها. علقت على صدري خصيصاً لذلك الوسام الستالينغرادي. وأنت تذهب الى الظن باني عرقلت بالتكنيك تنفيذ الخطة؟ فشكراً لك على ذلك؟ – وتلفع في معطفه من المشمع وقال مهدداً: – انتظروا على مهلكم، لسوف تقفون أمامي قريباً صاغرين ولكني رجل صلب لا ينبغي التصرف على هذا النحو! – ثم انصرف صافقاً الباب المبطن بلباد ممزق متخرق.

– وهكذا... استرحنا ومرحنا. – قال بالويف ثم طلب راجياً:
– والآن هيا أيها الفتيان فلنجرب الغناء أم ماذا!
وأومأ سيفولوبوف برأسه نحو فيرسوف معلناً:
– لن أشاركه في الغناء. مادام يتحدث بنبرة استخفاف زاعماً انني أحضر الميكانيكيين لمجال مجهول. عليه أن يغني لوحده منفرداً وبوسعه انشاد اغنية عن التربة الوعساء، أو غيرها عاطفية وجدانية حزينة.

٢٥

خطرت على بال ويلمان فكرة توجيه الدعوة لحضور العشاء الى تيريخوفا بغية تحسين حالة الجماعة النفسية.

وبالفعل خف الجدال في حضور اولغا دميتريفنا وقل الخصام، وعمدت هي في الوقت المناسب الى اخماد الهياج بابتسامتها اللطيفة أثناء نزوات الانفعال التي لا مفر منها في الخلاف حول طريقة سحب المعبر المائي.

في البداية رافقها الجلاس بالدور في التوديع الى العربة – المختبر ثم أصبح ذلك بشكل ما غير ملحوظ امتيازاً يختص به بالويف وحده.

لم يشعر بالويف مطلقاً بانه تعس في الحياة. ولقد كان شخصاً واثقاً بنفسه معتداً بها ليس لانه شعر بالرضا التام عن نفسه أو بالغ في تقدير سموه وانما لانه شعر بنفسه في الحياة دوما على أرض صلبة شأن الملايين العديدة من أبناء وطننا.

أعجبت البعض نزعة بالويف المستقلة ولم تعجب البعض الآخر وأيده بعضهم بينما حاول آخرون على العكس احتواءه وطرحه.

وكان بالويف يعترف لأصحابه الاخصاء بقوله:
– هل تعرفون بانني عشت حياتي بارتياح تقريباً. ان مهنة البناء هي الاختصاص الرئيسي في العالم.

ومع كبر السن زادت صعوبة العيش على نمط حياة الرحل وكما يعتاد القائد المسلكي على العيشة العسكرية اعتاد بالويف أيضاً

على حياته كمساهم في البناء، ولم يتصور انها ستغدو على نحو مغاير.

ولدى توديعه مرافقاً اولغا دميتريیفنا الى العربة - المختبر خالج بالويف كل مرة شعور لطيف. اولغا دميتريیفنا ذات قامة دقيقة غير فارهة، وقوام ناعم كقوام الفتيات، ترتدي ملابس ذات اناقة ثابتة. وتحب ارتداء البلوزات الجميلة وتسير دون وجل حتى في الوحل بحذائها ذي الشكل الزورقي. وهي انثوية الطباع لطيفة المظهر وذات شعر كستنائي اللون لا يزال له بريقه بخصلة من الشيب، وحين تتحدث تتطلع الى بالويف من تحت الى فوق بعينيها الشهلاوين في لون يمتزج فيه لونا الدخان والرماد. وحين كانت تنظر في عينيه بهذه العناية يغدو كل شيء حواليه ساطعاً ومشعاً بهالة وحتى يبدو له وكأن الرؤية مبسوطة الى مدى أبعد من المعتاد.

سيطر على بافل غفريلوفتش شعور ما غريب بالاعجاب وأخذ بغتة يتحدث عما لم يفكر فيه من قبل مطلقاً:

- يبلغ عمر الأرض زهاء خمسة مليارات من الأعوام أما الانسان على ظهرها فقد عاش مدة ثمانمائة ألف عام. وما أبطأ سير تطورنا! ليس من المستبعد الآن اقامة اتصال مباشر قريباً مع قاطني الكواكب الاخرى. واذا كانوا سابقين لنا في سلم التطور فان ذلك غير مريح. سيكون علينا تقديم تقرير المسئولية حيالهم عن التقدم الأرضي غير الكامل في التنظيم.

وضحكت اولغا دميتريیفنا قائلة:

- انك تفكر كرئيس عمل.

- بالطبع سيكون بوسعنا اقتباس الكثير من النافع من خبرتهم الطليعية، - قال بالويف مرتبكا كأنه يحاول التبرير وهو يخجل أن يرنو الى عيني اولغا دميتريیفنا وتابع يقول: - ولكني لا أستبعد اننا بالذات سنبدو بالنسبة لهم طليعيين نظراً لانه بدأت من جهتنا مرحلة ارتياد الرحاب الفضائية وليس من جهتهم.

- لو كنت من أهالي كوكب المريخ لوجهت اليك اذن تهمة الغرور.

ألقى القمر نوره الأبيض الخافت على العشب الذابل المدعوك

وعلى الصفحة المزرقة لمياه الغدران في الحفر. وشق حجاب الصمت المطبق الصوت الضعيف الصادر عن الأغصان المتجمدة لأشجار البتولا. وتلبد فوق المستنقع كما هو الشأن دوما الضباب متكثفاً في عتمة بيضاء.

وعندما مرا عبر الوهدة مس بافل غفريلوفتش بعناية مرفق اولغا دميترييفنا وقال منبهاً:

– حذار، فان اللوحة فيها منقلب...

وكان يعرج أحياناً الى العربة – المختبر لشرب الشاي الذي تعده اولغا دميترييفنا على الموقد الكهربائي.

كان السرير السفري يحجز المدخل كله. واستقر في الركن دولاب بحجم كشك الهاتف الشارعي، علقت فيه اولغا دميترييفنا معطفها دافعة المشاجب التي تحمل الفساتين.

ونصب عند فجوة النافذة العلوية في الشباك رف وضعت عليه لفائف ورقية تحتوي على الأطعمة وقنينة عريضة الفوهة للحليب مغطاة بسدادة مخروطية.

وعلى الجدار صورة فوتوغرافية لاولغا دميترييفنا في شبابها وهي أنحف منها الآن في قمصلة على كتافيتها مكعبان.

انحنى بالويف نحو الصورة قائلا:

– أأنت هذه المخلوقة الرشيقة؟

– أجل، هذه أنا.

ولأمر ما شعرا هنا، وهما داخل الغرفة منفردين، بالارتباك والاستحياء من بعضهما البعض.

وعند التوديع ذكرها بافل غفريلوفتش مؤكداً:

– أرجوك ابداء المزيد من الحرص والشدة في مراقبة العزل فان غاز الميثان الصاعد من المستنقع حاد جداً.

وأحنى رأسه وهبط على درجات السلم المدلى من العربة الى الأرض واتخذ أقصر طريق في العودة عبر الوهدة.

ودعكت قدماه العشب المبيض من الثلج وقد استقر في قعر الوهدة جليد مزرق غير حي وكان يلمع كأنه حجر شفاف صقيل.

لم يشعر بالويف مطلقاً بالارتباط الاستعبادي الى النساء. وكانت له في حياته حالات اقتراب عارضة ولكنه ابتعد بيسر

مفارقاً مقنعاً بطيبة نفس ودون اهانة بان المشاعر الجدية في هذا المجال غريبة عن طبعه.

أوحت اليه الحرب مثل الكثيرين الاخرين الاشمئزاز من الموقف المبسط نحو الحياة. والذي اكتشفه لنفسه ابان أعوام الحرب في حياته قد أثر أيضاً بشكل ما على موقفه حيال الناس. لقد أدرك ان كل انسان له في نفسه ما هو رائع ومتفرد ونادر المثال. وما من شيء أرفع وأسمى وأجلب للبهجة من القدرة على رؤية هذا في الانسان، والمهم هو ان يقال للشخص الآخر في الوقت المناسب أي انسان يمكنه أن يكون.

وكون بالويف وهب نفسه عقب الحرب باخلاص لعمله لم يقتصر من حيث السبب على نمو انطلقته بل أيضاً والقيام بكل ما بوسعك في سبيل ان يصبح كل فرد بالجوار أفضل مما هو عليه لانه مامن شيء أهم من الشعور بذلك ومعرفة ان هذا يؤدي الى مزيد من النجاح في انجاز القضية الكبرى التي انيطت بك.

والآن كان بالويف دائم الحرص على حالة الناس النفسية بشكل يساوي تقريبا حرص القائد قبيل المعركة، فالمنتصر دوما في خاتمة المطاف ذلك الجانب الذي يتوفر له التفوق في القوى لا من الناحية المادية بل والمعنوية.

لقد أعجب بالويف اولغا دميتريفنا وانصتت باهتمام الى آرائه بصدد أسلوب البناء وأدهشها بسرور ما يتحلى به من الرأي الثاقب وانشغال البال على ما ستكون عليه لاحقاً مصائر الناس. ورققت ولطفت مزاجها اهتماماته بتوظيب الحياة الخصوصية لواحد من الأشخاص وتارة اخرى لشخص آخر. وقال بالويف:

– ينبغي التوصل الى وضع يشعر معه الناس في عملنا بانهم أسرة وساحة العمل الانشائي بالنسبة لهم ورشة، والأفضل كالبيت. حين يكون شعور الانسان على هذا النحو يمكن بجرأة اجراء التقليص اللاحق للتركيب الاداري. وكلما زاد شعور العامل بانه رب العمل قلت الحاجة الى وجود رئاسة له. ينبغي أن يقل عدد المهندسين – الرؤساء المراقبين ويزيد عدد المهندسين – رؤساء العمال والفرق والمشاورين. أما أنت يا اولغا دميتريفنا فنصيحتي

لك أن تربطي مهنتك كباحثة مختبر بالانتاج مباشرة، في النهار تشتغلين مع فرقة العمل مباشرة أما في الاماسي فتجرين سوية مع الفتيات التجارب المختبرية. هذا نافع لهن وسيكون باستطاعتك تحسس الموضوع ميدانياً بالرقابة والاشراف والحيلولة بهذا نفسه دون حدوث العمل الرديء وليس فقط تسجيله بعد حدوثه.

بحث بالويف عن الانقاذ في المواضيع الانتاجية، واجتهد بكل السبل للانصراف عن ملاحظة النظرة الرقيقة العميقة المتأملة من عيني اولغا دميتريبفنا الدخانيتين.

وعند اللقاءات معها تاقت نفسه الى مواضيع مغايرة بالمرة حول شيء ما حزين، يستدعي التأمل في التفكير، وحينما سألته هي نفسها ذات مرة على حين غرة في دفقة صراحة:

— وما هو في رأيك يا بافل غفريلوفتش السبب الذي حدا بي الى المجيء للانتاج؟

قال بالويف مقطب الجبين:

— وما وجه التفكير في هذا؟ لقد ما فلقت في طائرتك لمصادفة سعيدة. واتذكر وقوع هذه الحادثة في جبهة القتال: أسقط طيار ألماني مقاتلة من طائراتنا. وهرعنا الى موضع السقوط لنجمع ما بقي من طيارنا لكي ندفن رفاته فجمعنا من بقاياه ما يعادل المائتي غرام. أما أنت فقد اسعفك الحظ. وفعل الحقل المحروث فعله في تخفيف الصدمة. وما دامت الصحة تسمح فماذا في الأمر! ثم ان العمل في البناء معناه الهواء الطلق دوما، وهذا نافع.

— ولكنني من أهالي موسكو.

— وأنا كذلك لست من سكان جزيرة كمتشاتكا.

— هل تعتقد بامكان اقامة الصداقة الخالصة ما بين رجل وامرأة؟

وأطرق بالويف برأسه ودمدم متمتماً:

— وماذا يمكن القول في ذلك. هذا على العموم ممكن لدى توفر السعي المشترك نحو غاية سامية ما. — ثم رفع رأسه وأعلن بشيء من الغضب: — ولكنني شخصياً أقف دوما ضد هذا! ولا أحب أي نصب وغش. — ثم نصح بجفاف: — أما أنت يا اولغا دميتريبفنا

فكان ينبغي عليك فهم نفسك بجلاء وعدم التخفي نحت خصل الشعر البيضاء. ولست الآن بعد بأية امرأة كهلة فاتها القطار ويجب عليك استغلال زينتك بشكل هادف حثيث. كم لدينا من المهندسين في متوسط العمر! وحبذا لو استهدفت واحداً ما بعينه منهم ونظمت لك اسرة. ولا داعي الى التسكع كامرأة منفردة لوحدها.

– انك تتحدث معي بمثل هذا الشكل الفظ! فهل أنا مذنبة في أمر ما؟

– كلا فاغفري لي وكل ما في الأمر هو انني انزلقت الى الاحتداد في القول.

وقد أقدم بافل غغريلوفتش على هذه الغلطة عقب ملاحظته ان اللقاءات مع اولغا دميتربيفنا أخذت تثير السخريات السمحة من قبل فيرسوف وسيفولوبوف وحتى ويلمان الذي لا يستثار مطلقا بأمر، أما رئيسة عاملات العزل فقد سألته :

– ايها الرفيق بالويف ألا تعرف اين يمكن شراء مظلة؟

– وما حاجتك اليها؟ – سألها بالويف العارف بسلاطة لسان رئيسة العاملات هذه وهو يبتسم سلفاً.

– نحن لا نبتغيها لأنفسنا وانما لاولغا دميتربيفنا والا فحين تهطل عصيدة المطر والثلج يحسن بها حماية رأسها لئلا تفسد تسريحتها. وهي كما يبدو تصبغ شعرها ولكن خصلة واحدة منه لا تتقبل الصبغة. فهل تظن انت انها لا تزال في ميعة الشباب؟

وانفجرت الفتيات بالضحك.

ارتبك بالويف ولم يحر جوابا.

وشعر ان بزوغلوفا أيضاً صارت تتهرب من المحادثات الصريحة معه . وانصرفت زينا بنوتشكينا منقلبة بازدراء حين مر بالقرب.

وحتى فكتور زايتسيف لم يعد يتحدث معه في موضوعه المفضل حول الكتب اللازمة بصدد كافة شئون الحياة وذلك لانه يجب تعليم الناس النظر الى أصعب أمر بشكل مباشر وبطهارة والاشارة في كافة الحالات الى مثل أعلى محدد.

ورغم ان بافل غغريلوفتش أيضاً لم يصدق جداً بامكان قيام

علاقات ودية محضة فترة مديدة مع اولغا دميترييفنا فقد بدا له أحياناً انها ممكنة القيام بينهما.

وحين يخلو بنفسه سرح أحياناً في وادي الأحلام بما يكاد يكون خليقاً بالفتيان اليافعين حول هذه الصداقة التي لم يكن لديه مثلها قط. وتذكر محادثاته مع اولغا دميترييفنا وتذكر كيف انصتت بثقة وفضول صريح الى آرائه حول كيفية صيرورة الانسان أروع وان الشيوعية الواقعية تؤدي أيضاً الى تحرير الانسان من كل تبعية مادية.

لقد تحدث معها حول ذلك الوقت حين تفقد كافة الأشياء قيمتها التي كانت لها في البداية وسوف يكون لها مغزى واحد هو هل هذا الشيء لازم للانسان أم لا.

وأدلت اولغا دميترييفنا كذلك بأحلامها، وكانت أكثر تواضعاً وأقرب الى الأمور الشخصية وأكثر صراحة. أعلنت الشكوى من تعبها في العيش وحيدة وهي تخشى الوحدة كثيراً، هذه الوحدة التي ألجأ اليها الخوف فهي تتخوف من الوقوع في غلطة اذا تعجلت أكثر من اللازم في اختيار القرين الذي يكون شريك حياتها. حتى لقد اعترفت تارة بشعورها انها كاللصة الصغيرة حين تسعى الى اللقاء مع بافل غفريلوفتش عالمة علم اليقين ان هذا في الحقيقة لا يمكن أن يفضي الى أي شيء حسن.

ووافق بالويف بكآبة قائلا:

— هذا صحيح. لست من كبر السن الى حد لا أصلح معه لمثل هذه الصداقة وأنت بوسعك الوقوع في التصور الخاطىء بان الرجال جميعاً طيبون مثل طيبتي معك. — وأخلد بالويف الى الصمت هنيهة ثم تابع يقول: — انني لو شئت العلم أحببت زوجتي بالشكل الحقيقي حين جربتها طيلة العمر وعرفت سجاياها على الوجه الحق.

وتحدث الى اولغا دميترييفنا عن ذلك الشعور بالاعجاب الغامر الذي خالجه ازاء زوجته حين عرف كيف عاشت خلال فترة الاخلاء والتهجير الى المؤخرة ابان الحرب وأي حب فخور لا ينطفىء التهبت شعلته في قلبها نحوه.

وقال بافل غفريلوفتش بتأثر وانفعال:

– وتصوري انها كانت نحيلة يبدو عليها كبر السن وفاقدة للجمال ولكنها في ذلك الحين بالذات ملأت نفسي بحيث لم تترك مجالا لمستزيد والآن هذا يكفي للعمر كله. – واعترف وهو يفرد يديه: – لو انها علمت باني حدثت بهذا امرأة اخرى فلعلها كانت ستشعر بالاستياء.

– وهل ستذكر لها هذا؟

– لا أدري، – قال بافل غفريلوفتش. – لا أدري. وعلى فكرة فكل شيء ممكن الحدوث.

– لعل من العسير أن يكون الانسان كامل السعادة.

– وأنا ازدري الناس الذين غرفوا السعادة شبعاً، ورياً، – صرخ بالويف ساخطاً. – ان الانسان في المستقبل أيضاً والى أبد الآبدين يجب أن يسعى بتعطش نحو أفضل الأمور وهذا الأمر الأفضل لا حد له.

وشربا الشاي مع الخبز المجفف المحمص على سخانة الفرن الكهربائي بعد تغطيته بالمربى.

وتحدثت اولغا دميتريفنا عن خدمتها في وحدة سلاح الطيران.

– كان لي هناك صديقات ممتازات. ولكن عقب طلعة الغارة الجوية... وانت بذلك من العارفين. لم أشاهد كيف لقين مصرعهن. أقلعن بالطائرات وهذا كل شيء. لم يعدن الينا. وتظل تفكر انهن موجودات في مكان ما كما لوكن على قيد الحياة. وما كان أصعب عقد أواصر الصداقة بعدهن مع الاخريات الجديدات. ترقد احداهن على السرير الذي كانت تشغله صديقتك فتشعر لهذا نحوها بالبغض حتى لتكاد تنهال عليها بالضرب المبرح.

– وماذا بشأن زوجك؟

– انني لم أختره بنفسي. أرسلوه الى المؤخرة وطلب مني نقله. ولكن الطائرة أصيبت بقذائف المدافع المضادة للجو. وأخرجنا أنفسنا منها معاً وكان جريحاً ولكنه مرح وغافل عن الهموم.

وخرجنا من منطقة المؤخرة للعدو وتزوجنا. انه شجاع جداً فلقد كان من رجال وحدة انزال وانت تعرف معنى ذلك... ذهب في أخطر المهام ولم يكن يحب اشغال نفسه بحملها على التفكير حول الكيفية التي سوف نعيش فيها أنا واياه. كان يقول مازحاً: «سيكون المعاش التقاعدي كافياً لك. انني انسان ميسور الحال حتى بعد الوفاة». اما أنا فواصلت التحليق في غارات سلاح الطيران حتى اسقاط طائرتي. وبعد مغادرة المستشفى انتسبت الى معهد دراسي. ورفضت تلقي المعاش التقاعدي عن زوجي. كانت لديه زوجة اخرى وان لم يكن قد سجل معها عقد الزواج وكانت امرأة قد تجاوزت سن الشباب ولم يحدثني عنها. وهو عموماً لم يعر التفاتاً لا الى ماضيه ولا مستقبله ولم يكن يؤمن داخل نفسه بهذا المستقبل.

وعند الاستماع الى ذلك حاول بافل غفريلوفتش ادراك المغزى الخفي لكلامها والتكهن بالسبب الذي حدا بهذه الامرأة الجميلة الفخور الجسور الى البقاء وحيدة في الحياة وسبب تهربها من معاشرة المهندسين الشبان وسعيها الى عقد اللقاءات معه. فهل وقعت في غرامه؟ وكان يخالجه أحياناً على فكرة الشعور بمثل هذا الأمل الجرىء بالنسبة اليه، لكنه سرعان ما طرحه عنه ونفاه وحتى بشيء من النقمة والامتعاض متذكراً كيف أنصتت الى كلامه بذلك الانفعال الصادق الوجداني حين تحدث عن حبه لزوجته. أفلم تكن في ذلك مرائية؟ ام الأحرى انه هو الذي هيأ المجال لاتهامه هو بالذات بالرياء حين استرسل سارحا في وادي الاحلام متحدثا عن الانسان الرائع الذي سيعيش في المستقبل. أفلم يعطها لا ارادياً المجال لتعليق الآمال بالعثور فيه نفسه على شيء ما يلفت النظر ويستدعي الولع؟

– على وجه العموم أريد أن أقول لك انك لا يحق لك ان تكوني محرومة من السعادة.

وتطلعت اليه اولغا دميتربيفنا مستغربة وقالت:

– وهل أنا شقية في الحياة؟

– ثمة ما ليس على ما يرام يسبب لك العذاب.

وأطرقت اولغا دميتربيفنا برأسها وسألت وهي تحرك الملعقة من جانبها الظاهري على صحين الفنجان:

– هل أنت واثق بان الأمر على هذه الحال؟
– واثق، – تلفظ بافل غفريلوفتش غير واثق جداً وكرر باصرار: – ولكن على أية حال بودي أن أرجوك اذا كنت تثقين بي ولديك نحوي بشكل ما تقارب روحي...
– نعم، – قالت اولغا دميتريبفنا وأعلنت وهي تنظر في عينيه مباشرة: – لقد انتظرت هذا السؤال مؤملة في التقارب من جهتك بالذات.
وشعر بافل غفريلوفتش بالارتباك من نظرتها الحادة الثابتة وطلب بتردد:
– انني لا أصر. في الحقيقة لدى كل شخص قد يكون شيء ما ليس على ما يرام.
نهضت اولغا دميتريبفنا من المقعد ودنت اليه على قرب شديد وقالت بصوت جاف وبدون كلفة:
– انني جئت الى هنا هرباً. فررت من الانسان الذي أحببته والذي هو كما قال يحبني. هربت لشعوري بالجبن.
– وما الذي خفت منه بالضبط؟
وهوت جالسة مرة اخرى على المقعد وكأنما خارت قواها بغتة ومدت يديها أمامها مبسوطتين على المنضدة وقالت وهي تحرك أصابعها:
– بعد سقوطي بالطائرة أعادوا لي الحياة ولكن ليس بوسعي منح الحياة لمخلوق آخر. وعلى العموم لو انك كنت على مزيد من قوة الملاحظة لكنت قد أدركت منذ أمد بعيد، – وهنا ابتسمت ابتسامة ساخرة، – انني مدينة بخصري الرائع الى مشد الخصر المعدني فقد اعطبت خرزات عمودي الفقري. – وطرقت المنضدة بضربات من أصابعها. – ولكن ينبغي الاعتراف مع ذلك بانك تتحلى بشيء من القدرة على التكهن. ايه . – وسألت ملتفتة: – لعل من الأفضل فتح المذياع. برنامج «المنار» الاذاعي يبث دوما ما يسلي ويروح عن النفس.
فتح بافل غفريلوفتش المذياع. كان وجهه شاحباً وشفتاه مزمومتان بصرامة.
– وهل... راجعت جراحاً شهيراً؟

وأزاحت عن جبينها خصلة الشعر وقد أرهقها الاعياء من المعاناة وقالت بيأس وقنوط:

– اكثر من واحد واكثر من مرة. قالوا انه في حالة اضطراري من الممكن تكرار العملية الجراحية. تكرارها. أتفهم. ثم هم ليسوا على يقين من نتيجتها. أما أنا فلا أستطيع وليس بوسعي بعد كل هذا معاناة أي ألم ولا أطيق احتماله.

– ولكن توجد الآن وسائل ما جديدة تخلو من الألم بالمرة.

– اذن، – وصرخت بسخط – حتى انت... – وسرعان ما قاطعت نفسها متمالكة جأشها: – انني لا ألومك. ولكن لماذا قال هو الذي يحبني: جربي مرة أخرى. وهل تعلم كم في ذلك من العذاب؟ فهل يمكن أن يدفع المحب من يحبه الى هذا؟

– يمكنه. – قال بافل غفريلوفتش.

وعلى حين غرة كأنما تغيرت اولغا دميتريبفنا كليا. اضاءت وجهها ابتسامة مشعة وقالت بصوت طافح بالسعادة:

– انني قد كذبت بالطبع بصدد حبيبي.

– ولماذا «بالطبع»؟. – سأل بافل غفريلوفتش وهو يشعر بجذل مجهول السبب.

ولكنها لم تعر عبارته التفاتاً.

– أما العملية الجراحية فسوف يتم اجراؤها ولكن لا تتصور كأنما أنت الذي أقنعتني بهذا. ذهبت لمشاهدة الأنبوب المدسوس والذي زحف عبره زايتسيف. وفكرت: ماكان أفظع ما عاناه وهو يزحف عبر هذا النفق الضيق المحبوس زد على ذلك ان أنفاسه اختنقت في الماء الذي يغمره. ولكنه زحف. وهل تظن ان دافعه الوحيد كان الاهتمام الانتاجي؟ أهكذا تعتقد؟

– وأنت ماذا تعتقدين؟

– كانت بانتظاره في الطرف الآخر من الأنبوب بزوغلوفا ذات الأنف المدبب تلك الخنساء التي تعمل مراقبة في مختبرنا. وأنا أيضاً بوسعي الزحف عبر العذاب اذا كان ثمة من ينتظرني في الجانب الآخر. أتفهم. اذا كان هناك من ينتظر.

وسأل بالويف وقد اعتراه تأثير الانفعال:

– ومن الذي تريدين بالذات ان يكون بانتظارك؟

- انه ليس انت على أية حال. - قالت اولغا دميتريفنا وهي تضحك مقهقهة حتى لقد دمعت عيناها ثم قالت بهمس: - انني أفهم... انت انسان حسن طيب. ولكنك طيب لا لكونك دوما على هذه الطيبة وانما لانك ترى انه من أصوب وأحوج ما ينبغي الآن هو ان تكون طيباً. - قالت ذلك كأنما بلهجة صبيانية مكررة بلا انتهاء كلمة «طيب» واضعة فيها كل مرة مغزى خاصا بها وغير واضح تماما لدى بافل غفريلوفتش. - غير اني أريد وأرجوك: ساعدني على ان أكون أنا نفسي طيبة وان أسامحه من الصميم على كونه موافقاً على اجراء العملية لي.

- اذن فهو موجود فعلا هذا الانسان القريب الى نفسك؟

ولم تحر جواباً. وأجهشت منخرطة في النحيب.

مسح بافل غفريلوفتش بحذر على رأسها وقال متحسراً:

- هلا ذكرت لي عنوان هذا الانسان؟

وأشارت بطرف عينيها نحو المرآة حيث كانت مطروحة حزمة من الرسائل.

واقتطع بافل غفريلوفتش قصاصة من جريدة وسجل عليها العنوان وطوى الوريقة ودسها في جيب الساعة من سترته وسأل:

- هلا تمشينا؟ - وبعد التطلع من النافذة أضاف: - ليلة قمراء.

وهزت رأسها بالرفض. ارتدى بافل غفريلوفتش معطفه وتناول كفها ثم انحنى وطبع باحتراس قبلة على باطن كفها، وخرج.

٢٦

في نفس تلك الليلة بعث رسالة الى العنوان الذي كتبه موقعاً اياها بذكر منصبه كاملا لخشيته أن يبعث انفعال الأسلوب بعض الشيء ما لا حاجة اليه من الشكوك في نفس المعنون اليه.

ورغم ان سمعة بالويف قد تزعزعت أو اهتزت قليلا في اسرة العمل بعد أن صار يكثر من المرور في ساعات الفراغ على العربة - المختبر حيث تعمل تيريخوفا فانه اجتهد بعناد لعدم الالتفات الى

المداعبات المازحة، وذلك التباعد الناجم الذي أتينا على ذكره آنفا.

ثم حل من لينينغراد رجل فارع القوام، شاحب الوجه، غير واضح السن وبوجه جاد الطلعة، منغلق التعابير. قصد بالويف وشد على يده مصافحاً دون أن يبتسم مجاملة وقال:

– صدقني انك قد فعلت لنا نحن الاثنين عملا طيباً في منتهى الطيبة... لا يجوز اعتباره أقل من البعث مرة أخرى الى الحياة.

– لم أفعل هذا أنا بل هو زايتسيف. – قال بافل غفريلوفتش متجهما.

– عفوا ولكن أليس لقبك بالويف؟

– بالضبط، – قال بافل غفريلوفتش ورفع سماعة الهاتف وأخذ في توبيخ ويلمان لكونه لم ينقل لحد الآن من المعبر الآخر المرس الضروري لجر المعبر المائي.

وفي اليوم التالي قدمت له تيريخوفا عريضة بطلب اعفائها من العمل. وقرأها بافل غفريلوفتش وسجل تاريخ اليوم ثم ذيلها بتوقيعه ووضعها في الاضبارة. وقال موضحاً:

– سيغدو الأمر الاداري ساري المفعول بعد سحبنا للمعبر المائي. واذا لحق بالعازل ضرر سيكون عسيراً متابعة ذلك من قبل انسان جديد في هذا العمل. – ووضع كفه على الاضبارة قائلا بلهجة جافة: – هذا هو القرار.

صرخت تيريخوفا بشكوى:

– ولكنه عندئذ سوف يرحل لوحده. فليس بوسعه البقاء أكثر.

– فليرحل! – قاطعها بالويف. – لديه رئاسته ولدينا رئاستنا. لن يعرض لك أي شيء من مغادرتك بعد تأخر أسبوع واحد. اما الاهتمامات الانتاجية فاني أعتبرها فوق الشئون الشخصية.

ما الذي حدا ببافل غفريلوفتش الى اتخاذ قرار كهذا؟ هل كانت دوافعه اليه الاعتبارات الانتاجية الصرفة أم ثمة أمر آخر. ذلك ما يصعب التكهن به. وكما يقال فان العلم عند الرؤساء.

الآن وقد خلا بافل غفريلوفتش الى نفسه خالجه لا شعور

الشوق والتوق بارهاق الى اسرته فحسب. دنا نحو المرآة وتطلع بعناية فاحصة وكآبة ثقيلة الى وجهه وقد اعترف ذات مرة لفيرسوف قائلا:

– أجل يا اليوشا ثمة مرحلة انتقالية ثقيلة الوطأة من عمر الانسان حين يتدحرج منحدراً باندفاع من قمة سن الخمسين نحو سفح العقد السادس من سنيه. ويخيل اليه طيلة الوقت انه انسان ليس فقط لم يبلغ كبر السن بل انه حتى دون سن البلوغ. وأنا أتذكر اكثر فاكثر غرامي الأول. كانت عندنا في القرية فتاة يملأ وجهها النمش. لم أعد أتذكر اسمها. ولكني أتذكرها وكأنها تقف ماثلة الآن حيالي، ترتدي بلوزة حائلة اللون وفتحة العنق مهدولة وحول جيدها قيطان علق فيه كعقد القلادة مفتاح البيت. رجلاها حافيتان وفيهما الكثير من الخدوش. وعظام الترقوة ناتئة. كانت تفوح منها دوما رائحة ذرق الدجاج لانها كانت تعنى بدجاجات القس وتتولى بنفسها تنظيف قن الدجاج. وأنا ذات مرة قفزت من السقيفة وسقطت بقدمي على المسلفة وانشق فيها جرح، ولكني خشيت أن أصرخ فان والدي كان صارماً، وموسم الحصاد على الأبواب، فكأنما جرحت قدمي عن عمد. فانتشلتني من المسلفة وغطت جرح قدمي بنبات مزمار الراعي وربطتها باللفائف وجلست على الأرض ووضعت رأسي على ركبتيها وأخذت تعيذ من الألم والدم وفق العادة الشعبية. تنحني حتى تكاد تمس أذني بشفتيها وتهمس وتهمس وتتساقط دموعها السخينة قطرات على وجهي وعنقي. وها أنا أحفظها مدى العمر في حبة القلب. حاولت اقناعها حين توجهت مع الوالد للعمل في البناء ان نذهب معا. أحسست بالخوف. ثم توفيت. نطحها ثور بقرنه. وهل تعلم انني كلما زدت ايغالا في العمر عرضت في أفكاري بشكل أجلى.

وقال فيرسوف موافقاً:

– هذا صحيح فكل حادث تافه من أحداث الطفولة تتذكره جيدا. ولكن ما ان بدأت الدراسة الخارجية بالمراسلة حتى انطمست الذاكرة وتعذر علي استدعاء قوة الحافظة.

وسأل بلهجة رسمية:

– هلا أصدرت الايعاز يا بافل غفريلوئتش بسحب المعبر المائي؟

– اذا كنت تريد القيام بذلك بدون ايعازي فهيا. – قال بالويف بصوت متعب. وعاتب لائماً: – ألم أقل لك بوضوح يا اليكسي ايغناتيفتش لا تبحث عن ظهور آخرين لتختفي وراءها مادام لك رأس فوق كتفيك.

وارتبك فيرسوف ولم يحر جواباً.

وخرج بافل غفريلوفتش الى مدخل الدار مودعاً فيرسوف حين غادر عائداً.

كست موجات البرد الليلية وجه الأرض بنقاب أبيض. كانت الظلمة شفافة لماعة كأنها مغسولة بأشعة القمر جامدة، بلا حراك. رفع رأسه وتطلع الى السماء. كان قرص القمر المستدير الأبيض المنير معلقا في قبة السماء كأنه حمل ثقيل. وتذكر انه قبل أمد غير بعيد كان يتملى جمال القمر سوية مع اولغا دميتريفنا، وقال لها مازحاً: «كل شخص يبلغ وزنه ستين كيلوغراماً يفقد من وزنه في حالة وجود تأثير جاذبية القمر سبعة مليغرامات. ولكن عبء الحياة يغدو أخف على الانسان والحياة نفسها أسهل لا بفضل جاذبية القمر وانما لوجود شيء مثل الصداقة وشعور الرفاقية والحب وما الى ذلك...». اما اولغا دميتريفنا فقد تطلعت نحوه بعناية وثقة بعينيها الدخانيتين وهزت رأسها موافقة...

وقف بافل غفريلوفتش عند مدخل الدار متنصتاً الى هدأة السكون واستنشق بقوة وتعطش الهواء البارد والعطر بنكهة الثلج.

وحين عاد الى العزبة خلع ملابسه واستلقى على السرير وتغطى بالبطانية وفوقها معطف جلدي وأطفأ النور. ولكن لم يتح له الاغفاء سريعاً فلقد رن جرس التلفون الموضوع على طاولة عند جهة رأسه. وتناول بافل غفريلوفتش السماعة دون ان يشعل الضوء وبدأ محاورة طويلة مع المشرف في المعبر المائي الآخر الذي كان واقعا على مسافة خمسمائة كيلومتر عن هذا المعبر ولكنه محسوب ضمن دائرة مسئولية بالويف. وأشعل بالويف عود الثقاب ودخن سيجارة مستمعاً الى التقرير المفصل للمشرف ونادراً ما طرح ملاحظاته.

واضاءت نافذة العزبة بضوء أزرق من نور القمر. واندفع البرد من فرجة النافذة المفتوحة. وبعد اقتناع بافل غفريلوفتش بان المشرف الشاب ينجز كل ما هو مطلوب منه بفهم وضع السماعة وتكور في ضجعته وفجأة شعر وبالدهشته بالسعادة والرضا عن النفس.

واذ انقطع بحرية وخفة عن كل ما في العالم أخذ يصور لنفسه بالفكر مراحل العملية التي ستجري في يوم الغد لنزول المعبر في الخندق. ورأى ذلك كله بجلاء ووضوح كما لا يحدث الا في نشرة الأخبار السينمائية أو في رؤيا الأحلام.

وصاءت تحت الفرن الفئران. ونفخ الهواء بقوة من الفرجة المفتوحة في النافذة. وأغفى بافل غفريلوفتش وكانت يده وهو راقد تضغط آليا على سماعة التلفون.

•

٢٧

في ذلك الوقت غير البعيد كانت موسكو تتعرض لهجمة متواصلة كالزحف الجبار من قبل المرسلين اليها على سبيل الايفاد. حتى لقد امتلأت بهم الفنادق والمساكن العامة التابعة للوزارات وبيوت الطلبة والقواعد السياحية والرياضية ودور الاستراحة بضواحي موسكو وشقق معارفهم في العاصمة.

وزحزح النشطاء من أبناء الأقاليم سكان العاصمة واستحوذوا على خيرة الأمكنة في المسارح والمطاعم الفاخرة والشعبية وغادروا المدينة بالامتعة الثقال كأنها غنائم من الهدايا التذكارية لمدينة موسكو.

ولا يزال رجال الاقتصاد لحد الآن يتهربون من اعطاء المواصفة الدقيقة للدور السابق لعملية التموين. وهم في هذه القضية يتمسكون بالنظرية سيئة الصيت عن «الانسان الحي» والتي تعلن ان الانسان لا بد حتماً أن تجتمع فيه عوامل الحسن والسيىء.

والمشرفون الاقتصاديون هنا أيضاً يلتقون مع بعض نقاد الأدب الذين يسمون «عشاق الحقيقة» وهم يصرون على انه حتى

البطل الأكثر ايجابية لديه جهاز هضم بكل ما يترتب على هذه الحقيقة من عمليات، ولا ينبغي اخفاء ذلك عن القارىء، فليعلم الحقيقة كاملة عن الانسان.

وعقب فقدان رجال التموين لقب السياح العظام سرى التعتيم الشديد على دورهم ونشاطهم وحرم الأدب عندنا من الشخصية الممتعة الجذابة للبطل على غرار روح روايات المغامرات في القرون الوسطى.

وهذا مؤسف! تصوروا رواية مغامرات بطلها واحد من المزودين القدامى. كم كان يمكن ان يكون في مثل هذا التأليف من تحريكات الذهن والنظر الثاقب والحصافة في التصرف وكنوز المعرفة بسيكولوجية واقع الحياة والمحتوى الدال على المهارة والشطارة في نسج حبائل الحيل حين يخيل للمرء في البداية انه يكاد يحدث الخرق للقانون! ولكن كلا فهذا البطل الذي يجيد التوازن بمهارة بلغ الى آخر الحد الفاصل عن الجريمة الجنائية الخاضعة للعقاب والمنكرة اجتماعياً. ولو تم تأليف رواية كهذه اذن لأتى عليها القارىء محبوس الانفاس...

لكن ويا للأسف تضع الحياة حداً نهائياً لبعض الأنواع الفنية. وليس بوسعك أن تكتب عما ليس له في الواقع من أثر. لقد ولى في غياهب الماضي الى غير رجعة الزمن الذي يمكن فيه كتابة رواية مغامرات كلها شطارات ومجازفات عن سيرة مزود هو «السائح العظيم».

وفي تلك المرحلة التي ذكرناها من العصر كانت شقة بالويف، شأن العديد من أهالي موسكو، عرضة للزحوف النشيطة من الفاتحين الغزاة وهم الأصدقاء زملاء العمل لبافل غفريلوفتش.

وكان بالويف جيد الاطلاع على ما يجري في بيته دوما وهو يعمل في مشاريع البناء بفضل هذه الزيارات من قبل زملائه في الخدمة، وعرف الاقارب كل شيء عن بافل غفريلوفتش. وانتفت الحاجة الى الرسائل والمكالمات الهاتفية. وقد أبلغه الشهود الأحياء بشكل ساطع وبليغ وبكثير من التفاصيل كل ما يتوقع انه يحظى باهتمامه ويعنيه. وعلى حين غرة اختفى مثل هذا المصدر الصادق للانباء.

تضلع بالويف في مراسلات الأعمال وبالأخص لدى اعداد التقرير السنوي. ولكن حين دعت الضرورة الى كتابة ما هو صميمي وصادق وغير متعلق بقضايا الانتاج كان يعتريه الشعور بالارتباك ويلجأ عادة الى معونة التلفون بين المدن.

وذات مرة سألته، أثناء احدى المكالمات، يفدوكيا ميخائيلوفنا وهي تحيط بباطن كفها سماعة التلفون:

– بافليك. وهل تحبني رغم كوني قد أصبحت عجوزاً مسنة؟

وحين سمع وشوشة عاملة التلفون المحلية قال لها معنفاً:

– ليزا لاتشوشي علينا.

ومهما حاول بالويف بعد هذه الصرخة نافخاً في السماعة مستدعياً موسكو من جديد ظلت العاصمة لا تجيب.

وأرسل ايضاحاً الى البيت في رسالة.

ونظراً لتعوده على البحث والايجاد في المراسلات الرسمية عن المغزى الخاص الذي لا تعبر عنه الكلمات، تمعن بالويف بواسطة نفس ذلك التكنيك النفسي في قراءة رسائل زوجته. حين ذكرت زوجته انها سارت مرة من العمل مشياً على الأقدام طلب موسكو بالتلفون مرة أخرى مفكراً: يبدو انها تعاني عوزاً الى الاوكسجين مما يسبب ضعفاً في القلب فلتأخذ على الفور اجازة من العمل وتطلب من الادارة الرئيسية تذكرة نزول في مصح بمنطقة كيسلوفودسك.

واضطرت قرينته ان ترسل اليه مذكرة رسمية من المستوصف عن سلامة حالتها الصحية.

بينما في مراسلات الأعمال لم يخن بافل غفريلوفتش حدسه قط. وهكذا مثلا حين طلبت الرئاسة ابداء المشورة التكنيكية الى ناصبي خط الانابيب على البر لدى مرورهم بمناطق من التربة ذات المستوى العالي من المياه الجوفية كان معنى ذلك تزويدهم بوسائل المص والضخ الموضوعة في عهدته. كل شيء هنا واضح جلي. اما حين كتبت زوجته انها شاهدت في شقة آل كوزلنكوف قطعة أثاث مريحة جدا هي عبارة عن مقعد وثير يسحب فيصبح أريكة منام فان بالويف بدلا من مباركة مثل هذه الشروى كتب لها فقط: «لا تنسي ابلاغ التحية الى آل كوزلنكوف» وتعكر مزاج يفدوكيا

ميخائيلوفنا جدا معتبرة ان زوجها بهذه العبارة قد أدان نيتها المزمعة.

ولكن سرعان ما وجد بافل غفريلوفتش مخرجاً. فقد أقنع من يميل اليهم من الأشخاص الذين ذهبوا في اجازة من العمل بان يعرجوا في طريقهم على موسكو وينزلوا للاقامة القصيرة في شقته. واستؤنف مجدداً الاتصال الحي عن طريق المجازين.

وهكذا أرسل ايزولدا بزوغلوفا الى موسكو لكي تجلب من هناك بعد الشحن جهاز التسجيل الاشعاعي. وقد نقلت الى بالويف معلومات ليس فوقها من مزيد عن ولده الذي أبدى اهتماماً خاصاً بها كضيف. وحين تحدثت ايزولدا باعجاب عن ميناء خيمكي النهري ضيق بافل غفريلوفتش عينيه قلقاً لعلمه ان منطقة خيمكي لها درجة متساوية من الشهرة مع الميناء بمطعمها. واستفسر بلهجة عملية:

– وهل شربتم شيئاً هناك، أنا لا أعني الماء من نهر موسكو؟

– انك تجهل سجايا كوستيا! حتى انه اعتذر مني قائلا ان التفكير مهما كان سامي المشاعر فانه حصيلة أهم عضو في البدن وهو الدماغ اما الكحول التي تؤثر على سحاءة المخ فانها تضعف نشاطه العقلي.

– اذن فهو في التحصيل التعليمي ليس فائقاً. – قرر بافل غفريلوفتش.

– بيد انه بطل المعهد في لعبة الكرة الطائرة.

– ما أقل احتياج الكرة الطائرة الى ذلك الجزء الجوهري من البدن.

– ليس هذا بصحيح. لقد قال ان لعبة الكرة الطائرة شأن الشطرنج تحتاج الى التفكير سلفاً في عدد عديد من الضربات اللاحقة. وينبغي علينا أيضاً تنظيم لعبة الكرة الطائرة عندنا فهي تساعد كثيراً على التطور المنسجم للجسم.

– وكيف حال ابنتي؟

– لينوتشكا فتاة جادة بفظاعة. قالت انها تنوي تكريس عمرها لدراسة حياة الجراثيم.

– وقرينها؟

- لقد كرس عمره لفرع ما من الطب. ولكنه لم يوفق بعد لشيء. تنقصه المادة المناسبة. ومن النادر جداً الحصول على حاملي الأمراض المميتة. اما بشأن السرطان فهو يختلف كثيراً في الرأي مع لينوتشكا وهما يتجادلان وحتى بشكل غير لائق.

- وكيف الحالة الصحية لدى يفدوكيا ميخائيلوفنا؟

- انها بعافية. تستحم صباحاً ومساءاً بدوش من الماء البارد. ما أرقها في معاملة الناس. انها رفيعة المستوى من حيث الثقافة والتهذيب. لقد حزرت رأساً فهي اما بنت اكاديمي أو فنان الشعب الكبير. مطلعة على كل شيء دون استثناء. - واستعلمت في دلال: -لعلك في الشباب كنت على حظ كبير من الوسامة يا بافل غفريلوفتش ما دمت قد استطعت الحصول على فتاة كهذه من اسرة عالية المستوى ثقافياً.

وبغتة زعل بافل غفريلوفتش.

- لست أنا الذي أخذتها بل هي التي أخذتني. - ولكنه سرعان ما وافق مرتبكا: - صحيح ان زوجتي مثقفة. - وسأل بصرامة: - وكيف الحال معك؟ هل ترتفعين ثقافياً؟ حدثيني عن الكتب التي اتيحت لك مطالعتها خلال الآونة الاخيرة. - وبعد الاستماع اليها أعرب عن عدم الارتياح: - انك تطالعين كثيراً جداً وسريعاً جداً. ومعنى ذلك ان مطالعتك ليست جيدة من حيث النوعية. الكتاب الجيد لا يقرأ فقط بل يعاش معه وجدانياً. والكتاب الحقيقي لا يؤلف من أجل الامتاع وانما في سبيل معرفة الحياة. لا ينبغي القراءة قفزاً كما لا ينبغي عبور الحياة قافزاً. وما هي الأفلام السينمائية التي تسنت لك مشاهدتها في موسكو؟

وأخبرته بزوغلوفا بهذا مفصلا. وتأمل بالويف ملياً ثم قال:

- ابان أعوام شبابي كان يعين شخص حين يعرض فيلم سينمائي ليقرأ جهرا العبارات المكتوبة على لقطاته ليفهم الأميون. وكان الناس يسيرون مشياً على الأقدام مسافة عشرين الى ثلاثين فرسخاً بغية مشاهدة ما يعرض على الشاشة. وكانوا يتطلعون اليها مبهورين كمعجزة. وتأثروا لوقائع ما يجري على الشاشة وكأنها حياة واقعية. اما الآن فان شعبنا قد تطور من كافة النواحي. وانت تتحدثين الي عن كافة التفاصيل المعاشية للناس الصغار.

– وهل انا المذنبة! – قالت بزوغلوفا مستاءة. – انني كما طلبت مني اكتفيت بذكر المضمون.

– لا بأس، – قال بالويف، – سوف نكتفي في شئوننا بوسائلنا المتوفرة. لقد كتبت مسودة نصوص للدعاية المعتمدة على وسائل الايضاح، اسمعي.

ووضع بافل غفريلوفتش نظارتيه على عينيه واعتدل في جلسته على الطبلة وأمسك بيده ورقة أخذ يقرأ منها بمهابة:

– «هل تعلم ان الغاز الطبيعي هو أرخص أنواع الوقود؟ فهو أقل كلفة من الفحم باثنتي عشرة مرة والكيروسين بعشر مرات». ثم أضيف في سبيل كامل التحديد: «ان اللتر الواحد من الماء لدى اغلائه على الغاز يكلف ٠،٩ من الكوبيك وعلى الكيروسين ٦ كوبيكات وعلى الخشب ١١ كوبيكا». والآن يأتي رأساً الاستنتاج التالي: «يوفر سكان ثلاث مدن كبرى مزودة بالغاز سنوياً بفضل الغاز ٣٥٠ مليون روبل». ثم حقيقة إخرى هي هذه المرة لا من الحياة المعاشية بل مهمة بالنسبة لسائر الدولة: «تعطي البئر الواحدة للغاز خلال اليوم بليلته كمية من الوقود ما يساوي ألف طن من الفحم». وبعد هذا حديث عن افق المستقبل: «يتوفر في اقليم مدينة سراتوف وحده ما يكفي على مدى مائة عام. والآن قد اكتشفت في البلاد اكثر من مائة وخمسين مكمناً ضخماً للغاز». ما رأيك هل هذا كلام مقنع؟ – وقال بلهجة آمرة: – اذن خذي الورقة وقومي مع الفتيان باستنساخها والصاقها على الجدران. – وتذمر شاكياً: – تلقيت نشرة التنبؤ عن أحوال الأنواء الجوية وقد اشير فيها الى هطول أمطار غزيرة. وهذا معناه ان مستنقعنا سوف يمتلىء مجدداً بالماء – واستنشق شهقة من الهواء وقال سارحاً في أحلام اليقظة: – أتمنى أن أشاهد الآن فيلماً على غرار «فتاة الكومسمول» مثلا. لا يلقي السينمائيون بالا الى المشرفين الاقتصاديين. ويتعين علينا أن نتولى بأنفسنا الشرح لأفراد أسرة العمل ان غلبة الطبيعة حقيقة لا معدى عنها ولكنها ترفع النفس عالياً حين تكون على بينة من غايتها النهائية بشكل صريح.

والتزما هنيهة بالصمت. وقالت ايزولدا مستغرقة في الفكر:

– بافل غفزيلوفتش لقد التقيت مع ايغور وقد عرجت عليه في طريق العودة.
– وماذا في هذا الأمر؟
– أتعلم السبب الذي حدا بي الى القيام بهذا؟ لئلا يعاني بسببي. لا أريد أن يظن انني كنت شقية ويفكر في ذلك.
– وما هو السيىء في هذا الأمر اذا فكر الانسان في انسان آخر؟ هذا أفضل من تفكيره دوما في نفسه وحدها.
– ولكني لا أريد وكفى...
قال بالويف:
– وهذا ليس بالحسن. كل ما ينجم عنه هو تراكم الشحم على النفس. – وتدارك قائلا: – لست المقصودة وانما هو حكم عام عن الناس عموما. والحياة لا تجري رخاءا بلا منغصات. والآن وقد رفعنا قيمة الانسان الى هذا الحد أخذ كل واحد يتطلب من الآخر علو النفس الكامل وسموها التام ولا يسمح بأي انخفاض عن مستوى القيم الروحية أتفهمين؟ ان العناية ازاء الانسان شيء اما الترضية فهي شيء آخر تماما. ان الرضا من نوع اللامبالاة. – وقال مقرراً بيقين: – كلا، التعساء موجودون ولكن كلما كثر التفكير فيهم قل عددهم. – وسأل صارفاً نظره: – وكيف حال تيريخوفا؟ يبدو ان مزاجها سيىء بسبب رطوبة الجو؟
– أفلست نفسك على علم بهذا الأمر؟ – ابتسمت ايزولدا وعراها الاضطراب.
– أرأيت كيف أوقعت نفسك في حالة ارتباك. – هز بالويف رأسه وقال لائما: – ليس الأمر كما تظنين فيها. ليس كما تظنين.
– سحب أنفاساً من السيجارة وقال معترفا: – بالطبع على وجه العموم أحس شخصياً نحوها بالميل ولكن لماذا لا تشعرين أنت نحوها بالعرفان؟ انها رفيق منفرد. أليس هذا بحق؟ كم من رفيقاتها في سلاح الطيران قد لقين مصارعهن ابان الحرب. فلنفرض ان الأمر الذي تظنين واقع لي معها حقيقة رغم ان ذلك بعيد تماما عن الحقيقة. أفهل يمنعكن هذا من التقارب معها حتى لو تصرفت من وجهة نظركن بالشكل غير الصائب؟ أو التحدث برقة من صميم النفس وببساطة كما تتحدث الصديقات فيما بينهن عن هذا. وليس

اعلان المقاطعة! فما هذا؟ دفع الانسان نحو الرديء في حالة الظن بانه يفعل السيىء! - وانحنى وأطفأ السيجارة بكعب الحذاء وتلفظ بصوت أجش قائلا: - عليك تبليغ الفتيات بان بالويف قال ان هذا كله ليس بحق. - وقال بعد هنيهة تأمل: - ولن يكون حقاً على الاطلاق رغم انها تعجبني. وسوف تذهب من هنا ولكني سأظل أتذكرها على أية حال. - وابتسم على استحياء. - أفلا يحق على الاقل لرئيس العمل ان يتذكر من اشتغلت مرؤوسة له؟ أو ربما حتى هذا في رأيكن لا يجوز؟

- بافل غفريلوفتش، - قالت ايزولدا بتأثر وانفعال، - أنت انسان طيب ونحن نثق بك ونؤكد لك انك انسان طيب. كل ما في الأمر هو اننا اعتبرناها غير طيبة.

- وهذا هو ما لا ينبغي. ثم بوجه عام ليس ثمة من اناس حصلوا على الشهادة بانهم ليس فيهم الا ما هو حسن. ان الانسان هو نفسه لنفسه يبدو مختلفاً. وهو نفسه ليس بوسعه السيطرة على نفسه . - وفتح ذراعيه على وسعهما. - اما حين يعيش في كثرة كهذه من الناس فان حتى تنظر فاذا به قد أصبح شيئا ما صالحاً. وحتى يكون هو نفسه أحيانا عن نفسه راضياً، - ولم يستطع بالويف ان يمنع نفسه من التبجح واذ شعر بان ايزولدا لاحظت ذلك قال بجفاف: - لك الشكر على المعلومات. ولقد تحدثنا. ولك التحية. - وتناول سماعة الهاتف وطلب منطقة العبور خلال خزان المياه المسمى لوتشانسكويه حيث افترض تمرير المعبر المائي على الجليد مباشرة، الأمر الذي وعد بالكثير من التوفير وأخذ يستعلم من المشرف عن مدى زيادة متانة الجليد والسبل التي يتحققون بها هناك من هذه المتانة.

- جمعوا الثلج! - صرخ في السماعة بالويف. - ان الثلج فوق الجليد كاللحاف! اجرفوا الثلج وصبوا عليه الماء، زيدوا المتانة وعندها سنبدأ بعد اسبوع. سوف أرسل اليكم فيرسوف لمدة يومين. وقد درس الجليد ابان حصار لينينغراد في بحيرة لادوج ولديه خبرة. وأنا هنا سوف أدبر العمل بدونه وسوف يستريح بدون الرئاسة.

كان وجه بالويف متركزاً وحتى أكثر حيوية والهاماً منه حين

تحدث مع بزوغلوفا عن كافة مشاكل الحياة المعقدة. في القضايا الانتاجية لم يفقد بالويف مطلقاً الثقة الذاتية، كان يحب ادارة الأمور، ولم يستر انه يعجبه كثيراً أن يكون رئيساً.

٢٨

حين جاء الى موقع العمل بالويف القلق على العملية المرتقبة لتمرير المعبر المائي كانت الروافع - ناصبات الانابيب واقفة في وضعها المحبب المفضل: الاذرعة مرفوعة والأثقال المقابلة منكوسة. وقد اصطف وراء كل ناصبة انابيب على التعاقب بلدوزران، مربوط كله بالأمراس بهيئة قطار واحد.

كان المعبر المائي ممتداً على الأرض، وقد خيطت به كسوة من ألواح الخشب وعلقت على جوانبه الأثقال الحديدية غير المرتبة والبراميل السوداء للطوافات العائمة، مطلياً بالقطران، وملفوفاً بالعوازل عن الماء على شكل عمود جبار يبلغ طوله الكيلومترين، ومن حيث الثقل كقطار، وكان ينبغي رفعه في الهواء وانزاله بعناية من المنحدر الحاد الرملي الى الخندق العميق الذي ملىء بالماء منذ يومين.

ظهر بافل غفريلوفتش نفسه حين جرت العمليات الحاسمة في موقع العمل مرتديا ملابس انتقاها بدقة خاصة. ولم يكن ينتعل الحذاء المطاطي وانما حذاء جيداً، ولا يرتدي السترة الجلدية الناصلة بل المعطف من الجوخ السميك، حليق الذقن جيداً تفوح منه رائحة ماء الكولونيا. وكان يرتسم على وجهه التعبير الدال على الخلو من الهموم حد الملل والضجر، وكأنه حل هنا بالصدفة وليس تواجده هنا لازماً بالمرة، فكل شيء قد أعدت له العدة مسبقاً وهو هنا الآن على وجه العموم زائد عن الحاجة. ولديه قاعدة هي التحدث مع الناس اثناء الدقائق الاخيرة قبيل العمليات الحاسمة حصرا حول المواضيع الخارجية الجانبية لئلا تنجم لدى أي واحد باية حال شكوك وكأن شيئاً ما من الاستعدادات ربما ليس على ما يرام.

واتباعا منه لهذه القاعدة دنا نحو سائقي ناصبات الأنابيب وسأل مستفسرا بصوت يبدو عليه المرح:

– والآن كيف تبدو لكم الحياة ايها الفنانون؟ – واستفهم من زايتسيف عرضا: – هل تنتهون من انجاز الاستعداد قبل الظهيرة؟ ماذا هل انهوا لك فترة الاجازة المرضية؟ – وتحامل متوعدا على السائق ميخوف قائلا: – أأنت الذي طلبت في المطعم للجميع المعجنات المقلية؟ كان ينبغي عليك ان تتخذ موقفاً موضوعياً بشأن لون الطعام. ماذا عرفت مثلا انه ليس الجميع مثلك يحبون أكل هذه المعجنات المقلية؟ كان ينبغي ان تستعلم في البداية ثم تتصرف ولا تقرر الأمر وفق هواك.

وسار بحذر خوفاً على حذائه واقترب سائراً على طرف حذائه الأمامي واستدعى باشارة من أصبعه ويلمان وطلب منه مد أمراس شد اضافية تحوطا.

– لقد فعلنا هذا. – قال ويلمان.

– والعقافات؟

– كذلك.

– والجعة هل نقلت الى المطعم؟

– من يوم امس.

– وهل تعلم متى سيجري تقديمها؟

– أيها الرفيق بالويف، – قال ويلمان متبرماً، – وهل هذا أمر يصلح موضوعاً لحديث! – ثم انحنى وتلفظ برضا وارتياح: – سيكون ثمة أيضاً مع الجعة سطلان من السراطين.

في قمرة ادارة الرافعة – ناصبة الانابيب ستة عشر مقوداً يدوياً وأربع دواسات. وتزن الرافعة سبعة عشر طناً. وسائقها أثناء عملية انزال المعبر المائي أشبه ما يكون بالعازف على آلة الاورغان. تقوم يداه ورجلاه بالحركات المعقدة الانسيابية التي ينبغي أن تتوافق بانسجام مع نفس هذه الحركات الانسيابية للسواق الآخرين. وهم يعملون بدون من هو بمثابة قائد الاوركسترا. أمام أنظار الموسيقيين اوراق النوتة واما مقطوعة انزال الأنابيب فليست مسجلة لهم على نوتة. رفع الأنبوب بقوة تزيد عن الحد اللازم والمطلوب قد تجعله يسقط منهاراً بثقله

فوق الرافعة أما اذا كانت حركتها بطيئة وهي تنوء بثقل الانبوب فانها يمكن أن تنقلب.

ويعاقب على ذنب فقدان السيطرة على التوازن بالتعرض الى الانقلاب.

وتعمل الرافعات ناصبات - الانابيب مثنى وثلاث ورباع متوصلة الى تحقيق الايقاع المنسجم في الحركات ذات الوطأة الثقيلة كالأفيال في حلبة السيرك ولكن بدون اشراف مروضي الحيوانات.

سواق هذه الرافعات - ناصبات الأنابيب أساتذة حذاق بين سائقي الجرارات، وحتى الميكانيكي سيفولوبوف الذي هبط من أعالي عالم الطيران الى الأرض، والذي اعتاد على مزاولة التكنيك الجوي لا يجرؤ على الادلاء اليهم بالمشورة أثناء ممارسات أعمال البروفة.

وكان سيفولوبوف قبل اصابته بالجرح البليغ طياراً لمقاتلة. وقد مهر في مزاولة ألاعيب الطيران العالية في السماء شأن البهلوان تحت قبة السيرك. وهو يتذكر جيداً كيف كان يستاء حين بلغت سمعه من الأرض وهو في أعالي السماء ملاحظات المدرب الذي يحدق نحوه في علاه بالمنظار البحري ذي العينين. وهنا في موقع العمل كان سيفولوبوف ملتزماً بأصول اللباقة. يلتزم بالصمت. ولا يوزع نصائحه.

أشرف غريغوري لوبانين على توجيه هذه الأعمال وكأنه قائد الاوركسترا. كان نحيفاً، طويلا، تشكل زهاء ثلثي قامته رجلاه الطويلتان وهما تنتعلان حذاءاً طويل الرقبة مما يستخدم في خوض المستنقعات ويثنى طياً من الأعلى في كل رجل.

حليق شعر الرأس في تقصيرة ويعتمر طاقية مدفوعة الى القفا ووجهه يشع بالحماس حد الرغبة في الافتراس، بأنف كبير ناتىء بشكل حاد منخراهما واسعان ومفتوحان الى الخارج وعيناه عسليتان وجاحظتان تحت حاجبين كثين وكتفاه نحيلتان عريضتان. لقد فقدت البشرية بلا مراء في لوبانين بطلا رياضياً في المباراة العشارية. في حين كسب البناة فيه خير سائق للرافعة - ناصبة الأنابيب. كان يمتلك خاصية عجيبة في التحسس بالماكنة وكأنها

تكملة لجسده. وهو مولع بالتكنيك الجديد ومن طبعه المماحكات حتى لقد عذب ويلمان بكثرة أهوائه. ولكم جرب بنفسه أنواع الزيوت والشحوم قبل أن يوافق على تزييت وتشحيم ماكنته بها.

كان ينتقي قطع الغيار وكأنه يتقزز منها واصفاً اياها بانها كالأطراف الصناعية التي تركب للمعوقين. وجه امتعاضه حتى الى الوزراء برسائل تقطر سماً، شاتماً من يصنعون الأدوات للجرارات عندنا غليظة الشكل وقبيحة، ويصبغون المكائن المستخدمة في العمل بألوان قاتمة كئيبة، وبصبغة عادية وليست من الأصباغ المينائية. وحين تؤخذ رافعته لاجراء التصليح العام كان يقيم في ورشة التصليح ليل نهار كما يلازم الناس المستشفى لا يغادرونها اذا كان يرقد فيها مريض من أعز الناس الى نفوسهم. وكان يتولى فعل كل شيء بنفسه متقبلا من الآخرين فقط ما لا معدى عنه من المساعدة.

أنهى لوبانين دراسته بالمراسلة متخرجاً في المعهد التكنيكي لبناء المكائن. وبعد حصوله على دبلوم التخرج تركه باهمال في قعر الحقيبة. ورفض قبول التعيين في وظيفة رئيس فرقة ميكانيكيين معلنا: «قيادة الماكنة تطيب لي فأنا مستعد لذلك بسرور اما توجيه الناس فلا يعنيني في شيء».

أنجز في رافعته – ناصبة الانابيب كثرة من شتى التحسينات. ولكن حين اقترح عليه ان يغدو سائق مكائن مجرباً في ميدان التجريب لمعهد البحث العلمي رفض أيضاً بشكل بات.

– تجربة المكائن في هذه الظروف عمل مضجر وممل فابحثوا عن متقاعد يقوم به لكم. وهل بوسعك أن تتصور وتفتعل في ميدان التجارب تلك الصعاب التي تصادف في العمل الانتاجي؟ ولا داعي تنظيم تمثيلية منزلية تكون بطلتها الماكنة. والأفضل من ذلك ارسال النماذج الجديدة الينا في موقع العمل وسوف نتولى هنا اكتشاف ماهي له أهل.

اشتغل والد لوبانين سائق حفارة في تشييد سلسلة المحطات الكهرمائية على نهر الفولغا ثم في سيبيريا. ومراسلة هذا الأب مع ابنه تستحق ان تطبع باعتبارها نموذجاً لكتاب الدراسة التكنيكية الرائع في تعليم سواق المكائن.

كما اشتغلت والدته سائقة رافعة ورافقت زوجها في كافة سياحاته على الأعمال الانشائية. وكان شقيقه الأصغر عامل تركيبات التوربينة كهرمائية وترحل كذلك في أنحاء البلاد مقتفيا اثر أبيه وامه ولكنه لم يلتق معهما في العمل مطلقاً. أما الشقيق الأكبر فهو طيار، كان يلتزم باذيال الصمت في مهابة حين عودته في اجازة عند التحدث عن أعمال الخدمة، ولكنه أوضح بمهارة وتفصيل للغاية امكانية التحليق الفضائي من قبل الانسان الى أقرب كوكب من المنظومة الشمسية. ولاحظ غريغوري مستنبطا الاستنتاج المناسب بقوله:

— مفهوم ما تطمح اليه.

وزاول الشقيق الأكبر أثناء فترة اجازاته التمرن على التحكم في جهاز التنفس على طريقة الهنود في رياضة اليوغا كتعويض عن التمرينات في حجرة ضبط التنفس. وقد تميز كذلك شأن غريغوري بشدة العزم على بلوغ القصد وقوة الارادة. لم يدخن ولم يشرب الخمر ولم يشأ أن يغدو بطلا في الرياضة رغم تمتعه بكل ما يؤهل لهذا من معطيات. وبقي أعزب قائلا لشقيقه الأصغر:

— دعنا منهن، لا يزال مبكرا علي الوقوع في أسر النسوان.

— ثم أضاف بلهجة الشاكي: — وعلاوة على ذلك لا وقت عندي.

وحين تحدث حتى مع أبعد الفتيات عن الفتنة غض من بصره وغلبه الاستحياء وكاد يذوب من الرقة والتأدب حتى لقد كان أهلا للرثاء. في حين انه بعد قطعه سباحة مسافة تقارب المائة متر تحت الماء يظل تنفسه هادئاً منتظماً وكأنه قطع هذه المسافة مشياً على الأقدام فوق سطح الأرض.

قال غريغوري لشقيقه بانفعال:

— ما اكثر ما تتعلمونه من الطواف في العالم. — ثم أضاف بلهجة ساخرة: — في حالة الفشل يمكن الانتقال الى سلك الدبلوماسيين فهم أيضاً مطلوب منهم التحلي برباطة الجأش وكتمان اسرار الخدمة.

في المشروع ربطت أواصر الود غريغوري لوبانين بكل الفتيان تقريباً. ورغم انه كان يخيل ان سجيته ذات قربى مع سجية بوريس شباكوفسكي فانه لم يكن ليعجبه فم شباكوفسكي المزموم

على نحو يبدو منه التعالي على الآخرين وعيناه الثابتتان المتعجرفتان في غطرسة وكأنها عيون تمثال مقدود من المرمر وما يبدو عليه من الهدوء الذي لا يريم وادراكه في حبور مدى مزاياه الاستثنائية.

اذا آثرنا قولة الحق فان لوبانين قد خالجه شعور الغيرة من شباكوفسكي وانتقم منه بابداء اللامبالاة السافرة ازاءه رغم انه كان أحياناً يذهب خفية وبعد الجميع لكي يمتع ناظريه بمشاهدة عمله.

وهل الاعجاب بثمار جهد الغير أقل شأناً أو أبعد شبهاً عن التمتع بتذوق الموسيقى التي تنفذ الى شغاف فؤاد الانسان الآخر والشعور بانك قد ذبت معه حتى أصبحتما كالكل الواحد رغم كونك لا تعرف كيف تحقق هذا الانجاز القريب من الاعجاز. اذ ان المهنة التي يزاولها اللحام بعيدة كل البعد عن مهنة سائق الرافعة – ناصبة الانابيب. ولكن التمتع بمشاهدة المهارة في العمل من المشاعر المتاحة لكل شخص كما هو الشأن في تذوق الفن.

لا يستدعي الميل أولئك الأشخاص الذين اذ يمتلكون قوة الارادة يحبون التأمر وفرض ارادتهم على المحيطين بهم فحسب بينما يتخذون ازاء أنفسهم موقف التسامح والتساهل.

وكان لوبانين على طرف نقيض مع أمثال هؤلاء الناس فهو صارم فوق المعتاد، متطلب ازاء نفسه، متشدد معها وعلى تساهل مع الأصحاب. رسم لنفسه قواعد حياة للتصرف والسلوك ولم يحد او يتراجع عنها مطلقا.

ثمة اناس ما ان يفرغوا من مطالعة كتاب حتى يستحوذ عليهم شعور متعطش بالرغبة في طرح رأيهم في ما قرأوا على الآخرين. قرأ لوبانين كثيرا وكان يأخذ معه دوما كتاباً على سبيل الاحتياط لئلا يقتل أوقات الفراغ في أحاديث فارغة. بيد انه لم يكن يحب الادلاء برأيه في المقروء، وبنفس الحد لم يكن ميالا الى التحدث مع الغرباء عن الزملاء في العمل. واذا لم يعجبه الكتاب الذي يقرأه فانه على أية حال كان يواصل قراءته حتما حتى النهاية معتبراً ان اظهار عدم الاحترام تجاه الكتاب غير مغفور كشأن شعور الاستخفاف حيال انسان لا لشيء سوى ان فيه سمات مالم تقع من نفسك موقع الاعجاب. ونظراً لكون لوبانين حار الطبع، متحمس المزاج فانه قمع

في نفسه بشدة نزوات الغضب أو اندفاعات الاعجاب المفرط. ولقد عود نفسه على التأني في الاعراب عن مشاعره وعدم التعجل في ابدائها لاجئا الى المناقشة الداخلية الذاتية مع النفس ومع شخصه الثاني الكامن فيه. وكان يعتبر واحداً من هذين الشخصين في نفس غريغوري لوبانين مندفعاً في تهور الى حد الخطر والآخر هادىء الطبع مطمئن المزاج جديرا بالانتساب الى اسرة آل لوبانين التي استمدت ينابيعها من عمال المناجم في سلسلة جبال الاورال.

وغريغوري بما يتسم به من تشدد وتدقيق صان كرامته العمالية. وكان يخشى من الحاق الاساءة اليها حتى في تلك الظروف التي يضيع فيها عادة ويفقد الاتجاه والسيطرة على النفس اكثر الناس حبا للتسلط ويأخذون في استجماع أمرهم وقد غلب على نفوسهم الشعور بالتردد والاضطراب.

أعجبت لوبانين كابا بودغورنايا. واكثر من ذلك، تملكه حين يراها شعور الاعجاب، واستبدت به الرغبة في القيام فوراً بما هو ليس بالعادي من الأمور وحتى على أقل تقدير التحدث اليها بعبارات ما فيها ما يدهش ويثير النفس.

اعتبر لوبانين كابا ذات وضع خاص لانه كان يعتقد بان الناس العاديين ليسوا جديرين بجلب انتباهها.

وكان لوبانين اذ يمارس عمله في اسناد أنبوب نقل الغاز بالرافعة - ناصبة الأنابيب لكي يحافظ على وضعها الثابت أمام ماكنة التنظيف أو اللف بالعوازل ومركز الانبوب لعمال التركيبات يشعر دوما بالحسد حيال اللحامين الذين تفحص عملهم بودغورنايا.

فكر في انه لوكانت كابا هي التي تتولى فحص عمله اذن لفهمت رأساً وبدون كلمات، انه أي لوبانين صاحب نفس حساسة رقيقة. فهو وحده القادر على حمل ماكنته الجبارة على القيام بمثل هذا الضبط الدقيق بتنفيذ أعقد الحركات في مثل البراعة التي تختص بها يد الانسان. وكأنه يمتزج مع الماكنة بكل كيانه.

وحين اجرى المفتش من لجنة الدولة للمراقبة تجربة على تشغيل الرافعة - ناصبة الأنابيب بادارة لوبانين، مدونا نتائج الفحص في دفتر التسجيل، كرر كل مرة باعجاب:

- لو انك يا غريغوري أخذت تبدي نحو الفتيات أيضاً نفس

الحدب والتودد منك حيال الماكنة فانني أعتقد ان اية واحدة منهن على استعداد ان تصاحبك. يا لهذا الحب الذي بين جوانحك. – ثم أضاف في لهجة المتشكك: – ان الانسان يظل كاملا مادام لوحده، فاذا أصبحت له عائلة توزع انتباهه. – وقال ناصحاً: – وهكذا حافظ على هذا ما استطعت. انت هنا أفضل ميكانيكي وما من أحد يفضلك، وما السبب؟ لان نفسك غير مثقلة بالتوافه ولهذا فان الماكنة التي بعهدتك لامعة براقة ويمكن أخذها في الحال الى معرض.

ولكن بودغورنايا لم تبد اهتماماً لا بعمل لوبانين ولا بماكنته. كانت تمرر يدها برفق واعجاب على السطح الخارجي الصقيل الملمع لدرز اللحام من صنع يد شباكوفسكي وتتلفظ باجلال:

– حتى التركيب الخارجي يشهد على ان درز اللحام مضمون الجودة.

وكان شباكوفسكي يوافق على ذلك راضياً .هو يحمل بتأدب صندوق كابا الرصاصي ونظراً لكونه واثقاً من سمات الجودة المضمونة لدرز لحامه فانه لم يتناول مع بودغورنايا المواضيع الانتاجية.

وبالطبع سنحت أمام لوبانين كذلك فرصة لتجاذب أطراف الحديث مع كابا وحتى مرافقتها في الطريق وايصالها الى البيت. ولكن كانت العقبة المانعة عيناها فانه لم يكن ليقوى على تحديق النظر في عيني كابا السوداوين اللماعتين وذلك لمدى ما يتجلى فيهما من عمق خفي بالاسرار وبريق لطيف شفاف نفاذ الى النفس.

كان يراها كلها فوق المألوف، وتعطش للتحدث معها بعبارات غير معهودة، لكنها لم تكن لديه. كانت الكلمات والعبارات البسيطة تكاد تنحبس خافقة في الحنجرة وهو يثرثر عن أمر ما من الأمور المملة. وتنظر كابا اليه باستغراب وربما بشيء من الارتباك والمشاركة الوجدانية. ومن شفقتها هذه عليه كان لوبانين يقع في مزيد من الاضطراب. لكن هل الذنب في ذلك وقع عليه؟ بعض الناس يؤثر عليهم الجمال تأثير نغم المارش الباعث على الهمة والطاقة والثقة بالنفس. فيما يثير الجمال في نفوس آخرين شعور الانقباض المتسامي والتعطش الى الأحلام عما لم يتحقق... ومن العسير البت في الحكم لتقرير اية طبيعة من هذه الطبائع البشرية

هي الأفضل لا سيما وان هذه وتلك من سمات النفس لا تشكل مانعاً لدى العمل في الانتاج. وليس الجميع قد حالفهم التوفيق كشباكوفسكي الذي عليه ان يعرض نجاحاته في الانتاج وما في عمله من الجمال والكمال أمام أجمل الحسان، وتتاح له امكانية ايقاعها في أسر الاعجاب بمهارته صامتاً عن طريق انجاز العمل بصورة أفضل مما يستطيع الآخرين. انهم لسعداء اولئك الذين تتاح لهم شأن شباكوفسكي فرصة الاستعلاء والتسامي في عيني المحبوبة بالمستوى الرفيع للمهارة وحده بدون أية وسائل اخرى مساعدة من لوازم النفس البشرية التي تتخذ وسيلة لكي تبعث الاعجاب في نفس من تحرص اكثر من أي شيء آخر على بث الاعجاب بك في نفسه.

تشارك عادة في انزال الأنبوب الى الخندق ثلاث رافعات – ناصبات الانابيب. وهي اذ تقف مصطفة على خط واحد ومتخذة هيئتها التقليدية فالاذرع مرفوعة والاثقال المقابلة منكوسة وبنفس الوقت رفعت الانبوب وأبقتها مرفوعة ككفة الميزان. وتبدأ الرافعة القصوى الى اليمين بانزال الأنبوب على مهل الى قاع الخندق وبعد انزاله وطرحه فيه تستدير متراجعة على قدر الى النهاية وهناك ترفع الأنبوب وتظل تنتظر حتى تكرر رافعة الانبوب التالية كافة حركات الرافعة الأولى. وتفعل الشيء نفسه الرافعة الثالثة. وهكذا برشاقة أجل، برشاقة بالذات تدور مستبدلة مواطىء جنازيرها تكراراً للحركات المرسومة الى ان يستقر خط الأنبوب كله في مجرى الخندق.

كان عمل هذا اليوم معقداً الى الحد الأقصى. وكان يرافق كل رافعة – ناصبة الانابيب بلدوزران مربوطان اليها بمقطورات فولاذية. كان غريغوري لوبانين شديداً لا يعرف للرأفة معنى وسعى لتأمين التطابق التام في المناورة وعند وقوع أضأل اختلال في الانسجام أثناء اجراء البروفة أصر على اعادة كل شيء من البداية.

واذا أخذ بعين الاعتبار تطلب تدوير عتلة الاستدارة من الجهد ما يساوي تقديراً ثقل ستة عشر كيلوغراماً وان قطعة الأرض هنا التي كثرت فيها الأخاديد حتى استحالت الى ما يشبه فوهة البركان ممتلئة بالوحول يمكن فهم مدى المصاعب التي يضعها هذا كله

أمام سواق المكائن. فجلودهم تنضح بالعرق الزنخ الحاد الذي يفوح من أجساد الوحوش. وفي كل مرة بعد الانتهاء من البروفة قضى سواق المكائن وقتا طويلا في غسل المكائن وتوظيبها وبعد هذا فقط كانوا يتوجهون للاغتسال تحت الدوش. وفي البداية كانوا يزودون المكائن بالوقود وزيت التشحيم ثم يتوجهون الى المطعم لتناول «ما يلزم». وهنا يواصلون وقد ابعدوا عنهم قليلا صحون الطعام المناقشة بحرارة لتفاصيل العملية الخاصة بانزال المعبر المائي ويرسمون ويخططون الخرائط والجداول الهيكلية على ظهر الورقة التي طبعت على وجهها قائمة بألوان الطعام.

قال لوبانين لبالويف:

– مكانك اليوم في وسط الساحة العامة. ولسنا في حاجة الى آمرين.

ووافق بالويف بسرعة طيعة قائلا:

– ولكن يا غريشا أرجوك ان تضبط أعصابك ولا تكن متهيجاً من فضلك وعليه فاني موافق أن أكون مجرد متفرج.

وانتحى جانبا. انه أحب وشجع الناس الذين تتوفر لديهم القدرة على اصدار الأوامر الى أنفسهم في اللحظات المسئولة. ورغم ان لوبانين قال عن نفسه بأسف انه ليس ماهراً في التودد الى الفتيات فانه اليوم حين مر بقرب كابا بودغورنايا متوجها نحو الماكنة تناول من يدها حزمة الحشائش التي كانت تنفض بها الثلج عن كتفي زينا بنوتشكينا وكسر منها عوداً ودسها خلف الشريط الأسود للقبعة وقال غامزاً بعينيه :

– طلباً للسعادة! – وسار غير حذر بساقيه الطويلتين في الأحذية المطاطية المطوية دون أن يتلفت، وهو معتدل القامة، عريض المنكبين، ورأسه مرفوع في اعتداد.

وقبل الشروع في انزال المعبر المائي الى الخندق أعلن غريغوري لوبانين فترة قصيرة للاستراحة والتدخين. وتجمع سواق الرافعات والبلدوزرات متجمهرين في حلقة.

وهبط ثلج لزج. وامتد ضباب مشتت مزرق فوق المستنقع المغطى بالشجيرات المعرشة. وهبت من النهر نفحة هواء بارد رطب. وكانت متكومة فوق الشواطىء الرملية المعراة قشرة جليدية

خفيفة جدا. وشهقت فوق التلال كالأبراج السامقة أشجار الشوح القديمة الضخام.

ولمعت في الوهدة زجاجات الأقسام الضخمة للمصنع الكيمياوي الحديث وهو محفوف بمرج من أشجار البتولا. وكان العديد من العمال لا يزالون يؤثرون السير الى المصنع لا على الرصيف الخرساني وانما عبر الدروب القديمة. ظللت الأرض غيوم ثقيلة متلبدة لاتنفذ من خلالها أشعة الشمس.

قاطع الخندق الطويل العميق منخفض المستنقع ومنحدر الشاطىء. وقد امتصت الجرافة الجزيرة الرملية الى حد عمقها. ويسبح في حومة اللجة القارب المخصص للغواصين وهناك حيث يدور العمل تحت الماء تظهر على سطح النهر بانتظام متعاقب فوارة ماء ذات رغوة.

تسمى الاستراحة القصيرة للاستجمام من العمل بفترة تدخين. ولكن سواق الرافعات لم يكونوا قد بدأوا العمل بعد. فأي استجمام من تعب يمكن أن يكون مدار كلام؟ كل ما في الأمر انه كان ينبغي استجماع الأفكار وتصور اللوحة التي تمثل عملية انزال المعبر المائي الى الخندق مرحلة فمرحلة.

والآن أخذت القدرة على التصور تعمل بشكل حافل ومتوتر. ورغم ان كل واحد كان يعرف تقريباً ما يفكر فيه الآخر فان أي واحد لم يعتبر لازماً بدافع اللياقة العمالية الودية الخاصة التحدث عن هذا. وقد أثرت هنا العلاقة الحكيمة الدقيقة الحساسة حيال العمل وحتى ليمكنني القول بانها شيء ما من الاستحياء من ابداء الانفعالات المضطربة والمتوترة والشخصية العميقة.

وتبدو على الوجوه لامبالاة مصطنعة حائرة بحيث يبدو عليها الضجر والعيون فهي ناعسة ولا تبصر شيئا. أفليس على هذا النحو يكون وضع الفنان واقفاً في العتمة وراء الكواليس قبيل طلوعه لملاقاة الجمهور على خشبة المسرح التي تشعشع فيها الاضواء وهو يستجمع كل قوى نفسه لكي يصبح خلال لحظة خاطفة انسانا آخر غير الذي كانه قبل هنيهة ويخضع لسلطان سيطرته المهيمنة هذه القلوب البشرية المشرئبة في انتظار ظهوره.

وقال سائق الرافعة ميخوف:

— سافر أخي الى الهند ليشارك في تشييد مصنع هناك. وقد ترك لي على سبيل الهدية معطفه الفرائي القصير وحذاءه اللبادي فلا حاجة له بهما هناك لشدة الحر.

— المناخ حار أيضاً في مدينة بخارى.*

— ما اكثر ضروب المناخ ولن تستطيع عدها.

وطرح زايتسيف فكرته بلهجة المتأمل:

— هناك كتب يفسدها مرور الزمن فتصبح غير صالحة واخرى على العكس حتى انها تتحسن وتزداد صلاحاً.

وتلفظ ميخوف سارحاً في وادي الأحلام:

— لو صنعت أجهزة لتكنيك التسريع لوجدنا أنفسنا قبل الموعد في المستقبل! انه من الطريف ان يعيش المرء في المستقبل. أليس كذلك؟

وقاطعه سيفولوبوف غاضباً:

— تتحدث عن التكنيك بينما فهمك في الطيران لا يتعدى الصفر!

واعترض ميخوف بقوله:

— عبثاً تقول هذا. انني أعترف بالطيران ما اكثر التوفير من الاقتصاد في تناول الطعام عند السفر بالطائرة وهذا وحده توفير كبير.

كان الثلج وهو يسقط يتلاصق في الهواء على هيئة ندف كبيرة هشة. وكان قرٌّ اً في ثنايا غبشه الأبيض.

وداس لوبانين بعقب حذائه داعكا بعنف عقب سيجارته معلنا:

— هيا بنا. هلموا. — وألقى نظرة خاطفة على ميناء ساعته اليدوية.

كان الطقس كما ذكر رديئا فالجو مكرب ورطب وقار ولكن الناس هنا لم يعبأوا بهذا ولم يعيروه اهتماماً. وتصرفوا تحت السماء المقرفة المرطبة الباردة كما لو كان فوق رؤوسهم سقف الورشة الزجاجي.

ربما كانوا جميعاً على حظ خاص من الصلابة النفسية والتحمل، لا

---

*مدينة عريقة بآسيا الوسطى. **المترجم.**

شأن لهم بالمعاناة الدقيقة؟ كلا، بل هو العكس بالذات. فانهم نظراً للتوتر الحساس للغاية لم يلتفتوا الى الطقس الرديء مركزين كل طاقتهم النفسية والبدنية على المهمة التي أنيط بهم انجازها.

يظن بعض الناس ان الفنان الذي تستحوذ عليه حالة الالهام يبدو على النحو التالي: عينان زائغتان ملتهبتان وتهدر عبارات فخمة طنانة من الفم. وهو كله هائج لا يطيق الصبر، يسارع الى تسجيل ما هو ساطع وملهم خشية فوات الفرصة السانحة في لحظة مواتية من التفتح المفاجيء.

كل هذا هراء! ان الالهام هو اليقين بالفهم الواضح للمهمة والذي يتم بلوغه بثمن الجهد التمهيدي الدقيق والجليل والتأملات الأشد وطأة وعذاباً من الجهد نفسه. ونحن في هذا موافقون تماماً على رأي وقول الكاتب الفرنسي الطيار سانت اكزيبري: «يبدو ان الكمال يتم بلوغه لا عندما لا يعود ثمة ما يمكن ان يضاف وانما حينما لا يكون ما يمكن اقتطاعه».

ما ان اتخذ ميخوف مجلسه على المقعد الحديدي للرافعة — ناصبة الانابيب حتى كف عن التفكير في ان حياته الشخصية لم تكن موفقة. وان زوجته وهي فلاحة كولخوزية من احدى ضواحي موسكو لا تبادله الحب. انه ينتفض حين يفكر في زوجته ولكنه لا يستطيع الامتناع عن التفكير فيها. وله وجه يبدو دوما تعيساً مكروباً باستثناء الوقت الذي يكون فيه منصرفا الى العمل «ميشكا في العمل نسر» هذا ما يقوله عنه بتكريم الرفاق غير عارفين بعد اية ارادة عالية حقا وملهمة يمتلك ناصيتها هذا الانسان القادر على ان يبتر مبعداً عن نفسه كل ما يثقل روحه الى هذا الحد وكل ما قد يعرقل عمله.

وبعد ان وضع ميخوف يده على المقاود جلس على مقعد ناصبة الانابيب بوجه هادىء التعابير كوجوه القياصرة وانتظمت في رأسه بوضوح مرحلة فمرحلة مجمل اللوحة التي تمثل عملية انزال المعبر المائي الى الخندق.

شغلت بال لوبانين طيلة هذه الأيام وعذبته الفكرة حول مأثرة زايتسيف الذي مرر المرس عبر الأنبوب المدسوس في التراب. كان ينظر من موقف التعالي ازاء هذا «الصحيحي» كما لقب

زايتسيف من قبل رفاقه بسبب ميله الى المناقشات المتسامية والى التعابير الكتابية المزوقة. كان لوبانين يعتقد بانه وهو العامل ابن العامل ليس في حاجة الى التشدق بالكلمات الدالة على ولائه واخلاصه للسلطة السوفييتية وان هذا الوفاء كامن فيه ومتمكن في داخله.

وصادف ذات مرة فكتور فقال له بسخرية تقطر سما:

– ما هذا تسللت عبر الأنبوب الى عضوية مكتب لجنة المنطقة لمنظمة الكومسمول والآن ستكون ممن يجلسون في المكاتب؟ وهي كما ترى غير معرضة للارتجاج ولا هبوب الرياح من كل جانب كما في البلدوزر.

وتطلعت اليه بزوغلوفا بازدراء وقالت:

– هلا جربت الولوج في ذلك الانبوب؟ وما أضيقه على الجبناء!

هزت زينا يديها وصرخت في قنوط:

– غريشا فكر في مدى فظاعة الحماقة التي هذرت بها.

اما بودغورنايا فقد تلفظت بهدوء وسكينة:

– لا تنس العبارة التي قلتها لكي تكررها لدى طلبنا أمام جميع الكومسموليين. هذا بالطبع اذا وجدت في نفسك الشجاعة الكافية.

وزايتسيف وحده قال بلطف وهو يبتسم مرتبكا:

– انت بالطبع أقوى من عندنا وكان بوسعك الزحف عبر الأنبوب أسرع مني. أما أنا فقد زحفت بصورة سيئة وبطيئة وبسبب هذا قلق الجميع وولجوا فيه أيضاً.

والخجل الذي ساور لوبانين عقب سماعه عبارة زايتسيف ظل يحرقه طوال هذه الأيام. لقد أدرك انه لم يكن في اية ظروف بقادر ان يقول عن نفسه كما قال زايتسيف. وحين انتخبه سواق الرافعات والبلدوزرات ليكون الأقدم عليهم أثناء عملية انزال المعبر المائي كاد ينخرط في البكاء من شدة التأثر والانفعال. عذب لوبانين وخز الضمير لان الفتيان يعتبرونه خيراً مما هو عليه بالفعل. وأثناء البروفة حين تدرب السواق على حركات المناورة تصرف لوبانين مع الناس بمنتهى التواضع وباقتضاب خلافاً لعادته تماما. ورد العمال هذا الى الانفعال وهو أمر طبيعي قبيل العمل كبير المسئولية.

ولكن لوبانين نسي في لحظة خاطفة حين جلس في قمرة الماكنة كل ما عذبه، وأخذ يصرخ شاعراً بكامل الزعامة على الآخرين:

– هيه انتم الذين هناك، اسمعوا أوامر رئيسكم. – ووجه أمره الى ميخوف: – ارجع الى الخلف بقدر نصف حلقة من الجنزير وكن معي على صف واحد. – ووقف معتمدا بيده على العصا الفولاذية للأمان والمحنية على شكل قوس فوق المقعد.

جميع انواع الجرارات مزودة كما هو معروف بقمرات. وفي داخلها يشعر بالدفء نسبياً ولا يحس بتيارات الريح. أما سائق الرافعة – ناصبة الانابيب فلا بد له من سعة الأفق في النظر ولهذا فان الجرار من طراز س – ٨٠ ليست فيه قمرة. وعصا الامان الفولاذية المحنية على شكل قوس تحمي السائق فقط من الضربة بالصدفة من الأنبوب المرفوع أو سقوطه.

ولكن جميع سواق الرافعات – ناصبات الأنابيب ارتدوا اليوم ملابس خفيفة تكاد تكون صيفية، فتعتريك رعشة المقرور حين تنظر اليهم وكأنهم أفراد فريق كرة قدم خرجوا الى ساحة الملعب في مباراة الموسم الختامية بينما تعصف زوبعة ثلجية.

فيودور فليبوفتش فافيلوف كئيب الطلعة، متثاقل الحركة، متهدل الخدين، ولكنه الآن أيضاً رغم كبر سنه شخص عظيم القوة. ظهره مكور، وهو ليس عبارة عن لوحتي الكتفين بارزتين ناتئتين بل تنبسط عليه صفائح العضلات. ولكن لو انكم رأيتم كيف يعمد بعد العمل بكل اهتمام الى الشد بالمفتاح لحلقات المحادل الدارجة وكعوب الفرملة في الجنازير ويتولى عملية التجميل والتزيين التكنيكية الخفيفة للماكنة لتعجبتم من رقة لمساته الدقيقة على أجزاء الجهاز الميكانيكي.

– يجب ان تحاط الماكنة بالعناية الفائقة ليكون العمل عليها راحة للنفس. تعهدها جهد كبير، هذا صحيح و لكن لا معدى عن ذلك وهو قانون الكون كله. – في هذا كما قال كل ما لديه من «ايديولوجيا الميكانيكي».

وفيودور فليبوفتش رب عائلة ممتاز مخلص لقرينته. حنون على أولاده الكبار، ينوء تحت عبء التوق اليهم ويعيش على البعد

مصالحهم ويصرف الكثير دوما على المكالمات الهاتفية بين المدن. وفي ظرف الدقائق الثلاث للمكالمة تسنح الفرصة لكل أفراد اسرة آل فافيلوف والأحفاد ضمنهم لتسليم سماعة التلفون من يد ليد ولا يقر لفيودور فليبوفتش قرار حتى يسمع أصوات الجميع.

وهو يعمل في مشروع التشييد لانه يستطيع هنا ان يكسب من المال أكثر مما في المصنع. تلقى ابنه وابنتاه التحصيل العالي. وفافيلوف صاحب كرامة وما دام يفوق أولاده باجور العمل فانه يشعر بقوة انه رب الأسرة ورأسها. خارج وقت العمل غير ميال لمعاشرة الناس ويركبه الهم والغم. ويعتبر ان ابنه وابنتيه من الشخصيات البارزة. اما هو نفسه فلا يسعى الى توسيع افقه بالمطالعة. ويضع النظارات على عينيه فقط حين يذهب الى الغابة لجمع الفطر. ويمتلك موهبة الادراك في لحظة خاطفة تقريباً الخواص التصميمية لكل جهاز جديد. ولديه ذاكرة بصرية عجيبة. وبوسعه التصور دون أي جهد يذكر في أية لحظة ديناميكية وفي أي تأثير متبادل تقع كافة الاجزاء العديدة للماكنة .وهو ليس طيب القلب وليس بشوشا وهو أيضاً بخيل.

بيد ان فافيلوف حين يعتلي الماكنة يغدو شخصاً آخر. وتتملكه الهمة. وهو أول من يخف الى الرفيق لكي يقدم العون. وفي لحظة خاطفة وبنظرة فاحصة نافذة وذكاء وقاد يكتشف العيب وسبب العطب في ماكنة الشخص الآخر وسرعان ما يزيله بنفسه.

وقد خاطب ذات مرة لوبانين قائلا:

– انني أعلن لك بصراحة متنبئا بالحدس ان تحكم شد السدادة على مضخة الماء، ما من قرائن ولكنني أحس بانها ضعيفة الشد وتبعث على الريب.

قبل شهر تلقى رسالة مقلقة من زوجته كتبت له فيها ان البنت الصغرى عازمة أن تكون زوجة مرشدها السابق في فرقة الطلائع وهو حالياً معلم في مدرسة التدريب المهني. ولم يتذكر فافيلوف هذا المرشد الطلائعي الا انه لسبب لايدريه تصوره رجلا كبير السن يستخدم أساليب الاغراء أغوى كريمته بالأحاديث عن المآثر في جبهة القتال. وصار بتأثير النقمة من هذه الأفكار يعاني الأرق وأمعن في استيحاشه من الناس وتعجل جراء الانفعال في تقديم

طلب بالاستقالة مقرراً الرحيل عائدا الى البيت. ولكن حين علم ان الفتيان أصروا ملحين على اجراء مد الخط عبر المستنقع وبذلك توفير المعدن للدولة شعر بالاستحياء من الانسحاب في أصعب وقت للمشروع. والآن شعر بالاسف على «ضعف نفسيته» وتشاجر مع الجميع وابدى شتى المماحكات اثناء «البروفات» وسخر من لوبانين متهكما بقوله:

– قل لي أيها الرئيس العالي والمقام الواطي هل سنستمر طويلا. في جرجرة المكائن على الفاضي؟

والآن وقد وضع فافيلوف يديه الجبارتين على المقاود تسمر بكليته متجمداً ناظراً بطرف عينه نحو لوبانين وملأ الاحساس بالراحة السعيدة من كل الهموم والمشاغل كيانه الذي كرسه في هذه اللحظات لأمر واحد هو العمل.

أجل ان الأشخاص الذين يمتلكون الموهبة العجيبة لاعطاء أنفسهم كليا بتفان وبتركيز عظيم يلتهم كل شيء الى سحر العمل الفتان الأخاذ انما هم أناس سعداء. وهذا الاحساس بالانقطاع عن كل شيء والتوجه الحماسي هو الوحي الحقيقي الخالص لعله الذي الهم على نفس المقدار الشعراء العظام بوشكين، غوته، شكسبير، و... ملايين المواطنين أصحاب المهن العادية المتواضعة.

٢٩

حين يطلع شخص من الغرباء على مائة وأخرى من الأوامر والتعليمات والتوجيهات الخاصة بتسيير أنشطة المشرف الاقتصادي قد يتولد لديه تصور غير صحيح بالمرة بان هذه الوظيفة لا تتطلب من شاغلها أكثر من الالمام بالقراءة والكتابة حسب.

في الواقع فان هذه الكثرة من الوثائق مدونة فيها سلفاً كافة الأمور التي يتعين القيام بها وما لا ينبغي القيام به. وينص فيها بتصور متوقد ونفاذ على احتمالات جميع التصرفات غير المقبولة تقريباً للشخص المسئول. وفضلا عن ذلك يحس في هذه الوثائق

أيضاً بالقوة العظمى للعموميات. ويمكن مطالعتها بنفس الولع من قبل شخصيات اي فرع للصناعة بأية رقعة جغرافية دون ان يساورهم شك في ان هذه الأوراق معنونة اليهم شخصياً. وهذه التعليمات تكتب بالطبع ليس بالمرة في سبيل اعفاء الانسان من ضرورة التفكير والتصرف بصورة مستقلة. انها تتواجد بصفتها حقيقة موضوعية ذات قوة قصاصية في حالة عدم تنفيذ الخطة الانتاجية. اما اذا كان كل شيء يجري على ما يرام فان قراءة أمثال هذه الوثائق تغني بالمعارف وتستدعي الاعجاب بايجاز الأسلوب. وبما انها تختتم دوما بعبرة أو درس فانها أيضاً ذات اهمية تربوية.

يمكن تقسيم هذه الأوامر الى ثلاثة أصناف هي:

١. تكنيكية - تكتب باسلوب التحقيقات الانتاجية.

٢. للشكر - وهي النموذج البارز لأقصر تقريظ مديح.

٣. توجيه التوبيخ والانذار وهو مادة غنية جدا لجامعي الظواهر السلبية للواقع. وهذه مجموعة من التعابير التقريعية للاسترسال في الانتقاد.

كان بافل غفريلوفتش يستغرق عادة في مطالعة هذه الادبيات الرسمية ليلا. وكانت تلك غلطته. اذ لم تكن بالمرة تتمتع بالسمات النافعة والمنومة مثل بعض مؤلفات النشر الصحفي. بل على العكس أثارت في نفسه القلق وانشغال البال وشدة الانفعال وحفزته على التصرف، وأحياناً على التصرف المضاد.

فلنقل ان جميع التعليمات الرسمية الادارية المتعلقة بنصب الأنابيب في الخندق مكتوبة بروح المؤلفات الكلاسيكية عن الحياة الرغيدة الهنية. تجري الأحداث في منطقة من الأراضي حيث يسود الربيع على مدار السنة ولا هم للناس سوى تجميل هذه الأرض بأنفسهم واطاعة من هم أكبر سناً. ولكن فلنقل كيف الأمر اذن مع المستنقع المهلك ثم حين تلتقي مع الأيام الأخيرة من الخريف الموحل البداية المزعجة لحلول الشتاء؟ وليست ثمة أرض في هذه المخاضة وانما هي منقع لا اكثر. وهل يمكن تصور الرافعات - ناصبات الأنابيب فوق أرض كهذه وفق متطلبات التعليمات حيث دونت معادلات حالة الانقلاب القائمة على أساس التصور المثالي عن أرضنا؟

قرر بافل غفريلوفتش سوية مع سواق الرافعات ان يستخدم في هذه الحالة قطارات الجرارات من البلدوزرات، وهذه يجب أن تسند الرافعات - ناصبات الأنابيب لئلا تتزحلق الى الخندق حين ترفع الاسطوانة الثقيلة للمعبر المائي ثم تبدأ بانزالها ببطء الى القعر. ولكن ما الذي سيحدث لو ان احدى ناصبات الانابيب انهارت فجأة؟ من الذي سيكون المسئول؟ هو بالويف. وسيكون مسئولا ليس فقط لان الرافعة قد انهارت وانما أيضاً لانه قد خالف التعليمات. ما وجه المخالفة؟ اذ لم يرد هناك أي ذكر عن قطارات الجرارات وانه توجد في العالم مستنقعات. وهو قد تجرأ على استخدام قطار الجرارات! ولكن الرافعة بدون الحماية الاحتياطية قد تنهار. غير انه ينبغي اتخاذ الاحتياطيات لا للرافعة فقط وانما للنفس أيضاً. وهذا يتطلب ارسال تقرير الى المرجع يتضمن شرح الأمور على هذا الوجه وذاك وبسبب ان التربة ضعيفة التحمل أوقفت العمل وأنا في انتظار الأوامر. وهكذا.

وماذا في الأمر، ان بافل غفريلوفتش لجأ في وقت ما الى أمثال هذه الأساليب توفيراً للاحتياطيات بغية حماية النفس! وهذا قد ساعده ولكن لم يساعد القضية. وقد ارغمت بعض ظروف الماضي المشرفين الاقتصاديين على تكوين هذه المناعة لأنفسهم من القصاص على المبادرة المجازفة.

قال بافل غفريلوفتش ذات مرة لمشرف الأعمال فيرسوف في لحظة اندفاع من صراحة الأصدقاء:

- مع كل يوم تزداد الأمور نصاعة ويغدو الجو اكثر صحواً وصفاءاً أصبح الناس مزودين بأجنحة الجرأة في القضية والعمل. أتتذكر ما كان سابقاً؟ كان كل مشرف اقتصادي يرتدي درعاً مزرداً من الأوامر والتعليمات والتقارير. وفي حالة وقوع أمر ما لا بأس عليه فستر الحماية متوفر. وكان كل واحد منهم عارفاً بالقانون على مستوى التعليم الحقوقي العالي.

تأتي الى سكرتير اللجنة الاقليمية وتقول له: «ثمة امكانية لانجاز العمل على نحو أسرع في حالة مخالفة المشروع المصمم». فيسمعك ويوافق على رأيك وتطلب منه ورقة بالموافقة. وحتى لأجل التفاصيل الصغيرة طلبوا موافقة رسمية. ولكنهم هناك فهمونا

بالطبع وساعدوا على الحفظ الذاتي اذا كنت انساناً جديراً وكان اقتراحك اقتراحاً جديراً. ولكن بايجاز سايرونا لان القضية في العمل أغلى من الكرامة وسواها.

والآن بالطبع لا يزال أخونا المشرف الاقتصادي يتصف كذلك بأنه جبان. ولكن خوفه الآن من نوع آخر وعلى طبقة أعلى، ولعلي أستطيع أن أسميه الخشية من التخلف عن زمنه، فان زمننا سريع وكأنما البلاد كلها بمثابة سبوتنيك أطلق بقدرته الكاملة.

واستمع فيرسوف وهز رأسه موافقا ولكنه قال بعد ذلك:

– ولكني مع ذلك خائف وأشعر بالقلق من فكرة قطارات الجرارات فماذا لو انقلبت الرافعة فجأة؟ ربما ينبغي الاخبار عن ذلك ولو بالتلفون؟

– هل تريد مشاطرة المسئولية على طريقة الاخوة الاشقاء؟ ايه يا اليكسي ايغناتيفتش ولكن اي شيطان جعل هذه «الصلابة» القديمة تستسلم؟ – وسأله بصميمية: – ألا تشعر بوخز الضمير؟

– أشعر بذلك، – قال فيرسوف موافقاً، – ولكن التلفنة على أية حال أضمن وأمتن وأنا قلق عليك ولو حصلت المنغصات فسوف تقع على رأسك.

– ولكن حين يرفع الانسان رأسه عالياً بحيث يرى الجميع اي انسان هو فعندئذ لا يهدده أي شيء عبثا سوى حماقته الخاصة التي هي دوما الخطر الرئيسي.

هبت ريح بليلة قذرة زاحفة وهي تحني شجيرات المستنقع كأنها تدوسها بالأقدام. وكان الثلج في حالة نصف سائلة كالعفن الرمادي. وتحولت الطبقات الطينية الى مادة مخاطية صفراء زلقة.

وكل شيء رطب ورمادي من الضباب الدخاني البارد. و النهر الشاحب يجرجر نفسه بثقل بين الشواطىء الفيضانية المعروقة.

ويا لها من مكان مقرف هذه المخاضة المستنقعية الملأى بالحمأ المسنون.

وتتدلى الفوهة الحلقية لخرطوم الجرافة كأنها احدى الزواحف وهي تقذف من فمها الماء على جرعات الى الخندق.

هذه الجرافة المركونة الى الشاطىء المتهاوي مفخرة بالويف. وهو يقول ان الجرافة الطافية تسوي مليونا واكثر. يجرها الغطاسون

وراءهم مفككة على المقطورة. وجرافة بالويف مركبة من مجموعة الصناديق المعدنية يدوية الصنع ملحومة بشكل محكم والبراميل الطوافة ومحرك دبابة اشتري بثمن بخس لتقادم عهده بالنسبة للجيش، ومضخة الطرد المركزي تم الحصول عليها من العاملين في استخراج الفحم النباتي. ويحتاج تركيب جرافة طوافة من هذه الخردوات الى بضعة أيام فحسب، اما قيمة كلفتها فأقل من مائة الف روبل. وقد أحب بالويف هذه الماكنة بسبب رخصها. وقد قال طالباً من ويلمان:

– يجب صبغها بالطلاء. – وأوضح متردداً: – بغية اضفاء الجمال عليها. وأضاف متبجحاً: – لقد ابتكرتها بنفسي. – وتضاحك وهو يقول: – الانسان حيوان بالغ الذكاء.

طليت هذه الجرافة بالأصباغ في سخاء. واعتبر ممثلو الأسطول النهري هذه الصبغة خالية من الجمال غير ان قوة الماكنة وعدم التوقف في جهازها الميكانيكي وكذلك كلفتها الرخيصة قد اعجبتهم.

أطلق بافل غفريلوفتش على هذه الجرافة تسمية ذات فخر، اذ سماها – «ام الشجاعة».

الماء في الخندق قذر عكر تطفو على سطحه قطع رمادية من الخث وبقع من النفط مختلفة الألوان.

كلما زاد الاقتراب نحو مقطع النهر كان جرف الخندق اكثر ارتفاعاً، وأشد انحداراً، فهو أشبه ما يكون بفج عميق.

اصطفت الرافعات – ناصبات الأنابيب بمحاذاة الخندق وعلى طوله، وهناك حيث وقفت، كانت جدران الجرف تزحف ببطء وتتساقط منها ذرات الرمل.

وتمتد مطروحة على الأرض، معتمدة على ركائز من الجذوع المقطوعة، الاسطوانة المعدنية البالغ طولها كيلومترين للمعبر المائي وقد قوي بكسوة كالمشد من الأخشاب، وعلقت عليه أثقال حديدية وربطت به براميل الطوافات التي ينبغي عليها التخفيف من ثقله.

تعلق بصورة مرنة الأنبوب الذي رفعته في آن واحد ناصبات

الأنابيب بأذرعتها وكأنه مصران مطاطي. واقتربت الناصبة الأولى للأنابيب ببطء نحو مقطع الخندق. وأخذت التربة تحتها تتفتت وتزحف وتوترت الأمراس التي تربط الرافعة بالبلدوزرات. وبرز الزيت الذي دهنت به هذه الأمراس الفولاذية المبرومة. وبدا كما لو أن ناصبة الأنابيب لم تكن لتحافظ على وضعها لولا ان حواف جنازيرها قد تشبثت وتلبدت في الطين.

دنا سيفولوبوف الى بافل غفريلوفتش. وكان يرتدي صدرية كاكية بلا أردان من الفرو وهي من ألبسة جبهة القتال. وكانت شفتاه يابستين ومزمومتين بشدة. وأومأ برأسه نحو الرافعات - ناصبات الأنابيب وقال شاكياً:

- لم أشعر بالقلق حين جنحت الى الهدف اثناء عملية القصف أما هنا فكما ترى... - ومد يديه - انظر ها هي الأصابع ترتجف.

لم يحر بالويف جواباً وكان ينظر... ويكاد يكون واقفاً، وكان لوبانين يضع كفيه على المقاود، مشدود العنق، وأنفه النحيل شاحب اللون، وجلدة وجهه متوترة، وحبيبات العرق الناضح تسيل من الصدغين. ولدى ذلك ارتسمت على شفتيه ما يشبه ابتسامة الخلي من الهموم والمشاغل استحضرها بثمن الجهد الذي يفوق طاقة البشر.

وقال سيفولوبوف:

- يعتقد الرفيق ويلمان ان البطولة في الانتاج تأتي فقط من غزارة فائض القوى والاستخفاف بالحرص على الصحة.

- اسكت يا هذا! - صرخ بالويف في سيفولوبوف رغم ان عملية انزال الأنابيب لم تتطلب المحافظة على السكون.

وتعلق الأنبوب ببطء زاحفاً أسفل فأسفل على المنحدر الرملي. وأرخى عامل المرس وأطلقه واذ استدارت الرافعة ببطء شعرت بسهولة في الحركة الضخمة وهي تسير في الطرف النهائي لصف المكائن.

ونفذت الرافعة الثانية بدقة كل ما قامت به الرافعة الأولى. وكررت فعلها أيضاً الرافعة الثالثة.

كان الأنبوب المائل قد استلقى بنهايته على قعر الخندق. وأخذ جسمه الافعواني يمتد مسترخياً شيئاً فشيئاً على طول مجرى

القناة. وأخذت الجرارات الواقفة على الشاطىء المقابل تجر الانبوب المحصور الى وسط القناة. وظهرت من الماء عالياً براميل الطوافات وكأنها الاشارات العوامة.

وبدا كما لو ان ضوء الصباح الباهت قد انبلج في لحظة وانجلت مولية ظلمة الليل. وشقت الرافعات - ناصبات الأنابيب العتمة بالشفار الحداد للاضواء المنبعثة من كشافاتها. واستقر المعبر المائي في الخندق طافيا وقد استرخى جسمه المرن الأنبوبي.

ونزل لوبانين من الماكنة وانطلق يخوض بلا حذر في الوحل بساقيه الطويلتين في الأحذية المطاطية الطوال، وقبعته مدفوعة الى القفا ووجهه الوحشي ترتسم عليه امارات الهدوء. وقال مقتربا الى بالويف:

- بافل غفريلوفتش أصحيح قول زايتسيف بان مناقشة عالمية تدور منذ اكثر من قرن حول شكسبير وانه ليس هو مؤلف رواياته الشهيرة وانما أحد الارستقراطيين؟ أمن المعقول انهم لم ينتهوا لحد الآن من البت في هذا الموضوع؟ - ثم تلفظ ساهما في التأمل: - لقد شاهدت فيلماً أجنبياً مقتبساً من احدى رواياته: وفيه أحدب يرافق أرملة متوجهة نحو نعش زوجها الفقيد وهذا الأحدب خطيب مفوه وببلاغة أسلوبه أقنعها. لقد أظهروا ببراعة مدى قوة التعبير الكامنة في الكلمة حتى اذا كانت الغاية خسيسة.

نظر بالويف الى لوبانين بحيرة وارتباك. ثم خطف يده القوية الصلبة وشد عليها قائلا.

- شكراً لك يا غريشا.

- كيف لا، - قال لوبانين، - كم كررنا البروفة فهل بعد هذا كله الا ان يتم الأمر على ما يرام. من المضحك حتى التفكير في ذلك.

واقترب ميخوف الى بالويف وهو متعب ومنهك وضامر الوجه وفجأة رفع ذقنه وسار رافعا رجله عاليا دون احنائها عند الركبة ومسبلا يديه باستقامة على جانبيه وهو يخطو بقوة مرورا به كالجندي عند عزف موسيقى المارش الاحتفالية المهيبة.

وصرخ بالويف:

- أيها الرفيق ميخوف. قدمت الادارة الجعة، ومن الغواصين

على حدة أيضاً السراطين. – ومد يده نحو الخيمة من قماش الاشرعة المتخذة مطعما وقال يدعوه: – تفضل بالدخول.

كان وجه ميخوف طافحاً بالسعادة والحبور. وقد ابتسم لمزحته وهو يشعر بالرضا كما يستطيع ان يمزح ويشعر بنفسه الآن خفيفاً وحراً عقب العمل المرتب بشكل ممتاز حيث أظهر انه لا يقل شأنا عن سواه.

ودنا فافيلوف وقال متجهماً:

– لا تأخذ يا بافل غفريلوفتش بعين الاعتبار طلبي بشأن الاستقالة. سوف أسافر فقط وازوج ابنتي. – ثم أضاف مغضباً: – الى أحد الرفاق ثم أعود. – وتنحنح وقال: – لقد وضعنا المعبر المائي برفق في المجرى كطفل في مهده وحتى الكسوة لم تخرق. وما هو السبب؟ لأننا اشتغلنا بصفاء نفس وانسجام روحي كما لو غنينا في جوقة انشاد وتم الأمر على وجهه الصحيح.

– ولماذا لاتوجه الي الدعوة لحضور الزفاف والعرس؟

– بافل غفريلوفتش أيها الانسان العزيز ان ذلك سيكون لي مفاجأة سارة اكثر من الحصول على مكافأة عليا.

– اذا بعثت لي برقية قبل يومين من عقد القران فسوف أطير جواً أو اسارع الى القدوم بالسيارة. وانني لرجل مضبوط.

حضر بالويف تقريبا جميع الاحتفالات العائلية للعاملين تحت امرته. وقد اعتبر هذا بالنسبة له اكثر لزوما وضرورة من حضور بعض الاجتماعات الرسمية.

وكون السائق المحنك فافيلوف قرر البقاء في المشروع يشكل فرحة اضافية الى الانزال الموفق للمعبر المائي وعزز ثقة بالويف بانه لا ينبغي الابطاء في اجراء عملية السحب أكثر من ذلك. وهذه هي العملية الأكبر مسئولية والختامية وقد تطلبت لا التحضير الدقيق فحسب بل والهمة النفسية لدى الناس. وقد أدرك بالويف ان الوقت الآن هو أنسب وقت وأكثره ملاءمة لهذا الأمر لا من حيث حالة الأنواء الجوية وانما الحالة الروحية النفسية لدى البناة وهو ماكان يعتبره أهم الشروط لتحقيق النجاح.

بغية خلق هالة من التكريم والاجلال وتخليد مآثر الأعمال وتأبيد

مجد البطل انتقت البشرية من بين جميع المواد الكريمة الصالحه كمادة خام لهذه الغايات الرفيعة السامية من المعادن البرونز ومن الصخور المرمر ومن النبات شجر الغار.

ما هو المجد؟ انه جرعة من الخلود وهي باعثة الحيوية ومنعشة ولكنها اذا كثرت زيادة عن اللزوم فتاكة مهلكة. كم ولمن وعن اي شيء تعطى هذه المادة الغذائية النفيسة جداً من التبجيل البشري يحدده في خاتمة المطاف التاريخ. ولكن المجد لم يتعرض بعد للتجفيف والخض من قبل الزمن وحتى الجرعة النزر منه تشع بهالة عجيبة. وليس على وجه الأرض انسان يعرض عن اتخاذه زينة لهامته . وهذه الهالة النيرة تتمتع بخاصية المرونة والخفة. ويستطيع حملها شخص واحد حلقة على رأسه . ويمكن بها أيضاً توشيح عدد كبير من الناس المستحقين لها. وفي حين من الدهر كانت تعتبر اكثر الحلقة التي توضع على الرأس تمشياً مع الموضة من هالة كبرى من الأنوار الساطعة التي تستحق تكليل شعب بالمجد. ولكن على وجه العموم فاني أؤيد اقامة التماثيل الفردية للاشخاص وكلما زاد عددها في المدينة زادت معالمها الصالحة للقاءات العشاق. عنهم يجب أن يفكر أيضاً شخصيات المرفق العام لانه لم يتضح بعد ما هو الأحسن وقعاً على النفس أهو الحب أم المجد. ولكن بالطبع يمكن الذهاب الى القول بان المواطنين الذين يضربون المواعيد للقاءات قرب التماثيل كأنما يؤكدون بهذا أيضاً حبهم للمجد لان الحب لوحده لا يعيش طويلا. وفي بلادنا يحترم المجد ويبجل. ولكن ليس كوسيلة للزينة وانما هو شأن الذرة المفلوقة يمتلك خاصية الاشعاع واعطاء الطاقة الى الجديد من الانجازات ويحمل بتفاعله المتسلسل الالوف والملايين من الناس على اجتراح المآثر الخالدة ولا يخمد نورها على مدى القرون.

يتعين على بافل غفريلوفتش باعتباره مشرفا اقتصاديا وفقاً لنوع نشاطه العملي اعطاء الكثير من القوى النفسية الى المواضيع المادية الفجة المبتذلة. وذات مرة في الشتاء، مستلقياً على السرير، شاهد من نافذة العزبة الاضواء المرتعشة لمصابيح السيارات. ودس رجليه الحافيتين في فردتي الحذاء اللبادي وألقى على جسمه فوق الملابس الداخلية البيضاء سترته الجلد وهرع الى الشارع.

ها هي الشاحنة التي طال انتظارها وقد ارتفعت في داخلها بكرة خشبية ضخمة ملفوف عليها مرس فولاذي. توقفت الشاحنة وسط طريق القرية الريفي، واندفع بالويف الى قمرة الشاحنة وجر منها ويلمان الذي كان يرتدي معطفا من فرو الضأن وفوقه رداء من المشمع وقبله بصوت مسموع في خديه الجامدين من البرد حد الزرقة مغدقاً عليه عبارات الاطراء، وأدخله الى بيته مرحباً وماسكاً يده بمودة. أجلسه على المقعد وانتشل من قدمي هذا المشرف الاقتصادي حذائيه من الجلد الصناعي وجعله ينتعل حذائيه اللباديين الدافئين وفك سريعاً بالسكين علبتين من الأطعمة المحفوظة صب قذفاً الشاي البارد من الكوب وملأه من شراب الكونياك ووضع على المنضدة حبات كالتيكس وقال آمراً: «هيا خذ هذا» وخطف سماعة الهاتف وأخذ يتلفن الى الرؤساء الآخرين للقطاعات، وتكلم لاهثاً في سرعة وحماس ومتشدقاً: أي موظف ممتاز عنده في قسم التزويد هو الرفيق ويلمان. وارتدى ملابسه مجددا وخرج الى الشارع وطلب مد المرس على الطريق الريفي وسار بمحاذاة المرس المفكوك الممدود وتلمسه وأضاءه بالكشاف الكهربائي ولم يقر قراره حتى تم بحضوره دهن المرس بالزيت ولفوه مرة اخرى على البكرة. ثم حين استلقى على سريره النقال تقلب بالويف طويلا وتنهد وأحيانا حتى ضحك من فرط الفرح. ولم يستطع الاغفاء من شدة التهيج. ونهض فارتدى ثيابه وخرج الى الباحة حيث دحرجوا البكرة الخشبية وعليها المرس الملفوف وأيقظ أمين المستودع وأصدر اليه أمره:

— لا تعط منه متراً واحداً لأحد بدون اذن شخصي مني. فليستعملوا الأمراس القديمة. وسوف ادشنه في ارتيش فهذا ليس مرساً عادياً بل هو تحفة.

ومرر يده برفق على الالياف الدهينة للحبل الفولاذي المفتول الغليظ.

كان الاعجاب والانتعاش في نفس بافل غفريلوفتش لدى امتلاكه من قبيل الاحتياط بضع مئات من أمتار المرس من المشاعر الصادقة النابعة من صميم الفؤاد، وقد طربت نفسه لهذا كل الطرب.

ولكن هذا لا يعني بتاتاً ان أشياء الحضارة المادية قد أزاحت

من نفسه الاهتمام بالثقافة الروحية. وفي حالة الوضع الانتاجي الملائم كان بالويف يجل قدر الصحفيين مندوبي الجرائد والمراسلين المصورين أما ازاء مصوري النشرات الأخبارية السينمائية فقد كان يبدي اجلال التبجيل وبالطبع فان واجب الخدمة لهؤلاء الرفاق يتطلب منهم تحويل الأعمال البشرية الى المجد مثلما تهضم الالياف العصبية لخلايا الدماغ الطاقة الكيمياوية للجسم وتحولها الى تيارات كهربائية محولة اياها الى أفكار وأحلام، ولهذا أصدر بافل غفريلوفتش أمره الى فيرسوف بان يوجه الدعوة لحضور عملية السحب الى ممثلي الصحافة من مركز المحافظة. وقال فيرسوف متملصاً:

– ربما الافضل الاخبار عن الأمر باعتباره أمراً واقعاً؟

– كلا فليحضروا، – قال بالويف بلهجة التأكيد. – ينبغي تهيئة منطلق للناس ومجال الهام وثقة بالنفس. – ومسح جبينه بباطن كفه وقال معترفاً:

– طبعاً قد لا يتم الأمر في يوم واحد ولكن المهم هو الاندفاع الأول.

– واذا حصل انفصام؟

– عندئذ... – تلفظ بالويف بلهجة الفدائي. – انني بهم عليم فسوف يعطون اعلاماً انتقادياً موضوعه أنا. – ثم قال منتعشاً:
– ولكن بنفس الوقت سوف ينوهون بأبطال الانتاج وهذا على أية حال علامة موجب لصالحنا.

– مع ذلك لوكان الأمر بيدى لامتنعت عن ذلك.

– ولكنني انسان مندفع، – وأعلن بالويف بغضب، – أحب المجد والشهرة وأقدرها وأجلها فوق كل قياس. – وكم من مرة نشرت على المنضدة ورقة الرسم حيث صور الجدول الهيكلي لعملية سحب المعبر المائي مع الاشارات الى المواضع ومسارات المكائن والمواعيد المضبوطة حتى الثانية الواحدة والتوافق المعقد في أعمالها.

أجريت يومياً البروفات بصدد عملية سحب المعبر المائى خلال العارض المائي. وكان كل شيء مدروساً حتى أدق التفاصيل وأضألها.

في المساء تلقى بالويف مكالمة هاتفية من أحد المعابر خلال نهر سروتشكا لرئيس العمال بيكبولاتوف الذي أخبره باكتشاف جلمود صخري ضخم لدى تنظيف الخندق. وقرر بافل غفريلوفتش على الأثر «الطيران» الى ذلك المعبر بحيث يتسنى له العودة عند مطلع الفجر.

وصحب معه كابا بودغورنايا التي كان عليها ان تفحص هناك بالاشعة دروز اللحام للمعبر المائي.

وفي المسافات غير الطويلة كان بالويف عادة يسوق السيارة بنفسه.

– وكيف تجري أمورك في الحياة يا صاحبة السماحة؟ – سأل بافل غفريلوفتش كابا وهو يشعر بالغبطة خلف مقود السيارة وهو سعيد لانه يستطيع لمدة بضع ساعات أن ينقطع تماماً عن التفكير بأي شيء.

جلست بودغورنايا معتدلة وشدت نفسها بقوة الى ظهر المقعد مزمومة الشفتين وعيناها المديدتان تشع فيهما هالة سوداء كئيبة.

ونظر بالويف بطرف عينه الى كابا وقال بخلو بال:

– في وجهك شيء ما يدل على التهديد. فماذا في الأمر؟ لعله ليس دورك في الذهاب الى المعبر؟

– بل هو دوري.

– انظري أي جمال يحيط بنا. يا للطبيعة من فاتنة! ما أبدعها! ها هي الأشجار قد اكتست غشاوة من الجليد والشجيرات كذلك. وكأنما هنا معرض للزجاج والبلور. سمعت مؤخراً من الاذاعة حديث أحد العلماء قال فيه ان في الامكان صنع حبال من الزجاج أمتن من الحبال الفولاذية وبالطبع ليست عرضة لأي تأكل. ما أحوجنا الى أمثالها لسحب المعبر المائي.

– ان الجمال لا يثير لديك سوى الأفكار الاقتصادية.

– ماذا تقولين؟

- لا شيء كل ما في الأمر هو انني عمدت الى تقرير حقيقة واقعة.

وخفض بالويف من سرعة السيارة واستفسر بانشغال بال:

- قد تكونين عليلة؟ - ووضع راحته على جبين كابا تحسساً لحرارتها. واغمضت عينيها وغدا وجهها شاكياً كئيباً وارتعشت شفتاها.

- ماذا حل بك؟

- ارفع يدك عن وجهي.

أدارت له بودغورنايا ظهرها وتلوت على المقعد. وخيل الى بالويف انها تبكي. أوقف السيارة وخرج منها وجاء الى الجهة الأخرى وفتح بابها وقال بحيرة:

- ليس بوسعي سياقة السيارة وبجواري شخص يتعذب. أوضحي الأمر بشكل محدد، ما الذي حدث؟ الطريق مزلق جليدي وهذا يعني وجوب مضاعفة العناية.

- أجل، - قالت كابا ناشجة، - فانت انسان واضح الهدف ولا تحب التعساء.

قام بالويف بروح عملية على عادة السواق بركل عجلات السيارة فاحصاً ثم جلس خلف المقود ناظرا أمامه بتركيز وساق السيارة صامتاً. وبعد مرور بعض الوقت قال وهو يتنفس الصعداء:

- ها قد أصبح الطريق أفضل. والآن أخبريني ما هو سر تعاستك؟ اذا كان ذلك بسبب ان صاحبتك بنوتشكينا التي وضعت هدفا لها بثبات أن تكون زوجة مارتشنكو فان الأمر لا يستحق الحزن. ان أمر الصواحب قضية لا تؤتمن وليس عليهن اعتماد. قد يكون مارتشنكو يعجبك أنت نفسك؟

- لم يبق الا هذا. - استنكرت بودغورنايا وحتى هزت كتفيها بازدراء.

- سدى هذا. انه انسان له مستقبل. ما أقوى توجيهه موهبة شباكوفسكي نحو قضية الاقتصاد الوطني الكبرى. قدم رفيق مسئول عن دائرة اللحام والتركيبات والقى نظرة فاحصة على كيفية لحام شباكوفسكي للدرز بدون حلقات التبطين. وهمهم ووصف ذلك بانه

عمل باهر ولكنه لم يفهم ان هذا معناه توفير مئات الألوف من أطنان المعدن للبلاد أو مجرد انه لم يشأ أن يفهم. هذه تكنولوجيا جديدة فلماذا يتورط فيها؟ انه يفكر فقط على نطاق دائرته اما العامل مارتشنكو فقد فكر على انطقة البلاد بأسرها.

– وأنت يا بافل غفريلوفتش هل بوسعك ولو لفترة ما من الوقت أن تحرر نفسك من التفكير في شئون العمل الانشائي؟

– ما معنى هذا «التحرر»؟ – تساءل بالويف غاضباً. – ان هذه هي حياتي وسلواي. ولو اجلست داخل دائرة فانني هناك في الهواء الفاسد الراكد سوف أتعفن من الجذر. اما هنا فالهواء طلق نقي والمجال رحب فسيح والناس وكافة أنواع المتاعب الانتاجية فأنت تعيش بالسرعة العالية. حتى انني عبرت حد الوسط من معدل العمر دون أن أنتبه كيف حدث ذلك. أفقت ذات مرة من نومي وتحسست نفسي فاذا بطني كرش وهرعت الى المرآة فاذا بي أرى سحنتي سحنة رجل كهل مترهل وبصقت بالطبع رمزياً وقلت بسخط: «هل أتذكر نفسي دوما وأنا على أي شكل؟ في سن الشباب. لا أريد أن أتذكر نفسي على هيئة مغايرة. ان الايحاء الذاتي أمر عظيم الأهمية».

– لست كهلا بالمرة، – صرخت كابا بحرارة، – وشكلك حسن كأنك بحار طاف كل البحار والمحيطات! وأنت تغوص تحت الماء في بزة الغواص ومن هناك تسب بالتلفون اذا كانت الأمور لا تسير على هواك.

– كفى لا تحاولي تهدئة خاطري، – قال بالويف مجرباً رغم ذلك لطفا لذيذ الوقع عليه من تعابير بودغورنايا. – لا تحاولي معي كما يقال فتل الحبال. قولي بصراحة ماالذي حدث لك؟ ولماذا في حين جبينك بارد وعيناك ملتهبتان، وأنفك يخنخن؟

وأطرقت كابا برأسها وأحنت وجهها وتلفظت بهمس وهي تضغط بأصبعها على زر القفل فوق غطاء الصندوق الذي يحفظ فيه السواق عادة الخرق التي يمسحون بها السيارة وأجزاءها.

– انني يا بافل غفريلوفتش أريد أن أحب بشكل أنسى معه نفسي وأعيش عبر ذلك الانسان الذي أحبه فقط.

– وماذا في الأمر. افعلي هذا. وهو الصحيح، – قال بالويف

موافقاً. – ولكن في هذه القضية أيضاً ما الحاجة الى التطرف؟ عليك مع هذا ان تتذكري نفسك. انت فتاة فخور وذات عقل واختصاصك بعيد المدى. – وتجاوز بالسيارة حفرة في الطريق مدنفشا عينيه بحرص وقال متبجحا: – أرأيت كيف أسوق؟ وهذا أيضاً مصدر لكسب العيش في حالة حدوث أمر ما.

– وهل تعلم من؟

– ما الذي تقصدينه بالذات؟ – سأل بالويف وهو يشد بيده الى الأسفل العتلة ليفصل المحور الأمامي.

– يكفي، – قالت كابا بكآبة، – لا أريد اشغالك خشية الارتطام بالعمود. وسأكون أنا المذنبة في هذا.

وعند الوصول الى المعبر ارتدى بافل غفريلوفتش في الحال بزة الغوص وولج في التيار النهري الضيق الذي قد تغطى بقطع الجليد الزرقاء من الشواطىء وتلمس بيديه الجلمود تحت الماء.

وعند الخروج الى البر سأل بيكبولاتوف:

– وما الذي تقترحه؟

تجمهر العمال حوله. وقال بيكبولاتوف:

– ينبغي نسفه. لقد جربنا زحزحته بواسطة الجرارات فلم يتحصل شيء.

واذ رأى بافل غفريلوفتش ان أنظار العمال المتحفزة مسلطة نحوه، تأمل ملياً وكأنه صورة مرسومة، رغم ان القرار كان قد نضج لديه حتى قبل الشروع في الانتقال، وبغتة أعلن دون حذر:

– احفروا له وادفنوه ابن الكلب هذا عميقاً هناك من حيث انبثق. وبهذا تنتهي القضية. – وتلذذ بملاحظة المفعول الناجم وسأل وكأنما لم يعد يهمه أي شيء مما يتعلق بالمعبر: – وهل شاهدتم أيها الفتيان في السينما فيلم «انشودة عن الجندي» وهو من أفضل الأفلام عن الحرب وأنصحكم بمشاهدته فهو فيلم نفساني... – وصار يتحدث عن الفيلم باندفاع واهتمام وكأنه انما قدم الى هنا خصيصاً للحديث عن هذا الفيلم.

أحب بافل غفريلوفتش التصرف بشكل مسرحي وأحب أن يتطلع الناس اليه باعجاب ويندهشوا بالخفة التي كأنما خطر له فهم مفاجىء للأمر فاتخذ بها على حين غرة القرار الوحيد الصائب.

وبالطبع لم يعرف أحد ان بافل غفريلوفتش قبل هذا تلفن الى موسكو وفتش عن صاحب له مهندس اشتغل طويلا في الشمال وكثيراً ما صارع هذه الجلاميد فتارة يقتلعها واخرى ينسفها أو في ظروف معينة يدفنها عميقاً في التربة. والفكرة حول دفن الجلاميد قد أوحى وأدلى بها الى بالويف صاحبه هذا.

بغية ايجاد القرار المناسب نقب بافل غفريلوفتش أحياناً عشرات الكتب. وحصل هذا كثرة من المرار. ولكنه لم يستطع عدم الانصياع لغوايته هذه واظهار قراره وكأنه ارتجال تكنيكي. لقد أراد أن يحبه الناس وسعى الى الحصول على هذا الحب بشتى الوسائل والسبل.

وحين سأله بيكبولاتوف:

– والآن قل لنا كيف هو الأمر بالنسبة للمعبر الكبير؟ وهل صحيح ان الفتيان أهدوا الى البلاد عن طريق التوفير مسافة أربعة كيلومترات من الانابيب؟ اذن فالآن سوف ننصب خلال فترة الخطة السباعية لا ستة وعشرين الف كيلومتر من الأنابيب وانما سننصب ستة وعشرين الف كيلومتر وأربعة كيلومترات. – وأضاف بتواضع:

– نحن مع نهيرنا كذلك بالطبع نسهم بنصيب. تخلينا عن تعليق الأثقال الحديدية وعلقنا على الأنابيب أثقالا خرسانية. وتعين علينا خلافاً للمشروع المرسوم حفر الخندق أعمق وأوسع تحت الماء ولهذا وقعنا على هذا الجلمود. ولكن الفتيان يطيب لهم وهم شاعرون بالرضا والارتياح لانه قد دخل خزانة الدولة أيضاً قسطهم الشخصي والحديد الزهر كذلك معدن وهو أيضاً ينبغي أن يصان.

– أحسنتم صنعا. – قال بالويف – أدمغتكم تشتغل!

ووجه بيكبولاتوف الدعوة الى بالويف أن يتغدى معهم حساء السمك. ووافق بالويف وقال متشدقاً بتبجح:

– هذا صحيح. وعندي قانون متبع أن أجرب طعم السمك من كل معبر مائي أشتغل فيه. – وقال واعداً: – سوف نجرب قريباً طعم أسماك البحر. وفي سيبيريا أيضاً سوف يقيض لنا ذوق طعم الأسماك من جميع الأنهار وسمك آسيا الوسطى كذلك. سوف نغطي

وجه البلاد بشبكة من الأنابيب لا تقل شأنا عن شبكة الأسلاك الكهربائية...

وغمس غارفاً من حساء السمك بملعقته الخشبية الخصوصية التي يحملها معه معتبراً ان الملعقة المعدنية تفسد طعم الأكل. ومزح طالباً دعوة «صاحبة السماحة والعصمة» مفتشة الفحص بالاشعاع بودغورنايا التي انتهت حتى هذا الوقت من فحص دروز اللحام في المعبر المائي بالاشعة. ونظر الى الفودكا بأسى وحسرة معلنا انه وان كان يملك اجازة سوق للهواة في سياقة السيارات الا انه لا ينبغي عليه أن يفقدها عقاباً.

وقد تلفنوا عدة مرات من المعبر الكبير وغطى بالويف صحن حساء السمك بصحن آخر لئلا يبرد الحساء تكلم بالهاتف مرة مع فيرسوف واخرى مع سيفولوبوف وفي كل مرة أعلن في ختام المكالمة:

– انتظر سآتي الآن وننظر سوية، – وقال هذا بنبرة وكأنه موجود بالقرب في المبنى المجاور وليس على بعد مئات الكيلومترات.

استنار الليل بالسماء الصقيعية الصافية والكسوة الجليدية للغابة الملفعة بالزمهرير.

وحين تهيأ بالويف للجلوس في السيارة قال موضحاً وهو يرنو الى القمر:

– لا يظهر منه سوى نصف القطعة. ولربما يقول بعضهم في مكان ما ان السوفييتيين قد ثلموا منه القسم الآخر بصاروخ. بينما نحن شعب حريص على صيانة الحياة حتى ان الشعار المعدني الذي نصبناه في القمر قد طهرناه لئلا يصاب أهل القمر ان كان لهم وجود بعدوى مرض الانفلونزا المعهود في كوكبنا الأرض، هذا هو المدى الذي بلغه حذرنا في كافة الأمور! – وكان آخر ما أصدره من الأوامر الى بيكبولاتوف قوله: – احفر بأعمق ما يمكن لقبر هذا الجلمود اللعين لئلا يحدث اجتراف في التربة ويحل الأنبوب فوق محل صلب.

وصافح بيكبولاتوف ماداً له يمناه عبر الكتف وأحكم جلسته خلف المقود وأطلق الغاز الى آخره مرخيا له العنان.

وبعد ذلك بهنيهة سأل بودغورنايا:
– ما هي النتيجة وهل كانت الصور لجميع دروز اللحام على ما يرام؟ وهل ثمة اعتراضات ومؤاخذات؟
– لقد لحمها شباكوفسكي وكفى بذلك دليلا.
قال بالويف:
– فتيانه يسمونه الآن فان كليبرن.* ولا بأس، هذا صواب: انه في عمله أيضاً عبقري.
وقالت كابا عابثة:
– تعتقد زينا بانني ينبغي ان أصبح زوجته!
– وهذه أيضاً قضية صحيحة. – وافق بالويف حائرا. – انه فتى رزين. – وبعد ان تجاوز سيارة شحن حاصراً رأسه ما بين كتفيه انتباهاً، أعلن بصوت ينضح منه الزهو والابتهاج السعيد:
– ها قد سبقناه وعبرناه. يبدو انه ماهر ومغامر فلقد رفع السرعة الى تسعين كيلومترا في الساعة رغم وعورة الطريق.
– وماذا لو حدث ارتطام؟
– لوقع حادث من حوادث الطريق.
– كان سيطيب لي الوقوع في حادث كهذا سوية معك. – قالت كابا هذا ثم كررته بصوت فيه التحدي: – أجل كان سيطيب لي! وذلك لانك من بين الجميع تعجبني اكثر من أي شخص آخر، هل تفهم؟ أنت وحدك.
التزم بالويف بالصمت ولم ينبس ببنت شفة وبدا كأنه لم يسمع عبارات بودغورنايا.
ومرقت السيارة مندفعة بسرعة، وتلاصفت الغابة المكللة ببياض الثلج شريطا متصلا متلامعا. وسيطر الشعور كأن موجة عالية من أمواج البحر نصف شفافة زحفت من كلا الجانبين على زجاج السيارة. ونفذ العمودان المضبان الأبيضان لضوء مصباحي السيارة خلال العتمة، وتطايرت فيه الجزيئات الثلجية المتجمدة بحفيف.

---

* العازف الامريكي الشهير الذى حاز الجائزة الاولى في مسابقة تشيكوفسكي الموسيقية بموسكو (سنة ١٩٥٨). **الناشر.**

وخفف بالويف من السرعة مترامياً بارتخاء مريح على ظهر المقعد وأخلد الى هدوء الراحة بعد التوتر المرهق. وأصبحت شفتاه ناعمتين طيبتين كسولتين، وعيناه المفتوحتان على سعة وهدوء. وبحث بأصابعه على المقعد عن لفافات السجائر، وأخذ يدخن، سأل:

– ما لك هدأت؟ هل تشعرين بالتعب؟ – وقال موافقاً: – بالطبع في وقت قصير كهذا ومع حمل الثقل البالغ ٣٢ كيلوغراما لصندوق الاشعاع والتسلق به الأنبوب كله ليس من العجب أن تشعري بالارهاق. ثم ان الفتيان هناك ليسوا مهذبين ولم يخطر لهم على بال حمل الصندوق. – وتلعثم على حين غرة.

تطلعت بودغورنايا نحوه في قنوط ومعاناة وخجل وحقد بالغ بحيث وقع بالويف في حالة ارتباك وكأنما ارتدت نحوه من مكان ما بعيد كلماتها الأخيرة كصدى. والتزم الصمت، معتصراً مغزاها، مستنكراً، وبنفس الوقت شاعراً بالمشاركة الوجدانية حيال الفتاة.

رسم بافل غفريلوفتش لنفسه قاعدة هي اللجوء في جميع الحالات العصيبة في الحياة الى الوضوح الفظ. وسأل بصرامة:

– ما الذي اعتراك، هل فقدت رشدك؟ – وأخذ يلوم. – من أنا بالنسبة لك: هل أنا الرئيس أم لست برئيس؟ أتعرفين ماذا يسمى هذا؟ انه أقبح انواع النفاق والتملق... وهل أخذت بعين الاعتبار كبر سنه، – صار بالويف فجأة يتحدث عن نفسه بضمير الشخص الغائب، – ان هذا لهو السخف بعينه! هذا ما يسمحن لانفسهن بارتكابه فتيات المكاتب. فهل نسيت من أنت؟ انك فتاة متينة البنيان، قوية الصحة، عاملة وفجأة تقومين بهذا العمل الغريب.

– ورسم بالويف حتى اشارة التهديد بالاصبع: – اتركي هذا ودعي عنك التودد الى الرجال المسنين! – ثم قال بلهجة التأسف: – هذا! بينما اعتبرتك الأكثر جدية واعتداداً من بين الجميع. وها أنا أكتشف اني قد انخدعت. ما أضيع التربية فيكم وكم هي الكتب المؤلفة خصيصاً لارشاد الشبيبة. وحتى لدى بوشكين ما هو كالدرس في هذا الموضوع. بينما انتم تندفعون مرة اخرى في تكرار أخطاء الغير...

شعر بافل غفريلوفتش انه يقول غير المطلوب من المقال في

هذا المقام ولكنه لم يستطع التوقفَ عن الاسترسال في الكلام فلقد كان الكلام أسهل عليه من السكوت.

وسألت كابا بصوت واهن:

– بافل غفريلوفتش أوقف السيارة من فضلك.

– ولماذا هذا؟

– سأنزل منها وأسير مشياً على الأقدام أرجوك أن تكف عن تعريضي للعذاب. ليس في وسعي مواصلة السفر سوية معك. هل تفهم، ليس ذلك بوسعي!

– لايجوز المشي على الأقدام! – قال بالويف بلهجة عملية. – فالشوط بعيد والطقس بارد. واذا كنت لا تريدين مواصلة الجلوس بجواري فلك ما تشائين، ننتظر مرور شاحنة واطلب من سائقها ايصالك.

وخرجا من السيارة. كان السكون سائداً يلف المكان والغابة يغمرها نور القمر وتشع فوقها سماء ليس لها من قرار.

– ربما أكون قد تلفظت بالكلام الفظ زيادة عن اللزوم وعليه أطلب منك العفو والسماح، – قال بالويف راجياً. – بالطبع بدر مني شيء ما لم أحسن التفكير فيه وأنا نفسي لو تعلمين أحس بارتباك.

وتطلعت بودغورنايا نحو بالويف بحب استطلاع هادئ. وحتى ليصعب التصديق بانها قبل دقيقة فقط كانت على تلك الدرجة القوية من الاضطراب والتعاسة والمذلة. قالت بوضوح، وبصوت مرتفع:

– وهل تعلم ان الأمر كله هو اني ابتدعت لنفسي منك الشخص الذي أحبه، أو بالأحرى بودي أن أحبه. لا لانه شبيه بك وانما لانه قد يكون ويستطيع أن يكون كما تكون أنت في بعض الأحيان مثلا مع بزوغلوفا أو مع فكتور زايتسيف وأيضاً مع الآخرين. لقد قررت أن أقول انني أحبك لكي يحبني ذلك الشخص كذلك مثل أولئك الذين يحبهم. – وقالت بشكوى: – فأنت تعلم كم يصعب علي العيش بمثل طبعي. ولهذا السبب قررت الحط من قدري. هاك فاقرأ.

– ما هذا؟

— رسالة بوريا شباكوفسكي.
— وما شأني بها؟
— ولكنني على الأرجح سأكون زوجته.
— سبق لي القول باني أقر ذلك وأستحسنه. فما الداعي الى قراءتي رسائلكم؟
— ولكنه ليس مثلك. وربما لن يغدو مثلك أبداً وعلى الاطلاق. انه يعيش لنفسه أما أنت فعلى شأن مغاير تماماً ويخيل الي...
— حسنا كفى. — قال بالويف. — فلنعتبر اني وأنت قد خيل الينا كل شيء. — وقال بلهجة أمر: — ادخلي السيارة وهيا بنا نرحل.
— كلا — أعلنت كابا بحزم — لن أكون بعد الآن بجوارك أبداً لن أكون مهما كان!

وظهرت أضواء شاحنة. ورفعت كابا يدها باشارة ايقاف وتقدمت لمقابلة السيارة. وصكت الفرامل ثم طرقع صوت الباب وهي تصفق بقوة، ولاح في نافذة الشاحنة وجه السائق وهو يبتسم متعاطفاً.

جلس بالويف خلف المقود وشغل المحرك وقاد السيارة ببطء في اثر الشاحنة شاعراً لسبب ما بالحياء من سبقها.

عاد عند مطلع الفجر. حلق ذقنه وغير ملابسه. بينما كان بانتظاره في العزبة فيرسوف وسيفولوبوف، يبدو على كلاهما المزاج الرائق، ويشعران بهمة نشيطة ومهابة احتفالية.

وقد أصدرا في الليل أوامرهما بنثر الرمل على دروب المسالك الى المخاضة المستنقعية لكي يتحسن ولو قليلا منظرها القبيح في عيون العابرين.

٣١

بعد ارتداء بالويف ملابسه اكتسب منظراً فيه أبهة وثقة بالنفس، وحتى يمكن القول انه دل على شيء من التعالي والشموخ. وتكلم باندفاع وبشكل حاد ونظر الى زميليه لا في العينين وانما

في الجبين أو في نقرة الأنف ما بين الحاجبين. قامته عادية متوسطة الطول ولكنه رفع كتفيه وأبرز صدره وأخذ يبدو حتى وكأنه أطول قامة بعض الشيء.

بدا مثل أولئك الذين الآن يصورون عادة على خشبة المسرح، البيروقراطيون المغرورون الذين أثملهم الزهو بالمنصب. وهذه المشابهة قد زادت قوة بالوجه المتأفف المتقزز الذي يرتسم عليه التعبير الدال على السأم والضجر والملل، والشفتان الممطوطتان لشخص متقلب الأطوار.

اعتبر بالويف انه بشكله هذا يبعث في الناس الشعور بالثقة والسكينة. فما دام الرئيس متفاخم المظهر فكل شيء اذن على ما يرام، قد أقدم على هذه التضحية تمشياً مع وجهة النظر التقليدية الى منصب الرئيس. اما داخل نفسه فقد كانت القطط كما يقال تخربش في صدره. أصدر أمره بتمرير المعبر المائي اليوم ولكن أمطاراً غزيرة هطلت في أعالي النهر وأخذت سرعة المجرى لتيار مياهه تزداد كثيراً فوق الحد المنصوص عليه في الجدول الخرائطي للسحب. وكان ممكناً أن يجرف النهر المعبر المائي او يقتلعه من الخندق الذي تحت الماء. واشتد أيضاً تجمع المياه الجوفية تحت التربة. وأخذت تضغط من الأسفل على الارض الرخوة في قعر القاع فصارت تنز الى الخندق وبدأت تمتص المعبر المائي الى أسفل. وفي موضع عطفة الخندق حيث يستقر حوض الترسيب الكيمياوي كان ينبغي وضع جرار وبواسطته يجري جر الأنبوب لئلا يتصاقب ويرتطم بالجدار الداخلي أثناء عملية السحب. ولكن لم يتوفر جرار فائض عن الحاجة.

وقعر الخندق عبارة عن طبقة طينية رقيقة تفتقت في بضعة مواضع وتسرب الماء من الخندق، وترشح في الرمال التي لا قعر لها ولا قرار. وبايجاز تجمعت كثرة من المخاطر والمخاوف المنذرة بالغدر. فهل في الامكان التوقي منها سلفاً وقهرها؟ ممكن. ولكن ذلك تطلب الكثير من الوقت ونفقات مادية اضافية كبيرة.

وعلى غرار القائد العسكري الذي يمعن التفكير بقلق عشية المعركة في انه من الحسن الحصول على تكملة للمجموعة الحربية المتوفرة لديه وكمية اضافية من المدافع والدبابات ومدفعية

الميدان ذاتية الحركة وزيادة عدد الطلعات الجوية، سرح بالويف الآن في أحلام اليقظة مفكراً: ما أحسن لو أمكن من أجل الضمان التام للنجاح فعل شيء ما آخر واقتناء مزيد من القدرات ووضع زوج من المضخات المائية لزيادة الماء في الخندق وتقوية قطار الجرارات على ذلك الجانب من النهر اضافة ولو ساحبتين هنا أيضاً. ولكن ليس عبثاً تسمية أعمال البناء والتشييد بجبهة الأعمال الانشائية فهي أيضاً كجبهة القتال. ولا يجوز تحشيد التكنيك في موضع واحد فقط حين تشن هجمة العمل على نطاق سائر الجبهة.

وثمة أيضاً عامل الوقت. فلو أجلت سحب المعبر المائي مدة أسبوع تخفظاً وصيانة للنفس من كل النواحي، فأن الطبيعة اللدود لن تغفو لها عين هي أيضاً وسوف تتكاثر من يوم لآخر على صفحة ماء النهر قطع الجليد وتشد اليها شواطىء النهر الفسيحة المتينة اما الماء المحصور بالجليد فسوف يزيد من سرعة التيار في المجرى الملاحي للنهر. ويبدأ الأنبوب بالتجمد في التربة المقرورة فينجم خطر آخر ألا وهو خطر الانبوب المختنق بالجليد كسبيكة ملحومة اليه. وكم من أطنان النفط ينبغي احراقها عندئذ لتذويب هذه السبيكة الجليدية! كلا ان القضية البنائية في حاجة الى الجرأة المحترسة كالحاجة اليها في المعركة القتالية، والتي أثناء سيرها فقط يتقرر مصير النصر! ومهما كان التحضير دقيقاً فلا مفر في المعركة من الخطر. ان التبذير في القوى هو درب الجبان. اما بالويف فلم يكن قط رعديداً. وليس الشجاع الحق من لا يخالج قلبه الخوف وانما هو من يعتريه ولكن لا يدع مجالا لظهور ما يعتلج في بواطن نفسه مما يعانيه.

ظهر بافل غفريلوفتش في موقع العمل صحبة نخبة من مرؤوسيه. ورنا باستخفاف غير حافل الى المكائن المصطفة، وسار بمحاذاة الخندق ناظرا اليه بطرف عينه، وأثنى على الطقس، وتوجه نحو نقطة القيادة الواقعة على جرف منحدر لرأس لسان رملي على امتداد. ومن هناك ألقى نظرة فاحصة على النواحي المحيطة وكأنه يشاهد هذه الامكنة لأول مرة وابدى ملاحظة مؤاخذة لعدم اقتلاع شجيرة ماثلة هناك (رغم ان هذه الشجيرة كانت ضئيلة وكانت الرؤية عبرها متاحة على أحسن وجه)... ودخن سيجارة مقدما

لفافتين من السجائر الى فيرسوف وسيفولوبوف من العلبة المفتوحة والمذخورة التي كان يعتبرها «محظوظة» ويتناول منها سيجارة واحدة فقط في كل مرة يجري فيها سحب أصعب المعابر المائية. وابتسم كالحالم وأفاد قائلا:

– لقد تذوقت عند بيكبولاتوف حساءاً سمكياً شهياً هو الترف بعينه! – أضاف كأنما عرضاً: – ولعلهم يمررون اليوم معبرهم المائي. – وحين لاحظ على وجه فيرسوف علائم عدم الارتياح أنهى عبارته بصرامة: – ما أكثر الآليات هنا عندكم أما هو فليس لديه سوى ناصبة أنابيب واحدة وجرار واحد ورغم ذلك سيكون بوسعهم جر معبرهم المائي كما يسحب اللفت من الطين فكونوا مطمئنين!

أدرك بالويف انه لن يستطيع الآن ان يضيف أي شيء كان الى ما قد انجز ولكنه اعتبر من واجبه في الوظيفة تحريك الهمة لدى فيرسوف وسيفولوبوف.

بوسع الشمس والصقيع اضفاء حلة رائعة من الجمال على أي موضع غير مريح في الأرض. فماذا هنا يمكن أن يرى؟ ليس من شيء سوى الأقذار. وهذا المستنقع مهلكة ورائحة نتنة. ما أن تدوس بقدمك على كومة جامدة متقفعة من الوحل حتى تبرز حشوتها من الحمأ كتلة لزجة فيها سخونة وعفونة بنفسجية اللون. والمستنقع مغطى بالمسالك من الأخشاب المهشمة. تستدير الرافعة – ناصبة الانابيب فيخال المرء ان الأرض كلها تخفق تحت قدميه في وجيب. وتنظر في المدى البعيد فلا شيء أمام ناظريك سوى النتوءات المعروقة والمعروشة، هنا وهناك شجيرة متعثلكة ناشزة والهلب الأصهب الكث للقصب والأسل ولعل هذه هي كل تفاصيل منظر الطبيعة في المستنقعات. ولكن انظر كيف كان فيه فعل الصقيع والشمس؟ انه خيال لا يخطر في بال! كل شيء لامع وكل شيء براق، وبأي ذوق ورهافة حس كسيت بالصقيع المسالك الخشبية، انها أشبه ما تكون بشيء مصاغ من الفضة! واكتسب الوحل المتجمد شبهاً بحجر البازلت، فالسطح الصقيل بحلة سودا، وكأنه قطعة عملاقة صنعت في مؤسسة «الأحجار الكريمة الروسية». وكل شجيرة شابهت بحلتها الجليدية الثريا الجميلة المدلاة من سقف المطعم الفاخر في مركز

المحافظة. اما النتوءات الصغيرة التي كانت تنشز منها الشعيرات الكثة الشعثاء فها قد أصبحت بقدرة قادر وكأنها من فراء القاقم النفيس! وتحول كل عود من عيدان الأسل الى خيط زجاجي في هذا الطراز القشيب، وكل هذا على خلفية من سماء لازوردية زرقتها لا أصفى منها.

ما أجمل وما أبهى ما تبدو عليه الطبيعة في هذه البرهة من الزمن. ولكن البناة الذين لم يحسوا بتمام الثقة ازاءها عمدوا الى نثر الرمل فوق المسالك المؤدية الى المكائن والى نقطة القيادة، ولأجل الضمانة التامة رفعوا راية حمراء صغيرة في مقدمة المعبر المائي.

ومع ان الأمر جرى في الهواء الطلق فان الناس تحدثوا بصوت خفيض وكانوا مرتدين خفيف الثياب وكأنهم في قاعة مغلقة، بعضهم حتى بلا غطاء الرأس.

لقد تم كل شيء بتوتر احتفالي.

نشر بافل غفريلوفتش الورقة المطوية التي رسمت عليها الخارطة التخطيطية لعملية سحب المعبر المائي محققا للمرة الأخيرة تطابق الرسم مع المصنوع في الطبيعة، ولم يستطع بأية حال تركيز الذهن على المؤشر فوق الورقة. اذ لم يكن ليشغل باله التفكير في مدى مطابقة المرسوم على الورق للواقع الفعلي، فقد كان كل شيء هنا صحيحاً، وما أقلقه أمر آخر، هو: ألم يحدث في ظرف الأربع والعشرين ساعة الأخيرة ما قد يسبب الاختلال في الشعور الذاتي لدى الأشخاص الذين تتوقف عليهم نتيجة العملية؟ ربما كان لازما استدعاء لوبانين الى ناحية ولدى التحدث معه عن أمر ما خارج الموضوع تحديد النظر في عينيه للعلم أليس فيهما ذلك القنوط الذي يكون لدى شخص هجرته فتاته المحبوبة. وماذا لو كان شباكوفسكي قد اعترف له فجأة بانه كتب رسالة الى بودغورنايا وقال انها أعطت موافقتها؟ اذن هي الكارثة عندئذ، فليس من الجائز اليوم الاعتماد على لوبانين في ادارة الماكنة. اذ انه حام الآن حول كايا وكان بوسعها التحدث اليه عن الرسالة بما هو معروف عنها من الاستقامة والصراحة. ام ان الأفضل الاستفسار عن ذلك من بودغورنايا؟ ولكن، بعد حديث الأمس، لم يعد مناسباً تناول مثل

هذه المواضيع. بينما كان لا بد لبالويف كما فهم واجبه في الوظيفة من استيضاح هذا الأمر بغية تفادي الخطر وان كان ذلك قد فات أوانه على الأرجح...

وكان ينبغي كذلك التحدث مع فافيلوف، الذي قرر البقاء في المشروع، وهذا مبهج. ولكن ماذا لو كان لوبانين أثناء البروفات قد أساء بشيء ما الى كرامة هذا الميكانيكي المحنك فهو مستاء الآن؟ والانسان المستاء يفقد روح المبادرة ولن تكون لديه الرغبة في الايحاء بأي شيء أثناء العمل الى لوبانين حين يكون ذاك في حاجة الى النصيحة.

تناول بافل غفريلوفتش المنظار وسدده في البداية صوب لوبانين: «كلا، يبدو ان كل شيء على ما يرام». وجهه عنيف وحازم وذهنه حاضر وخلف شريط القبعة يتلاعب غصين لعله أراد به اظهار البراعة والفتوة.

لو ان الانسان كان قد نزل به مصاب فادح أو حل في ساحته خبر محزن أكان يزين نفسه على هذا النحو؟ بالطبع لا. وتحول بافل غفريلوفتش متنفسا الصعداء يتطلع هذه المرة بالمنظار الى فافيلوف. انه يجلس مسترخياً ومعتداً، وشفتاه ممطوطتان، صحيح انهما ممطوطتان. ولو كان مستاءاً من أحد أو شيء اذن لضغطهما. وهو دوما يضغط شفتيه عندما يكون غير راض عن شيء ما. ومعنى هذا ان الأمور هنا أيضاً على ما ينبغي.

وها هو ميخوف. ماذا لو كان قد تسلم مرة أخرى من البيت رسالة شريرة مهينة فهو يشعر الآن بالمذلة والهوان؟ ولكن بأية وسيلة يمكن بعث همته وانعاشه؟ وكيف؟

تطلع بالويف طويلا عبر المنظار الى وجه ميخوف. ولكن ميخوف قد اعتاد على شقائه ومن الصعب استكناه شيء من سحنته. كلا، لا يمكن قراءة ما في نفسه من سيمائه. ثم أين يمكن العثور على ما يمكن به تطييب خاطر انسان ركبه الحزن واحياء الأمل في فؤاده؟ ودون تحويل المنظار عن ناظريه فكر بافل غفريلوفتش ناقما على نفسه انه كان ينبغي عليه الذهاب الى ميخوف في البيت والبحث بحذر واحتراس، لا كما فعل في المرة الاخيرة بانفعالات حارة، عن امكانات لتهيئة التوازن في الحياة لهذا الرجل الذي هو

كبير القيمة في المشروع غير الجذاب في الظاهر بيد انه يتمتع بموهبة رائعة في فهم الماكنة ويعاملها بمنتهى الرقة، فترد الماكنة الفضل عليه عن طريق الخدمة وفيها الانصياع الطيع. وظل بالويف يراقب بتوتر ضاغطاً عدستي المنظار حد الشعور بالألم في المقلتين ليتعرف على تعابير وجه ميخوف، محاولا اكتشاف ما يعتمل حالياً في نفسه.

ميخوف قصير القامة، أصفر الشعر، بعينين حزينتين، ينوء تحت عبء مصابه. لم يعقد أواصر المودة والصداقة مع أحد من سواق الرافعات. وكان قد عرف تيريخوفا منذ محاربتهما في جبهة القتال. وكان سائق سيارة ذات صهريج للبنزين في تلك الوحدة من القوة الجوية التي خدمت فيها. وهنا في مشروع العمل الانشائي دخل عليها في مختبرها النقال جالباً لها الملبس من «الاثمار في السكر»، قال وهو يبتسم في استحياء:

– ها قد جئت لأستعيد الذكريات عن الوقت الذي كنا نؤدي فيه الخدمة العسكرية سوية.

وضعت اولغا دميتريفنا ابريق الشاي على السخانة الكهربائية. وتحدث ميخوف اليها جالساً على طبلة المقعد وهو يحك ركبته براحة كفه:

– عندي بنت رائعة جداً. أقدم اليها في الاجازة وفي كل مرة تقدم لي مفاجأة. ما أسرع ما تتحول الى انسان بشكل تام. – واستل من جيبه رزمة من الصور الفوتوغرافية داخل مظروف لدائني شفاف وصفها. – انظري اليها في شتى أطوارها وأحوالها. – وأفاد بفخر واعتزاز: – هي نسخة طبق الأصل من أبيها.

نظرت اولغا دميتريفنا الى الصور، اما ميخوف فقال بطيبة نفس غير شاعر بمدى الحزن الذي يسببه للغير:

– الانسان بدون ذرية كصفر على الشمال. ما الذي يحملني على القلق عليها اساساً؟ تمني عدم نشوب الحرب. والحرب اذا نشبت فمن تصيب أولا؟ الأطفال... أنا انسان هادئ. مرة واحدة في جبهة القتال حاربت كما ينبغي. أحرق الألمان السيارة ذات صهريج البنزين أثناء غارة جوية على المطار. ومفهوم اني لم أنفلت من السيارة بل ضغطت على الغاز حتى الآخر منطلقاً

بالسيارة في أقصى سرعتها بعيداً عن الطائرات. فقذفني انفجار الصهريج فطرت ملتهبا بالنيران. ولحسن حظي كان بالجوار حفرة مملوءة بالماء فزحفت اليها بجهد جهيد وألقيت نفسي في الماء والوحل وأطفأت النار الملتهبة في كل جسمي وبقيت حياً والا كنت قد احترقت الى النهاية. - وقال موضحاً: - لماذا أقول هذا. لو وقع الآن ذلك... فانني من أجل ابنتي قد أصبح فظيعاً لا أحتمل.

- لن تقع الحرب.

- ذلك ما أعتقده كذلك، - قال ميخوف موافقاً. - في هذه الحالة أظن ان ابنتي سوف تدرك وتعيش في عهد الشيوعية. وهذا يطيب لي وأنا أشعر بالابتهاج لها حين أفكر في هذا.

- ولماذا لم تشتغل في المصنع لتكون قريباً من الأسرة؟ أفلست تحس بالشوق قوياً وأنت بعيد عن ابنتك؟

وفكر ميخوف ملياً ثم أوضح:

- انني رجل قصير القامة، ولكن زوجتي ضخمة فأنا أصل الى كتفيها فقط. اما ابنتي فهي تعتبرني أعلى من أمها فلماذا؟ لانني أقص عليها متحدثاً كيف ننصب خط أنابيب نقل الغاز واهمية هذا للوطن. وهي لهذا تقدمني على الكل وترفعني فوق الجميع. وذكرت ذلك حتى في موضوع الانشاء بالمدرسة. وهكذا كتبت: «أبي سائق ماكنة في مشروع تشييد أنبوب الغاز». - وتلفظ بلهجة حالمة: - بعد التخرج بهدوء من المدرسة المسائية سوف انتسب الى المعهد التكنيكي وأصبح رئيساً للمجموعة الميكانيكية. وأطلب من زوجتي الابنة. ولسوف أعيش كما أشاء. وذلك هو اذن أفق مستقبلي..

والآن جالساً فوق مقعد القيادة للرافعة - ناصبة الأنابيب وبعد الانتهاء من اتخاذ الوضع المناسب أمام المراسل المصور رجا ميخوف منحنياً الى حد جعله يكاد يتدلى من الماكنة ويقع:

- أيها الرفيق أرجوك أن تطبع لي صورة فوتوغرافية على حدة أرسلها الى ابنتي.

- سوف أرسل اليك نسختين من عدد الجريدة.

- في الجريدة سأظهر ضئيلا بينما ينبغي أن اكون مهيب الطلعة.

استمع فيودور فليبوفتش فافيلوف الى المراسل وقال غاضباً:

– ما معنى «عامل قديم» دعك من هذا. الآليات التكنيكية يتقادم عهدها هذا صحيح. واذا كنت أعتليها ولست محالا على التقاعد شأن البعض فمعنى ذلك انتفاء الداعي الى تضليل القراء بالتحدث عن كبر سني.

أسر مظهر لوبانين الخارجي ألباب مصوري النشرة الأخبارية السينمائية. ولكن لوبانين أوضح لهم قائلا:

– اسمعوا يا فتيان تحت يدي أداة ثقيلة ولو صدمتكم بها لكان ذلك سيىء الوقع عليكم!

– اسمك وارد في قائمة الطليعيين وينبغي عليك السماح بتصويرك.

– ولكنني أوضحت لكم، – قال لوبانين متوسلا، – نسحب المعبر المائي أولا وبعد ذلك نمثل لكم كل شيء كالمسرحية على هواكم. اما الآن فليس بوسعي ذلك وهذا وجهي كما ترون متجهم بالشر. يجب علينا أن نشاهد الاشارات وانتم تتجمهرون وتحجبون النظر.

وجمع لوبانين سواق المكائن في ناحية وقال لهم:

– ليس عندي ما أقوله لكم. كل ما في الأمر هو الرغبة في الاختلاء ببعضنا والقاء نظرة.

برق الهواء الذي جففه برد الصقيع. وبدا النهر العظيم ضيقاً محصوراً بشدة بين ضفافه المقيدة بأغلال القشرة الجليدية. وتأرجحت وسط النهر مترنحة فوق الأمواج الطوافة المسطحة وقد مررت عبرها أمراس فولاذية خففت من ثقلها بخاصيتها السباحية.

وعلى الجانب المقابل من الخندق تقف مصفوفة أمام بعضها البعض البلدوزرات ودروعها المنتهية بشفرات مرفوعة عالياً لامعة بفولاذها ذي اللون الأغبش. و من البلدوزرات تمتد الامراس المربوطة الى المعبر المائي متوترة.

مقابل كل بلدوزر رافعة – ناصبة للأنابيب مربوطة أيضاً بالأمراس الى المعبر المائي.

ست مكائن، كل ثلاث منها على جانب، يجب أن تبدأ في آن

واحد بجر الأنبوب العملاق حين تسحب الأمراس المشدودة عبر الحلقات الجانبية في مقدمة المعبر المائي من قبل ست جرارات الى ذلك الجانب من النهر.

وهناك عميقاً في الأرض ثبتت حزمة من جذوع الأشجار بشكل ما عليه وشدت اليها الأقسام الثقيلة الضخمة الراسخة حالياً بقوة على الأرض مربوطة اليها أمراس شدت الى داخلها عبر الثقوب المخروقة فيها. وقد ربط اليها بشكل ملضوم قطار الجرارات. وقد رسم لكل جرار بأعلام صغيرة خط المسار لحركته.

سوف يزحف المعبر المائي مسحوباً على قعر الخندق تحت الماء، الذي انتهى الغطاسون لتوهم من فحص مجراه مرة أخرى.

يشرف الغواصون على كافة الأعمال المتصلة بربط وضبط الحبال فوق الأرض ويتولونها بالتوجيه والتعديل. وقد أعدوا الجداول الخرائطية والحسابية بدقة هندسية. وقال سيفولوبوف عن الغواصين بلهجة الرضا:

– انهم فتيان لهم رؤوس يحسنون التفكير بها! وكان بامكانهم العمل في سلك الطيران فهذا يفتقدهم كعاملين صالحين فيه. وبقدراتهم التنفسية يصلحون للتوصية بهم للعمل في الملاحة الفضائية بين الكواكب.

وغضب بوبنوف فقال:

– في الاقيانوس أعماق مناسبة ويمكن أيضاً ايجاد مجالات لنا هناك للغوص اليها.

وربط بيديه الضخمتين الأمراس الفولاذية في عقدة وكأنها حبال من القنب. وقال سائق الجرارات الشاب كوليا زينوشكين في حسد:

– كان يمكن أن تصبح بطل العالم في المصارعة أو رفع الأثقال.

وقال بوبنوف مدنفشا عينيه:

– ولكني بطل العالم بالفعل! أنزلنا بتكنيك غير كاف الى قاع المحيط ابان الحرب معبراً مائياً وضربنا في ذلك رقماً قياسياً عالمياً، ولكنه لم يثبت في أي سجل رسمي. والآن كل بغاث تعطي له شخصيا ماكنة أو مجموعة آلية باسمه اما نحن فقد دحرجنا

الأنابيب بالايدي على مدارج من الخشب... وأنت جلبت صفيحة زيت التشحيم من رصيف المرسى على الجرار وكان ينبغي أن تحملها بنفسك ولا تبذر في استخدام موارد التكنيك! وبعد هذا تعمد أيضاً الى الدخول معي في نقاش...

ولام سيفولوبوف ويلمان على كونه اقتصد بخلا في صبغ الاقسام.

— ما معنى قولك ان الاوان لم يئن؟ اللون الشاحب الداكن يبلد الاحساس فكان ينبغي صبغها باللون القرمزي لامتاع العين في تلك الضفة.

وأيد فكتور زايتسيف فكرة سيفولوبوف بقوله:

— قرأت كتابا لمؤلف أجنبي تحدث عن كيفية تأثير اللون على نفسية الناس. فاللون الأحمر مثلا يثير شعور الرضا واللطف وانفتاح النفس أما الأزرق فانه يولد الانطباع بانفساح المجال رحيباً راحة للنفس، والأخضر يهدىء الخاطر والبنفسجي يوحي بشعور الكرامة الوافرة والمكانة المكينة. وللمستشفيات يوصى بصبغ الجدران بلون يبعث النشاط ويحفز الهمة وهو لون الخوخ الدراقي.

— من أين عرف هو هذا كله؟

— لقد درسه مطبقاً على دود الأرض. غطى الصندوق الحاوي على التراب بزجاجات مختلفة الألوان وشاهد أي الألوان تفضل.

وقال ويلمان مبتهجاً:

— هذا هو الأمر، — وخاطب سيفولوبوف، — أسمعت؟ وأنت أيضاً تفكر كالدود. هو أيضاً يعجبه اللون الأحمر. أما أنا فأعطيه لتكسية الأشياء السابحة تحت سطح الماء لا طلباً للجمال وانما لادامة واطالة مدة الاستخدام.

— كلا انما أنت شحيح بخيل وبدون الرئاسة لا يمكن استلال أي شيء من يديك.

— وما شأن الرئاسة وما تأثيرها علي؟ — تساءل ويلمان مستاءاً. ثم أعلن بصوت حازم: — انني أتصرف بأمر من مشاعري. ان المشرف الاقتصادي هو شخص لا تأخذه رأفة بالمبذرين فهو ليس حورية طيبة بالمرة. — ثم قال محذراً الغطاسين: — اياكم أن

تتركوا أي شيء من الأحجار والحدائد على الطريق الذي يمر به خط الأنابيب. فاذا قطعتم ولو عرقاً واحداً للأمراس فلسوف أسلن عروقكم. أعطيتكم شيئاً جديداً وها قد لطختموه كله بالأوحال، فعليكم ارجاعه فيما بعد عقب غسله في ماء النهر، وتسليمه نظيفاً مزيتاً. واياكم ان تلفوه بدوني، سأتحقق شخصياً من الأمر.

وقال سيفولوبوف مهدئاً الغواصين:

– في جبهة القتال أيضاً استاء منه الناس لانه لم يدعهم يحاربون بهدوء بال بل طالبهم بارجاع الخراطيش الفارغة وكان يعدها في حساب مضبوط واحداً فواحداً. وذات مرة قرر عزمه على التبذير حين تهيأ أن ينسف نفسه سوية مع جميع الذخيرة والاعتدة لأنه لم يشأ ان يتركها سالمة كهدية الى الألمان، فيا له من بخيل...

وسمع ويلمان هذا عن نفسه بارتياح ولكنه استفسر بارتياب:

– أما انتويت بالصدفة طلب شيء ما أثناء هذا الحديث؟

– انتويت، – قال سيفولوبوف برحابة صدر.

ولوح ويلمان نحوه بكفه قائلا:

– أدري عم تحلم به؟ زيت التوربينات؟

– عشرة أو فلتكن خمسة كيلوغرامات! – ردد سيفولوبوف بحسرة وشكوى وتوجه نحو ويلمان بالقارب.

٣٢

درس فيرسوف للمرة الأخيرة سوية مع بالويف كل خط تمرير المعبر المائي.

كانت الآليات التكنيكية واقفة في محلاتها اللازمة. وكان الناس قد أرهقهم الانتظار.

وحين نظر بالويف على سبيل التجربة بالمنظار نحو لوبانين خطر على باله الظن بانه يعرف عن هذا العامل كل ما هو رئيسي. ولكن لا يتسنى لاي رئيس مهما كان نافذ الفكر محنكاً معرفة كل شيء عن كل انسان.

وكما يشعر الأطفال أحياناً برغبة خفية في علك الطباشير

والفحم والكلس فكذلك غريغوري لوبانين أيضاً حدته رغبة خاصة نحو الأصباغ. انه لم يكن يستطيع ولا يرغب في تعلم الرسم، ولكنه أحس من اللون بمتعة خاصة. كان يحتفظ في الكيس المشمع للأدوات، بمثابة الحقيبة، أصباغ الألوان الزيتية في أوعية رصاصية. وكان يشتريها مدققاً في حانوت السلع الثقافية معتبراً ان من اللازم الادعاء أمام البائع:

– كلفت بشرائها لأجل هواة الرسم.

وذهب لوبانين متأبطا هذا الكيس المشمع الى الغابة وجلس على جذع شجرة هوت، ووضع على ركبته لوحة من الخشب المعاكس وبدأ يطليها بالأصبغة متنصتاً ومتحفزاً لكل نأمة وحسحسة لئلا يراه أحد عاكفاً على هذا العمل غير اللائق. وقد شمله قلق غير عادي وانفعال غامر حين ظهر فجأة على اللوحة الملطخة بالألوان، بين الوسخ متعدد الألوان للطخات العصبية، تشابه مبهم مع شجرة أثمار بأوراقها السود التي أذبلها البرد وبعناقيد ثمارها الحمراء المرجانية الساطعة ذات اللون الحاد الذي يعشي العيون حد الشعور بالألم على خلفية السماء المشعة. وقد أثر في نفسه هذا التشابه ولو انه مقصور على اللون فانه لم يكن حتى ليحلم ببلوغ ما هو أكثر من ذلك.

كان بوسعه الجلوس هكذا وقتاً طويلا الى ما لا نهاية والنظر وكأنه مسحور الى هذا التشابه اللوني المفاجىء الذي أدهشه وخلب لبه كالمعجزة. ثم كشط بدقة الأصباغ من لوحة الخشب المعاكس ومسحها بالعشب اليابس ووضعها مرة أخرى في الكيس. وتملكه بغتة اعياء غريب من التعب فأخذ قسطه من الراحة بالاضطجاع في موضع جاف ودخن سيجارة، مغمض العينين، ولم يفكر في أي شيء.

قد يقلق هذا الفتى موضوع الموهبة؟ ولو جرى تعليمه لأضحى لوبانين رساماً شهيراً؟ ليس هذا مستبعداً جداً. اذن فانه بسبب عدم التبصر والسذاجة، وحتى بعض الجهالة، لم يخطر له على بال ما الذي يمكن ان تعود به على الانسان موهبته في الفن؟ ولكن هذا غير صحيح! ولقد ذهب من مشروع البناء حتى الآن اثنان من الفتيان مودعين أحدهما الى معهد التمثيل وقد أسهم بشكل رائع في

تمثيليات الهواة، والثاني الى المدرسة الموسيقية فقد ظهر انه من أصحاب الأصوات الجميلة. كان لوبانين يعلم: ما ان يعترف بميله الى فن الرسم حتى يبدأ الهرج والمرج، وعلى اثر ذلك سوف يجلسه بالويف عند مطلع الفجر في السيارة لتنقله الى مركز المحافظة وفي الصباح يبدأ يتلفن من الفندق الى لجنة المدينة ولجنة المحافظة وبقلق وكأنما لوبانين مصاب بمرض خطير ينبغي العمل على معالجته وشفائه على الفور على يدي أفضل أخصائي، وسوف يطالب بقوله: «من هو هنا عندكم أكثر الجميع فهماً في موضوع فن الرسم؟ فان أفضل سائق للرافعة – ناصبة الانابيب عندنا... يرسم لوحات كما اكتشفنا، ونحن لو تعلمون نشعر ببالغ القلق، فماذا لو كان فجأة صاحب موهبة كبرى...» هكذا على أقل تقدير قد تصرف بالويف مع الشابين المذكورين.

ولكن لوبانين كان يستمتع حسب بالألوان والأصباغ. وهو لا يريد بتاتاً أن يغدو رساماً. وكان يدرك وفق الروح العملية لدى الانسان العامل ان الفن كما هو الشأن فى كل قضية جدية من قضايا الانسان الجدية يقوم على أساس الجهد. وهو يحب مهنته كسائق للرافعة – ناصبة الأنابيب، ويعتبر التشييد والبناء أهم عمل حالياً وأهم قضية في العالم. ولهذا هو يخفي بهذا الحرص وهذه الدقة ولعه بالرسم لئلا يكتشف ذلك من الرئاسة وأسرة العمل ثم حمله وارغامه على بدء طريق مغاير في الحياة.

لو أن فكتور زايتسيف أو كابا بودغورنايا حزرا ولع لوبانين باستخدام الريشة لبلغا في مساعيهما الى مستوى اللجنة المركزية لمنظمة الكومسمول وتوصلا الى تحقيق مرادهما. وكان غريغوري لوبانين سائق الماكنة الأشهر على مستوى سائر الخط سيتحول الى تلميذ عادي في مدرسة الفنون. وقد أدرك هذا كله حق الادراك وكان مضطراً أن يستر موهبته عن الناس اذ يتحسس هذه الاعباء الثقال عليه، والجوانب التي تبدو له غير مريحة من مزايا الاشتراكية التي تعتبر الفن عائداً الى الشعب وتلزم الموهوب بتسخير موهبته في خدمة المجتمع. لقد أراد أن يبقى سائق الماكنة الأفضل الذي كأنه بالفعل. ولكن غريغوري أحس دوما وفي كل مكان بمتعة اللذة من تذوق جمال الألوان.

والآن أيضاً حين وقف لوبانين وسط الآخرين من سواق المكائن المستغرقين في آخر موجة من التفكير قبيل اجراء العملية الخاصة بسحب المعبر المائي مفكرين في من وما لايزال مقصرا لهذه العملية ذات الاهمية القصوى تطلع من علو قامته الطويلة ورنا الى ساحة العمل وقد خالجه القلق، الا ان ذلك لم يكن لأنه قلق على حصيلة العملية ونتيجتها وانما لأن ما يراه حالياً ويشاهده بعينيه بدا له على جمال وبهاء فوق المعتاد.

وقام برد الصقيع بتجفيف الهواء وتنقيته حد الشفافية. وقد لمع وترقرق مترجرجاً من الاشعاع الضوئي المقابل للتجمد الجليدي وصفحة ماء النهر الصقيلة المشربة بالزرقة. وارتفعت الغيوم ذات اللون الأخضر الأربد فوق القواطع البيض من هامات الربى خلف حرش الصنوبر.

وكانت المخاضة مرشوشة بنديف الثلج جديداً وطريا ومكحولة برتوش كالرموش من يراع القصب والأسل وما يخلفه من أرق الظلال.

الخندق مفتوح. كتل الطين صفراء فاقع لونها. النثارات الرملية الجافة محشوة بالقطع الصغيرة جداً من حجر الكوارتز مشعشعة بزرقة خفيفة، فتلألأ رونقها للعين وكأنها ملضومة في تناسق بخيط زجاجي رفيع.

وأعشت العيون حد العمى تلك الغييمات المتوزعة على ندرة، شعثاء منثورة عند الحافة السفلى من قبة السماء بشعاع بريقها الحاد الثاقب ورداء بياضها الناصع الذي يسقط منسدلا على الثلج فيكتسب التلاوين البنفسجية، أرضية ثقيلة الوطأة والوقع. وترامت مستلقية على الجرف المنحدر لشاطئ النهر نهاية المعبر المائي غير الملفوفة بالبطانة الخشبية والمطلية بقطران الزفت، لامعة كأنها عمود مقدود من الرخام الأسود. وكان في المقدمة المدببة لأنف المعبر المائي المسدد شيء ما أشبه ما يكون برؤوس الصواريخ. وقد أحرق الأبصار اللون الساطع في حبور للراية الصغيرة الحمراء المركوزة بصاريتها على الرقعة الملحومة بين ثغرتين كالمنخرين في أنف المقدمة. وكان الصلب المزرق المبروم للأمراس المشدودة من الأنبوب مرقطة بقطرات كالندى معصورة من

الأمراس لشدة جرها. وهذه القطرات كالحبيبات الصغرى من نديف الثلج تشعشع بألوان شتى كقوس قزح، وبدا كأنها تهمس بفزع حين كانت تسقط الى الأرض.

نظر لوبانين الى كل هذا كالمفتون واكتسب محياه المتصلب دوما في قساوة تعبير الاعجاب الطفولي.

ورنا ميخوف الى زميله «الأقدم» وقال بقلق:

– انني أعرف ما تفكر فيه الآن يا غريغوري. انك تظن ان ميخوف الذي غبنته الحياة قد يعتريه الضعف في لحظة ما بفكرة حول ذاته فيحدث منه أخلال ما بنهج مسارنا. – وتلفظ بلهجة تنعش الآمال: – يتراءى أمام ناظري دوما في أمثال هذه اللحظات وجه شخص واحد الا: هو ابنتي. – وقال معترفاً: – انني من أجلها أريد أن أغدو رئيساً لرتل الميكانيكيين. وعملية السحب لهذا اليوم بالنسبة لي درجة في سلم الترقي... وقد وعدني بالويف بأن يساعد في أمر ترقيتي. مفهوم؟

واستفسر فافيلوف من لوبانين:

– هل شاهدت لوحة الرسم الشهيرة المسماة «العمالقة الابطال الثلاثة»؟ اننا الآن مثلهم. لاتكن فريسة للغم والقلق. لم تكن سدى تدريباتنا الكثيرة. سيجري كل شيء وفق الجدول. – ثم قال مستغرقاً في التأمل: – هذا هو المعبر المائي الأربعون في حساب خدمتي دون حسبان الصغيرة عبر النهيرات التي لم تكن لها حتى أسماء تعرف بها...

وجاء أناس كثيرون من قرى الضواحي والبلدات العمالية ومن المؤسسات الكيمياوية بعد سماعهم، ومعرفتهم بطرق مجهولة، عن اجراء العملية الخاصة بسحب المعبر المائي. بعضهم ركبوا سيارات التاكسي، وامتطى آخرون صهوات الدراجات النارية متكاثرين عليها وكأنهم كانوا يعرضون النمرة المعروفة في منهاج برامج السيرك باسم «الهرم فوق الدراجة النارية». وقام القاطنون على مبعدة أربعين الى خمسين كيلومترا في توحل الطرق الفظيع

بالسياحة اليهم منذ يوم أمس حاملين معهم ما يسدون به رمقهم من الطعام.

وتجمهر هؤلاء الناس منتشرين على منحدر الجرف المرتفع والمتدرج وكأنهم على مدرج مسرح قديم.

وأنا أتذكر كيف اندهشنا وشعرنا بالاعجاب نحن معشر المواطنين السوفييت حين شاهدنا في ولاية مدراس بالهند عرض المسرح الشعبي حيث استغل سفح جبل ليكون بمثابة المدرج لقاعة المسرح لجلوس جمهور المتفرجين الذين تجمعوا هنا قبل بداية العرض بوقت طويل.

النخيل، السماء الزرقاء المشتعلة حداً تكاد لا تحتملها العين، وأجساد الناس بنية اللون، وجلودهم الباهتة الحرش والهزال بسبب نقص الطعام، وعيونهم السوداء اللامعة بالبريق وهي عيون بشرية طافحة بعمق الحكمة ونبل المحتد تحف بها وجوه معروقة ناتئة العظام. سار الفلاحون الهنود بغية مشاهدة العرض التمثيلي قاطعين الأحراش حاملين أطفالهم في سلال معلقة على أعواد القصب فوق الأكتاف. ساروا في الليالي جالبين الدفء للأطفال بوضع اصص من الصلصال في السلال وحشوها بالجمر وتناولوا في الطريق طعاماً عسالج وجذور قصب البامبوك.

والممثلون في فرقة هذا المسرح الشعبي شأنهم شأن أفراد جمهورهم من الفلاحين الهنود حفاة الأقدام سود البشرة، يقطعون مئات الأميال مشياً على الأقدام منتقلين من موضع الى آخر لتقديم العرض، حاملين سلالا فيها الطعام النزر، والصرر الحاوية على الملابس والأزياء المسرحية المطرزة بالقطع اللماعة المتلألئة. قيل لنا ان توافد ما يقرب من مائة الف متفرج الى العرض هذا اليوم مرده الى سماع الفلاحين بانه سيحضر لمشاهدته أيضاً وفد من المواطنين السوفييت.

وألبسونا كالقلائد في الأعناق أكاليل تفوح منها نكهة عطرة لزجة تثمل الرأس من أزهار التوبير وأخذوا بأيدينا الى سفح الجبل وقد أصبح جبلا حياً من البشر الذين اعترشوه، تشمخ ذروته شاهقة نحو السماء الملتهبة التي كأنها تستشيط غضبا فتقذف بشواظ من نار في زرقة متألقة تشق عنانها الأكاليل المشتتة والمجمعة في

أعلاها من تيجان نخيل جوز الهند وهي سعوف خضر كريش نعام أخضر اللون ان وجد، تشبه الاكليل الذي يتوج العمود الاسطواني المزخرف من أعلاه بنقوش نباتية. وقفنا مبهورين عند سفح هذا الجبل البشري يغمرنا كالبحر العارم المتلاطم بالأمواج من حب شعب لشعب.

حين بدأ العرض التمثيلي غنت أوتار القيثارة الهندية المسماة بالسيتار أشبه بأصوات نسائية، فيما دوت تحت ضربات الأصابع القوية بقرقعة وايقاع منغم قطع الجلد المشدودة حد التوتر على الطبول، وصدحت كزقزقة العصافير مزامير القصب بنشيد الخلود للفن البشري المولود من ألوف السنين متغنياً بتجسيد حلم البشر ومجد العمل والمثل الأعلى للعدل الشامل والانصاف الكامل.

وبالطبع فان المواطنين السوفييت النازلين عند سفح المرتفع الملفع بكسوة من الجليد قد هيئت لهم كثرة من الفرص للتمتع ثقافياً بأوقات الفراغ. تباع الآن في مراكز التصنيع الفتية تذاكر الدخول الى دور السينما و المسارح والسيرك وصالات الحفلات الموسيقية الغنائية والفنية أيضاً في مخازن بيع المواد الغذائية وحتى في أكشاك شرب المياه المعدنية. فيما تهيأ لنقل الراغبين الى مواضع العرض باصات وشاحنات معدة خصيصاً لهذا الغرض، شد عليها قماش مشمع سقفاً حامياً. كل شيء في خدمتكم فتفضلوا، أهلا وسهلا!

ولكن لسبب غير مفهوم لا يتخذ عندنا الموقف اللازم كما ينبغي ازاء نوع عظيم من العرض الفني بالنسبة الى أعرق وأقدم الفنون عند البشر وهو فن العمل بينما الانسان عندنا هو الخبير الهاوي الأكثر انتشاراً بين الجميع و المقدر حق القدر وبكل دقة لقيمة العمل. لقد نشأت بمرور الوف السنين لديه هذه السمة الخصوصية في التمتع بجمال الشيء البديع المصنوع بجودة ومهارة. ليس متاحاً للجميع بالطبع التعرف بالنظر واللمس على الطريقة التي صنعت بها كواكبنا الاصطناعية، ولكن أليست هي التي تمثل عبقرية الشعب الفنية وحلمه الجريئ مجسداً في جرم فضائي صناعي على هذه الدرجة من الكمال والبداعة المدهشة بحيث تجلى فيه التعبير عن اندماج الحلم بالموهبة الجبارة ليد الانسان.

لم يشرف أحد على تنظيم حضور الراغبين في التفرج على مشهد سحب المعبر المائي، ولم تقدم لهم أية مساعدة لا من حيث المواصلات وتوفير وسائط النقليات ولا التزويد بالكراريس أو المطبوعات التي توضح جوهر العملية. فقد كان تجمعهم تجمهراً عادياً عفوياً بالمرة.

وبالطبع فان وجود مثل هذا الجمع الغفير من الأشخاص الغرباء في موقع العمل قد أنعش نفوس العاملين من جهة، ولكنه من جهة أخرى، شأن أيه جمهرة غير منظمة، بعث الخشية من احتمال حدوث عرقلة في العمل بهذا السبب.

أمر بالويف بان تقدم الى أوقر هؤلاء المشاهدين وبالدرجة الرئيسية أصحاب الاسر لوحات خشبية لئلا يضطروا الى الجلوس على الأرض المتجمدة مباشرة. وقدمت الى أولئك الذين قدموا وصدورهم مزدانة بالأوسمة والنياشين براميل الوقود الفارغة للجلوس عليها. وجلبت المصطبات من المطعم العمالي لجلوس المسنين والمعوقين جراء الحرب. بيد أن بالويف اذ قام بهذا العمل الدال على التلطف في المجاملة طلب بمنتهى الحزم امتناع هؤلاء جميعا دون أي استثناء عن التجرؤ على الدنو الى موقع العمل لئلا ترض أمراس والى حواف الخندق والتطلع فيه خشية حصول انهيارات في التربة الرخوة.

شملت نفس بافل غفريلوفتش هزة من التحفز ذي الوقع الطيب. وقد ساعد على هذا كثيراً بالطبع الجمهور والمراسلون والتعبير الاحتفالي المرتسم على وجوه العمال الذين شعروا في حالة توفر مثل هذا الجمع الغفير من الناس كذلك بانهم أشخاص على جانب كبير من الأهمية.

كانت نقطة القيادة حيث يشرف بالويف، فوق نهاية حادة الانحدار للسان رملي ممتد، وكان ممدوداً هنا، فوق منحدر الشاطىء من الفواصل الترابية مرتفعا الى الاعلى كالانف الشامخ الأقنى، رأس الأنبوب وهو مخروطي الشكل وقد تدلت منه الى النهر الأمراس الفولاذية. وشخصت في وسط النهر الطوافة المسطحة العائمة التي كانت تخفف ثقل المرس. وتراءى الشاطىء المقابل من خلال البعد الشفاف الملفع بالضباب.

ومر فيرسوف للمرة الأخيرة متفحصاً بمحاذاة مجرى القناة البالغ طوله كيلومترين. واستقر الأنبوب في كل مكان عائماً والبراميل الحديدية الفارغة من الطوافات تشير الى المجرى وكأنها الخط المنقط.

٣٣

اصطفت الرافعات – ناصبات الأنابيب على الجانب الأيمن من الخندق، واصطفت البلدوزرات على الجانب الأيسر، مقابل كل رافعة بلدوزران. وأخذت الأمراس المشدودة بتوتر تحز في شاطئ الخندق وهي مربوطة الى المعبر المائي.

العمال يرتدون بزز العمل للغطس تحت الماء، وهي بلون الضفادع، غاطسين حتى الصدور في الماء، فاحصين ربطات الأمراس في قاع الخندق. كان الماء بارداً ساقعاً والصفحات الجليدية المستوية طافية على سطحه. فاحمرت أيدي العمال العارية وكأنها مسموطة في الماء المغلي.

وقد ظنهم أفراد الجمهور من الغطاسين، ولكنهم لم يكونوا اياهم بالمرة. بل كان بعضهم من اللحامين والبعض الآخر من مشغلي مكائن الديزل وهم جميعاً متطوعون ممن يطيب لهم اظهار قدراتهم والكشف عن خبايا امكاناتهم. ولكونهم متطوعين خوضوا في الماء اكثر مما كان ذلك لازما مظهرين أمام المشاهدين على سبيل التباهي وجلب الاعجاب مدى قدرتهم على التحمل.

تطلع شباكوفسكي معتمراً بقبعة، ومرتدياً معطفاً قصيرا، ومتلفعاً بلفاف صوفي منقوش، وكفاه في قفازين جلديين، وهو ينظر بلا رضا الى مارتشنكو الذي يرتدي بدلة الغطس ويغوص في الماء الوحل غير مشفق على يديه حين يعيد عقد ربطة الطوافة التي بدا له انها غير محكمة الربط.

وقفت بجوار شباكوفسكي زينا بنوتشكينا، وقد أرخت من قبعتها خماراً شفيفاً وأسدلته حتى شفتها العليا. لم تلتئم الخدوش في أنفها بعد ولكنها قالت بتفاؤل:

– انه على أية حال ملطوم. ولكني أستره بتأثير رموشي

الطوال حتى اني الآن أخضبها بالكحل لتكون ملحوظة لدى الجميع.
– واستفسرت من شباكوفسكي بتدلل: – ألا تراني الآن يا بوريس شبيهة بأحد؟ – وأوحت اليه هي نفسها بالجواب قائلة: – أصبحت نظرتي الآن كمايبدو لي شبيهة لما للممثلة لوبوف اورلوفا في دورها بفيلم «السيرك».
– بهذا يصيب فاسكا نفسه بمرض الروماتزم ويتلف كفيه. لا يجوز لنا عدم الاعتناء بهما. هلا ناديته ليخرج من الماء. – طلب منها شباكوفسكي.
– ما بقي الا هذا! – قالت زينا. – لم يبق سوى أن أتصرف معه أثناء العمل مستخدمة سلطة الزوجة.
– اذن فقد عقدتما قرانكما؟
– ماذا تقول! – قالت زينا مغضبة. – وهل هذا ممكن قبل سحب المعبر المائي والاحتفال بأعياد الابتهاج؟ لقد قررنا اقامة العرس فيما بعد لكي يجتمع ذلك مع التكريم بانجاز سحب الانابيب. هل تعلم انني أعتبر فاسيا أفضل الجميع قاطبة. وهو الآن يوافق على آرائي بصدد كل شيء.
– وماذا بشأن زايتسيف فلقد سبق لك أن قلت بشأنه نفس الشيء كذلك؟
– ولكني الآن لا أجود عليه حتى بابتسامة عابرة. – ثم أضافت مستدركة: – الا في بعض الأحايين ومن قبيل المجاملة.
– ومن يسكن الآن مع كابيتولينا؟
– انها لم تعد منذ أمد بعيد صديقتي. وقد انتقلت للسكنى معها بزوغلوفا. ومن الشيق لو عرفنا عم تتحدثان مع بعضهما البعض وكلتاهما على هذه الدرجة من الاعتداد بالنفس! – وقالت لشباكوفسكي في وثوق: – لقد نلنا أنا وفاسيا حظنا من السعادة دون جهد. وكان ينبغي على الأقل أن يكون ولوجي في الأنبوب من أجله لا من أجل فكتور. ان فاسيا انسان في غاية النبل، وأنا أحس كيف أصبحت أنا نفسي بتأثيره أفضل مما كنت عليه. سوف أتعلم ادارة الماكنة وسأكون دوما مع فاسيا لا في البيت فحسب وانما أيضاً في العمل. هل تعلم ان الغيرة تؤثر في نفسي أفظع التأثير. لقد قررت ان تكون صديقاتي من النساء غير الجميلات

فقط لكي أبدو بينهن في عين فاسيا أجمل. ليس من الجائز للمرء أن يكون واثقاً بنفسه حد الغفلة.

جاءت كابا بودغورنايا وايزولدا بزوغلوفا الى منطقة سحب المعبر المائي في بزتي العمل و ساعدتا البحارة العاملين في الآلة الجرافة على اطالة الخرطوم المرن بالأنابيب المعدنية بغية ضخ الماء الى الطرف العلوي من الخندق.

... حين عادت بودغورنايا في تلك الليلة التي لا تنسى في الشاحنة أيقظت فوراً ايزولدا وقالت لها بنبرة تراجيدية:

— يجب أن تعرفي فوراً كل شيء عني! ما دمنا صديقتين فلا بد أن تكون كل واحدة منا على معرفة بالأخرى. — وحين عجزت عن مواصلة الحفاظ على النبرة التي بدأت بها أجهشت منخرطة في النحيب وتهاوت على الوسادة وقد دفنت فيها وجهها.

وقامت ايزولدا مضطربة حائرة فزعة بالقاء البطانية على كابا المستبردة المتجمدة ولفتها بها وأسندتها الى صدرها ونفخت برفق وحنو الشعرات المترامية على وجهها وأخذت تقنعها ولكن بلهجة شاكية:

— احذري أرجوك من الاستبراد والا مرضت. لئن أصابك الداء فسأكون في غاية الشقاء. لقد تعذبت طوال الليل بسبب نسيانك أخذ حذائي اللبادي وهما في الركن خلف الباب. لقد أبقيت لك وريقة على المنضدة فيها ملاحظة للتنبيه. ومع ذلك فانك لم تأخذيه فحسبت انك لا تريدين اعتبار أشيائي بمثابة اشيائك، واستأت لذلك كثيراً وتألمت.

و قصت عليها كابا مبهورة الأنفاس، مختنقة بعبراتها في عدم التتابع و اضطراب محاورتها الليلية مع بالويف. وتساءلت قاطعة في قنوط:

— كلا، أتفهمين كم أشعر الآن بالذل والهوان؟ و ماذا يظنه عني وكم يخالجني وخز الضمير و شعور الخجل! لقد تصورته انساناً غير عادي و من الطيبة بحيث انه سيفهم بان كل ما في الأمر هو انني أحلم به بيني و بين نفسي. بينما فكر في اني أفرض

نفسي و ألقيها عبئا عليه . منذ الآن، لسيعتري جسدي كله الارتجاج ما ان تقع أنظاري عليه ، لا من أجله و انما بالطبع من أجل نفسي. كيف استطعت فجأة أن أغدو أمامه على هذه الدرجة من التفاهة!

أمرت ايزولدا يدها بحنو على وجه كابا و قالت لها:

– لم يحدث أي شيء يذكر بتاتاً. مثل هذا يحصل مع أية فتاة. معي مثلا. أنا أيضاً محبة ومعجبة بالرفيق بالويف. وليس بالمرة كما يكون الغرام والهيام برجل محدد وانما لمجرد كونه على هذه الدرجة من رهافة النفس ولطف الحس. وقد صرت أنظر الى تيريخوفا برسمية ماحقة. لماذا؟ لانها تعجب بافل غفريلوفتش. لقد فكرت بما انها تعجبه فانه سيكون نحوي أقل عناية واهتماماً. كان يأتيني أحيانا كالمذنب، ويتزلف سائلا: «ما لك قد انقطعت عن المرور عليّ؟» وأرى من عينيه كأنه يعتذر ويطلب العفو. وصرفت عيني عنه عمداً، فلاحظت انه تأثر. وشعرت بالحرج والأسف عليه حتى لقد هممت بالارتماء عليه معانقة راجية منه المعذرة. ولربما أيضاً بوسعه الظن انني أتعلق به وأرتمي عليه. ولكنه بالنسبة لي مجرد انسان طيب ليس غير. وأنت لديك نفس الاحساس بالضبط. – وواصلت كلامها متحسرة: – فلنفرض انك تعرضت للاساءة أو للظلم من أحد، فانت تعرفين رأساً كيف تردين على ذلك. وهذا بمنتهى البساطة. فانت تكيلين لهم صاعاً أو صاعين من الكلمات التي لا تخلو من الوقاحة و سيظلون الى أمد طويل يتذكرون هذا منك ولا ينسونه! ولكن هذا من أصعب ما يكون مع الانسان الطيب. تنطوين على نفسك مسحوقة تحت وطأة العذاب وتغدين نهبة للانفعال والاضطراب واذا بك تتلفظين بشيء ما لم تفكرين فيه من فورة الانفعال ثم تتقنفذين و تعروك القشعريرة كما هو حالك الآن... وانا أفهم ذلك وحتى أفهمه أفضل مما تفهمينه . ما اكثر الذين يرقون على بلا سبب. أما فيتيا زايتسيف فهو يعجبني فوق الحد. الا انني لن أعترف له بذلك حتى الموت. – وقالت ناصحة: – حاولي على أية حال أن تذكري لبوريس تلميحاً مفهومك عن المثل الأعلى. فلينظر الى بافل غفريلوفتش. أنت نفسك تقولين انه ينبغي على المرء أن يضع دوما أمام نصب

عينيه مثالا يحتذى. واذا أضيفت الى حسن مظهر شباكوفسكي طيبة نفس بالويف لحصل من مجموع ذلك انسان رائع وبوسعي أن أهنئك به من صميم الفؤاد.

هدأت كابا تدريجياً ثم غسلت وجهها وبدلت ملابسها.

ونظراً لان كلتا الفتاتين خلافاً عن زينا بنوتشكينا كانتا من غير ذوي الاهتمام بالتدبير المنزلي فانهما كانتا تأكلان المربى من وعاء حفظه مباشرة وتغمسان لقمة الخبز فيه. وأعلنت كابا التي عادت من جديد تحس بشعور الاعتداد والاستقلال:

– على أية حال سأظل طويلا أعاني من العذاب. ولكن بالويف الآن بالنسبة لي مجرد مخلوق كائن لا شأن لي به. بخصوص أمور الخدمة أفعل له ما ينبغي وما عدا ذلك لن يلقى مني أية عناية.

– هذا هو الصحيح، – وافقت بزوغلوفا. – لا داعي لجعله يظن انه انسان غير عادي...

... حين جرت محاولة ترتيب خرطوم المياه أخذ سيل المياه المتدفق يدفع الأنبوب طيلة الوقت، فبلل الماء الجميع. ودنا بالويف ونظر بامعان ثم قال:

– هيا! – وقف فوق الأنبوب ورفعه قليلا وهزه ثم أدخله بقوة في الخرطوم وقال: – هذا كل شيء. – ونظر برضا وزهو مضيفا: – انه على طريقتنا! – وطبطب على كتف بودغورنايا وقال بصوت جهوري مرتفع لكي يسمع الجميع: – بالنسبة لانسان ولد في عصر العمل اليدوي البعيد هذه قضية تافهة! – وذهب الى نقطة القيادة مزهواً راضياً لانه استطاع بهذه البراعة تبيان ما يقدر عليه أمام الفتيان من فرقة الجرافة...

ان ثقل المعبر المائي ووزنه الهائل وما علق به اضافياً من الأثقال الحديدية المحدبة قد ولدت الشعور وكأن هذه الكتلة الصلدة البالغ طولها كيلومترين داست بوطأتها التربة التي لا تحتمل مثل هذا الثقل، وكأن الأرض نفسها قد انشقت تحتها في أخدود طويل وحزت الحبال التي تجرها المكائن بتوتر حزاً عميقاً في جدران الخندق.

تدلت الأمراس الفولاذية من الفتحات الجانبية للمقدمة متراخية

وغرقت نهاياتها في ماء النهر. وترامت الأمراس زاحفة من الماء على الشاطئ المقابل وملتفة حول التروس الثقال بانعطاف زاويته مائة وثمانون درجة تحولت الى «عقدة» قطار الجرارات الذي كان طريقه على طول المخاضة مفروشاً ببساط من الأغصان والأخشاب مزقته جنازير الجرارات.

ووقف بالويف على مقطع رأس اللسان الرملي وقد خلع وألقى الى الأرض سترته الجلد. وأمسك بيديه المشمرتين راية بيضاء واخرى حمراء. وكان معلقاً على صدره في حزام رفيع دقيق منظار بحري طويل السبطانة.

أطلت من منحدر الشاطئ المقدمة ذات الطرف المدبب الحاد للمعبر المائي بالأمراس المدلاة والراية الحمراء المركوزة ما بين منخري الثغرتين الجانبيتين.

اقتربت اللحظة التي ينبغي فيها ان ينجز جهد الجميع بهذه المسيرة الاحتفالية المهيبة للمعبر المائي خلال العمق النهري. انه جهد اولئك الذين استطاعوا شق الخندق بالفكوك الفولاذية للحفارات في حمأ المستنقع المهدد بالخطر، وقضوا الأيام والليالي يسحبون الماء الذي كانت الحمأة تبتلعه ولا تشبع. وجهد عمال التركيبات الذين نصبوا وأركزوا الانابيب وهم واقفون حتى الركب في طمى المستنقع.

حفر اللحامون لكي يلحموا الدروز حفراً، وسحبت المضخات الماء الآسن لكي ينزل اللحام أكثر فأكثر في التربة المتحمضة.

وطلى العازلون الأنابيب بالقطران ولفوها بالعوازل عن الماء وكانوا يخلدون الى الراحة جالسين عليها وهي القطعة الصلبة الوحيدة في هذه المخاضة المستنقعية.

وجرر سواق الرافعات – ناصبات الأنابيب مكائنهم كأنها الزواحف المنقرضة الغارقة في الطوفان القديم. ولقد أقدم الناس على هذا كله مدفعين بالاحترام ازاء جهد عمال المناجم الذين يستخرجون خامات الحديد ومن يصهرون منها في الأفران العالية والأفران المرتان المعدن الذي يطرق في آلات المصانع وتصنع منه اللفائف الفولاذية للأنابيب.

ورفض الناس تجاوز المخاضة المستنقعية بالالتفاف حولها.

وقرروا المضي قدماً عبر المستنقع لكي يعيدوا الى البلاد توفيراً مسافة أربعة كيلومترات من الأنابيب وهي مقدار ألفي طن من المعدن الذي استخرجه أناس آخرون ينافسون بمأثرتهم المأثرة التي يجترحونها هم.

والآن في هذه اللحظات كان يتقرر مصير القضية المشتركة. وكان الناس يعرفون ان سحب الأنبوب ليس بالمرة استعراضاً بديعاً، فكل شيء في هذه العملية ينطوي على مفاجآت محتملة. والمعبر المائي أثناء زحفه من المنحدر الشاطئي قد يتباطأ في حركته فيتقوس، فيبرز اعوجاج، وعندئذ سوف يتوجب قطع جزء منه والاستعاضة عنه باخر جديد، وهذا يكاد يكون بمثابة اعادة العمل بادئ ذي بدء. وربما يصطدم المعبر المائي بجلمود مخفي تحت التراب مما يؤدي الى تخديش وسلخ الكسوة الخشبية الخارجية والطبقة العازلة. وماذا يحدث في حالة فقدان المعبر المائي قدرته على العوم في الخندق؟ واذا انبثق الماء متسرباً من هناك قبل الوقت المناسب فعندها لن يكون في الامكان لا تحريكه ولا دفعه وهو ملقى على التربة ثقلا ميتاً مبطوحاً بلا حراك. وعندئذ ينبغي تقطيع أوصاله وجرها من الخندق قطعة فقطعة أوصالا. ومعنى ذلك أيضاً البدء مرة أخرى بانجاز كل شيء من جديد حين يبدأ النهر بالتجمد ويتعين قطع أخدود سفلي يبلغ طوله كيلومترين في الجليد المتصلب... هذا العمل العسير الثقيل والمديد ربما يؤخر الى أمد بعيد الموعد المضروب لوصل الخط من أنابيب نقل الغاز بالمعبر المائي. وعليه لن تتلقى مراكز البلاد الصناعية الغاز في الوقت المطلوب...

نشر بالويف فوق رأسه يده ملوحاً بالراية الصغيرة البيضاء وبهذا أعطى اشارة البدء بعملية السحب.

أخذت الأمراس المعلقة من مقدمة الانبوب تسحب الى حد التوتر ببطء وببطء شديد، وصارت ترتفع رويداً رويداً فوق صفحة ماء النهر، وتتساقط منها قطرات ثقال.

وأخذت تتحرك بمثل ذلك البطء في مسيرة مهيبة على كلا جانبي الخندق الرافعات - ناصبات الأنابيب والبلدوزرات بشفراتها المقعرة مرفوعة عالياً.

وأخذت مقدمة المعبر المائي ذات النهاية الحادة المدببة والمطلة من الحد الشاطئي تتحلب وهي تمتلئ بالماء المتسرب من الخندق بسبب حركة التململ الخفيف للمعبر المائي والتي لا تكاد تلحظ الا بالكاد واذا لم تشدد حركة الأنبوب فان الخندق سوف ينضب من الماء وسوف يستقر المعبر المائي على قاعه فاقداً قدرته على العوم، وعندئذ تحل النهاية وينزل المصاب الفادح.

ولكن ها هو المعبر المائي قد زحف على التربة المتحمضة المطلية بطبقة دهينة من الحمأ عابراً فوق الجدار الطيني للحد المرسوم داعساً اياه بثقله وتزحلق الى ماء النهر وهو يتمايل ببطء نحو المقطع الشاطئي ثم اختفى تحت الماء. وكان الخط المستقيم من الرغاوى الفوارة فوق صفحة النهر دليلا على مسار حركته تحت الماء. وها هما الرافعة - ناصبة الانابيب والبلدوزر على الجانب المقابل من الخندق قد بلغتا حافة الشاطئ. وبعد فك الأمراس استدارت الماكنتان ملتحقتين بذيل الطابور وجرى ربطهما مرة اخرى الى المعبر المائي وأخذتا من جديد تشاركان في جره سحباً وجعله يزداد اقتراباً الى الشاطئ بينما يكرر زوج آخر من المكائن تحركاتها.

٣٤

خيم الهدوء المطبق حتى ليسمع بوضوح صوت قرقرة الماء المتساقط من منحدر الشاطئ وصريف الرمل والأزيز الوتري الناعم للأمراس المسحوبة بتوتر.

دس سيفولوبوف بين شفتي بالويف المبيضتين سيجارة وأشعل عود ثقاب. كان بالويف واقفاً كأنه تمثال رافعاً الراية البيضاء ووجهه مستدير في التفاتة نحو الشاطئ المقابل.

- لا أرى. - قال بالويف.

وسارع سيفولوبوف برفع المنظار الى عيني بالويف.

سار قطار الجرارات بطيئاً على ذلك الشاطئ بمحاذاة المخاضة. وظهرت فوق صفحة الماء نهاية المعبر المائي الطافية بعد غطس. وظهرت الراية المبلولة في البداية كخرقة ثم رفرفت من حركة

النشر بعد الطي ناشرة بجلاء لونها الياقوتي على أمواج النهر ذات اللون الرمادي.

بصق بالويف السيجارة ثم طلب قائلا:

– هات سيجارة.

لم يستغرب سيفولوبوف وذلك لانه هو نفسه كان نهبة التأثر. دمعت عيناه فمسحهما بقسوة بظهر كفه.

ونهض المتفرجون الذين كانوا جالسين على منحدر التل وأخذوا يصرخون ملوحين بالأيدي.

وطلب فيرسوف بهمس لسبب ما:

– حافظوا على الهدوء أيها المواطنون.

زحف المعبر المائي بجلال ومهابة وفي قوة.

وطلب بالويف من سيفولوبوف وقد ضعف من شعوره بالسعادة:

– أمسك الراية.

وجلس على الأرض وأخذ يبدل حذاءه ببطء وكأن ذلك كان أمراً عاجلا لا يحتمل التأجيل. وأخفى وجهه الذي جالت عليه ابتسامة لا تخلو من بلاهة استعصى حبسها، بينما تولدت لديه الآن رغبة عارمة في الصراخ والقفز عالياً في الهواء. «ولكن ما معنى هذا؟ – فكر بالويف مستنكرا. – أفلست قد بلغت من العمر حداً كبيراً ووخط الشيب فودي... ولكن لو انصعت لهذه الرغبة الجياشة لوجدتني أنط فأصرخ فلا سلطة لي على نفسي.»

ونظر من بين ساقي سيفولوبوف المفروجتين الى صفحة النهر حيث تتباعد أكثر فأكثر في الضباب المفضض الراية الحمراء المثبتة على مقدمة المعبر المائي.

أجل لقد فكر بالويف سلفاً في كل شيء حتى آخر التفاصيل. وقد انتقى الوقت لشن الهجمة – والمقصود بذلك سحب المعبر المائي – بالضبط حين بلغت حالة الناس المعنوية أعلى ذروة من الهمة. فكل شيء اذن كان صائباً.

ولكن بالويف أخطأ الحسبان في اغفاله حاجة الهمة العالية الى التوجيه أيضاً. وقد فات عليه ذلك فلم يفعله ولم يفكر في

ان جرعة صغيرة من تبريد المشاعر الهائجة ضرورية للضمان التام لسحب المعبر المائي شأنها شأن الأمراس الاحتياطية وشأن الاحتياطيات لدى حسبان القدرات والعديد سوى ذلك.

حدث ان أسف سائق الجرار الشاب كوليا زينوشكين، الذي كان بجراره يشكل حلقة من ربطة قطار الجرارات الساحب للأنبوب من الشاطىء المقابل، نظره الى حيث كانت نفسه تتوق الى الراية الصغيرة الحمراء للمعبر المائي المقترب الى المجرى الأوسط من النهر. كان يعرف ان هذا لا يجوز فعله ولكنه لم يستطع التغلب على الرغبة في نفسه.

حدثني آمر وحدة دبابات شارك في استعراض عسكري جرى بالساحة الحمراء انه حين تقترب الدبابات من ضريح لينين تأخذ بشكل لا ارادي وغير مفهوم بالدنو نحو الحد الممنوع. وشكا لي بقوله: «لقد أصدرت أمري: «أنس تماماً انك تسير بجوار الضريح. لا ضريح هناك بالنسبة لك. وليس ثمة بالنسبة اليك من أحد في هذه اللحظة. مفهوم؟» ولكن ها أنا أشعر في كل مرة اننا ندفع الدبابات نحو الخط. وأكاد أقفز من برج الدبابة. ونفقد استقامة السير. ان المدنيين لا يلاحظون. أما أنا فأفهم انهم لا يسيرون على حد الشعرة. والخط يميل قيد شعرة ولكنه يميل. وتشعر كأنما اليد الموضوعة على مقود السير في هذه اللحظة لا تضغط على اللوالب وانما على فؤادك».

يبدو على الأرجح ان شيئاً كهذا قد جربه كوليا زينوشكين. وكانت الحركة المظفرة للمعبر المائي قد خلبت لبه للحظة ما. وانحرف الجرار نحو اليمين وخرج بجنزيرته عن بساط الأخشاب والأغصان ومال ثم انغرز في الوحلة وأخذت تصرصر كلتا الجنزيرتان وانقلب الجرار وانزلقت في البداية بمؤخرتها ثم بكليتها الى الوحل الرخو وخفقت وأخذت تتقلب. وارتخى المرس الذي ضعف شده وانهار الجرار على جنبه في التربة المضغوطة. وتوقف قطار الجرارات. وانغمس المرس في ماء النهر. وتوقف المعبر المائي كذلك ونكست الراية الصغيرة الحمراء المبللة. أما على الشاطىء الآخر فقد واصلت ست مكائن لبضع لحظات جرها بعناد للمعبر المائي من الخندق ولكن ثقله كما ظهر أصبح فوق طاقتها وأخذت المكائن

تدور هاشمة جذوع الأشجار الى شظايا في الفراغ وهي عاجزة عن دفع الأنبوب.

اندفق الماء الخارج من الخندق على هيئة شلال عاصف من الحد الشاطئي المهدم المدعوس، وأخذ المعبر المائي يغوص فيه الى أسفل فأسفل وفي بعض المواضع استقر مطروحاً بعجز على القاع الرخو.

أما بالويف الذي اكتسى وجهه في اللحظة تعبير اللامبالاة الهادئة فقد قال موجهاً الأمر الى سيفولوبوف: «ارفع الراية الحمراء» الامر الذي كان معناه ايقاف عملية السحب.

ودنا متهادياً على مهل الى الخندق وصرخ:

- أين أنتم هناك ايها الميكانيكيون، اردموا الحد. انها فرصة استراحة للتدخين! - وأضاف لائما: - ولا داعي الى تسرب الماء فسدوه بفاصل ترابي.

وقام فكتور زايتسيف الذى أنزل ترس البلدوزر بجمع كتلة ضخمة من التربة وأخذ يكدسها بوجه الماء المتدفق باندفاع من الخندق. وكان الأمر الرئيسي الآن هو حبس الماء لئلا يسقط الأنبوب الى القاع حيث تمتصه التربة المتخلخلة بقوة لا تقاوم.

ونظر بالويف بغضب حاقد الى بلدوزر زايتسيف مائلا على جانب وهو يلقي الى الخندق التربة التي سرعان ما يشتتها التيار في لحظة ويجرفها.

واصطبغ النهر عند مصب الخندق بلون أصفر وبشكل ثخين بواسطة محلول التربة الذي يقذفه التيار الفوار.

واستطاع بالويف الذي كان يحرقه الآن السخط على زايتسيف لمدى البطء الذي بدا عليه احتراسه في سحب التربة من الجرف المنحدر التغلب على نفسه ووجه له النصح بلطف قائلا:

- لا تستسلم للهياج يا فيتيا بل أعمل على مهل.

رغم أن بالويف خالجته حالياً الرغبة في رؤية زايتسيف هائجاً متحمساً في مهاجمة الماء.

كان بالويف يعرف مدى خطورة التهييج في أمثال هذه الدقائق المتوترة، وقد تعلم على مدى الأعوام العديدة السيطرة على نفسه. قال للصحفيين وهو يتطلع الى ساعة يده برضا مصطنع:

– لا بأس في الأمر فلقد قطعنا من النهر نصفه وفق جدول المواعيد بالضبط. والآن حلت فترة الاستراحة لتناول وجبة الغداء.
– وقال ناصحاً: – انتبهوا الى مدى الاحساس بالتوازن لدى هذا الفتى. يبلغ وزن الماكنة الصافي الجاف أي بدون الوقود وزيت التشحيم اثني عشر طناً وها هو يتلاعب بها كما يشاء في خفة.

وابتعد وعلى فمه ابتسامة طيبة وفي نفس الوقت وقورة لصاحب مقام رفيع مبيناً بكل مظهره ان كل شيء سائر حسب الخطة. ولكنه كان عارفاً بانه ان لم يتح في ظرف أربعين دقيقة حفظ الماء في الخندق فان اطلاق المعبر المائي سيفشل. ثم لايزال غير معروف ما اذا كان سينثني هذا الأنبوب المتدلي بلا حراك من الحد الشاطئي. فاذا وقع هذا كان طارئا جللا.

كان التيار الجهم الثقيل يضغط على الخليط الرملي السائل للفاصل، والماء يحفر في هذا الفاصل الترابي ويمعن في تقطيعه الى أوصال ويسحبها الى النهر.

هبط الى الخندق لوبانين في حذاءه المطاطي اللماع. وبعد أن أدار وجهه نحو البلدوزر رفع يده كمروض الوحوش في السيرك صارخا بلطف وبلهجة مطاعة ومبيناً بالاشارات المواضع التي ينبغي تكديس التربة فيها. ومن التكسيرات المقتطعة في الخندق كان يترامى طوف رمادي كالغبار قد ذري على مدى القرون الى مسحوق ناعم الجزئيات وأخذ يغمر الأنبوب ويطمره.

كان الخندق الممزق المدعوس كأنه ينهال، فان الكتل الطينية الضخمة التي تشكل شروخا عميقة في جداره انفصلت في البداية عن التربة ثم هوت ساقطة الى الأسفل وكأنها تطلق آهة مدوية.

في هذه الدقائق الحاسمة ترددت صرخة يأس وانهار بلدوزر زايتسيف في الحمأة.

حين لحق لوبانين في الخروج سريعاً من الخندق واندفع اليه على الرافعة – ناصبة الأنابيب لربط البلدوزر وانتشاله من الوحلة لم يستطع بالويف أن يحير بقول. ولم يستطع أن يوضح كذلك كيف وجد هو أيضاً نفسه في قعر الخندق ومن أين تجلت فيه تلك القوة الهائلة التي استطاع بها انتشال زايتسيف. وبدا

لو أن ذلك كله قد جرى متسلسلا بشكل خاطف في لحظة قصيرة واحدة.

بعد الانفلات من الخندق في ثياب ضيقة على جسمه وثقيلة من تشبعها بالماء عاد بالويف الى نفسه ببطء مجرباً الاحساس الغريب بالسكينة والانتعاش النفسي وفرحة الابتهاج. في البداية لم يستطع ان يفهم السبب في هذا الشعور المتناقض لمثل هذا الوضع ولكنه أدرك بعدئذ من أين جاء هذا الشعور.

على البلدوزر المتجمد المكسو بالجليد والشبيه بكتلة حجرية ضخمة وقف عند المقاود لوبانين في وضع الركوع وهو يخوض في موهبة الفنان الجريئة العجينة الرملية. وانفلت واضعاً هذه الماكنة في وضع الوقوف على الحافة تقريباً من هذه العجينة وزحف بها الى الجرف، وناكصا على عقبه جعل ينهار طبقات ضخمة من الارض، تدحرج في اثرها، وضغط عليها، كبس، داس، زحف مرة أخرى، كانت الماكنة تنهال من جديد على الفاصل الترابي كانها تسقط وهي أشبه ما تكون بكتلة ترابية فولاذية.

كانت هذه مهارة بالغة الدقة ومثيرة للاعجاب وهي كألعاب الطيارين في أعالي الجو ولكنها انجزت على الارض. وكانت هذه الماكنة ذات الاثني عشر طناً من الوزن كأنها في حالة انعدام الوزن.

برق وجه لوبانين المتوحش بأسنانه المكشرة عن ابتسامة. والعضلات المتوترة تكاد تشق وتنفذ من الجلد المشدود عليها بقوة، وكأنه قد من العظم.

وتلفظ سيفولوبوف في همس الاعجاب:

— لو ارسل مثل هذا الرجل الى الفضاء لبلغ أي كوكب تريد!

— وطلب من بالويف وهو يجرجر كمه: — انظر... انظر الى سحنته! انه نسر حقيقي! — مسح سيفولوبوف عينيه من غشاوة الرطوبة وفجأة زحف على ظهره عبر مرتفع المقطع الى الخندق. وكما في السابق كان لوبانين يقف في مظهر مروض الوحوش أمام الماكنة المعلقة فوقه كالخطر المخيم وهو يعين باشارات من يديه المواضع التي يحسن القاء التربة فيها.

اشتغلت آلة التصوير السينمائي وائتلقت عدسات التصوير، وقال بالويف للصحفيين في تأثر وانفعال:

– سجلوا أيها الرفاق اننا كنا قد فشلنا فشلا ذريعا في عملية السحب لولا لوبانين هذا. لقد انقذ الماء في الخندق ولم يدع الأنبوب يسقط الى التربة انه غريغوري لوبانين. مفهوم؟

واستقر الماء الذي حجزه الفاصل الترابي متعباً مغلوباً على أمره في قعر الخندق.

ألقى لوبانين بنفسه على مقعد الماكنة. وقد شعر الآن بالاعياء في جسمه كله، ويداه اللتان كانتا ترتاحان على المقاود اهتزتا اهتزازاً عصبياً خفيفاً. وبسبب دقات المحرك الرتيبة قعقعت الأدوات في الصندوق.

ثم خرج من الماكنة وابتسم للصحفيين وتثاقل في المشي بساقيه الطويلتين في الاحذية المطاطية اللماعة الطوال حد الورك، وسار الى رافعة – ناصبة الانابيب. وحين قابلته نظرة الاعجاب من عيني زينا بنوتشكينا قال بخلاعة:

– يا ذات الارداف الثقال يا ذات الخصر النحيل...

– غريشا، – تلفظت بنوتشكينا متوسلة، – لا تقل في هذه اللحظة كلاما بذيئا.

– لست أنا القائل هذا، – قال لوبانين، – انه مقطع من ملحمة هندية وهذه عبارة مخاطبة مؤدبة تجاه المرأة.

توقف أمام بودغورنايا وخلع القبعة ونزع من شريطها غصن العشب وتلفظ بتأنق:

– بوسعك تقليده باستحقاق الى الاستاذ الماهر في لحام الدرز وقولي له: مع التمنيات بالهناء العائلي من لوبانين. – وهز كتفيه واستدار وارتقى، مشيعاً بنظرات بودغورنايا الحزينتين الكئيبتين، ناصبة الأنابيب وابتعد بها عن المنحدر الشاطئي المشقق بالشروخ.

جلس ميخوف على مقعد البلدوزر مواصلا دعس الحد الفاصل، وكان مثل لوبانين تقريباً، ارتقى بشجاعة المنحدر ولكنه لم يستطع التغلب على ثقل الماكنة غير المناسب. وأخذ يضغط بعنف على العتلات، وقد تصبب عرقاً نتناً كأنه حوامض ملحية. كان ذلك عملا شاقاً ثقيلا.

دنا فافيلوف الى لوبانين وظل يتنحنح ويتنشق طويلا، ثم قال بصوت أجش:

— لم يخطر على بالي يا غريشا انه يمكن التوصل في مهنتنا الى مثل هذا الجمال في العمل. جلست مأخوذاً من التعجب. شكراً جزيلا لك، منا جميعاً! — ومد اليه كفه السمينة الثقيلة.

شد عليها لوبانين مصافحاً بصمت. وكان وجهه مرهقاً، تبدو عليه أمارات الاكتئاب. ونظر بقنوط الى قبعته ومس بأصبعه الشريط في ذلك الموضع حيث كان مدسوساً قبل هنيهة الغصن المأخوذ من يد كابتولينا.

مساء أمس استدعاه شباكوفسكي من المسكن العمومي الى الشارع وقال له:

— انني يا غريشا احترمك جداً وأريد أن أقول لك صراحة ان كابتولينا قد أعطتني موافقتها. — وسأله: — ربما تريد توجيه ضربة الي؟ ولهذا دعوتك الى الشارع. ما الداعي الى انخراطنا في العراك أمام أنظار الغير؟

— ولكنني لا أعتزم ذلك، — قال لوبانين.

— انظر أولا لئلا تعيد النظر فيما بعد، — طلب منه شباكوفسكي. — فانني أفهم مدى صعوبة الأمر على نفسك.

— اذا كنت تفهم فابتعد اذن. — واستدار لوبانين عائداً الى تخشيبات السكنى. ولكنه سرعان ما خرج من هناك متلصصاً.

وظل طوال الليل تقريباً هائماً على وجهه في الغابة متعثراً بالأشجار، وجرب التسلي باستعمال الأصباغ على اللوحة الخشبية المعاكسة لكي يصور ضوء القمر على سيقان أشجار البتولا ذات اللون الباهت. واكتشف نفسه متلبساً بالتصنع وكانت أكبر رغبة له الآن أن ينخرط في البكاء. أخرج نافضاً على الأرض أصباغ الرسم من كيسها ودعكها بقدمه وأحس بعد هذا بتخفف غريب و عاد الى المسكن عند مطلع الفجر. نزع ملابسه وزاول تمارين الصباح الرياضية، ومسح جسمه بالماء في السقيفة فكان أول القادمين الى الممر المائي، وشاهد قرص الشمس مرتفعاً على مهل من خلف التلال وكيف ألقى اللون الوردي على النهر والمخاضة المستنقعية المكسوة بغشاوة رقيقة لماعة من الجليد الناعم. ولئلا

يشعر بالملل من انتظار الآخرين وحيداً شغل المحرك، وأنصت بسكينة الى دقاته الحية الرتيبة. ولكنه ظل ينظر بشكل ثابت بخياله الى عيني بردغورنايا السوداوين البراقتين ووجهها الفخور وشفتيها المهدولة الزاويتين دوما بكآبة.

والآن شعر لوبانين بشعور واحد فقط هو الانتقام العذب. لقد رأته اليوم وهو أفضل الجميع فلتتذكره وهو على هذا النحو الى أبد الآبدين. انه لن يدنو اليها بعد الآن ولن ينظر نحوها. فلتكن سعيدة مع تمثالها المتغطرس ولربما سيحل لوبانين ضيفاً عليهما في وقت ما. وعند الوداع سوف يطلبان منه تزويدهما بعنوانه وسيقول دون احتفال: «القمر. يحفظ في شباك البريد لحين الطلب. ثم اسمي». سيذكر لهما نفس العبارة التي يقولها أحياناً شقيقه مازحاً وهو الذي يتمرن بتعصب على تحليقات ما خاصة خارقة البعد وفائقة السرعة...

٣٥

اختفت دون أثر الابتسامات الطيبة على شفاه ممثلي المنظمات المشرفة على هذا العمل الانشائي. واكتسبت وجوههم التعبير الرسمي الصارم المنم عن القلق.

ومدير مشروع أنابيب الغاز مستقبلا فوكين الذي قدم خصيصاً لمشاهدة عملية سحب المعبر المائي والذي أسرته اللوحة العامة الاخاذة للهمة الشاملة تجرأ على القيام بايماءة ملهمة مشجعة. فأعلن استعداده للتوقيع على الوثيقة بصدد انجاز الحجم الكامل للأعمال بقيمة بلغت مليوناً ومئتين وثمانية وأربعين ألف روبل وثمانية وتسعين كوبيكاً على الفور دون انتظار اكمال العملية.

وقع فوكين في جو احتفالي على هذه الوثيقة ممثلا عن المتعهد العام والبنك، وأخيراً وقع بالويف نفسه. وزاد النبأ بهذا الصدد العمال انتعاشاً، وقد أبهجت نفوسهم مثل هذه الثقة.

والآن أخذ فوكين، متجهم الوجه، مقطب الجبين، يفكر هل يفرض العقوبة فوراً أو ينتظر الى يوم الغد وعندئذ يغرم بالويف من

الراتب خمسمائة روبل جزاء زيادته حجم الأعمال، ومن المفهوم بديهياً: الحرمان من جوائز المكافأة...

لقد أعطى قطاع بالويف بالطبع توفيراً هو أربعة كيلومترات من الأنابيب. وستكون طريقة اللحام بدون حلقة التبطين في التطبيق ذات أهمية بالغة بالنسبة الى الاقتصاد الوطني حين سينتشر هذا الأسلوب المبتكر في كافة المشاريع الانشائية. وفي قطاع بالويف عدل عن اتخاذ الوصل المنحنى غالي الكلفة واتخذوا وصلا معتدلا الى الخندق المحفور تحت الماء، وحققت في القطاع كذلك كثرة من الاقتراحات التحسينية الأخرى الهامة. وهذا كله حسن جداً. ولكن العمل هو العمل.

ألم يكن بالويف قد ذيل بتوقيعه مصادقاً تحت ذلك الحجم من الأعمال المدونة هناك؟ أجل لقد فعل. هل وقع بذلك في الورطة؟ أجل لقد وقع. وكل شيء مما بقي سوف يعتبر الآن تجاوزاً. وينبغي بالطبع وضع الصيغة الرسمية حين ينتهي تماماً انجاز الأعمال. و بالويف رجل محنك بالخبرة، وهو نفسه يعرف كل هذا. كان يريد أن ينعش العاملين تحت امرته بشيء ما خاص. أنعشهم! وها الآن عليه ان يدفع الثمن، فليدفع. ما أكثر حبه أن يحبه الجميع. سوف يستأنف الحكم ويصحح الأمر هذا واضح، ولكن ليس رأساً، يتعين عليه أن يعاني.

لم يعد فوكين الآن يدعو بالويف دون كلفة باسمه المجرد مصغراً «باشا» ولم يعد يهمه أمر الوجبة المسماة الحساء السمكي الثلاثي والتي كان بافل غفريلوفتش ماهراً كل المهارة في اعدادها. اكتسى وجه فوكين تعبيراً متعجرفاً. كان يحمل في يده حقيبة ثقيلة كثيرة الأحزمة حيث وضع العقد الموقع عليه. وكان يتحدث تارة بنصف الصوت وأخرى بالهمس المتحامل مع ممثل البنك الصناعي الذي علت وجهه أمارات الحزن والكآبة وخيبة الأمل. ومن الواضح ان حامل وجه كهذا قد ندم على كونه قد استسلم لتأثير هذا الجو من الهمة العامة والانتعاش الشامل وذيل بتوقيعه كذلك هذه الوثيقة.

اما ممثل الادارة الحوضية للأسطول النهري فسرعان ما اندفع الى الزورق بغية التحقق من خروج المعبر المائي في مجرى مياه

النهر وقياس مدى ذلك. واذا ظهر انه يشكل عقبة بوجه الملاحة فانه سوف يدون محضراً يلزم بالويف بدفع غرامة عن كل خسائر الأسطول النهري بسبب الاضطرار الى ايقاف سير السفن.

وأخذ المراقب من المحطة التكنيكية الحرارية وقد ارتدى بزة الغوص في الماء يدرس حالة لف الأنبوب بالعوازل وهل تضرر أو أصيب بالانبعاج في المواضع التي استقر فيها الأنبوب على التربة وتقوس. وبالايجاز كان كل واحد من ممثلي شتى المؤسسات والدوائر الآن مشغولا، أخذ كل منهم ينفذ بالشكل المطلوب واجباته التي تمليها عليه وظيفته.

حين سار الانبوب بالشكل الطبيعي اكتفوا بالمشاهدة شأن المتفرجين الآخرين واستمتعوا دون غرض بمنظر عملية السحب المدروسة والمنفذة بشكل ممتاز وهي العملية الخلابة الأخاذة بسعة أنطقتها وجبروتها. اما الآن فقد ظهر لهم عمل ولقد انصرفوا الى انجازه بهمة وجد.

لا أدري كيف تعلم بافل غفريلوفتش السيطرة على تعابير وجهه وما هي الجهود التي يتكلفها في سبيل هذا، ولكن وجهه الآن اكتسب تعبيراً ينم عن الانتعاش وخلو البال وحتى الرضا والارتياح.

وأعلن وهو يفرك يديه انه في غاية الرضا عن نتائج هذا اليوم (فان المعبر المائي قد مرر الى نصف المسافة المطلوبة تقريباً بينما كان يعتقد انه مع التواجد الحالي للتكنيك لن يتسنى سحبه بتمامه وحتى عين جماعة من القاطعين بالغاز لكي يعمدوا رأساً في حالة حدوث أمرما الى تقطيع الأنبوب أوصالا وسحبه قطعا) وهنأ سواق الرافعات - ناصبات الأنابيب والبلدوزرات بانجاز العمل الممتاز، ووقع بامضائه استعراضياً في الحال وبحضور الممثلين عن المؤسسات، على الأمر الذي يقضي باعلان الشكر لهم على العمل.

وجلب سيفولوبوف سائق الجرار زينوشكين وقال متجهماً:

- ها هو الذي حرف الجرار وجعله ينهار، لقد ألقى نظرة ليشاهد سير المعبر المائي وانهار في المستنقع وبهذا أحبط على الجميع انجاز عملية السحب.

كان زينوشكين شاحب الوجه مرتجف الشفتين، زائغ العينين، قال في استكانة:

– أقر بأنني مذنب. هذا صحيح.

وسأله بالويف:

– أهذه أول مرة تشارك فيها في عملية سحب؟

وحرك زينوشكين رأسه في اشارة ايجاب.

– اذن فكل شيء واضح! – قال بالويف مبتسماً. – انه لأمر صعب أن تجر ولا تنظر الى هذه العملية الاحتفالية المهيبة. – وطبطب بلطف على كتف سائق الجرار. – والآن وقد شاهدت عليك الا توجه بصرك الى هناك في المرة التالية.

وأسبل زينوشكين يديه في خشوع كالمصلي.

– أيها الرفيق بالويف أقسم لك... بكل ما تشاء...

– يكفي، – قال بالويف، – اذهب فاسترح. – وتثاءب ودنفش بعينيه وتطلع الى فيرسوف وأعلن قائلا: – وأنا أيضا ينبغي أن آخذ قسطي من النوم. وأنت ما الذي تنوي فعله. أخشى أن تقضي الوقت في لعب الورق؟ وطيلة الليل؟ لا بأس فالقضية مجدية. تساعد على التطور الذهني. – ثم ركب السيارة وذهب.

وخاطب فيرسوف سيفولوبوف باعجاب قائلا:

– كم أدخر باشكا في نفسه من الحديد، ما يكفي الى آخر العمر! انه كالآس الكزيري! هذه هي الصلابة كما أفهمها، انه ليس رجلا بل صخرة صماء.

اما «الرجل – الصخرة الصماء» فقد طلب من سائق السيارة أن يعرج عن طريق السكة الريفية نحو الغابة، ونزل من السيارة آمراً باقتضاب:

– هيا اذهب الى البيت أما أنا فسوف أتنزه وأشم الهواء.

وأسرع بالتوجه الى أجمة شاقاً طريقه بين الشجيرات وغرف أثناء سيره حفنة من الثلج ومضغها ثم بصقها، وأخذ قبضة أخرى من الثلج ومضغها حتى آلمت أسنانه. وسار مصطدماً بالأشجار كاعمى. وفتح معطفه وفك أزرار قميصه وفرك بالثلج صدره معتقداً انه بذلك يهدىء تشنج القلب. وجلس على قرمة شجرة

وألقى خائر القوى يديه المتشابكتين بين ركبتيه، وأطرق برأسه مدنفشاً بعينيه حتى انضغطت مقلة عينه بألم معذب.

انطفأت بسرعة لمعة النهار الشتوي البراق. وانتظر بالويف حلول العتمة، فتوجه متلصصاً من جديد نحو المعبر المائي لكي يعاين وحده، ويفكر ويوازن كل حدث يتخذ القرار: أ مواصلة سحب الأنبوب بكليته أم تقطيعه وسحبه على أجزاء؟

ينبغي حل هذه القضايا لا على انفراد بالطبع. ولكن هل الانسان وحيد حين يكون لوحده؟ أ فليس يدرك في فكره انه رفقة كل العالم الذي يكتنفه، أفلا يسامره في وحدته اولئك الذين يعمل ويشتغل معهم والذين عاش حياته معهم؟ وحتى أولئك الذين لم يعودوا على قيد الحياة ولكنهم باقون فيها ما دمت انت في الحياة؟

هام بالويف على وجهه في موقع العمل مضيئاً دربه بمصباح الجيب الكشاف. وكان يتوقف ويتطلع بتركيز نحو المعبر المائي وسبر غور الماء في الخندق بواسطة عود طويل، وأمعن التفكير وهو يفوك في كفه مسحوق الأرض الهشة كالزجاج المجروش وهي التى تستص المعبر المائي، ورنا الى النجوم الساطعة التي كانت تضيىء قبة السماء على وسعها، مقدرا بالتخمين وزن الجزء الباقي في الخندق من الأنبوب والمثقل بغطاء من الجليد والملتصق بالتربة في بعض المواضع بشدة، وحسب بالتقدير كيفية اعادة تنظيم القدرات ليغدو في الامكان تحريك الجزء الذي مدد من الأنبوب ثم نتل التكنيك بسرعة الى ذلك الشاطيء. ولكن سيطرت على كل تأملاته العملية هذه فكرة أخرى تماماً: فكرته بشأن عمره الذي يكاد يكون قد انقضى وعن نفسه ذاتها وكونه لم يبلغ المبلغ اللازم من فهم جميع دروس الحياة وليس بقادر على فهمها جميعاً، فقد ظل من حيث الجوهر هو نفسه باشكا، الذي كأنه أيضاً قبل عشرين، وثلاثين سنة خلت.

وقف بافل غفريلوفتش في دخان العتمة الضبابية عند الجرف. فاحت من الخندق الرائحة الكريهة للوحل المتحمض. وكان مطروحاً في القبر الأرضي الطويل المعبر المائي المجلل بالخزي والعار. وكانت الاثقال الحديدية تضغط عليه الى القاع الرخو للخندق

أعمق فأعمق. وكان الماء يندلق من الفوهة الحلقية للخرطوم الى الخندق والمعبر المائي يغرق فيه ببطء، اما في قاع الخندق المجروف فكان بلدوزر منفرد يطمس الفاصل. كان يسير جيئة وذهاباً على مرتفع منحدر كالسنام من علوة مبتورة وقد رفع عاليا نصلها المنحني لامعاً حد البريق كمرآة.

وكانت الأعمدة البيضاء للمصابيح اما متفرقة تلقي ضوءاً شاحباً واما متقاربة معتمدة على المقطع المبتور المنحدر، وعندئذ ارتجفت على الجدار الطيني بقع ساطعة من النور.

تخبط البلدوزر في التربة الرخوة وغرق فيها وبدا كما لو ان الهلاك قد حاق به، وحفر بنفسه لنفسه لحداً. ومالت الماكنة الزاحفة على جنبها وتعلقت على حافة الفاصل ولم تبق الا هنيهة وتنهار الى القعر المستنقعي الأسود للخندق. وبالايجاز فان هذا هو العمل العادي لسائق البلدوزر في مناطق التربة ذات السطح ضعيف الاحتمال.

دنا بالويف قريباً من المقطع. وزحفت الماكنة نحوه واستدارت. وانهال الرمل في هسهسة.

خرج زايتسيف من القمرة فيما تساقط رمل رطب من حذائه المطاطي، رفع عينيه، وقال متفكراً:

– اذ اني قرأت يا بافل غفريلوفتش في كتاب لعله من تأليف ادغار بو أقصوصة فظيعة عن انسان يغرق في الرمال الغائرة. لقد وصف فزعه الرهيب بصورة قوية... – ثم استعلم مهموماً: – وعليه فنحن أيضاً تلقينا ما لقينا؟..

– أجل انها الأرض الهشة، – وافق بالويف شاعراً بالذنب.

– لم يكتشفها الجيولوجيون لانها كانت متخفية ما بين الطبقات القوية. سوف تفسد علينا الأمر كله.

– لا بأس، لسوف نذللها ونتغلب عليها. – قال فكتور زايتسيف باعثاً الأمل في النفس.

وبدا ضئيلا، وهو القصير، مقرورا من الصقيع بجوار الماكنة الضخمة الجبارة التي لا تزال ساخنة، سأله بالويف:

– لماذا لا تخلد الى الراحة؟

– بقيت أستكمل مهارتي.

- هل تريد الالمام بتكنيك السياقة؟
- كلا. فلقد كنت اليوم كما رأيت من الغارقين. - وأخذ يوضح بانفعال: - لو انني غرقت في الماء فهذا طبيعي ولما كنت قد فزعت. ولكني كدت أغرق في الرمل. ولقد صرخت وملأ صراخي موقع العمل بأسره. ما أن أتذكر حتى أشعر بالحرج لما أثرته من الضجة.
- خشيت عليك كل الخشية، - قال بالويف، - فان الماكنة كادت تهوي على جسمك.
- زحزحها عني الرمل، والا لكان الألم على الأرجح كبيراً جداً.
- الألم! كانت ستسحقك فهي النهاية.
- هذا أيضاً صحيح، - وافق زايتسيف. وقرب وجهه الى بالويف متلفظاً بوثوق همساً: - اني أريد يا بافل غفريلوفتش أن أطرد عني نهائيا الفزع الذي اعتراني. سأظل طيلة الليل أدوس الفاصل وأسويه بوجه الأرض. فاني لو تعلم حين ثبت الى رشدي في نقطة العيادة الطبية وبخت نفسي كثيراً على الصرخة. وتذكرت مقطوعة شعرية عن رجل المخابرات باشكوف، وتحرجت من نفسي خجلا. لقد دفنه الفاشيون حياً حين تظاهر بانه قد مات لكي يزحف بعدئذ من القبر ويحاربهم من جديد... وقد سمعت هذه القطعة من الشعر عن باشكوف في أمسية قدمت أثناء حفلة فنية للهواة حين جررنا معبراً مائياً في مدينة فيشني فلوتشوك. ولكني لم أعرها آنذاك اهتماماً خاصاً. وها قد تذكرتها الآن...

انساب الجسم البارد للنهر بدعة بين الضفتين المتلفعتين بصقيع الجليد. ولمع ضوء المصباح الصغير على العوامة الطوافة بيتم وبرود. وهطل ثلج مائع مخلوط بالمطر، ولكن المطر والثلج لم يكونا مرئيين في الظلام. كانت تفوح من المستنقع رطوبة القبور وعفونة الأموات.

وقال زايتسيف غاضباً مختضاً من البرد:
- اقبلت البلاد باسرها الآن على الكيمياء واللدائن، ولكن لماذا لايبتكرون طريقة لصنع الأنابيب الخاصة بنقل الغاز منها؟ ما اكثر المعدن الذي ندفنه في الأرض تحت التراب وكان سينفعنا في أمور ما أخرى. أما من اللدائن فستكون الأنابيب أرخص كلفة

ولا يؤثر عليها التآكل فستكون اذن دائمة. وما للعلماء يتأخرون في انجاز أمر هام كهذا!.. وها هو الاكاديمي سميونوف يكتب، لقد قرأت مقالته منشورة في جريدة برافدا، فهل يمكن تقديم حجز اليه بصدد صنع أنابيب من اللدائن؟ فان مجال صنع اللدائن هو اختصاصه. لعلي أحسنت التفكير أليس كذلك؟

– حسناً، – وافق بالويف وسأل مستفسراً: – وكيف تجري شئون دراستك التعليمية؟

– بشكل سيىء، – اعترف زايتسيف بأسف الحزين. – انني انسان متذبذب الاهواء. في البداية درست خارجياً بناء المكائن. أما الآن فأريد دراسة علم الفلك فان هذه القضية لها مستقبل عريض...

– لم تعد تعجبك مهنتنا في الأعمال الانشائية؟

– ولماذا؟ – قال زايتسيف مستغرباً. – انني ميكانيكي وسأظله حتى نهاية عمري.

– فلماذا اذن توجه نظرك الى السماء وتحشر نفسك فيها؟

– لست أحشر نفسي في أي مكان، – قال زايتسيف مستاءاً. – انما أفعل ذلك لكي أفهم الكون وما الذي يعنيه الانسان على النطاق العام الشامل. الآليات التكنيكية الخاصة بالتحليقات ما بين الكواكب هي الفضلى، ويمكن اقتباس شيء ما منها لأجل أعمالنا الانشائية.

– أجل لقد تورطنا هنا مع تكنيكنا في المستنقع، – قال بالويف بحزن. – فأينما ولينا وجوهنا تقابلنا أوحال.

– لا تكتئب يا بافل غفريلوفتش، – قال زايتسيف مشجعاً. – لم نسحب اليوم المعبر المائي. فأعتبر ذلك بمثابة بروفة... أفلا تتذكر، لقد حدثتنا أنت نفسك عن جبهة القتال. قبل مهاجمة الألمان الذين تمركزوا في منطقة محصنة كنتم تبنون عندكم في المؤخرة نسخة طبق الأصل منها وتمثلون هجوماً تدريبياً عليها كبروفة. لقد تم كل شيء وفق ما قصدناه. – ثم رفع وجهه وقال: – بافل غفريلوفتش سيجري الاحتفال خلال العام القادم بذكرى مرور تسعين عاماً على يوم ميلاد لينين. وأنا حتى لا أستطيع التصديق بان لينين كان يمكن أن يصبح شيخاً طاعناً في السن. – وضغط

براحتيه المتورمتين والمتسلختين على الراديتر، وعلى وجهه بقع زرقاء من الاستبراد، واستفسر مستغرقاً في التفكير: - ما رأيك، أكان لينين سيكون راضياً عنا لو كان لايزال حتى الآن حياً؟ من المفهوم اني لا أعني بذلك أمر المعبر المائي. ان المعبر المائي سوف نسحبه على أية حال وانما أعني على وجه العموم كل شيء مما فكر فيه لينين وقد فعلناه. ألسنا قد فعلنا الصواب؟

قال بالويف مؤكداً:

- بلى. لقد فعلنا الصواب.

- الحزب يعرفه الشعب كنفسه. ولهذا فكل شيء لديه يتم كما يرام.

وهنا أعقب بالويف مبتسماً:

- ماذا. لعلك قررت أن تعقد معي جلسة للتوجيه الحزبي والارشاد؟

فقال زايتسيف مرتبكاً:

- ماذا تقول يا بافل غفريلوفتش، اني انما أقول هذا وكأنما أخاطب به نفسي، من نوع التفكير بصوت مسموع. - ثم أضاف بوثوق: - في المكتبة العامة عندنا يسجل الفتيان اسماءهم بالدور على استعارة مؤلفات الكاتب الانجليزي هـ. ج. ويلز. وهم يتزلفون الى أمينة المكتبة وحتى يهدون لها زجاجات العطور. وقد قرأت جميع مؤلفاته تقريبا في موضوع الخيال العلمي. ولكن ليس فيها شيء خاص والتكنيك الموصوف فيها متخلف. اما كتابه «روسيا في الظلمات» فقد أعجبني. كم كان مخطئاً في التقدير بشأننا. ولكن ياله من كتاب جيد وملهم.

هبت من النهر ريح باردة رطبة. وكان الثلج الرطب المبلول يلتصق بالوجه وسرعان ما يذوب وتخر قطراته خلف الياقة.

أنزل زايتسيف رأسه بين كتفيه وتقنفذ.

- سأذهب لدعس الحد الفاصل وبهذا أتدفأ قليلا.

صعد الى القمرة وأشعل المصابيح. وأخذ الثلج يتطاير متجمعاً عند فوهتي الضوء الزجاجيتين كبيت النحل. وزمجرت جنازير البلدنزر وتسمر عند حافة الجرف وأخذ يزحف كأنه كتلة صلصالية مربعة في الفج الطيني الذي يكاد يكون شاقولياً.

وعادت الماكنة تخفق من جديد في فج الخندق المغسول الذي يلفه الظلام، منحرفة في انحناءة خطرة تنذر بالهلاك، في الوحل المصاص لتربة الخندق.

وكان هذا بالنسبة لسائق البلدوزر أكثر الأعمال من حيث المشقة وعدم الجدوى. ولكن ما الذي يسجله له في حسابه مقابل هذا العمل مقدر الأعمال؟ أضأل مقدار. اذ ان سائق البلدوزر لم يزحزح الأمتار المكعبة من الطين وانما خبط فيها فحسب. وما من مقاييس لهذا العمل وليس عليه تسعيرة. ولكن سائق البلدوزر يشتغل الآن وفق أعلى مقاييس العمل لدى الانسان السوفييتي.

فكر بافل غفريلوفتش بالويف وهو واقف عند حافة جرف الخندق «ان لم يطق فاصل الخندق حبس الماء سوف ينغمر المعبر المائي من جديد في الوحل وتمتص الأرض الرخوة الأنبوب الفولاذي. ويتوجب تقطيعه الى أوصال ثم انتشاله قطعة فقطعة من الطبقة الرخوة للتربة واعادة كل شيء بادىء ذي بدء».

دوت آلة التجريف المثبتة عند الشاطىء برتابة المضخات العاملة على القوة النابذة. وكانت مطروحة على الأرض الفوهة الحلقية لخرطوم المياه. وهي مدلاة الى الأسفل من الفاصل، وكان الماء يتدفق ثخيناً الى الخندق من فتحتها المدلوعة كالفم الفاغر.

ولكن المعبر المائي كان مستلقياً كما في السابق على التربة نفلا ميتاً، وفي تلك المواضع فقط حيث لم تكن الأرض هشة كانت براميل الطوافات ترفع أنبوبه المستطيل الملتوي وكأنه جسم حي.

حاول بالويف الآن تركيز أفكاره كلها على المعبر المائي. واجتهد أن يتصور مرحلة اثر مرحلة مع الأخذ بعين الاعتبار كل ما حدث اليوم، تلك المباغتات التي تهدد بخطر احتمال وقوعها غداً عند اجراء العملية الجديدة لسحب الأنبوب، وظل ماثلا في خاطره وجه زايتسيف بما يلطخه من بقع الاستبراد الزرقاء، قلقاً وعيناه تشعان بأحلام اليقظان. وخيل لبالويف انه الآن ليس كالانسان الوحيد الذي أحسه في نفسه حين هام على وجهه في موقع العمل في الأرض التي مزقتها جنازير الجرارات.

وأخذ يفكر أيضاً، كما حاول دوما أن يفكر في اللحظات الصعاب من عمره، محاولا اقناع نفسه، مخاطباً اياها قائلا: «حين

ينفرد الانسان ويخلو الى نفسه لا ينبغي عليه ان يعاني شعور القنوط من الوحدة المطلقة. ما معنى الانسان الوحيد؟ انه كما أنا الآن وما ينبغي أن أكون عليه. دوما طيلة عمري يجتمع في داخلي هذان الاثنان. وحين يتغلب ذلك الانسان الثاني الذي ينبغي علي أن أكونه أغدو أفضل مما كنت عليه... والآن أيضاً ينبغي فرض السيطرة على النفس لكي أصبح على النحو الذي أريد أن أصبح عليه».

لم يستطع بالويف أن يتذكر على وجه الضبط الوقت الذي بدأت فيه تخطر على باله هذه التأملات.

ربما تكون أمثال هذه الأفكار قد أخذت تظهر لديه رأساً عقب ادراكه ذات مرة وهو في جبهة القتال انه لم يقتل اليوم وربما لن يقتل غدا وسيبقى على قيد الحياة ولو انه لم يشعر بنفسه بعد وانما تحسس في تألم بشعلة الانفجار البرتقالية الحادة الى حد لا يطاق احتماله وكانت الضربة من القوة بحيث بدا له كما لو انه بفعل الضغط قد أصبح مسطحاً وصار جسمه ألماً خالصاً بلا جسم.

كان الألم من الشدة بحيث أمكنه أن يقتله ولكنه أيضاً هو الذي أنقذ بالويف. أنقذه لانه استطاع وهو يزحف ويئن أن يلفت اليه الأنظار فانتشله من الحفيرة أحد المحاربين وعلى اثر ذلك تقريباً زحف سقف مرن كثير الأجزاء من الجنازير المصقولة حد اللمعان لدبابة فوق رأسه مزمجراً.

وفي حقد ملأ نفسه من الألم الذي أفعم وجوده كله، دفع بالويف أحداً ما وزحف خارجاً من الحفيرة وفي حالة الاستلقاء على الجنب اعتمد على مرفقه وقذف في اثر الدبابة رمانة. كان بريق الانفجار عديم الجدوى ولكن موجة الانفجار دفعته، وأثناء هذه الهنيهة الخاطفة من الاندلاعة النارية للرمانة لحق بالويف أن يفكر بان حالته قد أصبحت الآن خيراً مما كانت عليه حين زحف وتضور مصطك الاسنان من الألم. وعندئذ شعر مرة أخرى بفقدانه وعيه بنفسه متنفساً الصعداء. ولم يعد له وعيه الا من أثر الرغبة في التقيؤ من التأرجح الرتيب للنقالة.

وعلى الأرجح فانه حينئذ أدرك بجلاء انه لن يقتل لا اليوم ولا

غدا وانه حي يرزق. وباحتراس كأنما يتنصت الألم الذي لم يكن الآن كما كان فوق ما يطاق، كأن هذا الألم قد تعب فأخلد الى الراحة. ولكن قد يغدو بعد الاستراحة أشد فظاعة، فأخذ يفكر: «ان الانسان لا يشعر مطلقاً بانه وحيد. ففي نفسه يصطرع دوما اثنان: أحدهما أفضل والآخر أسوأ، وذلك الذي هوأفضل لا يكون أبدا لوحده، وهو فيك كأنما يمثل الناس جميعاً، جميع الناس الذين عرفتهم وأحببتهم، وهذا الشخص الثاني الأفضل هو من يأمرك ويوجهك».

وربما أخذ بالويف يفكر بهذا الصدد في أول بداية المعركة حين كانت طائرات «اليونكرز» تقبل موجة اثر أخرى فتلقي القنابل، وترتجف بفعل الانفجارات الجدران الطينية للخندق الذي جلس قابعاً في قعره، وقد بدا له ان كل قنبلة سقطت انما وقعت على ركبتيه اللتين كان يحصر بينهما بندقيته الاتوماتيكية. أجل بالطبع لقد بدأ التفكير على هذا النحو بالذات حينئذ، ولكن هذه الفكرة خطرت على ذهنه بوضوح جلي فيما بعد. انها لم تجد المتسع من الوقت للقدوم رأساً، لان المحارب يغورروف صرخ بغتة:

– اوه يا للسماء! وألقى على بالويف جسمه الثقيل وكأنما اقتلعت الضربة القوية للقنبلة الساقطة قعر الخندق. وحين انقضى هذا كله استمر يغورروف مستلقيا عليه وصار بعد كل لحظة أثقل فأثقل. وتملص بالويف بصعوبة من تحت يغورروف ووقع ذاك بقوة على قعر الخندق منكباً على وجهه ورأى بالويف ظهر يغورروف كأنما قد قطع بطبر فلقد نفذت شظية من القنبلة في جسد يغورروف بشدة وعمق بحيث لم يسل من جرحه دم تقريباً.

وكان أول شعور خالج بالويف هو الاحساس بالسعادة. فلقد ظل حياً. أما يغورروف؟ وكان ممكنا أن يكون الأمر بالعكس. وشمله شعور بالوهن المريح. ثم تسلق بالويف من الخندق مترنحاً بسبب النفحات الساخنة من انفجارات القنابل، وسقط عدة مرات. ثم نهض وسار على مهل غير متعجل صامتاً، ولكنه سمع صوته القوي الهادر الفظيع وهو ينادي على الجنود داعياً اياهم الى الهجوم.

سار متمهلا على الأرض التي تنتفض الشظايا وتلفظ متضرعاً الى من لا يدري، متوسلا أمهاله حتى يثأر ليغورروف بنفسه...

وحين رأى ان المحاربين الراكضين يسبقونه ركض غاضباً وناقماً لان الآخرين قد يصبحون في المقدمة بدلا منه وبهذا يأخذ الآخرون لا هو بثأر يغورروف.

ولكن من كان بالنسبة له يغورروف؟ لا أحد! انه المحارب الذي انحشر معه في خندق واحد ودخن بنهم جميع سجائر بالويف الضباطية، وتحدث خاجلا من تدخين سجائر الغير، عن نفسه بصراحة ساخرة ومرحة انه يحارب بعقل واحتراس لانه لا يحق له ترك ابناءه الثلاثة يتامى من الأب. ولن يغريه أي وسام على ابداء شجاعة مفرطة، وها قد حفر الخندق أعمق من غيره... قال ذلك عن نفسه متضاحكا، كأنما كان يحث الآخرين أيضاً للضحك عليه.

هل عمد يغورروف الى تسلية الضابط للحصول منه على التبغ، أم انه فهم لم تحجر وجه الضابط المكتسي بحبات العرق الناعمة الباردة؟

يغورروف هذا هو الذي غطى بجسده بالويف ضاغطا عليه الى قعر الخندق بجسمه الضخم القوي، جسم العامل.

لم يعد ليغورروف وجود. ولكن بقي شيء ما في القلب يسيطر على النفس في لحظات الاعياء النفسي، وحين يغدو الأمر بالغ الصعوبة فيسول للنفس اللجوء الى التحايل والتنحي والتملص والقاء ما ينبغي أن تجره أنت على كواهل الآخرين.

حاول بافل غفريلوفتش أن يركز الآن أفكاره كلها على شئون المعبر المائي. لم يشأ أن يفكر في نفسه كم هو غير سعيد واية متاعب تهدده بها كل هذه القضية. ولكن حتى حين فكر في هذه المتاعب لم يستطع ان يستدعي لدى نفسه الشعور بالمعاناة والألم. لم يتحقق له هذا. لم يتحقق حتى عندما اجتهد عمداً في اثارة هذه المشاعر الحزينة في النفس. ولكن ها هو يود الآن التفكير في فكتور زايتسيف و العديد من العمال سواه أكثر من التفكير في السبل التي يمكن بها رفع المعبر المائي الى حالة العوم.

وكما ان الانسان في الظلام يتحرك غريزياً نحو النقطة المضيئة فكذلك بالويف وهو تائه في وادي الأفكار سعى لا ارادياً في البحث عن الطمأنينة النفسية نحو الانسان نفسه...

حين كان بالويف يقف وحيدا عند حافة الخندق حيث كان البلدوزر يدوس ويطمس في قعره الفاصل الهش شاهد قامة دقيقة جداً لفتاة تزحف الى الأسفل من الجرف وفي يدها صرة، وسمع صوت ايزولدا وهي تقول:

– ماذا تفعل يا فيتيا، هل تريد أن تمرض، لم تتناول طعاماً طيلة اليوم وتحمل الآخرين على المعاناة بسببك!

وسكن البلدوزر وسمع في السكون صوت زايتسيف قائلا:

– ولكني يا زوركا لم أطلب منك أن تصبحي لي مدبرة طعام. مازال باقياً لدي من نصف كيلو السجق ما لم يؤكل بعد.

– انظر، أنت كلك تنضح عرقاً وسوف تستبرد في عصف الريح. هيا أدخل الى داخل القمرة. – قالت ايزولدا بلهجة آمرة.

– وأنت؟ هل أنت آمنة من الريح؟ اجلسي أيضاً في القمرة.

وصفقت باب القمرة. واطفئت أضواء المصابيح. اذن فزايتسيف لم يغفل عن الاقتصاد في صرف المراكم. ويجب عليه أن يظل يعمل طيلة الليل يشتغل مع أضواء الكشافات.

استمرت كما في السابق ندف الثلج الثقيلة الرطبة تتساقط على الغدران مصدرة صوتاً كالتمطق. وكان الثلج يسقط على طاقية بالويف وكتفيه. وبتأثير الرطوبة تجدد الألم في شق ناتىء بصدره هو أثر جرح من شظية.

وسار بالويف على غير هدى مضيئا لنفسه الطريق بنور الكشاف اليدوي على طول الخندق، وكان يغمس في الماء عوداً طويلا يقيس به مدى امتلائه.

على مدى ثلاثمائة متر كان الأنبوب عائما فوق ظهر الماء ولكن القسم الآخر منه كان راقداً في قعر الخندق. أما كون ثلاثمائة متر منه في حالة العوم فانه أمر مشجع.

وكان ضوء الكشاف الذي تحمله يد بالويف قد وقع على وجه ايزولدا. وقد ابتسمت وقالت:

– رأيتك تطوف وحيداً في الظلام فقررت مرافقتك في الطريق.

وأخذ بالويف يضيىء قدمي ايزولدا. كان حذاؤها الأحمر على النعل المطاط ملطخاً بالوحل ومبللا تماماً. وأضاء بنور الكشاف

وجهها. كانت عيناها لامعتين تبرقان، ولكنها ضيقتهما بسرعة وغطت وجهها بكفها لتحجب عنه الضوء الباهر، قائلة:

– لا تعذب نفسك يا بافل غفريلوفتش من فضلك. لقد وعد زايتسيف بان يحافظ على الفاصل مهما كانت المياه التي تلاطمه. وانت تعرف مدى صلابته وعزمه. مادام قد وعد فانه سوف يحقق كلامه بالفعل.

– وأنت يا زوركا هل فحصت متانة العزل؟ ألم تنسلخ اللفات العازلة؟

– لقد فحصت وانا في بزة الغطس الأنبوب كله ودرت عليه بكامله. – أعلنت ايزولدا بفخر. – وكنت كالغواصين مغمورة بالماء حد الحنجرة. وتحققت بأن كل شيء كما يرام. – ثم سألت مستغربة: – ولماذا ناديتني مخاطبا باسم زوركا؟

– لست أنا أول من يخاطبك بهذه الصورة!

– بالفعل هذا صحيح فلست الأول.

– ومن هو الأول؟

– حتى لست أتذكر. فقد بدا للجميع فجأة ان يخاطبونني هكذا. أما أنا فلم أجد في ذلك بأسا وأخذت أستجيب لهذه المناداة. وما دام ذلك يعجب الفتيان فلا مانع عندي.

وقال بالويف بنبرة حازمة:

– عليك القيام غداً باعادة فحص العزل.

– أفليس يوم الغد قد بدأ الآن.

وأنار بالويف بالكشاف ساعة معصمه: أجل، هذا صحيح لقد أصبح الغد هو اليوم، ينبغي أن يكون كل شيء اليوم أفضل مما كان بالأمس.

أخذ الثلج الكثيف غير المرئي يهطل بغزارة كأنه انهيار ثلجي جارف مخلوطا بالماء.

بينما زمجر بعناد محرك البلدوزر في قعر الخندق المغسول بالماء الذي تدفق أمس وكان الثلج يشاهد في الهالة البيضاء المنطلقة من الكشافات. وقد سقط هذا الثلج عموديا ثقيلا في كتلة متراصة معشياً الأبصار ببياضه الناصع ليزيد من صعوبة العمل على الناس في هذه القطعة السوداء المتغضنة من الأرض.

لقد علم الحزب بالويف أن يستشف من خلال المرارة والألم والقنوط ما كان يتوخاه ويستهدفه العمر كله.

والآن أيضاً، وقد اكتنفته العتمات الشفافة، رأى السماء تنشر قبتها المنصوبة كالخيمة فوق المصانع وقد لطختها ببقع السخام التي تنفثها مداخن هذه المصانع. فيما شكل الدخان الأسود كسواد الحداد شاهداً مقرفاً على الاحتراق غير الكامل للوقود. بينما من واجبه هو، بالويف، أن يقدم الى أفران هذه المصانع الغاز وعندئذ تغدو السماء فوقها متحلية بالصفاء والنقاء الى أبد الآبدين، فكأنه يسمع باذنيه هسيس توربينات الغاز المسطحة التي سوف تنضغط فيها ضمن دائرة مغلقة الأعاصير العاتية ذات القوة الهائلة والتي تتولد منها الطاقة الجبارة. وتخايل له، وكأنه يشاهد بأم عينه، ورش المصانع الخالية من الناس، المغمورة بالنور كالمزارع المزججة حيث تعمل بلا ضجيج وبأناقة وبشكل مهيب الخطوط المؤتمتة التي تصنع من الغاز، دون ان تمسها يد انسان، أعقد وأدق المنتوجات.

لقد جلل بالويف هذه المرة العار. ولكن، ماذا في ذلك؟ سوف يتحدث فوكين عن الاستعراض الذي نظمه بحضور الجمهور. أفلم يكن جميلا سير الأنبوب، أو لم يكن بهياً ذلك المنظر؟ لقد فعل الناس كل شيء بأكثر وأفضل ما يستطيعون وقد استهوتهم الأبهة، أجل الأبهة، التي أراد بالويف أن تجري بها عملية سحب المعبر المائي. أجل انه يهوى مظاهر الأبهة والفخامة. قولوا ما شئتم فانه يحب ذلك بالفعل! ولكن لماذا؟ لانه في هذه الحالة يسير العمل على نحو أفضل ويشتغل الناس بروح الالهام المبدع. انهار جرار زينوشكين؟ معنى ذلك ان هذا الفتى له نفس يبهرها الاحتفال المهيب! وقد انهار به الجرار لانه اشتغل مأخوذاً بروح الاعجاب فأوقع به هذا الاعجاب! اما في يوم الغد فان هذا الفتى المأسور بروح الاعجاب والاندهاش سيكون بوسعه القيام بنفس الجرأة التي يتحلى بها لوبانين بما يعتبر فوق المستطاع. وحبذا المزيد من أمثال هؤلاء المعجبين المندهشين! وبالويف نفسه قد وقع أسير الانبهار بروح الاعجاب فأمضى بتوقيعه وثيقة المحضر قبل الانجام التام لكل حجم الأعمال. وبهذا وقع في الورطة! وعليه أن

يدفع ثمن ذلك. ولكن هل ثمة في العالم كله ذلك الثمن الذي يمكن دفعه لقاء احساس هذا اليوم بالسعادة في نفوس الناس؟ كلا لا يوجد مثل هذا الثمن! انهم يهددونه بالغرامات! غرامة! فليكن ما يكون وما باليد من حيلة. ان الأمر من الناحية الشكلية صحيح، اما من حيث الجوهر فانه ضيم، هذا كل شيء.

أخذ بالويف يسخط على نفسه تدريجياً لكون مزاجه قد تعكر مستسلماً لليأس والقنوط. وبسبب الامتعاض من نفسه أصبح حتى يرى بشكل أوضح في الظلام. وقد اكتشف وهو يهيم على وجهه في موقع العمل انه هنا ليس بالمرة لوحده. وعدا فكتور زايتسيف العاكف على دعس الفاصل صادف لوبانين. وكان هذا يعمل أيضاً على اقامة فاصل مشتغلا على بلدوزر رغم انه لم يكن وارداً بالمرة في مشروع عملية سحب الأنبوب النص على اقامة فاصل اضافي. وسأله بالويف مغضباً:

– ما الداعي الى هذه التصرفات الكيفية؟ ولماذا تكور فاصلا زائدا؟ ومن الذي سمح بذلك؟

وتطلع لوبانين بلطف وقلق في عيني بالويف وأعلن بنفس مطمئنة:

– لقد فكرت يا بافل غفريلوفتش بانه ينبغي استحداث الموجة الأولى بغية تحريك الأنبوب. فهذا الفاصل ما ان نكسره ونزيله حتى يندفع الماء ومن بعده نكسر الفاصل الثاني ثم الثالث وكل هذا في اندفاعة رتيبة من الموجة نفسها وبهذا يعطي الماء جهداً جاذباً اضافياً.

–احسنت صنعاً. هذا صحيح وبديع! – وافق بالويف وقال بشكوى: – بينما أنا لو تعلم، أتجول بسبب الأرق وغيره من أسباب المعاناة والتأثر.

وتنهد لوبانين قائلا:

– عندي كذلك من هذا ما يكفي.

– وما السبب؟ – قال بالويف بقلق.

– هكذا لا شيء، انما هي أشياء صغيرة. – لوح لوبانين بيده في استهانة. – مأساة شخصية على أساس التصور. انه المضمون المعتاد في الأفلام السينمائية: راودته الأحلام عنها بينما

فضلت هي رجلا آخر. ولم يحصل النزاع بسبب اعتماد سياسة التعايش السلمي المنقولة من الوضع الدولي الى الأحوال الشخصية المدنية.

وشغل المحرك وأخذ يجرف التربة بدرع البلدوزر واندفع نحو الفرجة الواسعة السوداء في الخندق واختفى فيها.

وجاء بالويف الى شاطىء النهر. كان مصباح أحمر ياقوتي اللون على هيئة نجم وضاء يشعشع في العتمة الضبابية فوق مقدمة المعبر المائي.

وكان ثمة من يشتغل في الظلمةوهو يدق ثابتاً مقابض المجاذيف على ممسكها. فرنا بالويف ليرى عن كثب.

انه ممثل الاسطول النهري (وهو نحيف معروق، من أعلن قبل أمد قصير وبشيء من الحقد فرض الغرامة جزاء خروج المعبر المائي الى المجرى الملاحي) وقد ابتسم لبالويف بين الترحاب والقلق:

— لقد نصبت يا بافل غفريلوفتش على الزورق كشافاً يعمل بمركم، ولدي فكرة: ان القي المرساة في منطقة عالية من المجرى، وبالطبع سأصيد سمكاً، ولكنني هناك سوف اوجه التحذير من الأخطار بواسطة الضوء. ومع اننا لم نسد المجرى ولكن مخرج الأنبوب على اية حال قد وقع فيه واذا جرى المرور هنا بسلام حسب الاشارات فمعنى ذلك كل شيء على ما يرام فنستغني عن الشكليات الرسمية.

— شكراً — قال بالويف.

ودنفش النهري بمكر.

— وما الداعي للشكر فانني انما أفعل هذا في سبيل الحصول على السمك أما الباقي فهو عرضي كما يقال. — ودفع الزورق عن الشاطىء وأخذ يجذف بقوة واختفى في الاشراقة اللامعة المشربة بالزرقة، المترقرقة فوق صفحة النهر، حيث انعكست على سطحه قبة السماء اللازوردية مغمورة بالضياء.

استقر غير بعيد عن الشاطىء قارب الغطاسين وكان يشع فيه بسطوع مصباح كهربائي غير مستور، وترامى الى الاسماع صوت المضخة الكابسة التي تعطي الهواء للغواصين تحت الماء، وثمة الآن

بوبنوف يقوم باجتراف التربة حول المعبر المائي، الراقد في الخندق تحت الماء.

وأنار أيضاً فوق الجرافة المثبتة الى الشاطىء مصباح كهربائي مماثل مكشوف، ودوى صوت الديزل، وقعقعت المضخات العاملة بالقوة النابذة. وسار بالويف على السابلة الى الجرافة، وهبط الى الهوة المربعة المعدنية لقسم الآلات. كان الجو هنا حاراً والضجيج لا يطاق من الآلات العاملة.

كان أفراد الفرقة يلعبون الدومينو على قعر برميل مقلوب من براميل زيت التشحيم، وقال آمر فرقة المضخة فيتوشكين مقدماً تقريره الشفهي:

– كل شيء على ما يرام أيها الرفيق الرئيس، حتى الصباح سوف يملأ الماء الخندق مرة اخرى.

أومأ بالويف برأسه موافقاً وخرج. لم يرد أن يلحظ الفتيان ذقنه يرتجف من الامتنان، وان عينيه مغرورقتان بدموع الشكران فليس من اللائق أن يكون الرئيس على هذا الحد من التأثر ورقة الشعور.

كان ويلمان يشرف على تفريغ الوقود وعلى وجهه أمارات الجد والهيبة، وكانت شفتاه مزمومتين، مما خلع على محياه تعبير التأفف والتسلط، حتى انه لم يلتفت الى بالويف. وقاس فيرسوف بالخطوات طول الأمراس المطروحة على الأرض. فاستفسر بالويف بصرامة:

– اهو أنت من أصدر الأمر بمواصلة عملية السحب في الصباح؟ انني أسألك، أنت؟

– لست بآمر، – أجاب فيرسوف متهربا وبعد فترة صمت قال بغضب: – الجميع هنا يعتبرون أنفسهم آمرين. كل ما في الأمر هو انني جئت بغية القاء نظرة على الساحة لأرى كيف يتصرف الحارس الجديد. لقد أخذته من السكان المحليين وهو ليس من ذوي الخبرة، ولم يتعود على هذا العمل. وانظر فاذا الناس كثيرون يعملون على هواهم وكل مشغول بأمره. – وأعلن بحزم: – وأعلم يا بافل انني لا أعمل ضد أسرة العمل فافعل ما بدا لك. اما أنا فسأظل أشتغل مع هؤلاء سنوات اخرى وسنوات. فاذا شئت فبوسعك الغاء الأمر. ولكني

لست شريكا لك في هذا. - وصرخ مخاطباً عامل الربط: - هيا يا عزيزي عجل ربط الأمراس المتمزقة! سوف يجري الجر غداً بالأمراس الثلاثية أما في الثنائي فلن تنسحب بل تنقطع، اذن فاجمع كل ما تجده منها اية كانت.

وقام فافيلوف - وهو الآن لا ينتعل الحذاء الطويل الجديد، وانما دس رجليه في حذاء لبادي قديم وسخ، ومعه زايتسيف ومارتشنكو بلف خرطوم مياه غليظ خلف الفاصل الذي سواه لوبانين. وتدفق الماء من الخرطوم الثقيل، المرن، المبقبق، وقد طمرت نهايته في الخندق، ممتلئاً بالماء. ونزل بالويف الى الخندق وجلس القرفصاء وبحركة رقيقة راعشة من باطن كفه أخذ يلامس صفحة الماء، بينما غمرالماء قدميه، وصار يجترف الجرف الرملي برفق. كان بالويف يشعر بالرعشة والبرد، ولكنه لم يعد يشعر بتاتاً بوحشة الوحدة.

وفكر بالويف في بوبنوف. انه يشتغل وحده الظلام الدامس تحت الماء بالتيار القوي لجهاز المونيتور المائي الذي بوسعه في حالة حدوث حركة غير صائبة كسر أضلاع الغواص أو رض يده. ولكن بوبنوف كان يعمل فقط في غسل التربة من المعبر المائي. وفي مثل هذا العمل ليس الأجر الذي يكتسب كبيراً. ثم ان العمل وقتاً اضافياً ممنوع أصلا، والكل يعرف هذا. بينما جاء الجميع ليلا الى المعبر، فهم جميعاً يشتغلون. وها هن فاحصات دروز اللحام بالاشعاع وعاملات المختبر ورابطات لفائف العزل قد تناولن بايديهن الجواريف وأخذن يطفن ويدرن بمحاذاة الخندق وحيثما امتلأ بالماء حتى الحواف ينثرن التراب لحفظ أكثر ما يمكن من الماء لعملية اليوم لسحب المعبر المائي.

انتفخت وانتشرت فوق النهر كتلة متلبدة بيضاء معتمة من الضباب. واقشعر النهر مرتجفاً من البرد، وتأرجح القنديل الأحمر الياقوتي المعلق في ناصية المقدمة للمعبر المائي برتابة في العتمة المشربة بالزرقة.

تواامض ضوء الكشاف على مجرى النهر بعناد، هناك ممثل الاسطول النهري يرتجف في الزورق مرتعشاً من البرودة، يواصل التحديق بعينين حادتين كعين الطير الى مجرى النهر منتظراً مرور

السفن التي أزمع ارشادها للمرور الى جانب من الفوهة الفولاذية للأنبوب البارزة وسط المجرى.

انبلج الفجر تدريجياً فغسل بنوره العتمات. وشعشع الثلج والصقيع ببياض ناصع يعشي العيون حد الألم.

لقد بدأ يوم جديد، ساطع، ساقع. وقف بالويف من جديد على الطرف شديد الانحدار لرأس البر والمنظار معلق في عنقه على صدره، وبيديه رايتان بيضاء وحمراء. وبدا وجهه غير الحليق كأنه متسخ. ولكن عينيه كانتا كما هو حالهما دوما تبرقان بوضوح وبلا كلل.

رفع بالويف احدى يديه ملوحاً بالراية البيضاء، فأمسك فيرسوف أمام وجه رئيسه المنظار. توترت الأمراس مسحوبة، وزحف المعبر المائي هادما الفاصل الترابي في شلال فوار من التيار المندفع نحو الهاوية.

أخذت الراية الصغيرة الحمراء المبللة المنصوبة على هامة المعبر المائي تقطع النهر ماضية أبعد فأبعد. وعندما كانت الراية قد تجاوزت المجرى تقريباً انقطع مرس الجر، وصار الأنبوب يطفو.

انفصل عن اللنش زورق. جذف الغطاس كوتشيتكوف بشكل واسع وقوي. وحين دنا من المقدمة قفز الى الماء وغطس ومعه حبل ولم يظهر فترة طويلة، ثم برز بعد الغط وبيده طرف الحبل، فاعتلى الأنبوب ممتطيا اياه، وسحب المرس وأدخله عبر الفتحة الجانبية وعقده. ثم قفز مرة أخرى الى الماء وصعد الى الزورق، وبدأ يجذف من جديد عائدا الى اللنش. ومرت قافلة الصنادل التي شاهدها كوتشيتكوف من خلف المنعطف عابرة بسلام وأمان خلال المجرى. فان مرس الجر المربوط بالأنبوب أنزل في الوقت المناسب الى عمق الماء.

اقترب الى بافل غفريلوفتش الغطاس بوبنوف وراوح، ثم قال بعزة نفس:

– كنت تظن ان زايتسيف الذي لديك لا مثيل له، ولكن أرأيت من عندي؟ لحظة فاذا كل شيء جاهز. وقبل هذا كم كان الأمر لنا مؤلماً ثقيلا. ليس من مهنتنا الولوج عبر الأنبوب المدسوس في التراب. – ودخن وقدم سيجارة الى بالويف واعترف قائلا: ولكني

لو تعلم نضح مني العرق على أية حال بسبب الانفعال. فالماء بارد وهو يسبح فيه. – وقال شاكياً: – من الصعب توجيه الناس حين يكونون على هذه الدرجة من الاندفاع. كان بوسعه ان يشبك بالخطاف ولكنه لم يفعل. وذلك لفهمي انهم يريدون ابداء البطولة أمام الملأ. الشبيبة تحب التصرف بحرارة، وليس كشأننا أنا واياك، من بردتنا السنون والحكمة.

– قل لي كم من الأمتار المكعبة رفعت طيلة الليلة؟ – استفسر بالويف دون ان يلتفت ودون ان يصرف بصره عن المنظار.

– ولكن هذا هو سري، – قال بوبنوف، – وهو مصلحتي الشخصية.

وانكفأ المعبر المائي مرتطماً بلسان ترابي مستنقعي وحرثه برأسه المذبب فتساقط منه الوحل، وكله في كتل الحمأ وصار يزحف على الشاطىء. وخلع بالويف المنظار من عنقه، ووضع الرايتين على الأرض، وتطلع ثم قال لفيرسوف:

– حبذا لو قدمت لي الآن البطاطس وعليها القشطة الرائبة.

– هذا ليس عسير التدبير، – قال فيرسوف موافقاً واستفسر بقلق: – وماذا بشأن المعبر الجديد، متى سنرسل التكنيك الى هناك؟

– ولماذا نطيل في الأمر؟

– طبقات التربة هناك كذلك صعبة المراس. – قال فيرسوف مقطبا.

– انها أسوأ مما هنا، – وافق بالويف. – لكن ضع بعين الاعتبار ما حدث أمس فسوف نتغلب عليها. وأنت انظر، – وانتعش بالويف قائلا: – لقد قدرت الأمر. – وجلس القرفصاء وسوى براحة كفه الرمل وصار يخطط بعود عليه جدولا. – اذن فهذا ما أقترحه، – قال بافل غفريلوفتش. – فليأخذ الشيطان الخندق! فلنتفق مع ناصبي الخط على البر. ونأخذ منهم على سبيل الايجار ليوم واحد عشر رافعات – ناصبات الأنابيب ونضيف الرافعات الست التي لدينا ونصفها على خط واحد ونرفع المعبر المائي مرة واحدة على الصفائح الفولاذية ونحملها الى النهر. أما من الشاطىء الآخر فيكفي لسحبه جراران. وسوف يجرانه فقط لئلا يجرفه التيار.

في حالة التعويم يبقى من وزنه نسبة أربعين بالمائة فقط مفهوم؟ وهذا يتيح لنا توفيراً مقداره ثمانون ألفاً من الروبلات. والأمر الرئيسي هو الوقت. نحضر كل شيء ونجمع خلال الليل التكنيك في مجموعة واحدة كقبضة اليد، وفي ظرف يوم واحد نسحب المعبر.

وبعد أن أمعن فيرسوف التحديق في الجدول المرسوم على الرمل، وظل طويلا يتصور بتركيز، عاضاً على شفتيه اللتين أيبستهما الريح وانحنى متطامنا كأنما يحمل الآن على ظهره ثقلا لا يطاق، ثم أعلن متنفساً الصعداء:

– لا بأس، هذا ممكن. لم يشهد من قبل، ولكن يبدو انه ممكن الحصول. وسوف يعمل التكنيك كله مائة بالمائة.

واقترب فوكين وشد على مرفق بالويف وقال:

– الذي أريد أن أقوله يا باشا ان الورقة التي ذيلناها بالتوقيع غير مناسبة. هلم بنا نذيل بالتوقيع أخرى يؤخذ فيها بعين الاعتبار ما جرى هذا اليوم.

– هيا بنا. – قال بالويف بشيء من الذهول.

– ماذا يا طائش ألست شاكراً ولا مبتهجاً؟ – سأل فوكين مستنكراً.

– انتظر، – قال بالويف، – ألا اتراني مشغولا. وقال لفيرسوف مواصلا الحديث: – في البداية يجب اجراء بروفة. ندفع الأنبوب لمسافة مائتي متر وننقله حملا ثم نلقيه كليا في النهر...

يشكل الربيع المبكر للبناة متاعب كبرى وهجمة شخصية عليهم من الطبيعة. وتثير في نفوسهم القرف هسهسة قطع الجليد الذائبة والنجمات الشمعية للزهور النابتة تحت الثلج على الأرض المتخلصة لتوها من الثلج. ولو كان ممكناً بدون نفقات أساسية باهظة ايقاف الشمس لقاموا بايقافها. وما من أحد شديد الحساسية من حيث الشعور بالظروف المناخية والأنواء الجوية مثل البناة، تلك طبيعتهم وهي عصبية وبالغة الحساسية. وهم يذكرون الربيع والخريف بنفس العبارات سواء بسواء قائلين بامتعاض: «هذا وذاك قذارة وبلاء!» وهم لا ينظرون الى الأرض الا باعتبارها تربة.

حبذا لو استمر الحر الذي لا يطاق أو البرد الذي هو أيضاً

فوق الطاقة بنفس الدرجة فان كانت متانة التربة مضمونة ومؤمنة فمعنى ذلك ان الظروف المناسبة للبناء متهيئة. ولكن حينما يكون كل شيء مائعاً، يتغير من حال الى حال، فما الفرق حينذاك ما هو الذي يخلق لك المضايقات والازعاج أهو الربيع أم الخريف. من جراء كليهما لا يتطلب الأمر سوى النفقات الزائدة عن الحد المقرر. هكذا يفكر البناة عن هاتين الفترتين الرائعتين من أوقات السنة: الربيع والخريف...

كانت أجمة كثيفة من الأشجار الضخام مكتظة على تربة رطبة رمادية. وعند أعتابها ارتمت وريقات سوداء متعفنة لأشجار البتولا والحور، أما أوراق البلوط ذوات الجلدة الغليظة فكانت كأنها لم تمس. وظل المطر الرذاذي الممل يغسل بلا كلل الثلج الوسخ المتجمع في المنخفضات والوهاد.

ليس الا قرص الشمس الذي حجبته غيوم رمادية متلبدة، بعث الدفء بمقدار ضئيل. انتقل بالويف مع الأصدقاء في سيارة بيك آب على طول الخط الرئيسي لانابيب نقل الغاز البالغ ألف كيلومتر. كانت الأعمال هنا منجزة تقريباً، وقد امتد بلا نهاية، في الرحاب المترامية الأطراف، الخط المستقيم للسدة الترابية ذات اللون المشرب بالحمرة والتي دفن تحتها الخيط الفولاذي لأنبوب النقل. وقال بالويف ساخطا وهو يتطلع بنقمة الى الطريق المتوحل المتحمض:

– ان كبر السن هو مثل المرض سواء بسواء، ينبغي معالجة الناس منه لشفائهم.

– لا يزال سابقاً لأوانه تحدثك عن كبر السن.

– واذا كان يعترشني؟ وها هي ذاكرتي قد وهنت ولم تعد كما كانت. – والتفت الى سيفولوبوف قائلا: – كان في نيتي توجيه اللوم اليك أثناء الاجتماع الانتاجي فنسيت ويتعين علي القيام بذلك أثناء الاجتماع القادم.

تعود الجميع على رؤية سيفولوبوف ممتطياً دراجته النارية، ولو كانت هذه جواداً حقيقياً لنفق على الأرجح منذ الأيام الأولى من الخدمة بالاعياء الذي ركبه من الرحلات الطوال على طول خط الأنابيب. كان سيفولوبوف يعامل ماكنته هذه ذات العجلتين بحماس

وانفعال ويرغمها حتى على العبور فوق مواطىء الأقدام في المستنقعات ما دام أنبوب الغاز قد قطع كلا من المستنقعات والجبال وأحراش الغابات. وكان ويلمان يطلق على سيفولوبوف كنية الديناصور. والآن كان سيفولوبوف بدون الموتوسيكل (المحطم والمحمول مربوطاً خلف السيارة) يبدو محروماً من نصيبه في العيش، تماماً كفارس فقد جواده.

آثر سيفولوبوف متطامنا كالقنفذ تحت نظرة بالويف النفاذة ادارة الحوار حول كبر السن لدى الانسان. وقال متأملا في التفكير:

– انني موافق على العيش مهما طال العمر ومرت السنون. ولكن لا يتوفر لحد الآن عقار يطيل العمر. اما الحياة على غرار بعض المعمرين الطاعنين في السن على الوتيرة البطيئة الوئيدة وحدها في الجبال بين الضأن وفي الهواء الطلق النقي ولكن بدون أي مجتمع فانني ضد هذا. انه ليس حياة بل هو مثل قطعة اللبان تعلك وتظل تعلك ولست أهوى لنفسي مثل هذه الحياة المديدة الممطوطة.

وتنهد فيرسوف قائلا دون أن يبدل من سحنته المتجهمة الثقيلة:

– أما أنا فقد سعى لي بافل غفريلوفتش في الحصول على شقة وأنا الآن أتمنى العيش فيها حتى نهاية هذا القرن بكل ارتياح مع الأحفاد.

وتضاحك بالويف وهو يقول:

– ستعيش معهم طويلا. كيف لا. –وقال شاكياً: –لقد أخذوا مني الأحفاد. واستحوذ كل من صهري وولدي لنفسيهما على شقة مستقلة. فاذا عدت الى البيت فهو صحراء. وعليك أن تذهب الى أولادك لتنزل عليهم كضيف ملحقاً بنفسك المذلة.

وأفاد سيفولوبوف بانفعال قائلا:

– من المتوقع أن ترد لي قرينتي قريباً الدين الذي أودعته. وحبذا لو كان ولداً ذكراً! اذن لجعلته على غراري في عالم الطيران.

– حتى ذلك الحين سيغدو طيرانك من القديم البالي تماماً، – قال بالويف. – سوف يطير الانسان حصراً على متون الصواريخ.

– هذا سواء لدي، المهم أن يطير.

تأرجحت السيارة على جانبيها وهي تسير فوق الربوات

المتموجة، مرتقية الحفر المملوءة بالماء الداكن بصعوبة الى البر. وتسايلت على الزجاجة الأمامية للسيارة تيارات من الماء الوسخ.

وحين مرت السيارة عبر جسر حديدي مشدود طويل ممتد بشكل قنطرة وتحته نهر عظيم حبسته قطع الجليد كأنما كبلته بالأغلال، لم ينظر أي واحد من هؤلاء البناة حتى ولو بطرف عينه نحو تلك الناحية حيث استقرت على الشواطىء الفسيحة العراض المغمورة بالمخاضات في الخنادق المحفورة تحت الماء أنابيب المعبر المائي، وهو واحد من المعابر المائية العديدة الممدودة من قبلهم على هذا الخط الطويل.

لا يحب البناة الوقوع في أسر الذكريات العاطفية مستسلمين لتأثيرها. فهذا كله قد أصبح بالنسبة اليهم اليوم جزءا من الماضي الغابر. وفضلا عن ذلك فانهم كانوا الآن يستريحون في السيارة، أو حسب تعبير بالويف «غسلوا نفوسهم بالكلام الفارغ».

انطرحت على الشاطىء «كالأموات» بعد انتشالها من الأرض حزم جذوع الأشجار الملفوفة بالحلقات المعدنية، وقد انتفت الحاجة اليها بعد استعمالها في الوجه الذي اعدت له. وحين كان المرس المتوتر مسحوبا على البكرات المحاطة من جانبيها بالاقراص الفولاذية، مربوطاً الى هذه الأخشاب «الميتة» حاليا، أز حاراً من شدة الجر، ساحباً عبر قعر النهر الأنبوب العملاق للمعبر المائي، وقد تخلعت الألياف الخشبية وهي تخشخش وتفرقع، وانفصلت منفجرة من الضغط الذي لا يحتمل، وها هي الآن ملقاة وقد نال منها الاعياء كل منال قطعاً خشبية متهرئة لا تصلح الا للتقطيع واشعالها كوقود. ويأخذ التعب مأخذه لامن الخشب وحده وانما أيضاً من المعدن. فها هي مطروحة بجوار الأخشاب «الميتة» قطع معدنية هي أجزاء من مكائن ما. وهي أيضاً قد أدت خدمتها ولم تعد أجسامها المعدنية بقادرة بعد الآن على تحمل المزيد من توتر الجهد في العمل، فهي ستنقل الى اعادة الصهر في فرن مارتان.

وكانت القواطع الشاطئية المنحدرة مهروءة ومضغوطة بالمواطىء الفولاذية للجرارات والرافعات - ناصبات الانابيب والعربات المقطورة، وتلك هي آثار الآليات المنقولة الى منطقة العبور المائي الجديد.

ولكن الآن أيضاً لم يوقف أحد من البناة حتى نظرة عين على هذه الشواطىء المغمورة بالطمى، حيث تم عبور النهر بعد أن طرزوا قعره بالانفاق الفولاذية.

بعد اختفاء النهر عن النظر حسب، وتقافز السيارة على الجذور الصلبة في حرش الصنوبر، تلفظ فيرسوف في تأمل:

– أما أسماك الشبوط فقد كانت هناك لا بأس بها، دسمة.

لكن أحداً لم يؤيد ذكرياته الطعامية.

تصاعد في الهواء عمود دخاني رقيق كأنه غلالة منسوجة من حبات غبار زجاجي دقيق جداً. وأطلت من خلال ثغرة بين السحاب العابر في السماء سبيكة الشمس الملتهبة وأخذ كل شيء يلتمع ويبرق بالضياء المشعشع. وشعت بنور أزرق الغدران وقطع الجليد المتكومة على امتداد البصر كقشور البيض، وكما لو كانت سطح معدن مطلياً بالكروم. ورنت كصوت قرع الكؤوس الزجاجية دوالي الفتائل الجليدية المعلقة على غصون أشجار الشوح. أما الهدب السجافي الأبيض لقطر الندى المثلوج المتدلي من الأسلاك المشدودة بين أعمدة التلغراف فانه ذاب وأصبح قطرات ثقيلة الوزن من الماء الرقراق مشعة في نور من شتى الألوان، كقوس قزح، متجمعة، متساقطة الى الأرض.

سحب السطح العريض الهائل للعربة المقطورة جراران. وكانت واقفة على العربة المقطورة رافعة – ناصبة الانابيب وثمة طوافتان من محطة الغواصين. بينما استلقى ذراع الحفارة منكوساً، وفكها الفولاذي.

انحرفت سيارة غاز الى حافة الطريق وصارت تسير على افريزه ثم اعتدلت وعادت تسير على سواء الدرب.

وامتد على مدى البصر في الضباب الفضي السهل الفسيح، مبقعا بالثلج في الوهاد، مذهباً في رباه، المشوبة بأرق اخضرار لعشب بكر دقيق جداً فواح، وهذه النكهة بدا وكأنها رائحة السماء الربيعية ذات الهالة من النور.

وقال بافل غفريلوفتش مأخوذا بدهشة الاعجاب:

– اسمعوا يا فتيان. قرأت في احدى أقاصيص تشيخوف. –

وأغمض عينيه نصف اغماضة وتلفظ في لهجة احتفالية: - «لم أشهد في حياتي نهراً أروع من نهر ينيسي. صحيح ان نهر الفولغا يرتدي أبهى الحلل مثل حسناء حزينة متواضعة. فليكن. الا ان ينيسي هو العملاق القوي الجبار القهار والهائج الذي لا يدري الى أين يوجه قواه الهائلة وشبابه الفوار... يا لها من حياة تامة وذكية وجريئة تشع مع الزمن فوق هذه الضفاف!» - واعتدل بالويف في جلسته وضغط بقوة على ركبة سيفولوبوف وقال: - كلا، فكر كيف انه وصف بالضبط عصرنا هذا بانه - الحياة الجريئة. - ثم قال مستغرقاً في التفكير: - مهما عشت في هذا العالم ومهما اشتغلت ففي كل حين يخيل اليك انك انما تشرع اليوم فقط في انجاز العمل الحقيقي الكبير.

قال فيرسوف موافقاً:

- تتغير دوما أنطقة العلم والتكنيك وكذلك المهام المتناسبة معها. - ثم أعلن برصانة: - الربيع في سيبيريا قصير والخريف جاف وهذا بالنسبة للبناة مجالات مريحة كبيرة من ناحية حالة التربة. وهي ليست كما هي الحال هنا: زلق طويل الامد، ومطر خليط بالثلج، ونسبة عالية من المياه الجوفية. اما بخصوص الأنهار السيبيرية فانه لصحيح ما قاله تشيخوف، نحن نعاني منها ما نعاني. فالقوة فيها جبارة، وسرعة التيار هائلة. وقعر النهر انجرف على مر القرون. فاذا أحدثت فيه اختلالا فان التربة تبدأ تضطرب وترطم الأنبوب وعليك أن تصمد!

- في سيبيريا سوف تخضع جميع الأنهار لمجال الأعمال وستدور فيها تروس التوربينات، - أيد الرأي بالويف. - «سوف يزيد الجبروت الروسي بسيبيريا» ذلك ما تنبأ به في حينه العالم المؤسس لومونوسوف، أهمية سيبيريا هي التفوق بالثروة التصنيعية على امريكا. وحين أغمض عيوني وأفكر كم من الأعمال يتعين انجازها هناك تغني الروح! وتطير فرحاً وسروراً.

- لماذا اذن شكوت؟ وقلت ما قلت عن السنين! وطلبت دواءاً يشفي منها!

- انما فعلت هذا لمجرد ادارة الحديث. اما في الواقع فانني أعتبر ان عمري سيظل حتى نهاية حياتي غير طاعن في السن.

– موافق، – أيده سيفولوبوف. – لقد تقدمنا الى المرتبة الأولى بين البشرية من حيث اطالة العمر وهذه حقيقة ذات أهمية عظمى.

– لسوف نستفيد من هذه الحقيقة.

كان يجري في المحطة الفرعية للسكك الحديد شحن الآليات على العربة المسطحة، ما خصص الى قطاع العمل الانشائي الذي يشرف عليه بالويف...

وفي عربة نقليات الركاب علقت على المشاجب الخشبية بزة الغوص المطاطية، فيما وضعت على أرفف الحقائب خوذ نحاسية ملمعة.

وكان ويلمان كعادته دوما يرتدي معطفه المشمعي وهو يمط بقلق شفته السفلى ويشرف بشكل مهيب على عملية الشحن مصدرا أوامره. اما مارتشنكو وزينا بنوتشكينا التي كان قرطاها يشعشعان في اذنيها، وكذا القلادة على جيدها، فقد غطتا بالمشمع في عناية وحرص جهاز اللحام، ثم لفتاه بحبل.

وراقب بوريس شباكوفسكي كيف كان يقوم بالأمر نفسه مساعده الميكانيكي. كان وجه شباكوفسكي طافحا بالخيلاء واللامبالاة. ولكن حين ظهرت كابا بودغورنايا وتحت ابطها رزمة من الملصقات اكتسى وجهه بالابتهاج. وتناول الرزمة من كابا واسندها برفق من تحت المرفق وساعدها في الارتقاء على عتبة العربة. ثم عاد شباكوفسكي من جديد الى العربة المسطحة واستعاد وجهه تعبيره السابق بالتعالي والخيلاء. وقد بين للميكانيكي بصمت وبمجرد اشارة من كفه المدسوسة في القفاز الطريقة المثلى للف جهاز لحامه بالحبل.

ووضع لوبانين وهو يقتعد مكانه في الرافعة – ناصبة الأنابيب المونيتور المائي على العربة المسطحة. ووضعت ذراع الرافعة وكأنها تتمة لذراع لوبانين بكل دقة الصندوق الضخم للمونيتور المائي فوق العجلات بين ماكنة الديزل والطوافة. وتسمر فافيلوف وفي يديه حقيبتان واقفا على عتبة العربة مراقبا كيف يشحن لوبانين المونيتور المائي. وبعد أن صرخ من الارتياح حين وقفت الماكنة في الموضع

المطلوب حد الشعرة، دخل فافيلوف الى العربة محافظاً على تعبير الارتياح على محياه والذي أتاه من مهارة لوبانين في العمل.

تنزه ميخوف على رصيف المحطة بصحبة جرو منفوش الشعر، بينما لاحت على سحنته أمارات الانشغال والكآبة. وجلست ايزولدا بزوغلوفا القرفصاء متطلعة الى الجرو بلطف. وأعلن ميخوف قائلا:

– أريد تقديمه هدية الى كريمتي فان رفضت قرينتي الاحتفاظ به في البيت فسوف أعيده سوية مع الابنة. وسأتولى بنفسي تربيتها لتكون انساناً جديراً بهذا الاسم.

– هذا هو الصحيح، – قالت ايزولدا. – لا بد أن يكون ضمن أسرة عملنا أطفال وسوف نقيم لهم روضة أطفال. ثم نجعل منهم جميعاً عاملين في البناء والتشييد.

سار فكتور زايتسيف منحني الظهر وهو يحمل جهازاً تلفزيونياً ملفوفاً بقماش لبادي وأعلن قائلا:

– فلنجرب تشغيله ونحن في القطار فان لم يشتغل كتلفزيون فسوف نكتفي بسماع الصوت مثل جهاز الراديو. لقد نظمنا خطة للتدابير الثقافية تكفي لكل الطريق. – وتوقف قرب بالويف، وطلب بلهجة عملية: – ينبغي يا بافل غفريلوفتش ارسال برقية باسم أسرة العمل الى الرفيقة تيريخوفا في المستشفى رفعاً لروحها المعنوية.

– لقد فعلت، – قال بالويف ومد يده الى جيب سترته الجانبي وأخرج منه وصلا بالبرقية المرسلة وقال متبجحا: – أرأيت كيف احسب لكل أمر حسابه !

– ولكنك في أغلب الظن فعلت ذلك باسمك الشخصي، – قال زايتسيف وهو يلقي عليه نظرة ارتياب.

وقال بالويف مرتبكا:

– أفلست شخصية رسمية؟

– بافل غفريلوفتش، هنا يطلبونك، – قال فيرسوف، ثم أضاف متضاحكاً: – انهم كوادر.

وقف قرب نقطة الماء المغلي في المحطة فتى فارع القامة، بادي الحياء، ومعه فتاة ممتلئة البدن، ذات وجه مضطرب بامتعاض؛ دنا بالويف اليهما. قالت الفتاة في تحد:

– لدينا توجيه من لجنة المنطقة اليكم بينما كدتم ترحلون بدوننا. – وأومأت بالاشارة الى الفتى وقالت: – يجب أن يشتغل عندكم غواصاً. لقد انقذني في العام الماضي من الغرق في البركة، وهو ينط الى الماء بشكل رائع ويسبح بكل الطرق المعروفة.

– وهل جئت معه لغرض التوديع؟ – سألها بالويف.

– كلا. ولم هذا. – قالت الفتاة مرتبكة. – لقد زودتنا لجنة المنطقة لسبب ما بتذكرة توجيه مشتركة لنا نحن الاثنين.

– هي نفسها قد طلبت ذلك. – قال الفتى مغضباً.

وأعلنت الفتاة بثبات:

– انني أعتبر من واجبي بعد وفاة والدته عدم تركه في وحشة الوحدة، فهو كما ترون بالغ الاستحياء، صعب التكيف للحياة، أما أنا فذات حيوية ونشاط...

– هكذا اذن، – قال بالويف، – مفهوم. وما الذي يمكنك قوله عن نفسك أيضاً؟

– هل تريد سيرة حياتي؟ – سألت الفتاة.

– أرجو المعذرة. لقد فكرنا في هذا. – قال الفتى. – ولكننا لا نزال لم نبدأ الحياة العملية بعد وليس لدينا فيها سيرة. لقد أنهينا التعليم المدرسي هذا العام. ودرجاتنا جيدة. وكلانا أنا واياها من أهالي السوفخوز. وكانت والدتي معلمة، أما والدها فهو رئيس حقل الدواجن. ولكنها هي نفسها لا تحب الدواجن والطيور.

وقالت الفتاة مصححة:

– انني لا أحب الدجاج، اما الطيور التي تحلق في السماء بحرية فانها تعجبني مثل سائر الناس.

– ولكن لماذا فكرتما بالمجيىء للعمل عندنا بالذات؟

– أفليس هذا من الأمور المفهومة! – قالت الفتاة مستغربة. – في حالة ايصال الغاز الى المطبخ لدى جميع الناس ما أعظم الفرحة للجميع.

وقال بالويف شاعراً بالاستياء:

– ولكننا نوصل الغاز لا الى المطابخ حسب.

– اننا نعرف كل شيء عن الغاز، – قال الفتى مهدئا، – قرأنا كل ما كتب عنه.

واستفسر بالويف مستريباً:
– ولكن لعلكما مجرد خطيب وخطيبته، تعتزمان الزواج، وتظنان اننا سوف نهيىء لكما خير سبيل للحياة معاً، وهذا كل ما في الأمر. أليس كذلك؟

– ماذا تقول! – استنكرت الفتاة. – لماذا تحكم علينا رأساً بهذه البساطة؟ اننا مجرد رفاق مدرسة. أفليس ممكناً اتخاذ الموقف الحسن ازاء بعضنا البعض بدون ذلك الأمر؟

– من حيث الامكان ممكن. ولكن بعد ذلك سوف تقعان في حب بعضكما البعض وتكون لديكما أسرة وعندها تطالبان بمحل مستقل للسكنى.

– تفضل، اذا شئت يمكن اعطاء ايصال خطي، – قال الفتى. – باننا لن نحتاج الى سكن مستقل. وحتى ليس من اللازم بالمرة ادراجنا في فرقة عمل واحدة بل يمكن ان نعمل في فرقتين مختلفتين. ابان موسم الحصاد لم نلتق فترة ولم يحدث شيء.

– اذا كان الأمر على هذا النحو اذن فلا بأس، – وافق بالويف برحابة صدر. – ولكن هل تجاذبتما أطراف الحديث مع مرشدنا الكومسمولي؟

– وكيف لا؟ لقد اتخذ الرفيق زايتسيف ازاءنا موقف الاهتمام والعناية الى حد بالغ، وحتى طلب راجياً من سائق الرافعة لوبانين أخذ تولياً لتدريبه تحت اشرافه.

– ولماذا لم يشأ ان يتولى ذلك بنفسه؟

– ان لوبانين هو خير سائق للمكائن فلماذا يتدرب على يد من هو أقل مهارة، انني لا أفهم ذلك أصلا! – وهزت الفتاة كتفيها.

– وأنت ما هو الاختصاص الذي تختارينه لنفسك؟

– كل شيء عندي سواء، – وهزت الفتاة كتفيها بلا مبالاة. – فليكن صعباً وعسيراً على أن يكون له مستقبل وذا أفق للترقي فقط. وأنا موافقة على أي شيء.

– حسناً فليكن، – قال بالويف، – اذهبا الى الرفيق فيرسوف. ها هو أترون انه ذلك الرجل البدين، له وجه كله جد، وهو سوف ينظم لكم الشكليات المطلوبة.

وتطلع بالويف في اثر الشاب والشابة وقال في استغراق مخاطباً سيفولوبوف:

– ها هما حياتا انسانين آخرين تضاف الى حياتنا. وكذلك ينبغي أخذ المسئولية عنهما. وهذه القضية قد تغدو أصعب من تمرير المعبر المائي. الفتى خامل الطبع متراخي النفس أما الفتاة فانها نار ملتهبة.

– انها مرحة نظيفة كالسمكة في الماء ومثل هذه لا يعلق بها الرديء، – علق سيفولوبوف. – اما الفتى فلا بأس، سوف نعلمه السير على الأرض كما ينبغي بقدم ثابتة.

بعد ربط العربات ببعضها تراجعت القاطرة الكهربائية الى الخلف فقد كانت عملية الشحن قد انجزت.

خمد ضوء الشمس التي حجبتها الغيوم الرمادية المتراكمة. وتطايرت في الهواء ندف الثلج الخفيفة.

دخل بالويف وسيفولوبوف الى عربة القطار. وكان فيرسوف هنا قد نشر مثل صاحب البيت شتى المأكولات على المنضدة القلابية.

كانت رائحة طلاء العربات تفوح، وزجاجات النوافذ الشتوية المزدوجة مكسوة من الداخل بالغبار الرمادي. وكما هو الشأن قبل الرحيل شعر الجميع بشيء من الأسى الحزين الذي لا تعرف أسبابه.

بدون ضجيج وبسهولة حركت القاطرة الكهربائية عربات القطار من مكانها وأخذت تزيد سرعة السير أقوى فأقوى. وأخذت الريح تصطدم بجدران العربة محدثة صوتا كالخشخشة. ومرقت الغابات والأحراش والتلال والأنهار. وما أكثر ما قد كان هنا من الأنهار المختلفة المعتدلة والهادئة الوئيدة والعاصفة والفوارة السريعة. وسيكون منها أكثر وأكثر فيما بعد هناك الى حيث كانت تمضي القاطرة الكهربائية التي لا تلوي على شيء في خطوط العرض الجديدة للبلاد، حيث تعين على الناس تذليل العوارض المائية والتغلب عليها وتطريزها بالخطوط الكبيرة والصغيرة من أنابيب نقل الغاز.

ولمعت كأنها مدهونة بالزيت قضبان طريق السكك الحديد وبدا كما لو انها ضاقت على رحبها اللامتناهي. لقد اختفى منذ أمد بعيد

قطار السكك الحديد وخمد معه وبذهابه الصوت الوتري لفولاذ القضبان ولكن القطارات الأخرى الجديدة التي تنطلق عليها وهي قطارات عملية كذلك سوف توقظ مجدداً غناءها. وهذه الموسيقى الساحرة للسرعة الباهرة، موسيقى الرحاب الفساح، تغني في قلب كل واحد.

انهم اناس الحياة الجريئة، من يجعلونها افضل، وفي كل يوم يغدو أفضل فأفضل الانسان نفسه. أكثر فأكثر حرية وانطلاقاً تتجلى خواص كل فرد في سعة الحياة التي لا تحصرها وما من مقياس للنمو النفسي للانسان عدا ذلك المقياس الذي يقاس بالأنطقة الفضائية التي أصبحت الآن في متناول أيدينا.

ونفخت الريح هابة في السماء المضاءة الآن بالنجوم على نحو حاشد. والهدوء خيم فوق المحطة الفرعية الصغيرة. وفي مفاصل جنازير مكائن البناء تجمع الماء وتجمد في جليد. وبقيت في الطين المتصلب كالصلصال بصمات آثار اولئك الذين هم الآن قد رحلوا بعيداً عن هذا المكان.

ولقد استروح القطار الجديد هبة الريح ورنين الحديد فانطلق بلا توقف. ووقفت على العربات المسطحة مغطاة بالقماش المشمع المكائن العملاقة، بينما تدلت جدائل من جليد الابخرة المتكاثفة المتجمدة من سقوف عربات القطار كالدوالي...

سنة ١٩٦٠

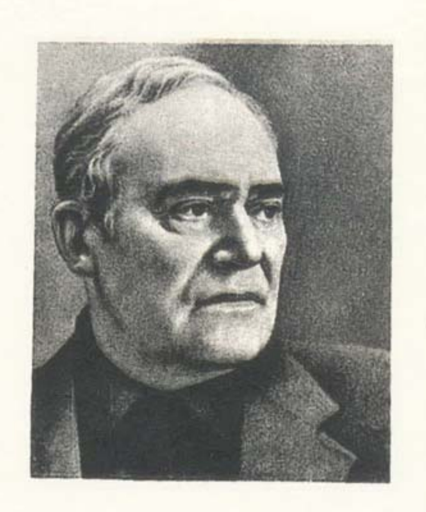
محتويات

الى القراء

ان دار «رادوغا» - فرع طشقند - تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وأبديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته وشكل عرضه وطباعته وأعربتم لها عن رغباتكم.

العنوان: المركز ١٤، العمارة ٣٣، طشقند - الاتحاد السوفييتي.





«ليس الكاتب السوفييتي مجرد عين ترقب الحياة حسب وانما هو يد تسهم بنشاط في بنائها. بينما ليس بوسعه اعتبار مهنته قضية شخصية بحتة، بل عليه أن يكون في حالة تأهب كفاحي دوما... وعليه اعادة توجيه عمله الابداعي الى ذلك الاتجاه الذي تسعى جهود الشعب بأسره نحوه خلال المرحلة التاريخية الجديدة. ان الكاتب السوفييتي يعتبر نتاجه الابداعي مأثرة عمل مفعمة بروح التفاني، ذلك لأن الموهبة هي عبارة عن القدرة على توتير الجهد فترة مديدة، نضالا في سبيل الكمال».

فاديم كوجيفنيكوف

يضم كتاب المؤلف السوفييتي المعروف، حامل لقب بطل العمل الاشتراكي والفائز بجوائز الدولة فاديم كوجيفنيكوف مؤلفاته ذائعة الصيت: «الهدحنة الاربعون للأسطى تشيبيريف» و «آذار – نيسان» و «رحلة عادية» و «تعرفوا، هذا باليف!». ما تصور شتى أشكال سلوك الانسان في مختلف ظروف الحياة الاستثنائية واليومية بعمق، وتستكشف صلة شؤون الناس اثناء السلم بسيرتهم ابان الحرب، وتكشف عن مجمل تعقيد العلائق البشرية في زمننا الشاق والعاصف.

يذود هذا الكاتب دوما عن الفكرة البسيطة والحكيمة بان تقييم الحياة الشخصية ينبغي تقديره انطلاقا بالدرجة الأولى لا من الحالة الناجمة وانما من الخواص والصفات الرئيسية لطبع الانسان المقصود.

